عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924

(الجزء الثاني)

تأليف: فيليب مانسيل

ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم

المجلس الوطني
للثقافة والفنون والآداب

عالم المعرفة
سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - الكويت

صدرت السلسلة في يناير 1978
أسسها أحمد مشاري العدواني (1923-1990) ود. فؤاد زكريا (1927-2010)

القسطنطينية

المدينة التي اشتهاها العالم 1453 - 1924

(الجزء الثاني)

تأليف: فيليب مانسيل
ترجمة: د. مصطفى محمد قاسم

أغسطس 2015
427

مدير التحرير

سكرتيرة التحرير

عالية مجيد الصراف

ترسل الاقتراحات على العنوان التالي :

السيد الأمين العام

للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : 28613 - الصفاة

الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

تليفون : 22431704 (965)

فاكس : 22431229 (965)

www.kuwaitculture.org.kw

التنضيد والإخراج والتنفيذ

وحدة الإنتاج في المجلس الوطني

ISBN 978 - 99906 - 0 - 459 - 7

رقم الإيداع (2015/465)

العنوان الأصلي للكتاب

Constantinople:

City of the World's Desire, 1453-1924

By

Philip Mansel

John Murray (an Hachette UK Company), London 2006

This is an authorized translation from the author, Philip Mansel. All Rights reserved.

طُبع من هذا الكتاب ثلاثة وأربعون ألف نسخة

شوال 1436 هـ - أغسطس 2015

المواد المنشورة في هذه السلسلة تعبر
عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلس

المحتوى

الفصل التاسع
[illegible] 9

الفصل العاشر
محمود الثاني 35

الفصل الحادي عشر
مدينة الأعاجيب 63

الفصل الثاني عشر
الطريق إلى تساريغراد 103

الفصل الثالث عشر
يلدز 135

الفصل الرابع عشر
تركيا الفتاة 177

الفصل الخامس عشر
موت عاصمة 219

خاتمة 263

قائمة بالكلمات التركية 287

ملاحق 297

الهوامش 309

البيبليوغرافيا 343

9

تكشيرة الانكشارية

يرتعد السلطان من تكشيرة الانكشارية
ليدي ماري ورتلي مونتاغو،
أبريل 1717

كانت القسـطنطينية ساحة حرب ليس بين السـفارات والقوميات والأديان المختلفة فقط، بل أيضا بين السلطان وحرسه. ساد بين الطرفين تـوازن متغـير قائم عـلى الخـوف والاحتياج، والقوة والضعف، والدم والذهب، إلى أن هرب السـلطان الأخير في نهايـة الإمبراطورية تحت حماية حرس أجنبي. كان السبب وراء قوة الجند يتمثل في غياب المؤسسـات المدنية المسـتقلة، ذلـك أنه في الملكيات المطلقة تكون الموانع ضد تدخل القوات المسـلحة في السياسة ضعيفة، أو كما كتب جوفينال عن الحرس البريتوري Quis custodiet ipsos custodies?: «مـن ذا الذي يحمي من الحرس أنفسهم؟». في ثماني مناسبات في روسـيا بـين العامـين 1725 و1825، قررت

«على الرغم مـن ثقل وطأة الثقافة العثمانيـة التقليدية، أخذت النخبة العثمانية تعود إلى الانفتاح العقلي»

وحدات من الحرس الإمبراطوري مَنْ الذي يحكم كملك أو وصي على العرش. وأحس نابليون أيضا بالخطر، إذ قال: «قوات القصر مرعبة، وتزداد خطورتها كلما نحا الملك أكثر ناحية الحكم المطلق»، ونصح الملوك الآخرين بأن يستغنوا عنهم[1].

كانت الانكشـارية هي القوة العسـكرية الأساسـية في القسـطنطينية. تكوّنت الانكشـارية من مائة وست وتسعين أورطة (Ortas)، تضم الواحدة منها نظريا مائة رجل. وإبان القرن السادس عشر، شكّلت هذه القوة واحدة من أكثر القوات المسلحة فعاليـة في أوروبا، وبالتأكيد أفضلها تغذية على الإطـلاق، إذ كانت تقدم لهم جراية منتظمة من الشـوربة ولحم الضأن والأرز. كان للطعام دور مركزي في حياتهم، حتى إن قائد كل أورطة كان يسـمى الشـورباجي (corbaci) الذي يعني طباخ الشوربة، وكانت شـارة رتبته تتمثل في تعليق مغرفة شـوربة في حزامه. كان لكل أورطة راية خاصة تظهر عليها رموز مثل الأسد أو المسجد أو المنبر أو السفينة. وكانت الانكشارية ترتدي أزياء رسـمية من القماش الأزرق وتعتمر غطاء رأس أبيض مطويا مهيبا يشبه كُما عملاقـا، يُزيّن أحيانا بالريش والجواهر. وعندما كان جنود الانكشـارية يحنون رؤوسهم معا كانوا يشبهون حقلا من حقول الذُرة الناضجة يتموج مع النسيم.

شـكّلت الأورطات الـ 60 والـ 61 والـ 62 والـ 63 الحرس الشـخصي للسـلطان المعروف باسـم الصـولاق. كانت أغطية رؤوسـهم الكبيرة المزيّنـة بالريش، تجعل السـلطان وهو راكب إلى المسـجد يبدو كأنه عائم فوق الغيوم. ثمة أورطات أخرى كانـت لها أيضا مهام محـددة في القصر، منها الأورطة الـ 64 التي كانت مسـؤولة عن كلاب الصيد الخاصة بالسـلطان، والأورطة الـ 69 التي كانت مسؤولة عن كلابه السـلوقية وصقوره. وإلى جانب ذلك، عملت الانكشارية أيضا، وكذلك البستانجية، شرطةً ومراقبي حرائق وموظفي جمارك للعاصمة. وكانوا مسؤولين عن التحقق من هوية المهاجرين الداخلين إلى المدينة أو طرد أحدث المهاجرين عندما يرى السلطان أن المدينـة قد اكتظت بالنـاس. كان مُجمّع ثكنات الانكشـارية الواقع بين الجامع السليماني والقرن الذهبي أحد مراكز القوة بالمدينة، إلى جانب القصر والباب العالي والمسـاجد والبطريركية والسـفارات. كان قائدهم الأعلى، الملقب أغا الانكشـارية، يقيم هناك في قصر رائع جدا جعل سليمان القانوني ذات مرة يتحسر: «آه لو أصبحُ أغا الانكشارية لأربعين يوما فقط!».

مقارنـــة بالقوات الصاخبة والمنفلتة بالملكيـــات الغربية قبل العام 1700، كانت الانكشـــارية في بـــادئ الأمر مثالا للرصانة. كان يوم قبـــض رواتبهم في يوم ثلاثاء كل ثلاثة أشـــهر مناســـبة مهيبة تقام في الفناء الثاني للقصر، ويشـــهدها الصدر الأعظم وأحيانـــا أحد الســـفراء الأجانب. كان المال يوضع في أكيـــاس جلدية صغيرة ويعطى لكل سَرِيَّة تباعـــا، وفي النهاية يدخل كبار الضباط إلى الديوان ويقبلون طرف عباءة الصدر الأعظم[2].

ثمة شـــبكة من الطقوس، قد تبدو تافهة في الظاهر، لكنها في حقيقة الأمر معبرة عن الزواج بين الحاكم وحرســـه، كانت تضع شخص السلطان البعيد والملوكي داخل عالم الانكشـــارية. فقد كان الســـلطان المقيّد ضمن الأورطة الحادية والستين يتسلم راتبهـــا ويعيده أضعافـــا كثيرة إلى القائد. وبعد تنصيبه، كان الســـلطان يزور ثكنات الانكشـــارية قائلا: «ســـنلتقي ثانية في التفاحة الحمراء»، التي كانت تشير إلى روما أو فيينا. وعندما كان يمر على الثكنات، كان يتوقف لكي يشرب كأســـا من الشربات ويعيد الكأس الفارغة مملـــوءة بالذهب إلى رفاقه الممتنين. وكان في الأغلب يراقب الانكشـــارية وهم يطلقون النار أو يؤدون التدريبات البدنية أو المصارعة في الميدان الكبير القريب من جامع الســـلطان بايزيد، وبعدها يوزع الجوائز عليهم. وفي شـــهر رمضان، كانت ســـيدات الحريم الإمبراطوري يصنعن لهم صواني من البقلاوة. كانت التصريحـــات الإمبراطورية تتملق قوات الانكشـــارية مرارا وتكـــرارا. من أمثلة ذلك وصفهـــم في العام 1750 بأنهم «قوات عظيمة تتكوّن من أبطال الدين الشـــجعان، تظللهـــم نعمة ظل اللـــه على الأرض وتقدير رجال الدين... نقـــدم لهم يوميا نعمنا الجليلة التي لا تحصى لكي نرفع شرفهم واعتبارهم»[3].

لكن تحت ســـطح الانســـجام الظاهري، كان من مصلحة الانكشـــارية أن يتغير السلاطين، لأن السلطان الجديد كان يعني «بقشيش» الجلوس على العرش. وفي غياب مؤســـســـة تمثيلية من نوع البرلمان أو مجلس الشـــيوخ، فإن الانكشارية كانت أحيانا تعمل كمكافئ لها. فلم يكونوا يعبّرون أحيانا عن الســـخط الاجتماعي والاقتصادي والســـياسي لدى عامة الناس فقط، بل كانوا أيضا يتلاعبون بالوزراء أو العلماء لبلوغ مآربهم السياسية. وبعد سنوات، عندما سُئل وزير عن رأيه في حل الانكشارية قال: «لكن كيف ســـنتمكن في هذه الحالة من إيقاف أي أســـد [ســـلطان] عند حده؟»

واشتد عصيان الانكشارية بسبب انتساب جنودها إلى طريقة الدراويش البكتاشية التي كانت تتحلى بجوانب تعاطف شيعية[4].

كان الصوت الهادر للانكشارية وهم يقلبون قدور البيلاو (Pilav) إشارة إلى التمرد. وكانوا بعد ذلك يضعون القدور في الأتميدان، وهو فضاء مفتوح فسيح قريب من ثكناتهم، ويستخدمونه نقطة للحشد. كانت الصيحة «يعيش الأخ!» و«نريد الأخ!» المكافئ العثماني لهجر السياسيين بلاط الملك إلى بلاط أمير ويلز في إنجلترا إبان القرن الثامن عشر. فكلاهما كان يذكّر الملك بوجود بديل عائلي لحكمه.

عند اعتلاء سليم الثاني العرش في العام 1566، لم تحصل الانكشارية على المنحة المألوفة. وفي ضاحية بلغراد، ربما بتحريض من الصدر الأعظم محمد باشا صوكولو الذي لم يكن راضيا عن نفوذ بطانة السلطان الجديد، أهانوا جثة سليمان القانوني وهددوا ابنه سليم الثاني. وفي التاسع من ديسمبر، دخل موكب السلطان الجديد القسطنطينية، لكنه توقف عند باب إدرنة لأن مقدمة الرتل توقفت في منتصف المدينة ورفضت التقدم. وحين سأل الوزراء عن السبب، جاءهم رد الانكشارية أن «عربة قش تغلق الطريق وتوقِف الموكب»، وهو تعبيرهم الغامض عن السخط. وعندما قال القبطان باشا: «يا جنود! هذا شيء معيب!» صاحوا فيه: «ماذا نفعل لك أيها البحار الرديء؟» وضربوه. وأخيرا، رمى لهم الصدر الأعظم وموظفوه عملات معدنية، فسار الموكب ثانية. وعندما وصل سليم الثاني إلى الفناء الأول للقصر، تعهد لهم: «ستأخذون المنحة، ورفع الأجور كما كان أسلافي يفعلون». وهكذا، ففي أوج القوة العثمانية، كان ابن سليمان القانوني مضطرا إلى أن يدفع ثمن المرور إلى قصره[5].

أدى التراجع في نظام الدفشرمة للتجنيد ضمن صفوف الانكشارية من العائلات المسيحية في منطقة البلقان والأناضول إلى تقليل اعتماد الانكشارية على السلطان، فضلا عن أنه زاد من تمردهم. فبداية من منتصف القرن السادس عشر، أخذت زهرة شباب البلقان تترك مكانها في مد الانكشارية بالدم الجديد لأبناء الانكشاريين وحتى التجار المحليين. وقيل إن مراد الثالث في العام 1582 أدخل آلافا من المهرجين والبهلوانات والمصارعين في الخدمة مكافأة لهم على نجاحهم في احتفالات ختان ابنه. وبحلول العام 1650، كان الباشوات يسجلون خدمهم في سجلات الانكشارية لكي

يحوّلوا نفقات بيوتهم إلى الدولة. وأصبحت الانكشارية جزءا من النسيج الاقتصادي للقسطنطينية، يخترق طوائف النوتية والجزارين وتجار العبيد. وتحولت الأورطة الرابعة عشرة إلى خبازين، والأورطة الثانية والثمانون إلى جزارين. وحتى العام 1673، وهو وقت متأخر فعلا، كان البستانجية في القسطنطينية يتحدث أحدهم إلى الآخر باللغة الصربية - الكرواتية. لكن بداية من العام 1700، تحوّلت الانكشارية إلى جماعة قوة تمثل السكان الذكور بالعاصمة. وكانت إيصالات رواتبهم تقدّر كأنها كانت أسهما أو حصصا. يرجع آخر فرمان معروف أصدر لجمع الأطفال للدفشرمة إلى العام 1703(6).

في العام 1528، بلغ عدد الانكشارية سبعة وعشرين ألفا، وفي العام 1591 بلغ ثمانية وأربعين ألفا وثمانية وثمانين. وأخذت أعدادهم تتراجع إبان القرن التالي في عهد مراد الرابع والصدور العظماء من آل كوبرولي، لكن العدد عاد إلى النمو بثبات بعد ذلك، وحدثت أكبر زيادة في أعدادهم في نهاية القرن الثامن عشر عندما بلغوا ثلاثة وأربعين ألفا وأربعمائة وثلاثة جنود (1776)، وخمسة وخمسين ألفا ومائتين وستة وخمسين (1800)، ثم ارتفع العدد إلى مائة وتسعة آلاف وتسعمائة وواحد وسبعين جنديا (1809)(7).

كانت الاضطرابات داخل القوات تحدث بسبب الرواتب، فضلا عن السلطة. فغالبا ما كانوا يأخذون رواتبهم عملة معدنية رديئة بسبب التضخم وغش العملة، فكما كانت الحال في الجيوش الأخرى، كان الضباط كثيرا ما يأخذون رواتب الجند لأنفسهم. كانت الانكشارية عَرَضًا للأزمة العثمانية إبان القرن السابع عشر وسببا لها، وهي «سُبات الستين عاما الذي دخل فيه آل عثمان». ففي نهاية القرن السادس عشر، اشتكى أحد العثمانيين: «لم يعد هناك انضباط، ولا أحد يحترم المحظورات. يسلب القساة... شرف المسلمين والمسيحيين وممتلكاتهم. وكانت أغلبية من يرتكبون هذه الجرائم ممن يسمون عبيد السلطان».

في بعض الأحيان، كانت الانكشارية تمثل أصحاب المصالح المحددين في القسطنطينية، وكانت تجبر السلطان على العودة إلى العاصمة. فمن خلال التهديد بالعصيان وحتى التهديد بإشعال النار في خيمة السلطان، أجبرت الانكشارية سليم الأول في العام 1514 على الرجوع عن مهاجمة بلاد فارس. وفي العام 1529، ألزموا

سليمان برفع الحصار عن فيينا، لمجرد أنهم أرادوا في الحالتين العودة إلى المدينة. كانت العائلة العثمانية، على خلاف أغلب رعاياها، مستعدة لتجريب الثقافات والبلدان الجديدة. من ذلك أن سلطانين منها حاولا أن يقويا الصلات مع رعاياهما العرب، هما سليم الأول الذي أراد البقاء في القاهرة بعد فتحها في العام 1517، لكن الانكشارية أجبرته على العودة إلى القسطنطينية، وعثمان الثاني الذي خطط للمغادرة إلى مكة في العام 1622، ما أدى إلى عزله وقتله[8].

على مدار معظم الفترة من 1622 إلى 1632، حكمت الانكشارية المدينة وقتلت وزراء مراد الرابع ورجله المقرب موسى، وهددوا السلطان نفسه بالصيحة: «نريد الأمراء!»، لكن مراد الرابع كان يتمتع بذاكرة جيدة. فبعد أن غيّر الوزراء، رد على الإرهاب بالإرهاب. فقلص أعداد الانكشارية. ولم يكن السبب الحقيقي لإغلاق المقاهي والحانات في العام 1633 هو كونها بدعة، بل «لإرهاب عامة الناس». فوفقا لمؤرخ القرن السابع عشر نعيمة، كانت المقاهي والحانات أماكن يستطيع أهل القسطنطينية «أن يمضوا الوقت فيها في انتقاد الكبراء والسلطات وذمهم، ويضنون أنفسهم في مناقشة المصالح الإمبراطورية المتعلقة بشؤون الدولة، وطرد الموظفين وتعيينهم، وأوجه القصور والاسترضاءات، فينشرون من خلال ذلك الإشاعات والأكاذيب»[9]. وكان مراد الرابع يعس في المدينة ليلا، ويعدم أي شخص يجد معه غليونا أو كوب قهوة، وفي ذلك يذكر بوبويسكي أن السلطان كان يجد متعة في قطع رؤوس الرجال ذوي الرقاب السمينة. وكانت جثثهم تترك في الشارع ولا ترفع إلا في الصباح التالي. وحدث الإعدام الوحيد في التاريخ العثماني لمفتي القسطنطينية في الأول من يناير 1634 بأمر من مراد الرابع. لقد فرض مراد الرابع حالة من الإرهاب حتى «أن الرجل - أي رجل - كان لا يستطيع أن يتفوه بكلمة حول الباديشاه، ولو داخل بيته». وقرفا منه، بدأ بعض الناس يسبونه بـ «ابن الجارية»[*]. وفي العام 1635، خطط السلطان الأشد قسوة بين سلاطين عائلته، لإعدام الأرمن الذين بدأوا في الانتقال إلى القسطنطينية بأعداد كبيرة، لولا إقناع الصدر الأعظم له بالعدول عن ذلك[10].

(*) مراد الرابع ابن كوسم سلطانة، وقد تعاون الصدر الأعظم كمانكش علي باشا وشيخ الإسلام يحيى أفندي وقضاة العسكر على خلع السلطان مصطفى «المجنون»، وتعيين مراد بدلا منه. وتأتي الإشارة إلى أنه ابن جارية من اتخاذ سلاطين العثمانيين للمحظيات من الجواري وسيلة للتناسل بدلا من الزوجات الحرائر. [المترجم].

في تشـكيل تـوازن الرعـب، كانت الحرائـق - فضلا عن العصيان[*] - سـلاحا يستخدمه الشـعب والانكشارية ضد السلطان. ذلك أن البيوت الخشبية بالعاصمة كـما كانت تجلـب مباهج الطبيعة إلى الحيـاة اليومية، كانت تجلـب إليها الموت أيضا. فكل بضع سـنوات كانت قباب القسـطنطينية ومآذنها تلوح في سماء حمراء باللهب، حين كانت النـيران تأكل أحياء أخرى. وكانت الصيحة «هناك حريق!» من جانب الانكشـارية المسرعين إلى مكان الحريق، إحـدى الصيحات الأخرى المألوفة. ولذلك يتمثل أحد الأجوبة الأخرى للسـؤال «أيـن كانت تذهب ثروة الإمبراطورية العثمانية؟» في أنها كانت تحرق. وفي ذلك يقول المثل العثماني «لولا حرائق إسطنبول، لبلطوا عتبات بيوتهـا بالذهب». يفسر تكرار اندلاع الحرائق في المدينة قلة البيوت القديمة التي بقيت منها.

في اليـوم الـذي وصل فيـه سـفير الإمبراطورية الرومانية المقدسـة بوسـبيك القسـطنطينية في العـام 1555، كان هناك حريـق، كان في رأيه من فعل الجنود أو البحـارة المتلهفين إلى النهب والاغتصـاب خلال الهلع الناتج عـن الحريق. وكانت الحرائق تشعل أيضا تعبيرا عن السخط على سياسات السلطان، أو لابتزازه من أجل تغيـير الوزراء، أو لإيذاء الأغنياء فقط. ولم يسـهم وصول معدات مكافحة الحرائق الحديثـة من أمسـتردام في العام 1725 في إحداث تغيير كبـير في الموقف. من ذلك على سبيل المثال أن حريقا اندلع في العام 1755 بالقرب من القصر. وعلى الرغم من التصرف السريع من جانب السلطان والصدر الأعظم اللذين وصل كلاهما إلى موقع الحريـق، فقد انتشرت النيران بفعل رياح شـمالية قويـة. وفي هذا الحريق، انصهر الرصاص الذي يكسـو قبة آيا صوفيا، وبـدت المدينة مثل محيط من النيران تغذيها أنهار من الحمم، وحُرقت فيالق كاملة من الانكشـارية أحياء، واستمر الحريق ستا وثلاثين ساعة، وأكل سُبع المدينة، ومنها الباب العالي ومكاتب الخزانة والمجلس[11].

حظي الرأي العام - بأسـلحته والحرائق والانكشـارية - بقوة غير مسبوقة إبان القرن الثامن عشر. فأخذ الناس الحق في الانتقاد، حتى إنهم كثيرا ما كانوا يصيحون بالسـباب للسـلطان عندما كان يأتي إلى موقع الحريق. وكتب الأجانب عن العامة

(*) وقعت ثورات الانكشارية أيضا في الأعوام 1651 و1655 و1687 و1703 و1730 و1733 و1734 و1740 و1742 و1743 و1783.

الذين أصبحوا سادة. وقال فيرجين لوزير الخارجية الفرنسي «إنهم يمتلكون حرية، أو إن شئت قل فجورا، أكبر من أي شعب متحضر آخر في أوروبا»[12].

وبعد العام 1700، وبسبب موجات الطاعون المتكررة، كانت القسطنطينية أيضا أخطـر مدينة في أوروبـا، من المنظور الطبي. في بادئ الأمر، لم تكن نوبات انتشـار الطاعون اسـتثنائية. فلندن - على سـبيل المثال - تفشى فيها الطاعون خمس مرات بين العامين 1563 و1605، مات في آخرها ما يناهز خُمس السـكان. لكن بعد فترة طويلـة من القضاء على الطاعون في أوروبـا (الذي قتل في آخر تفشٍ كبير له نصف سكان مرسـيليا في العام 1720) باستخدام الحجر الصحي، ظَلَّ «ملاك الموت»، كما كان يطلق على الطاعون، يقوم بزيارات سنوية تقريبا إلى القسطنطينية من معاقله في الترسـانة والسجون والخانات. وفي العام 1778، مات ثُلث السكان تقريبا بسبب الطاعون، وتوقف العمل في مؤسسـات الدولة تماما. ومن بين السـفراء البريطانيين، فقد لورد وينشلسـيا (Lord Winchilsea) ابنته، ومات السفير هوسي (Hussey) بالطاعـون في العـام 1762، واضطـر غرينفيل للفرار من السـفارة في لمح البصر في منتصـف الليـل، لأن خادما في بيته ظهرت عليه الأعـراض القاتلة، وفي العام 1813 ظل ليسـتون وأسرته سجناء في بيتهم أكثر من ثلاثة أشهر، ولم يسمحوا لخادم واحد بالخـروج من البـاب خوفا من الطاعون. في تلك السـنة، خلت شـوارع كاملة من سكانها، وتراوحت تقديرات عدد الموتى بين مائة ألف ومائتين وخمسين ألفا. واعتبر الناس هذه الكارثة عقابا إلهيا على ذنوب الناس. وفي ذلك كان الناس ينظرون بعين الريبة إلى العُزاب أكثر حتى من ريبتهم في قطاع الطرق، حتى إن الأهالي في شـارع كانـت توجد فيه بيوت خاصة للعزاب تسـمى «أماكن لا تدخلها الملائكة»، هدموا هذه البيوت وأقاموا مكانها مسـجدا لمحو ذكراهـم. وحتى العقد الرابع من القرن التاسـع عشر، ظل تفشي الطاعون أحد أسباب تدهور المكانة السياسية والعسكرية للإمبراطورية. وإبان القرن الثامن عشر، نما سـكان فرنسـا والنمسـا وروسـيا بنحو الثُلث، بينما لم ينمُ سكان الإمبراطورية العثمانية[13].

مـن باب الاحتياط للطاعون، كان المسـيحيون واليهود وأفراد النخبة المسـلمة ينقعون أنفسـهم ومحيطهم المادي في العطور أو الخل. وكانوا أيضا يغلقون بيوتهم أو يهربـون إلى الضواحي الأقـل خطرا مثل بيوكدير أو طرابيـا. في حين كان أغلبية

المسلمين قدريين (Fatalistic). من ذلك أن بوسبيك علم بموقف سليمان من الطاعون وهو: «وهل أنا جاهل بأن الوباء سهم من سهام الله لا يخطئ هدفه؟ وأين يمكنني أن أختفي لكي أكون خارج مداه؟ إن أراد الله أن يصيبني، فلن ينفعني هروب ولا مخبأ. فلا جدوى من تجنب القدر المحتوم». بيد أن ما يسميه البعض جبرية (Fatalism)، يسميه غيرهم شجاعة. من ذلك ما كتبه أحد المسلمين بالمدينة، هو علي نامق بيه (Ali Namik Bey) دفاعا عن الإسلام بعد ثلاثمائة سنة من مقولة سليمان: «لم يُظهر شعب على الإطلاق ازدراء كاملا للموت أكثر منا»[14].

لم تعد القسطنطينية تستحق كنيتها «المحمية» (al-mahmiyya)، بمعنى المحروسة من الله ضد الفوضى ومن السلطان ضد الجور. في طريق عودته من نزهة ليلية خلال المدينة، وجد أحد السلاطين أن الحرس غير موجود على الباب الأوسط للقصر. وكان غلمان الغرفة الخاصة يرفضون الهدايا لكونها أصغر مما ينبغي. وحتى الحريم أصبحن خارج السيطرة. وبحلول القرن الثامن عشر، لأسباب غير معروفة وغير مسجلة، كان جدول للحريم قد ظهر، وكان على السلطان أن يتقيد به، وقد أُعدمت إحدى الفتيات لأنها باعت «ليلة دورها». وإذا حاول السلطان أن يخل بالجدول، فإنه كان يتعرض لـ «أشكال خطرة من الغيرة والتذمر المزعج». وظهرت نبرة الالتماس في رسالة من عبدالحميد الأول (1774 - 1789) إلى فتاة بالحريم تدعى رخصة (Ruhsah): «حبيبتي، إنني معكِ عبد مكبل بقيود، فإن شئتِ، فاضربي، وإن شئتِ فاقتلي. فقد وهبت نفسي لكِ. تعالي الليلة أتوسل إليكِ». ها هو السلطان يتوسل! حتى إن بعض السلاطين لكي يتمكنوا من مقابلة النساء اللاتي يريدونهن، اضطروا إلى استئجار غرف في المدينة سرا [15].

اجتمعت الحرائق والحروب الكارثية والحرس المتمرد والتدهور الاقتصادي والعامة المتململة والأقليات الطموحة والجيران العدوانيون والأصولية الدينية، لتضع السلطان سليم الثالث في العام 1789 عندما خلف عمه عبدالحميد الأول في عمر السابعة والعشرين، في خطر مساو لذلك الذي واجهه لويس السادس عشر(*). اشتكى عبدالحميد الأول من الأرق وقلة النوم، وقال سليم الثالث: «كان الله في عون الدولة العليّة. إنني على استعداد لأكل الخبز الجاف على ألا تتمزق الدولة».

(*) لويس السادس عشر هو الملك الذي أطاحت به الثورة الفرنسية. [المترجم].

وكما فعل كثير من أسـلافه، بدأ سـليم الثالث عهده بطرد المهاجرين وإعادة فرض ضوابط اللباس والمقاهـي والحانات. وكان يجوب الشـوارع متنكرا لإيقاع العقاب القاتل بالخارجين على القانون. ذكر السـفير الفرنسي شـوازيل جوفير أنه «في خلال خمسة عشر يوما تحول الحماس الذي بثه إلى حالة من الذعر العام. فكل الناس في هذه العاصمة يرتعدون»[16].

أدرك السـلطان الحاجة إلى علاج أسـقام الإمبراطورية، ولذلك طلب مقترحات محددة من اثنين وعشرين من كبار المسـؤولين، منهم العلماء. جاء أحد المقترحات من موراجيا دوسـون الذي عاد من باريس في العام 1792 ومعه نسخ من المجلدين الأولـين من كتابه «الوصف العام» التي أسـعدت سـليم الثالـث عندما قدمت له ومعها ترجمة عن اللغة الفرنسية. وفي القسطنطينية التي يرتدي فيها لباسا أوروبيا ويفيض حماسـا للثورة الفرنسـية، قدم دوسـون مذكرة إلى السلطان يدعو فيها إلى إصلاح جـذري للجيش. وقال إنه بمجرد أن يتخذ القـرار بالتغيير، فلن يكون هناك سبيل للتراجع، وإن روما - وهي نموذج مثير للسلطان العثماني - كانت ناجحة لأنها تعلمـت مـن جيرانها، وإن كل شيء في الكـون بإرادة الله، لكـن الله أعطى البشر ملكة التفكير والحكام قوة السـلطة، وإن الشريعة لا تمنع المسـلمين من اسـتعارة القوانين والتقنية من الثقافات الأخرى، وإن سليم الثالث إذا واجه المعارضة الدينية باسـتخدام العلم، فسوف يكون في نجاح الفاتح وسليمان ومراد الرابع. وأنشئت في هاسـكوي أكاديمية لتعليم العلوم العسكرية تضم مكتبة ومنهجا حديثين ومعلمين فرنسـيين وأتراكا. لكن على خلاف اقتراح دوسـون، لم يُسـمح للطلاب المسـيحيين بالالتحاق بها [17].

قدم قاضي عسـكر الروملي مذكرة طويلة عن الحاجة إلى دفع الاقتصاد وخفض الأعبـاء الضريبية عن كاهل الفقراء والأقليات. وعلى نحو ما رأى مافروكورداتو قبل مائة عام، اعتبر قاضي عسكر أيضا أن حجم بيوت الباشوات وطريقة حياتهم المترفة السـبب وراء ضعـف الإمبراطورية. لكن الانكشـارية هي الأخـرى كانت توجد في قلب الأزمة. فاتهمهم مسـؤول آخر ممن اسـتكتبهم السـلطان بأنهم حثالة الناس و«طباخو فطائر وبحارة وصيادون وأصحاب مقاه ومواخير». وكانوا في رأي مسؤول آخـر جرذانا، العصيان سـمتهم الأساسـية، يبتزون تجار الأطعمة وقباطنة السـفن

لدفع إتاوات لحمايتهم، ويغشـون حب القهوة بالحمص، ويغتصبون النساء عندما ينقذونهـن من الحرائق، وفوق ذلك يهزأون من كبار مسـؤولي الدولة، فعندما يمر وزير بحاشيته من الخدم أمام بيت حارس انكشاري يعزف الانكشاري على القيثارة بطريقـة هازئة، بدلا مـن أن يهب واقفا ويعطيه التحيـة، وفي أثناء احتفالات عيد الفصح يتحرش الانكشـارية بالمسـيحيين ويجبرونهم على الجلـوس والشرب ودفع الأموال، ولعل الجريمة الأشـنع للانكشارية كانت فشلهم في هزيمة الروس في ساحة المعركة، وفي حرب الأعوام 1788 - 1792 لم يكن كثير من الانكشاريين قد سبق لهم أن حملوا بندقية. إنهم باختصار يرعبون جميع الناس، إلا العدو.

بعد صلح العام 1792، شرع السلطان في إنشاء قوة مشاة جديدة باسم «النظام الجديـد» (Nizam-i Cedid)، أريد بها أن «تحافظ عـلى بقاء الدولة العليّة حتى آخر الدهر». وبحلول العام 1807، كان زهاء سـبعة وعشرين ألف جندي قد تلقوا التدريبـات والتكتيكات الأوروبية الحديثة. ومن أجـل تجنب تهمة البدعة، أطلق على هذه القوة اسـم البسـتانجية، مثل البسـتانيين الإمبراطوريين، وتمركزوا خارج المدينة بالقرب من بيوكدير وفي أوسـكودار. وكان السلطان يكثر من زيارة ثكناتهم التي كانت في حقيقتها مدنا عسكرية منفصلة بكل منها دكاكينها وبيوتها، وأنشئت في ثكنات أوسكودار مطبعة بحروف لاتينية وعربية(*). وسرعان ما تكشف أن أداء «النظام الجديد» في ساحات المعارك أفضل من أداء الانكشارية[18].

كما أعاد سـليم الثالث تأسـيس مجلس استشـاري مكوّن من نحو ثلاثمائة من الأعيان والعلماء لتقديم المشورة في أمور السياسة ومناقشة مسائل الحرب والسلام. فقد كان توازن الرعب قد تحول بشدة في عكس مصلحة السلطان والصدر الأعظم، ولذلك أرادا بالمجلس أن يحميهما من اللوم إذا ترتبت كوارث على قرارات الحكومة. ولذلك كان الصدر الأعظم يحتفظ بسجلات مكتوبة للاجتماعات لتأمين نفسه، ليس في الباب العالي، بل في أرشـيفاته الشـخصية. وفي ذلك قال جاسـوس من الفناريين للسـفير الروسي إن «الوزراء وجدوا في إنشاء المشاورة musavere الدائمة [المجلس]

(*) لاحظ أن المطابع العربية أو حروف الطباعة العربية في كل ما سبق لم يكن مقصودا منها الطباعة باللغة العربية فقـط، بل اللغـة العثمانية أيضا التي كانت تكتب هـي الأخرى بحروف عربية مثل الفارسـية وغيرها حاليا، إلى أن استعاض عنها مصطفى كمال بالحروف اللاتينية. [المترجم].

التي أوجدت هنا نوعا من الأرستقراطية، إعفاء لهم من المسؤولية الشخصية التي كانت ملقاة على كاهل كل منهم بشخصه، كما أنهم ليسوا مخبولين إلى حد أن يتحملوا المسؤولية عن الأحداث بأنفسهم بالتعبير عن رأي مخالف لرأي «المشاورة»، ولا هم مؤثرون بما يكفي حتى يفرضوا رأيهم عليها».

ومن أجل تدريب النظام الجديد، استُقدِم نحو ستمائة مستشار من بريطانيا والسويد والنمسا، وقبل الجميع من فرنسا (من اللاجئين من أنصار النظام القديم وكذلك من الجمهوريين الجدد). وتم تحديث الترسانة ومدارس الهندسة البحرية والعسكرية التي أنشئت بإشراف دي توت. كتب سير روبرت ليستون: «تتمثل الموضة هنا اليوم في التأييد القوي لتقليد الأوروبيين في كل مستويات المجتمع»، ومع ذلك فقد كانت الرواتب العالية للأجانب محل امتعاض[19].

وعلى الرغم من رغبة سليم الثالث في الإصلاح، فإنه كان يفتقر إلى طاقة بيتر الأكبر التي لا تخبو. فاستسلم إلى مباهج المدينة. وفي ذلك يذكر سير روبرت ليستون أن السلطان كان يقضي جل وقته في التنقل من قصر إلى آخر، وهدم القصور وإعادة بنائها، والتمتع بالنزهات، وهو ما كان «يلقى انتقاد العامة ويعتبرونه مخالفا للاقتصاد وللعناية بالعمل التي أصبحت كلمة العصر». كان السلطان يثمّن الجوانب سهلة المنال من الثقافة الأوروبية: الرقص والموسيقى والخمر الفرنسي والمسرحيات الكوميدية الإيطالية واللوحات المحفورة الإنجليزية. على رغم أنه لم يتخلَ عن الثقافة العثمانية التقليدية. إذ ظلت القسطنطينية المدينة التي يستطيع المرء أن يستمتع فيها بأفضل - وأسوأ - ما في العوالم المختلفة. وكان سليم الثالث يرسم على مناديل الموصلين (Muslin)، وكان خطّاطا بارعا، وملحنا للموسيقى العثمانية التقليدية. وتحت الاسم المستعار «إلهامي» (Ilhami) كتب قصائد لم يلتزم هو نفسه بما فيها من مُثل:

> يا إلهامي، لا تكن كسولا ولا تثق بمباهج هذا العالم.
> فالعالم لا يقف لأحد، بل تواصل عجلته الدوران بلا انقطاع[20].

بدأت التأثيرات الغربية تظهر على قصور القسطنطينية. وعلى رغم ثقل وطأة الثقافة العثمانية التقليدية، أخذت النخبة العثمانية تعود إلى الانفتاح العقلي الذي تجلى في السنوات السابقة على العام 1550. فجاءت التفاصيل في جامع النور

العثماني (Nuru Osmaniye) الذي بُني في مدخل البازار في الأعوام 1748 - 1755، مثل تيجان الأعمدة والقناطر والحِليات، كاشفة عن تأثير باروكي. وبداية من العام 1770، أخذ الخيال الإيطالي للمشاهد الطبيعية للغابات والأنهار والسفن والجسور والستائر والأعمدة، يحل على جدران بعض ياليات(*) البسفور والحريم الإمبراطوري وباب السعادة نفسه، محل أشغال الأرابيسك المُذَهّب وبلاط إزنيق التي كانت لها الغلبة في الماضي. واستأجر سليم الثالث رسام منمنمات لتصوير النساء في حريمه، كما تكشف الرسوم الإيضاحية بكتابي فاضل بيه حول جمال النساء والرجال - زناننامه (Zenanname) وخوباننامه (Khubanname)- عن تأثير غربي قوي.

اكتسب رسام شاب من بادن(**) يدعى أنطوان إغناس ميلينغ Antoine-Ignace Melling ألفة بالقصر العثماني أكثر من أي رسام غربي منذ جينتلي بليني. كان ميلينغ الذي وصل إلى القسطنطينية في نحو العام 1785 ممن يحظون بحماية سفارات بيرا. ولكونه فردا من بيت السفير الروسي، فقد رسم ميلينغ صورا لسفراء بريطانيا وهولندا، وكان معروفا لبارون أوبش فون غروسال Baron Hubsch von Grossthal (غروسال في اللغة الألمانية تعني «الوادي الكبير»، وهي بذلك ترجمة خاطئة لكلمة بيوكدير Buyukdere التركية التي تعني «الجدول الكبير») وممثلا لسكسونيا، وممولا للسفارة الروسية، وصديقا شخصيا للكثير من الوزراء العثمانيين[21]. قامت خديجة سلطان، أخت سليم الثالث ومستشارته المؤتمنة التي أطلعها على خططه لنشر «فنون أوروبا وحضارتها» بين رعاياه، بزيارة الحديقة الأوروبية بقصور بارون أوبش الرائعة في بيوكدير. وقررت أنها تريد لنفسها حديقة مثلها. رشح لها البارون ميلينغ كمصمم حدائق.

ونتيجة لذلك، أصبح ميلينغ- وفق تعبيره - «مرتبطا لعدة سنوات بخديجة سلطان كرسام ومصمم»، وكان «ارتباطه» بها وثيقا حتى أنه أُعطي شقة في أجنحة زوجها في قصرها. وتوثقت المعرفة بين بيرا والقصر اللذين ظلا لمدة طويلة يعرف أحدهما الآخر من بعد. وبعد أن شيّد للأميرة متاهة من الورد والليلك والأكاسيا «الطلح»، بدأ في تجديد قصرها من الداخل. جمع ميلينغ بين غطرسة المصمم وتعالي

(*) اليالیات هي بيوت خشبية على ضفاف البسفور كانت مصايف للأسر الكبيرة. [المحرر].

(**) بادن (Baden): ولاية تاريخية على الضفة الشرقية لنهر الراين، تشكل حاليا جزءا من ولاية بادن فوتمبرغ الألمانية. [المترجم].

الأوروبي حين كتب: «حلت البساطة الأنيقة محل الإسراف في التذهيب والألوان التي لا تـترك للعين مجالا للراحة». أعجبت الأميرة كثـيرا بداخل القصر حتى إنها طلبت منـه أن يصمم لها قصرا. وعـلى الرغم من المضايقات من خـدم الأميرة وخصيانها الذين اعتبروا الأسـاليب الأوروبية مخالفة للقرآن، فسرعان ما انتصب قصر كلاسيكي مُحْدَث للأميرة في دفتردار بورنو. وصمم ميلينغ أيضا فسـاتين وسكاكين مائدة وأثاثا للأميرة وأكشاكا لسليم الثالث وأمه في بيشيكتاش.

الرسـام أنطوان إغناس ميلينغ gnilleM ecangI-eniotnA، قصر خديجة سلطان في دفترداربورنـو، في نحو العام 6081. يبيّن الرسـام الفرنسي ميلينغ الجناح الكلاسـيكي الطراز الذي أضافه إلى قصر مخدومته خديجة سـلطان الذي كان ضخما بالفعل قبل هذه الإضافة. كانت العلاقات بين الرسام والأميرة وثيقة إلى حد أنها أثارت غيرة موظفيها.

أرسـلت الأميرة إلى ميلينغ رسـائل مكتوبـة باللغة العثمانية لكـن بالأبجدية اللاتينية، لا تختلف عن نبرة نوربانو قبل مائتي عام:

قلفة(*) ميلينغ

... هل سِـكيني جميل؟ والسجاد. أريده اليوم أيضا. أرني كيف تصنعه. يجب أن تتأكد من أن السجاد سيكون جاهزا اليوم. وكذلك أريد الحِلية الزرقاء الغامقة اليوم أيضا. ومتى ستأتيني بالناموسية؟ لا بد أن تكون عندي غدا. هل بدأ صانع الأثاث في العمل؟ أريده على وجه السرعة.

يوم الأربعاء، الساعة الثالثة بعد الشروق

(*) Kalfa: اصطلاح عثماني دال على المستخدَم أو المشرف على أعمال حرفية في القصر السلطاني، وكان حامل اللقب أرفع مرتبةً من بقية العمال والخدم، بل قد تكون له حظوة ومنزلة عند أعضاء الأسرة السلطانية. [المحرر].

تمثل رسوم ميلينغ للمدينة والبسفور وبيوكدير وبيبك والميناء والترسانة والقصر التي كلّفه بها السلطان وأخته، تحفا في دقة الملاحظة. وربما تحتوي التمثيل الدقيق الوحيد للحريم الإمبراطوري من الداخل (للقصر الصيفي المعروف باسم السراي). كان ميلينغ ملما بـ «تفاصيل» حياة الحريم. وفي إحدى الليالي، كان عائدا بالقارب من عشاء في إحدى جزر الأمراء. ولأن القمر كان مكتملا، استطاع أن يميّز بجانب الجدران البحرية للقصر بستانجية يضعون أحجارا في كيس يحتوي امرأتين. ثم وضعوا الكيس في مركب وجدفوا داخل البحر، يصحبهم أحد الخصيان (حتى يرجع ويؤكد لرئيس الخصيان أن المهمة قد أنجزت). وبينما كان مركب ميلينغ يواصل رحلته، ظلت صرخات المرأتين تطارده لمسافة طويلة، ثم ساد الصمت بعدما ألقي الكيس من فوق المركب.

اضطر الاحتلال الفرنسي لمصر، فضلا عن مشاجرة شخصية ربما صعّدت الأمور، ميلينغ إلى ترك خدمة الأميرة في العام 1798، غير أنه لم يترك القسطنطينية أخيرا إلا في العام 1802، بزوجة مشرقية (هي فرانسويز - لويز كولومبو Francoise-Louise Colombo) وطفل ورسوم نُشرت أخيرا بدعم من الحكومة الفرنسية تحت عنوان «رحلات إلى القسطنطينية وشواطئ البسفور» في العام 1819[22].

بينما كان السلطان يستمتع بالحياة على البسفور، كانت إمبراطوريته تتفكك، إذ مكّن ضعف السلطان وتفكك الجيش العثماني وتطلع السكان إلى إدارة لائقة، الحكام وملاك الأراضي المحليين من اقتطاع مناطق شبه مستقلة في الولايات، منهم محمد علي في مصر، وعلي باشا في شمال اليونان، وعائلة قرة عثمان أوغلو (Karaosmanoglu) في جنوب غرب الأناضول، وباشوان أوغلو (Pasvanoglu) في بلغاريا الحالية. وفي العام 1802 هدد الأخير بمحاصرة القسطنطينية نفسها، واضطرت الإمبراطورية إلى أن تشتري سلامه بمزيد من الحكم الإقليمي. وفي العام 1804 اندلعت ثورة في صربيا ضد عهد الإرهاب الذي مارسته فرق الانكشارية، وفي خلال سنتين أخذت دولة صربية شبه مستقلة بلغراد ومنحت نفسها دستورا، وإن أبقت على الاعتراف للسلطان بسيادة اسمية. وجاءت أقسى الضربات مع ظهور الحركة الوهابية الأصولية في بلاد العرب، إذ انتزعوا مكة من عائلة الأشراف في العام 1803 ومنعوا وصول قافلة الحجاج من القسطنطينية، فلم يستطع الخليفة

السلطان أن يحمي الأماكن المقدسة! ومع تساقط الولايات تناقصت العائدات المتوجهة إلى العاصمة، وزادت متأخرات الانكشارية وعدوانيتهم.

كانت الحكومات الأجنبية هي الأخرى تضيّق الخناق على المدينة. ولأول مرة في التاريخ يرفض السفير الفرنسي جين بابتسيت أنيبال أوبيرت دوبايه Jean-Baptiste-Annibal Aubert Dubayet في العام 1796 أن يظهر في باب السعادة إلا بزيه العسكري. وبعد فترة من التحالف مع بريطانيا وروسيا في الأعوام 1799 - 1805، تحوّل سليم الثالث إلى فرنسا. وعندما وصل فرانسوا هوراس باستين سيباستياني Francois-Horace-Bastien Sebastiani سفيرا لنابليون في العام 1806، أصبح السفير المقرب من الباب العالي، بينما طُرد السفير الروسي (أول سفير دولة معادية يفلت من السجن في قلعة الأبراج السبعة).

انزعجت الحكومة البريطانية من احتمال التحالف الفرنسي - العثماني، فأرسلت أسطولا من مالطا إلى القسطنطينية، علما أن التغير في دور مالطا في العامين 1799 - 1800 من مقر فرسان القديس يوحنا إلى قاعدة بحرية بريطانية، قد أدى إلى تغيير توازن القوة في البحر الأبيض المتوسط عموما وأثر في المستقبل على مصير القسطنطينية نفسها. وفي الحادي والعشرين من فبراير 1807، بعد أن اقتحمت الدردنيل (العمل الذي عجز عن إنجازه الأسطول الروسي في العام 1770)، رست سبع بوارج بريطانية على مسافة القصف من القصر، لتكون أول قوة أجنبية تقترب من القسطنطينية منذ غارة القوزاق في العام 1624. اقترح السلطان، وهو في حالة من الخوف والتشوش، أن يغادر سيباستياني المدينة. وفي اللحظة التالية، كان السلطان بنفسه، وسيباستياني إلى جانبه، يساعد في حفر التحصينات على طول البحر، إلى جانب آلاف العمال الذين كان السلطان يوزع عليهم عطايا كبيرة. وسرعان ما رممت الأسوار وزودت بثلاثمائة مدفع. وانسحبت السفن البريطانية إلى الجزر، ثم في الثالث من مارس إلى بحر إيجة، بعد أن تضرر الكثير منها بالنيران التي أطلقت عليها من البطاريات المنصوبة على الدردنيل[23].

وبعد صدمة الاحتلال، عادت الفوضى. ففي شوارع العاصمة، كان البحارة يدعمون جماعة إصلاحية موالية لفرنسا، وكان النظام الجديد والمدفعية يدعمون جماعة موالية لبريطانيا، بينما وقفت الانكشارية والعلماء مع جماعة السلطانة

الوالدة. غذّت الاضطرابات بين الجماعات المتنافسة المقت الشعبي للإصلاح. وفي الخامس والعشرين من مايو 1807 اندلعت ثورة في روملي كاواك Rumeli Kavak وهو حصن صغير على البسفور. كان محمود رائف أفندي Mahmud Raif Efendi أحد مستشاري السلطان الكبار، نشأ معه في القصر كرفيق من العبيد، وعمل سكرتيرا لأول سفير عثماني في بريطانيا في العام 1793 ورئيسا للكتاب، ونائبا أول للصدر الأعظم في الأعوام من 1800 - 1805. كان محمود متحمسا للتغريب، ورأى أن الإمبراطورية العثمانية كانت متألقة دائما بعد التغييرات في «بنيتها السياسية». كان محمود يأمر قواته بارتداء أزياء أوروبية الطراز حين قتله جندي وهو يصيح «إنه ليس مسلما، لكنه الإنجليزي الكافر محمود الذي أقتله الآن». واقتحمت هذه القوات حصونا أخرى على البسفور وزحفت على بيوكدير وأورتاكي. ووجدت قوات «النظام الجديد» نفسها محاصرة في ثكناتها.

اختبأ السلطان في قصر توبكابي عاجزا عن فعل أي شيء. كان اشتهاره باللين والتغريب (Westernization)، فضلا عن انخفاض الرواتب وتأخرها، قد أكسبه كراهية الانكشارية. وفي الثامن والعشرين من مايو، وفي اجتماع في أسمى رموز القوة الإمبراطورية العثمانية - جامع السليمانية - أعلنت الانكشارية، ربما بتحريض من الباشوات المحافظين، أن السلطان يعاشر الكفار ويحتقر قواته ويزدري العلماء. وانضم إليهم ثوار. وأغلقت الدكاكين في حالة من الهلع. وأيد المفتي الثوار. وحل السلطان النظام الجديد، وإن كان متأخرا [24].

وفي القصر، أمر سليم الثالث بإعدام بعض أصدقائه، لإنقاذهم من مصير أسوأ على أيدي الثوار. وفي الباب العالي في التاسع والعشرين من مايو، قرأ المفتي فتوى تجيز عزل السلطان. ومُزق سكرتير السلطان أحمد بيه إربا وأرسل رأسه أعلى التل إلى القصر. فهم السلطان الرسالة وتنازل عن السلطة لمصلحة أخيه مصطفى الرابع. وبينما كان الثوار يعلنون الولاء للسلطان الجديد في الفناء الثاني، كان السلطان القديم يوضع قيد الإقامة الجبرية في جناح بالحريم[25].

كان مصطفى الرابع حاكما ضعيفا ورجعيا. مع احتلال روسيا لولاشيا ومولدافيا من العام 1806 إلى 1812، تراجعت إمدادات الطعام إلى العاصمة. وفي طريق السلطان إلى المسجد، كانت النساء تحتج على غلاء المعيشة. وتمكن حاكم

إقليمي، هو مصطفى باشا بيرقدار (Mustafa Pasha Bayrakdar)، على رأس خمسة عشر ألف جندي، من السيطرة على المدينة بقصد إعادة سليم الثالث. وفي الثامن والعشرين من يوليو 1808 حاصر الباب العالي والقصر، وتحركت عصبة كبيرة إلى القصر، آخذين المفتي معهم لإضفاء الشرعية على أفعالهم. وعلى باب السعادة، رد مصطفى الرابع الواقف في حالة من الغيظ الرسل الذين جاءوا ليقنعوه بالتنازل. وظل المفتي يقطع الأرض ذهابا وإيابا في الفناء الثالث لا يعرف إلى أي من الطرفين ينحاز.

بدافع الاحترام للحرم الإمبراطوري، تردد بيرقدار في التقدم إلى القصر. وحين سأل مصطفى الرابع حاشيته: «وما العمل الآن؟»، كانوا يعرفون الإجابة. إذ اقتحم عشرون من الخدم والبستانجية جناح سليم، وبعد صراع طويل قتلوه. وأفلت ضحية أخرى كان مطلوبا، وهو ابن عمه الصغير محمود أفندي، بفضل إخلاص خدمه، إذ ألقت جارية سطلا من الرماد الحار من الحمّام على رؤوس مهاجميه. وفي أثناء حالة الاضطراب، أُخِذ محمود عبر مدخنة إلى سطح القصر ومنه إلى الحديقة عبر سلم من الأوشحة المربوطة معا.

بعد تردده القاتل، اقتحم بيرقدار الفناء الثالث، فلم يقابله غير الصمت والخواء من الخدم، وأخيرا منظر جثة سليم الضخمة المشوهة ممددة على مقعد حجري بالقرب من غرفة العرش. بكى القائد، ولعن قتلة السلطان، ولعق جروح سيده حزنا. أحضر رجاله محمود من الحديقة قائلين: «إنه سيدنا السلطان محمود، وعليك يا باشا تتوقف حماية الخلافة»[26](*). لكن حمايتها كانت تتوقف في حقيقة الأمر على السلطان الجديد. فهل كان آخر سلالته كما يفترض الكثيرون؟ وفي تلك السنة طالب القيصر ألكسندر الأول الذي كان يخطط لتقسيم الإمبراطورية العثمانية في سانت بطرسبرغ مع السفير الفرنسي، بالقسطنطينية لروسيا، لأنها «المفتاح إلى باب منزلي».

ولد محمود في العام 1785، وكان الابن الوحيد للسلطان عبدالحميد، وتلقى تعليما أفضل من معظم الأمراء، وذلك داخل الحريم في الفترة من مايو 1807 إلى يوليو 1808 على يدي السلطان المخلوع سليم الثالث. كانت السنة الأولى من عهده الأكثر ترويعا في تاريخ القسطنطينية. ففي الخامس عشر من نوفمبر 1808، وفي أثناء

(*) أعدم مصطفى الرابع بأوامر السلطان محمود. [المترجم].

هجوم انكشـاري على الباب العالي، فجر مصطفى بيرقدار الذي أصبح صدرا أعظم نفســه لتجنب الاستســلام لأعدائه والقتل على أيديهم. وعلى مدى أسابيع، شهدت المدينة أعمال شغب وحرائق بفعل الانكشارية. وخلفوا تعهداتهم للسلطان وأخذوا يطاردون أفراد النظام الجديد المحلول ويقتلونهم[27].

في صراعه مع الانكشـارية، حظي محمود الثاني بميزة كانت بالنســبة إلى الملوك في أهميــة الصورة التلفزيونية الجيدة لرجال الدولــة في زماننا، وهو أنه تمتع بهيئة ســلطان. ففي مقابلة له في قصر توبكابي في العام 1810، لاحظ جون كام هوبهاوس John Cam Hobhouse أنــه في حين كانت الانكشـارية «من حيث المظهر حثالة المدينــة»، كان الســلطان يرتــدي حريرا أصفر ويــداه في بياض الحليــب «تلمعان بالخواتم الماسية»، ويتحلى بـ «سيماء لا توصف من الفخامة». وهو الانطباع نفسه الــذي خرج به مبشر أمريكي كتــب أنه أمام «هاتين العينين ظل يشــعر بالرهبة». وفي رأي جنرال بريطاني، كان الســلطان يبدو وســيما جدا بعينين ســوداوين ذكيتين «ومظهر عام ينبئ عن المعسكر وليس الخنوثة المترفة للحريم، ذي كتفين عريضتين جدا وصدر مفتوح كبير»، على رغم أن ساقيه كانتا قصيرتين. أما «لحيته فكانت من الأجمل والأكثر سوادا في ما رأيت على الإطلاق»[28].

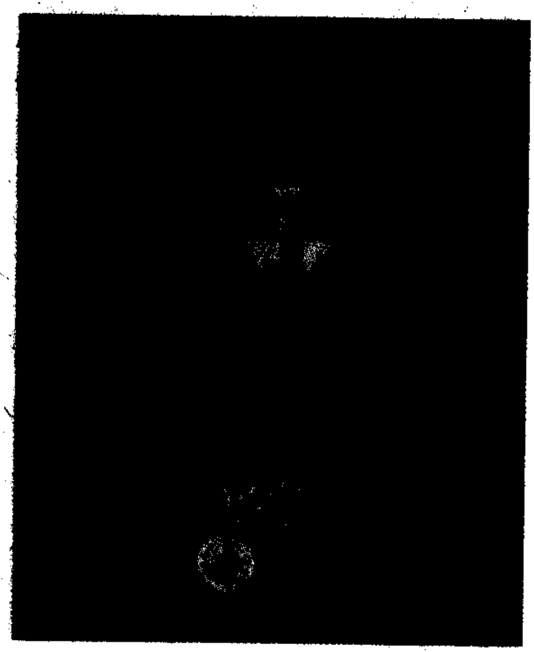

رســام مجهول، محمود الثــاني، في نحو العام 1830. كان الســلطان على اقتناع بقيمة صوره بالملابس الحديثة، ولذلك أمر بتعليقها في ثكنات الجيش.

تمثل الأصل (Asset) الأكبر لدى السلطان في قوة إرادته. فعلى خلاف أصحاب الموقف الجبري، قال إنه على الرغم من أن كل شيء في النهاية بيد الله، فإن الله جعل كل شيء يعتمد على سعي الإنسان. ومن دون أن ننحدر إلى عرق «الملوك الخاملين»(*)، فقد تمثلت نقيصة بعض سلاطين العثمانيين الأخيرين في امتلاكهم طاقة جبارة لكنها عاجزة عن تفويض السلطة. منذ بداية عهده، أحدث محمود الثاني قطيعة مع الماضي. وعلى رغم أن معظم الكتب تقول إن السلطان ترك قدس التقاليد - قصر توبكابي - في العام 1839 أو 1853، فإن الواقع هو أن محمود الثاني فعل ذلك منذ العام 1808. ففي الشتاء كان يقيم في بيشيكتاش حيث يوجد قصر دولمة بهجة القائم إلى اليوم، وفي الصيف في بليرباي وتشيرغان وسعادة أباد، في قصور خشبية لم يبقَ منها شيء، تذكّر واجهاتها ذات الأعمدة والقواصر(**) ببيت كارلتون(***) أكثر مما تذكر بقصر توبكابي. أعيد بناء هذه القصور للسلطان على يدي معماري البلاط الإمبراطوري كريكور أميرا باليان Krikor Amira Balian الأرمني الذي خدم أبوه أيضا كمعماري إمبراطوري. كانت بيشيكتاش مقر الحكومة، وكانت تحوي وراء الواجهة الغربية، مُجمّعا عثمانيا تقليديا من البرك والنافورات والحمّامات ومقصورات المآدب والمطابخ ومستودع أسلحة وغرفة البردة الشريفة مثل توبكابي. بقيت بعض المكاتب الحكومية ومدرسة القصر في توبكابي، وظل الباب العالي تحت القصر. في حين انتقل سكن السلطان على البسفور، بعيدا عن المناطق ذات الأغلبية المسلمة[29]. أعجب السير روبرت ليستون بقيادة السلطان

> المتجبرة للحكومة وتحرره من التردد لإزالة العقبات التي قد تقف في طريقه... مما عرفته من شخصية السلطان ومما شهدته في سلوكه، أجدني أكثر ميلا إلى الاعتقاد أنه أقرب إلى المخاطرة بعرشه وحياته في المنافسة [مع الانكشارية]. إن مَنْ يعرفونه يقولون إنه يتحلى بإمكانات كبيرة، وعقل يقظ، ومع فكرة الرفعة، وربما قداسة موقعه، وشعوره القوي بتفوقه الشخصي الذي يجعل كل المعارضين مجرمين، يبدو أن كل المقاومة له عبث وأن الخيبة النهائية في جانبه مستحيلة.

(*) الملك الخامل أو الكسول (Roi fainéant) مصطلح فرنسي يعني حرفيا «الملك الذي لا يفعل شيئا»، يُستخدم للإشارة إلى آخر ملوك السلالة الميروفنجية، بعد أن فقدوا كل طاقتهم الأولية. [المترجم].

(**) القوصرة مثلث في أعلى واجهة المبنى. [المترجم].

(***) بيت كارلتون (Carlton House) قصر في لندن، كان سكن الأمير الوصي على العرش (Prince Regent). [المترجم].

ذات مرة، ألزم محمود الثاني القبطان باشـا بقضاء الشتاء في بحر إيجة بدلا من العودة بأسطوله إلى القسطنطينية، لأنه لم يحضر حاكم الأناضول المتمرد. واستخدم محمـد علي حاكم مصر لتدمير سـلطة الوهابيين في بلاد العـرب، وعادت مكة إلى سـيادة عائلة الأشراف والسـلطان في العـام 1813. وفي العام 1818 اقتيد شـيوخ الوهابية العصاة خلال شـوارع القسطنطينية، ثم قتلوا، وعرضت رؤوسهم في الفناء الأول للقصر.

كان محمـود الثاني في حاجة إلى إسـتراتيجية «عمل اليوم» التشيرشـلية(*). انغرزت سـفينة دُشّـنت لفورها من الترسـانة في الطين. وفي هذا الموقف، سجل السير روبرت ليستون:

> انسحب السـلطان متجهما وقال إنه سيعود في الصباح (كان التدشين قد حدث بعد الظهر) عندما تأكد أنه سـيراها تشـق طريقها إلى منتصف القنال. كانت حشـود من العمال تعمل معا، وكان تـيرزان إميني (Terzan Emini) نفسـه (وهو مسؤول تجمع مهامه بين وزير البحرية ومفوض حوض السفن) يُشـاهَد وهـو يعمل طوال الليل في المـاء على أضواء المصابيـح. وعندما عاد صاحب السمو في اليوم التالي عامت السفينة إلى منتصف القنال كما أراد.

ذهب السـلطان ذات مرة إلى الباب العالي في الثامنة صباحا وطلب الرئيس أفنـدي، لكنـه لم يكن قد حضر بعد، وكذلك كل الـوزراء، ما عدا الصدر الأعظم الـذي كان يقيم في المبنى. «ظل صاحب السـمو نحو نصف السـاعة، حتى بدأ بعض الموظفين العموميين في التوافد، وتلقوا منه تحذيرا لم ينْسَـه مرؤوسـوهم على الأقل»[30].

اسـتخدم محمود الثاني الإرهاب كأداة للحكم أكثر من معظم أسـلافه. فقد أغرق ما يربو على مائتين من حريم مصطفى الرابع في البسفور للحيلولة دون أن ينجبن ابنا (منافسا عائليا يمكن أن تستخدمه الانكشارية ضد السلطان). كان من القرارات الديبلوماسـية التي اتخذت في القسطنطينية وأحدثت تغييرا في توازن

(*) على مدار الحرب العالمية الثانية، اشـتهر رئيس الوزراء البريطاني وينستون تشيرشل باستخدام قصاصات لاصقة حمـراء من اختراعه تحمل الاسـم «عمل اليوم» (Action This Day) يلصقهـا على المذكرات والوثائق التي تتطلب انتباها فوريا من موظفيه. [المترجم].

القـوة في أوروبا، المعاهدة التي وقعت في العام 1812 بين روسـيا والإمبراطورية العثمانيـة. كانت الإمبراطوريتان كلتاهما في حاجة إلى السـلام، وكان نابليون قد نفَّر الإمبراطورية العثمانية منه بمناقشة تقسيمها مع ألكسندر الأول في تيلسيت وإرفورت(*). كسبت روسيا من خلال المعاهدة بيسارابيا والتفرغ لتحويل معظم جيشـها ضد احتلال نابليون في ذلك الصيف. واسـتعادت الإمبراطورية ولاشـيا ومولدافيا. ومع ذلك، فقد انتُقِد الأمير موروسي الترجمان على شروط الصلح(**)، واسـتدعي من ياليه الواقع على البسـفور إلى الباب العالي وحكم عليه بالإعدام. أمسـك الأمير بسـيف الجلاد، ونجح في الدفاع عن نفسـه بعـض الوقت، لكنه استسلم في النهاية[31].

كان من الواضح للدبلوماسـيين الأجانب والترجمانات أن الانكشـارية ستلقى معاملة مماثلة، وإن كان أصدقاء الانكشـارية في الحكومة قد حالوا دون الشروع في ذلك. ردت الانكشـارية على التهديد بالوقاحة. ففي العام 1814، لُصِقت ورقة على باب القصر ليراها السلطان تصوِّره كلبا تقوده الانكشارية: «أنت ترى كيف نستخدم كلابنا، فماداموا مفيدين لنا ويجتهدون تحت قيادتنا فإننا نسـتخدمهم بالحسـنى، أما عندما يتوقفون عن خدمتنا، فإننا نلقي بهم في الشـارع». وبعد عام، ومن باب التحذير للسـلطان، هددت الانكشـارية بإحراق المدينة. وعمت الفوضى العاصمة حتى قال لهم أحد الصدور العظماء إن القسطنطينية أصبحت أضحوكة أوروبا [32].

أجلـت الثورة اليونانية التي اندلعت في العام 1821 والتي أدت إلى قتال مطول وغير حاسـم في الولايات، الحساب النهائي للانكشـارية. غير أن الحاجة إلى الإصلاح تأكدت من الأداء السيئ للانكشارية ضد الثوار اليونانيين. كان السلطان أشبه بحيوان خلـد يعمـل في الصمت والظلام، أو عقـرب يخفي لدغته حتى اللحظة المناسـبة. وبموجب خطط السـلطان، بدأ أغا الانكشارية حسين باشا، وهو زعيم عصابة سابق في شـوارع المدينة، في التخلص من الانكشـاريين الأكثر خطورة وزرع الجواسيس في حاناتهم ومقاهيهم[33].

(*) تيلسـيت (Tilsit) هو اسم مدينة سوفتسـك (Sovetsk) الواقعة في كالينتغراد في روسيا قبل أن يتغير في العام 1946. وإرفورت (Erfurt) مدينة ألمانية تقع بين نورمبرغ وهانوفر. [المترجم].

(**) عائلـة مـوروسي - كما ورد آنفا - إحدى عائلات الفنار التي تولت إمارة مولدافيا وولاشـيا، فضلا على العمل ترجمانات للباب العالي. [المترجم].

وفي العام 1826، شرع السلطان في تحديث الجيش. منذ القرن الخامس عشر، ظل الجيش العثماني يتبنى التكتيكات الأجنبية، خاصة في مجال المدفعية. كما جرى تحديث الأسطول في عهد سليم الثالث. في بادئ الأمر، لم يهدد محمود الثاني بإلغاء قوات الانكشارية. لكن الانكشارية كانت مشاكسة جدا وكانت تعارض أي تغيير، لذلك عمد محمود الثاني في مايو 1826 إلى الحصول أولا على فتوى من المفتي تقول إن التدريبات والأزياء الجديدة ليست أوروبية، بل «إسلامية حديثة»، كما حصل أيضا على تعهدات بالموافقة موقعة من مائتين وثمانية من كبار المسؤولين. وفي الحادي عشر من يونيو 1826، وفي ميدان التدريب الفسيح القريب من ثكنات الانكشارية - الأتميدان - وقع واحد من الأحداث المفصلية الحاسمة في تاريخ القسطنطينية العثمانية. بدأ أربعة من المدربين (واحد مصري وثلاثة من المحاربين القدامى الذين عملوا مع سليم الثالث) في تدريب مائتي جندي عثماني يلبسون أزياء حديثة على الطريقة الأوروبية[34].

وفي الثالث عشر من يونيو على البقعة نفسها، احتشد عشرون ألف انكشاري يصيحون: «لا نريد تدريبات الكفار العسكرية!» وظل جنود المدفعية والبحرية والمهندسون في صف السلطان. اكتسحت الجيوش المتنافسة شوارع المدينة وهي تصيح: «محمد وحاجي بكتاش!» (الدرويش الراعي لقوات الانكشارية)(*) أو «محمد ومحمود!»(**). ولثقتهم بمنعتهم، اقتحم الانكشارية قصر آغاهم وحريمه، وهددوا قصر توبكابي. حاول الصدر الأعظم استرضاء الثوار قائلا: «إن النظام العسكري الجديد الذي نتبناه معقول ويتفق مع كتابنا المقدس وتعاليمنا الدينية، ويحظى بموافقة العلماء، ونريد أن نطبقه من أجل مجد العائلة العثمانية وسؤددها، ولن نسمح بإزالة حجر واحد من هذا المكان المقدس».

وصل محمود الثاني إلى القصر بقارب من بيشيكتاش في حالة من الابتهاج. فقد انتظر هذه اللحظة منذ 18 عاما. فكان رأيه «إما أن تذبَح الانكشارية كلها، وإلا

(*) حاجي بكتاش ولي (Haji Gektash Veli) نيسابوري من خراسان، مؤسس الطريقة البكتاشية والعلوية بين العامين 1209 و1271، انطلقت دعوته من الأناضول إلى البلقان، وكانت الطريقة الرسمية لنخبة الانكشارية. [المترجم].

(**) محمد في الحالتين هو النبي محمد عليه الصلاة والسلام، كأن كل طرف يقول إنه الإسلام والطرف الآخر هو الكفر، مع أنه صراع سياسي بالأساس. [المترجم].

فإن القطط ستمشي على أنقاض القسطنطينية». وفي غرفة الختان بالقصر، سلم راية النبي الشريفة إلى الصدر الأعظم والمفتي وقال وهو يبكي: «أريد أن أنضم إليكم وأقاتل في صفوف المسلمين الحقيقيين لعقاب الجاحدين الذين يسيئون إليّ!».

لكنهم توسلوا إليه أن يبقى في أمان في القصر. وأخذ يدير العمليات من الغرفة الكائنة أعلى الباب الإمبراطوري. وأرسلت رسائل إلى أئمة المساجد في كل حي بالمدينة لكي يدعو المسلمين إلى الإسراع إلى جامع السلطان أحمد لحماية الخليفة السلطان. كانت المدينة متلهفة إلى قتال الحرس، إذ أراد الكثير من المسلمين أن ينتقموا من أعمال القتل والسرقة التي لا تحصى التي ارتكبتها الانكشارية. وأعطيت لهم سيوف وبنادق وخراطيش من ترسانة القصر. ونشرت الراية الشريفة في محراب جامع السلطان أحمد. وأقام الصدر الأعظم وكبار المسؤولين في الجامع، إذ كانوا ينامون في خيام في الفناء.

سرعان ما استردت قوات موالية للسلطان الأتميدان. كان دور المدفعية حاسماً، على نحو ما حدث في باريس عند سقوط قصر التويليري في العام 1792(*)، أو في سانت بطرسبرغ عند إخماد ثورة الديسمبريين في العام 1825(**). في بادئ الأمر تردد ضباط المدفعية في استخدامها. ثم أسرع رجل مقرب من السلطان يدعى قرة جهنم (Kara Gehennem) أي «جهنم السوداء» وأشعل مصاهر المدافع. وماتت الآلاف في المذبحة اللاحقة. وقتل الكثير من الانكشارية بالسلاح نفسه الذي استخدموه كثيراً، إذ أشعلت النيران في ثكناتهم، ووجدت أجسامهم متفحمة في الأنقاض في الصباح التالي[35].

كان محمود الثاني ثورياً من عائلة حاكمة، تسبب في إراقة دماء في القسطنطينية أكثر مما أراقتها لجنة الأمن العام في باريس(***). وفي السادس عشر من يونيو، كتب الترجمان البريطاني بارتولوميو بيساني إلى السفير السير استراتفورد كانِنغ: «يجري

(*) قصر التويليري (Tuileries Palace) قصر ملكي وإمبراطوري يقع على الضفة اليمنى لنهر السين بباريس، اقتحمته حشود مسلحة في العام 1792 وفتكوا بالحراس الملكيين، بينما نجحت العائلة المالكة في الفرار. [المترجم].

(**) وقعت ثورة الديسمبريين (Decemerist revolt) بسبب احتجاج ثلاثة آلاف ضابط روسي على تنصيب نيقولاس الأول، واحتشدوا في ميدان مجلس الشيوخ ورفضوا أن يقسموا الولاء للقيصر الجديد، وبعد قتال غير حاسم بينهم وبين الموالين استخدمت المدفعية في سحقهم. [المترجم].

(***) لجنة الأمن العام (Committee of Public Safety) لجنة تشكلت في أثناء الثورة الفرنسية في العام 1793 للحفاظ على الأمن العام، وأعطيت صلاحيات واسعة للاعتقال وإنزال العقوبات، وقد أسرفت في استخدامها. [المترجم].

التفتيش في كل ركن من المدينة، وكل انكشـاري وضابط يُمسَك يسـلم إلى الصدر الأعظـم الذي يأمر بإعدامـه في الحال وتُرمى الجثث في منتصف سـاحة الأتميدان لتبقـى فيها ثلاثة أيام. وكل المكاتب العامة مغلقة، وكذلك الأسـواق، ولا يقوم أحد بأي عمل».

وفي السـابع عشر من يونيو، ألغيت قوات الانكشـارية رسميا بأمر جاء فيه أنه من أجل خدمة «الدولة العثمانية التي يجب أن تبقى ما بقي الدهر»، أصبح العلم أهم كثيرا للنجاح من الأعداد أو الشـجاعة[36]. وبحلول الثاني والعشرين من يونيو، ذكر كاننغ أنه يعتقد أن 6 آلاف انكشـاري قد أعدموا، ونُفي 5 آلاف آخرون: «كان المدخل إلى السراي والشاطئ أسفل نافذة السلطان والبحر نفسه غاصا بالجثث التي كان الكثير منها ممزقا والتهمت الكلاب أجزاء منها»[37]. تصف الرواية الرسمية التي قبلها السـلطان نفسـه وصححها، نهاية أحد الثوار في غرفة أسـفل جامع السلطان أحمد: «أحكم الجلادون الحبل حول رقبته»، فما كان منه إلا أن قال لهم «شـدوا يا فتيان» ومات بشجاعة ضارية.

كانت القسـطنطينية مدينـة للذكريـات التاريخية الطويلة، شـكّلت فيها شـخصيات مثـل الإمبراطور الأخير قسـطنطين ومحمد الفاتـح والولي أبي أيوب جزءا من الوعي اليومي للناس. وكان شـهر يونيو 1826 موعد تصفية الحسابات بين العائلة الحاكمة والانكشـارية بعد ثلاثمائة سنة. عدّد التاريخ الرسمي أفعال التمرد والعصيان التي قامت بها هذه القوات التي ترجع إلى عهدي سـليم الأول وسـليمان القانوني، إضافة إلى الإساءة الأخيرة، ومنها الاعتداءات على المسيحيين. شُـنق الكثير من رجال الانكشـارية بأوامر الصدر الأعظم على الشـجرة نفسها الكائنة في سـاحة الأتميدان التي شنقت عليها الانكشارية صدرا أعظم قبل مائة وثمانية وسبعين عاما[38].

فجـر عصر جديد، هكذا نُظِـر عن وعي إلى «تطهير حديقـة الإمبراطورية من الأعشـاب الضارة الضارية وغير النافعة» الذي عُرف كذلك باسم «الحدث المبارك». قال السـلطان إنه لم يعد في حاجة إلى مبالغ طائلة لدفع رواتب الانكشـارية، وإنه لذلك يتنازل عن حقه في مصادرة الممتلكات الخاصة أو وراثتها: «لا أريد أن تُسـَمع آهات الظلم وصرخات السلب ثانية في بلاطي قدس العدالة»[39].

وفي العشرين من يونيــو، دوّت في الفناء الخارجي لقصر توبكابي أصوات الطبول والنايات الغربية. وظهر ألفا تركي بأزياء مختلفة، لكنهم مسلحون بالبنادق والحراب، ومصطفــون على الطريقــة الأوروبية، يجتازون التدريبات الجديــدة. وبعد فترة نزل السلطان الذي كان في بادئ الأمر ينظر من النافذة، ومر على الرجال في استعراض لهم. كان صاحب الســمو يرتدي زيا على الطريقة المصرية [أي الزي الحديث]، ومســلحا بمسدسات وسيف، واضعا على رأسه الطربوش المصري بدلا من العمامة الإمبراطورية.

إنــه تغيير في مظهر الســلطان لا يقل ثورية عن تبنــي مصطفى كمال أتاتورك للقبعــة بعد مائة عام[40]. كان للبــاس العثماني مكانة خاصة، حتى إنه كان يُقلد في أماكن بعيدة مثل بودا ووارسو. أما الآن، فقد أصبحت المكانة تأتي إلى القسطنطينية من الغرب. أرســلت ملابس السلطان الجديدة رسالة مؤداها أن إمبراطوريته غدت منفتحة على الثقافة الغربية.

اســتمرت أحكام الإعدام خلال شهري يوليو وأغسطس، ما جعل المدينة تعيش حالــة من الرعــب. وحُظرت طريقة الدراويش البكتاشــية التي اتُّهمت بالفســوق والمعصية والتخابر الإجرامي مع الانكشــارية، وطورد أعضاؤها، وهُدِّمت تكاياهم. ووُجِّهــت تهديــدات إلى التجار الأوروبيين، وضُرب ترجــمان حتى الموت. واندلعت حرائق، ربما أشــعلها انكشــاريون ســابقون، أكلت جزءا من المدينة في نهاية شــهر أغســطس. كتب أحد المقيمين الإنجليز: «شَــنْق كثير، وسخْط عام، وصار الرد مطلبا حتــى من جانب الأتــراك الهادئين». وأخــيرا، تحركت القوة الوحيــدة القادرة على إيقاف السلطان، وهي نســاء المدينة، اللاتي خرجن في مسيرة احتجاجية إلى القصر. فتباطأ الذبح، لكن شــبح الثأر لم يمت. فبعد ســنوات، شاهد جنرال بريطاني بعينيه الســلطان وهو يشرف على عمال يضربون قبعات الانكشــارية على شواهد قبور في جبّانة بيرا [41].

15

محمود الثاني

«إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف».

صحيح البخاري

أنزل محمود الثاني باليونانيين القسوة نفسها التي أظهرها مع الانكشارية. ففي العام 1814، تأسست جمعية سرية باسم «أخوية الصداقة» Philiki Etairia تعاهدت على تدمير الإمبراطورية العثمانية وتحرير «أرض الأجداد المقدسة والتعسة» في الميناء الروسي المزدهر على البحر الأسود أوديسا Odessa. خدع أعضاء الجمعية الأوائل، وهم تجار على شفا الإفلاس، اليونانيين الآخرين بقول إنهم يحظون بدعم قيصر روسيا ووزير خارجيته كونت كابودسترياس Count Capodistrias وهو يوناني من كورفو. وفي موسكو، انضم إليهم في العام 1816 ألكسندر

«بدأت القسطنطينية تفقد الثقة بنفسها»

مافروكورداتــو «الهارب». وفي العام 1818، انتقــل مقرهم إلى بيت تاجر يدعى إمانويــل زانثوس Emmanuel Xanthos في القســطنطينية. لكن المدينة كانت تجاريــة جدا وعثمانية جدا لدرجــة يصعب معها أن تكون مركــزا فعالا لثورة. ووفقــا لأحد الأعضاء، فقد كان «متوقعا من مجلس القســطنطينية ... أن يمارس الــدور الأســاسي. وكان من الممكن أن يمارس هذا الــدور لو لم تكن روح أعضائه مكرسة لتجارتهم ومصالحهم الشخصية». كان 9 في المائة فقط من أعضاء أخوية الصداقة من القســطنطينية. وظَلّ معظــم الفناريين على ولائهم وخضوعهم، إذ كانت طموحاتهم موجهة نحو الإمارات.

لكن القلوب تَغَيّرَتْ في بعض الأحياء. ففي العام 1807، عندما كان الأسطول البريطاني يحوم أمام السراي، قام مؤلف كتاب «النصح البطريركي» في العام 1798 الذي حث فيه عــلى الولاء للإمبراطورية العثمانية، البطريرك غريغوري الخامس وصولجانه في يده ومعه ألف يوناني، بمساعدة سليم الثالث في إصلاح التحصينات. لكنــه عندما علم بالجمعية بعد بضع ســنوات أبــدى تعاطفه. وعلى الرغم من أنه رفض العضوية فيها («لو عثر على اســمه في ســجلات عضوية الجمعية، فإن الأمة كاملة ســتكون في خطر»)، فإن سكرتيريه انضموا إليها، ربما لإطلاع قداسته على المستجدات[1]. لكن في الشتات diaspora وشبه جزيرة بيلوبونيز، اكتسبت الحركة زخما.

في ســانت بطرسبرغ في العام 1820، وافق ألكســندر إبسيلانتي الأمير الفناري غير المتزن والرومانسي والفقير الذي أصبح الضابط المعاون للقيصر ألكسندر الأول، على قيادة الجمعية. وفي أبريل 1821، عبَر إبســيلانتي نهر بروت River Prut إلى مولدافيا على رأس الفيلق المقدس الذي تألف من اليونانيين بشــكل أســاسي. كان من رأي إبســيلانتي أن الإمبراطورية العثمانية كانت بركانا أوشــك على الانفجار. كان معظــم الرومانيين في حقيقة الأمر أكثر عداء للفناريين منهم للعثمانيين. ورأى ألكســندر سوتزو Alexander Soutzo أمير ولاشيا أن الثورة وبال على اليونانيين. وأرســل أمير مولدافيــا ميخائيل ســوتزو Michael Soutzo رســائل إلى «أخوية الصداقة» في القســطنطينية عن طريق مبعوث ديبلوماسي روسي تكشــف أوهام المتآمرين: «أشــعلوا النيران لتأكل العاصمة، وشــجعوا البحارة على السيطرة على

الترسانة، وحاولوا بكل وسيلة أن تقبضوا على السلطان عندما يذهب إلى الحريق. ارفعــوا صوت أرض الأجداد مدويا ... إن النجاح قريب جدا». وثار اليونانيون ضد الإمبراطورية العثمانية في شبه جزيرة بيلوبونيز وإبيروس[2].

فزع العثمانيون في العاصمة من أخبار الثورات والتهديد الوارد في بيان إبسيلانتي بأن الهلال ســينزل وسيرتفع الصليب ثانية. وســقطت الأقنعة. وانهار التآلف الذي مكّن المسيحيين والمسلمين من العيش جنبا إلى جنب طوال قرون. نظر المسلمون إلى اليونانيين على أنهم عقارب لا تتورع عن ارتكاب أي جرم، وطُلب من المســلمين أن يحملوا السلاح. تتمثل أفضل رواية للأحداث في رواية قسيس في السفارة البريطانية يدعى روبرت ولش Robert Walsh قال فيها «لدى عودتي إلى بيرا وجدت أن تغييرا كليا قد حدث في بضع ســاعات في مظهر الناس وطباعهم». اعتزل الأرمن في بيوتهم في حالة من الذعر الشــديد. وأخذ الأتراك يعســون في الشــوارع، ويد الواحد منهم على مقبض سيفه، والأخرى تفتل شاربه، وكان اليونانيون واليهود متى قابلوا الواحد منهــم ابتعدوا عن طريقه بالدخول في أي دكان أو مقهى تصادف أنه كان مفتوحا. وأخذ المســلمون يقتلون اليونانيين ويعتدون على الأوروبيين الغربيين في الشــوارع. وقُرئ في كل الكنائس لعن anathema للثورة، كتبه البطريرك بعد خمس ســاعات من التشاور مع السلطان، ووقّعه المجمع الكنسي المقدس[3].

لكن الســلطان ارتاب من أن البطريرك كان يعرف أكثر مما اعترف به، وقد كان محقا في ارتيابه. وفي الثاني والعشرين من أبريل، يوم السبت السابق على عيد الفصح، وفي أثناء إقامة القداس في الكنيسة البطريركية في الفنار، قُرئ اللعن مرة أخرى.

> كان الناس على وشــك الانصراف، متأثرين جدا بما سمعوه، وفجأة دخل بعــض الحراس البطريركية، وشــقوا طريقهم بصعوبة عبر الحشــد الذي ظن أنهــم مجرد مبعوثــين كالعادة لحفــظ النظام في التجمعــات، لكنهم قبضوا بوقاحــة على البطريرك الذي انتهى من فوره من منح بركته للشــعب، ومعه الأســاقفة التابعون له، وجروهم من ياقاتهم عبر ســاحات الكنيسة، وربطوا حبالا حول رقابهم.

أُخذ البطريرك إلى باب فناء الفنار، وشُــنق عليــه، وتُرك ليموت. وحيث إنه كان رجلا مســنا خفيف الوزن، فقد اســتمرت معاناته ســاعات طويلة قبل أن

يفارق الحياة. وشُنق قسيسان وثلاثة من رؤساء الأساقفة في نواح مختلفة من المدينة، لتوصيل رسالة العقاب والازدراء. وبعد ثلاثة أيام، أنزلت جثة البطريرك، وبغرض بث الأحقاد بين الجماعات، أعطيت لليهود لجرها خلال سوق متسخ إلى القرن الذهبي. وهناك رُميت في الماء، ولأنها كانت قد انتفخت بالفعل، فقد طفت سريعا إلى السطح. وبعد بضعة أيام، أخذت الجثة سرا لدفنها في أوديسا.

كانت الحداء والعقبان تحوم فوق جثث المسيحيين المقتولين في الشوارع، لكنها كانت في المقام الأول من نصيب الكلاب. «لا يمكن أن تتخيل مشهدا أوحش للذعر والخراب من ذلك الذي تقدمه العاصمة التركية حاليا». قُطعت رأس معماري يوناني يدعى المعلم كومنينوس Comnenos Kalfa وهو ينتهي من معاينة مكتب صممه للأسطول العثماني في غَلَطَة. وخارج الباب الإمبراطوري لقصر توبكابي، كانت هناك أكوام من الرؤوس. عندما ذهب السفير البريطاني لتقديم أوراق اعتماده إلى محمود الثاني في الثاني والعشرين من مايو 1821، رأى مرافقوه أكواما من الآذان والأنوف «تشبه كومات قش صغيرة»، كان الجنرالات العثمانيون في شبه جزيرة بيلوبونيز يرسلونها تذكارات للانتصار، وشاهدوا أطفالا يركلون رؤوسا في الشوارع. وداخل القصر، كان الترجمان الجديد استافراكي أريستاركي Stavraki Aristarchi يرتعد بشدة أمام السلطان الثابت، ويقطر عرقا غزيرا على خطاب اعتماد السفير الذي يقرأه، بينما تخرج الكلمات من فمه بصعوبة جمة[4].

من بين الكنائس اليونانية الست والسبعين الموجودة داخل القسطنطينية وحولها - كانت زيادة عددها منذ القرن السادس عشر إشارة إلى ازدهار اليونانيين- هُدمت واحدة ونهبت ثلاث عشرة أخرى على أيدي الانكشارية. وبُني جدار للأبد حول عَيْن fountain سانت سيفيور المجاورة لقصر توبكابي التي كان السلاطين السابقون يستمتعون بمشاهدة اليونانيين وهم يرقصون ويغنون عندها[5]. وفي الخامس من يوليو فقط، أي بعد عشرة أسابيع، صدر بيان ضد قتل المسيحيين «من دون استفزاز». وأعيد فتح الأسواق، وعاد إلى المدينة شيء من الأمن[6]. ومع ذلك ظل مسموحا للمسلمين، وحتى الصبية الصغار منهم، بحمل السلاح. وعلى الرغم من أن الأرمن لم يظهروا تعاطفا مع إخوانهم المسيحيين، فقد

أمرتهم الحكومة، اتباعا لمبدأ فرق تســد، بأن يقطعوا كل العلاقات مع اليونانيين وألا يحتفظوا بخدم من اليونانيين وألا يلبسوا لباس الفرنجة[7].

كانت مذبحة الفناريين إشارة إلى نهاية عصرهم. نُهبت قصور عائلات موروسي وكاليماشي في طرابيا ودُمرت. وأُعدِم قسطنطين موروسي بلباسه الرسمي كترجمان أمام كشك الألاي. وأُعدِم في الترسانة نيقولاس موروسي ترجمان الأسطول(*) الذي شجع شبه جزيرة بيلوبونيز على الثورة بينما كان يخدر الأتراك. كان من الضحايا الآخرين ترجمانان ســابقان، هما جون وتشــارلز كاليماشي، فضلا عن اســتافراكي أريســتاركي الــذي كان محقا في ارتعاده. وشُــنق الكثير من يونانيــي المدينة، أو أبعدوا إلى الأناضول، أو هربوا إلى روســيا. وغَطّت شوارع الفنار الكتبُ المنهوبة من المكتبات اليونانية، إلى أن جُمعت بأمر الســلطان وبيعت إلى الديبلوماسيين والكاثوليــك في بيرا. خلع معظم الفناريين خلفيتهــم العثمانية وأخذوا يتدفقون على اليونان. وقاتلت عائلات إبســيلانتي وكارادجا Caradja وســوتزو في حرب اســتقلال اليونــان. أقر الأمــير نيقولاس ســوتزو في مذكراته أنه اســتمتع بتعلم اللغات العثمانية والفارسية والعربية وهو طفل في طرابيا، «لكن بعد أن غادرتُ القســطنطينية مباشرة وغيّرت الثورة اليونانية مســار تفكيري، لم تتح لي الفرصة على أي نحو لأن أصقل دراساتي التي لم تجد الوقت لكي تترسخ، وانتهى الأمر بأن فقدت كل معرفة بها»[8].

كذلــك تحــوّل ولاء عائلــة مافروكورداتو، وهي العائلة الأشــهر بين كل عائلات الفنار، ضد الإمبراطورية العثمانية. شُــنق جورج مافروكورداتو رئيس العدل السابق لولاشــيا ورئيس شرطة مولدافيا، في القسطنطينية في السابع عشر من أبريل 1821، وكان أول فــرد من عائلته تُنفذ فيه عقوبة الإعــدام. تقدم الحياة المهنية لابن عمه ألكســندر مافروكورداتو تمثيلا لتحوّل الفنار إلى القومية اليونانية. ولد ألكســندر في القســطنطينية في العام 1791، وفي العام 1812 رافق عمه جون كارادجا الذي عُيّن هوســبودارا لولاشــيا، إلى بوخارســت. وانضم إلى أخوية الصداقة. وفي العام 1818، وبصفته وزيرا لخارجية ولاشيا العثمانية، قدم الاحترامات إلى القيصر ألكسندر الأول،

(*) المشتري الأصلي لتمثال فينوس دي ميلو Venus de Milo حتى استولى عليه المستشار الثاني بالسفارة الفرنسية فيكونت دي مارسيلوس Vicomte de Marcellus على جزيرة ميلوس ونقله إلى فرنسا.

في أثناء جولة له في ولاياته الجنوبية، وأخبر كابودسترياس أن «اليونانيين يشتاقون إلى سماع أن الجيوش الروسية عبَرت نهر بروت»[9].

وفي السنة نفسها، تبع عمه الذي نُفي بسبب اتهامات بالفساد وسوء الإدارة. وبعد أن زار جنيف وباريس، انتقل إلى بيزا لتلقي تعليمه الجامعي، وكان في ذلك أول فرد من عائلة مافروكورداتو يتلقى تعليمه في الغرب منذ العقد السادس من القرن السابع عشر. تشرب هذا الشـخص الكوزموبوليتاني متعدد اللغات والملم بأربع ثقافات (العثمانيـة واليونانية والرومانية والغربية) بالفكرة القومية حتى كان أول شخص يتوقع تحوّل الإمبراطورية العثمانية إلى دولة قومية تركية. ففي أنحاء البلقان والأناضول كافـة، انتشر مزيج من الأعراق والأديان لا يقل تعقيدا عن ذلـك الذي كان موجودا في العاصمة نفسـها. ولم تكن هناك منطقة ملائمة لخلق دول قومية. كانت المذابح التي تعرض لها المدنيون المسـلمون واليهود في شبه جزيرة بيلوبونيز أول أعمال الثورة اليونانية في العام 1821. ومع ذلك، فقد تجاهل ألكسـندر مافروكورداتو التاريخ والديموغرافيا والجغرافيا حين كتب: «إن هذه القوة [الإمبراطوريـة العثمانية] تندفع نحو الانهيار ... فهي إما تتحول إلى دولة قومية [تركية] مثل دولة اليونانيين وإما يغزوها الروس» أو «ربما تظهر قوة شابة وقوية»، أي إمبراطورية يونانية جديدة[10].

وفي بيـزا، سـحر مافروكورداتو جيرانه - عائلة شـيلي - بشـاربه الضخم محياه الرومانسي. أهدى شـيلي Shelley قصيدة هيـلاس Hellas التي تفوح منها كراهية العثمانيين (يتصدرها البيت «نبي أنا للمعارك النبيلة») «إلى سعادة الأمير ألكسندر مافروكورداتو وزير الخارجية الأسبق لهوسبودار ولاشيا ... تذكارا غير كاف للإعجاب والعطف والصداقة مـن المؤلف». عَلّم مافروكورداتو اللغة اليونانية لماري شـيلي، وعلمته هي اللغة الإنجليزية التي أتقنها بسرعة الفناريين.

وفي العـام 1821، وبينـما كانـت أم مافروكورداتو وأخواتـه يهربن من القسـطنطينية مختبئـات في أكياس دقيق على سـفينة يونانيـة أخذتهن إلى الأمـان في جزيرة أيجينـا Aegina، غادر مافروكورداتو بيزا إلى مرسـليا التي كانت وقتئذ مركز مستعمرة يونانية مزدهرة. وفي الثامن عشر من يوليو، أبحر إلى اليونـان، بعد أن جمـع المجندين والمال والسـلاح. وفي الحادي عشر من

أغسطس 1821، وصل إلى ميسـولونغي(*). وفي الأول من يناير 1822، أصبح رئيس السلطة التنفيذية للدولة الجديدة. وطوال حياته التي امتدت إلى العام 1863، ظل في مركز الحياة القومية اليونانية وزيرا أو رئيسـا للوزراء، وأحيانا سفيرا لدى القسطنطينية[11].

كان محمـود الثاني في الوقت نفسـه الذي حـارب فيه اليونانيين في شـبه جزيرة بيلوبونيز، قد شرع بعد تدمير الانكشـارية في أثناء «الحدث المبارك»، في إنشـاء جيش عثـماني جديد. وكـما في حالة الجيـش الروسي الـذي أصلحه بيتر الأكـبر، كان لحرس السلطان دور حاسم كمدرسة للتدريب وقاعدة للقوة. وأُعيد تنظيم البستانجية واثنتين من وحـدات حرس التشريفات، هما الصولاق والبييق رسـميا في الحادي والثلاثين من أغسطس 1826. وبعد أن أُطلق عليهم اسم «البستانيين الإمبراطوريين المدربين»، أصبحوا تحت إمرة السلطان مباشرة وليس القائد العام، وكانت لهم مدرسة ضباط وبنية قيادة خاصة. كما أُنشـئت أيضا كتيبة للبلاط لتدريب عبيد السـلطان وأبناء الوجهاء ليصيروا ضباطا في الجيش الجديد. وبنهاية العام 1826، كان هناك زهاء خمسـة وعشرين ألف جندي بالجيش الجديد، زادوا في العام 1828 إلى ثلاثين ألفا[12]، كانت رواتبهم تدفع من أوقاف الانكشارية التي صُودرت.

وبدايـة من العـام 1829، بدأت القسـطنطينية تقترب في الشـبه مـن العواصم العسـكرية الكبرى الأخرى مثل برلين أو سـانت بطرسـبرغ. كانت الانكشارية تقيم في ثكنات خشبية بالقرب من الجامع السليماني أو في بيوتهم الخاصة في المدينة. بينما شيّد معماري محمود الثاني كريكور أميرا باليان في أنحاء مختلفة من المدينة ثكنات حجرية على النمط الكلاسـيكي المُحَـدث العثماني الجليل البسـيط، تتميّز بنوافذها الواسـعة وأعمدتهـا المرمرية وجدرانها الصفـراء تماما. كانت أكبر وأنظـف عموما من نظيراتها في العواصـم الأخـرى: وكان كل منها يضم مقصورة خاصـة (خونكيار قصري) لزيارات السلطان، كإشارة إلى سلطته ووجوده في كل مكان.

أُعيد بناء الثكنات السـليمية الكائنة في أوسكودار المطلة على البسفور التي بُنيت بالخشـب لسـليم الثالث في الأعـوام 1794-1799، بالحجارة بداية مـن العام 1826، وافتتحـت في الأول من فبرايـر 1829. كانت هذه الثكنات، رباعية الأضلاع الفسـيحة

(*) ميسولونغي Missolonghi: مدينة غرب اليونان. [المترجم].

المــزودة بأبراج، والمزيج من الإســكوريال وستاندهرســت(*)، ضخمة جــدا لدرجة أن الجنديين كان يقال إنهما يمكن أن يقيما فيها سنة من دون أن يلتقيا، وتشكل اليوم مقر المنطقة العسكرية الأولى بإســطنبول. وشيّد باليان أيضا مدرسة وثكنات للأسطول على جزيرة هيبيلي Heybeli ببحر مرمرة، وثكنات أخرى فيما يســمى حاليا ميدان تقسيم، وثكنات داود باشا خارج المدينة[13].

منذ ذلك الوقت فصاعدا، أصبح من المشــاهد المعتادة في ساحات الاصطفاف حول المدينة، يوما بعد يوم، مهما كان الطقس، أن يوجد الســلطان بملابس بســيطة مكوّنة من عباءة زرقاء سادة plain و«بنطلون قوزاقي Cossack» وحذاء طويل، يدرب قواته بـ«ســيماء الحزم والثقة بالنفس والعجرفة الممزوجة بشيء من الشراسة». وكان كثيرا ما يفاجئ الثكنات متنكرا للتفتيش على حالتهم. طُليت البندقية التي ضَرَبَ أَحَدُ سكرتيريه المخلصين بمؤخرتها شــخصا دخيلا في بطنه، بالفضة تكريما لطاعة الأوامر، ولايزال يمكن رؤيتها اليوم في المتحف العســكري بإســطنبول. ومع نهاية عهد الســلطان، كان هناك زهاء ســتة وأربعين ألف جندي وبحار وجندي بحرية وجنــدي مدفعية متمركزين في القسطنطينية وحولها[14].

عمل في مســاعدة الســلطان ضباط مخلصون من أمثال حســين باشــا وأحمد فتحي باشــا عقيد الحرس (وهو المنصب الذي حل محل البستانجي باشا) وضابطين أجنبيــين. بعد أن خدم نابليون في إلبا وفي معركة واترلو، وجد جيوســيب دونيزيتي Giuseppe Donizetti أخــو الملحــن العظيــم، أن فــرص صعوده غــير مواتية في أوروبــا إبان عصر الإعــادة(**). وصل إلى القســطنطينية في العام 1818، وشرع في تعليم الأناشــيد العســكرية الغربية لفرق عثمانية، ومنها الســلام المحمودي، وهو أول ســلام وطني عثماني رسمي يؤلف تكريما للســلطان. دوّت ساحات الاصطفاف بالقســطنطينية بموسيقى روسيني Rossini ودونيزيتي. وبذلك بدأت علاقة الحب الطويلة التي ربطت العائلة العثمانية بالموسيقى الغربية. عمل دونيزيتي باشا، كما

(*) الإسكوريال Escorial: مجمع مبان في شمال غرب مدريد بناه فيليب الثاني يضم قصرا ملكيا وديرا وكنيسة ومدرسة ومتحفــا ومكتبــة. وستاندهرســت Standhurst أكاديمية عســكرية في لندن تأسســت في العــام 1947 بدمج الأكاديمية العسكرية الملكية التي تأسست في العام 1720 والكلية العسكرية الملكية التي تأسست في العام 1799. [المترجم].

(**) يشــير مصطلــح أوروبا إبان عصر الإعادة أو أوروبا الإعــادة Restoration Europe إلى عودة كثير من النظم الملكية والأسر الحاكمة بعد هزيمة نابليون في العام 1814. [المترجم].

أطلق عليه، في القصر (لتعليم السلطان وسيدات الحريم الموسيقى الإيطالية) وفي مدرسة الموسيقى الإمبراطورية حتى وفاته في العام 1856[15].

كان أكثر الأجانب تمتعا بثقة السلطان شخصا بيدمونتيا يدعى كالوسو Calosso. فشل هذا الضابط السابق في الجيش النابليوني الذي تورط في مؤامرات ليبرالية في بيدمونت(*) في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، في جمع ثروة في القسطنطينية من صناعة الخمر. وكان على وشك الإفلاس عندما لفتت مهارته في السيطرة على حصان أوقع كل الأتراك الذين ركبوه، انتباه السلطان إليه في العام 1827. وكالوسو هو الذي علّم محمود الثاني تحقيق الانتقال من الفروسية العثمانية التقليدية إلى الفروسية الغربية الحديثة. تميّزت الفروسية العثمانية بـ«سرج ضخم يشبه التخت وركاب قصير وثابت تقريبا يثني الركبتين لأعلى حتى تلمسا الأربيتين»(**)، وذلك في مقابل السرج الغربي الصغير والرِكاب الطويل. وفي حين تعود السلطان عليه بسهولة، لعنه حرسه ووصفوه بأنه اختراع الشيطان. وفي العام 1828، أخبر كالوسو زائرا إنجليزيا أن السلطان يستطيع أن يناور [تشتيت الفرسان] مثل أي رائد نقيب يمارسها منذ وقت طويل».

سرعان ما بلغ كالوسو الوسيم و«ذو الطلعة العسكرية الأنيقة والأسلوب الممتاز مستوى من الحظوة لم يدانه فيه أحد». فكان يدرب القوات الجديدة، ويلتقي السلطان يوميا، وأعطي واحدا من أفضل البيوت في بيرا. وأصبح الترجمانات والسفراء الذين كانوا يتجاهلونه في السابق، يلقون عليه التحية بـ«رعشة الوقار» ويوجهون إليه طوفانا من الدعوات للحفلات والمآدب. أجَلّ كالوسو الذي تعلم تحدث اللغة التركية بطلاقة، في سيده «إرادته الصلبة» وما سماه «انتفاء التعصب لدى هذا الأمير عظيم السمو عند أفراد حاشيته». عند مغادرة قافلة الحج في إحدى السنوات أوقف السلطان كالوسو المسيحي بجانبه في الفناء الثاني لقصر توبكابي[16].

كان من أمارات رغبة محمود الثاني في تحديث إمبراطوريته، غطاء الرأس الذي فرضه على جيشه وإدارته: الطربوش الصوفي القرمزي. فالسجود في الصلاة

(*) بيدمونت Piedmont (بالإيطالية بيمونتي) حاليا إحدى مناطق إيطاليا العشرين، عاصمتها تورينو. [المترجم].

(**) الأربية هي أصل الفخذ. [المترجم].

يجعـل غطـاء الرأس ذا دلالة مهمة للمسـلمين. وبالفعل كانـت بعض القوات الجديدة لسـليم الثالث تلبس طاقية حمراء صغيرة تشبه الطواقي التي يلبسها بعض سـكان الجزر اليونانية وسكان شمال أفريقيا. تبنى السلطان الطربوش في العام 1826، وفي العام التالي، وبعد شيء من التردد، طلب خمسين ألف طربوش لقواتـه من تونـس. وفي العام 1829، عُمّـم هذا الطربوش عـلى كل الموظفين الحكوميين. أضافت آلاف الطرابيش الحمراء لونا جديدا إلى شـوارع المدينة. ثم حـل الطربوش محل العمامة على شـواهد القبور العثمانيـة. كانت الطرابيش أقـل فخامة من العمائم، لكنها أكثر توحيدا. وفيـما كانت الأخيرة مقصورة على المسـلمين، كان الطربوش يلبسه كل الموظفين الحكوميين، ولاحقا كل من أراد أن يلبسه، حتى الحمّالين في الشوارع أيا كانت ديانتهم، على الرغم من وجود شارات صغيرة حتى العقد الخامس من القرن التاسـع عشر تميّز الطربوش المسيحي عن الطربوش الإسلامي.

وفي العام 1832، أنشئ مصنع إمبراطوري للطرابيش في أيوب، عمل به في البداية عمال تونسـيون، ثـم ثلاثة آلاف عامل تركي وأرمني لصنـع الطرابيش، وهي عملية معقدة تتضمن صبغ الصوف وتيبيسـه. من قمة الطربوش تتدلى شُرابة من الحرير أو الصـوف الأزرق، كانت طويلة ودقيقة بحيث أصبح تمشـيط شُرابات الطرابيش حرفة جديدة في شوارع المدينة. وفي العام 1845 استعيض عن «الشُرابات الملعونة» كما أطلقوا عليها بشُرابة سوداء قصيرة[17].

أظهر انتشار الطربوش هيبة القسطنطينية والإمبراطورية العثمانية. وبحلول العام 1860، انتشر الطربوش بين النخبة المسـلمة أو الخاضعة للحكم الإسلامي من البوسـنة إلى جاوة. وإبان القرن العشرين، كانت القوات البوسنية في الجيش النمسـاوي(*) ترتدي الطربوش(**)، وكذلك القوات الكينية بالجيش البريطاني،

(*) يظهـر المسـؤولون البوسـنيون في سراييفو في الصـور الأخيرة للأرشـيدوق فرانز فردنانـد Archduke Franz Ferdinand مرتدين الطرابيش.

(**) في العام 1878، احتلت إمبراطورية النمسـا - المجر ولاية البوسـنة العثمانية بموافقة مؤتمر برلين، وإن ظلت اسميا تحت السيادة العثمانية، ثم ضمتها نهائيا في العام 1908. وبسبب التوتر والمقاومة المستمرة للحكم النمساوي، شـكلت الإدارة الجديدة ميليشـيا محلية باسم الباندورس Pandurs، كانت هي نفسـها كثيرة التمرد، ثم شكلت في العام 1882 كتائب مدفعية من البوسنيين ضمن الجيش النمساوي باسم بوسنياكن Bosniaken (المدفعية البوسنية - الهرسكية) كان مسموحا لها بارتداء أزيائها التقليدية. [المترجم].

والجيـش المصري حتى العام 1953. كان الطربـوش يرمز إلى الطريقة العثمانية للتحديث، إذ تم توفيقه مع الإسلام نتيجة لتبنيه بمبادرة من السلطان ولإمكانية ارتدائـه في أثنـاء الصلاة، مـع أن اسـتخدامه لم يقتصر على المسـلمين. وأصبح الطربوش جـزءا من الحياة اليوميـة، وغدا بتعبير الكاتـب القومي فالح رفقي أتـاي Falih Rifki Atay «جزءا من الـروح التركية». كانت الطريقة التي يُلبس الطربوش بها تشـير إلى الـثراء أو الموقف النفسي. فكان المسـيحيون والأجانب المحليون الذين يعملون في المنطقة، من أمثال غوردن وكتشـنر وريمبو ولوتي(*)، من بين آخرين، يلبسـون الطرابيش عندما يريدون أن يظهروا الاحترام للسـكان المسلمين أو يخففوا عداوتهم(18).

لم تُجدِ الإصلاحات التي أجراها السـلطان نفعـا للإمبراطورية العثمانية في صراعها ضد الثورة اليونانية. وقد تأكّدَ نَجاح الثورة اليونانية بتدمير الأسطول العثماني في معركة نوارين أمام أسـاطيل فرنسا وبريطانيا وروسيا في العشرين من أكتوبر 1827(**). ومن القسطنطينية شَجّعَ السفير البريطاني سير استراتفورد كاننغ قائد التحالف لإعلان الحرب على الحكومـة العثمانية. وفي محاولـة لإقناع الحكومة العثمانيـة بالاعتراف باليونان، غادر السـفراء الأوروبيون الذين باتـوا مهددين في القسـطنطينية، المدينة إلى جزيرة بوروس Poros بين ديسـمبر 1827 ويونيو 1829. وفي هـذه الحادثة، قال لهم الرئيس أفندي: «إن الباب العالي ليس في حاجة إلى أدوية أجنبية. سـيرد السـيف على السيف، ولا مجال للوسـاطة». وأغلقت المضايق أمام السفن الأجنبية. وفي العام 1829، أعلنت روسـيا الحرب على الإمبراطورية. وأثبتت قوات السـلطان الجديدة أنها ليست أفضل من الانكشـارية في تحقيق الانتصارات. وفي العشرين من أغسطس 1829، دخل الروس إدرنة، وهي ثانية أكبر مدينة في الإمبراطورية بعد العاصمة. وأخذ أسطول البحر الأسود الروسي يحوم على فم البسفور.

(*) تشارلز جورج غوردن Charles George Gordon (1833-1885): قائد عسكري بريطاني خدم في الصين والقرم وخدم الخديو إسـماعيل في العـام 1873 (بموافقة الحكومـة البريطانية) كولونيلا في الجيش المصري في التوسـعات المصريـة في حـوض النيل، وشـارك في قمع الثورة المهدية في السـودان، وقُتل على أيدي الثـوار في العام 1885. لورد كتشـنر Lord Kitchener أو هوراشـيو هربرت (1850-1916) ضابط بالجيش البريطاني عُـيّن في العام 1892 قائدا أعلى للجيش المصري. أرثر ريمبو Arthur Rimbaud (1854-1891) شـاعر فرنسي سـافر إلى القسطنطينية في العام 1878. بيير لوتي Pierre Loti (1850-1923) روائي وضابط بحري فرنسي كتب روايتين عن القسطنطينية، هما أزياده Aziyade (أو القسطنطينية) وفانطوم الشرقية Fantome d'orient، وكان مؤيدا لحرب الاستقلال التركية. [المترجم].

(**) ودُمر معه أيضا الأسطول المصري. [المترجم].

كان أهالي القسطنطينية، غير المتحمسين على الإطلاق لإصلاحات السلطان، على حافة الثورة، ذلك أن السيطرة الروسية على ولاشيا ومولدافيا وانهيار احتكارات إمداد الغذاء التي كانت الحكومة تديرها، قد زادت من تهديد المجاعة في العاصمة. يزعم كالوسو أن بعض العلماء توسلوا إلى الأجانب لكي يخلعوا السلطان الكافر. وحتى سياسي رصين مثل دوق ولينغتون Duke of Wellington كان على يقين من التفكك الوشيك للإمبراطورية العثمانية، وخطط لإعادة بناء الإمبراطورية اليونانية في القسطنطينية بقيادة أمير من آل أورانج أو بروسيا[19].

كان من مزايا الموقف الإستراتيجي للإمبراطورية العثمانية، والقسطنطينية تحديدا، أنه لا يمكن لإحدى القوى العظمى أن تحاول غزوها من دون إثارة معارضة القوى الأخرى. علاوة على أن رجال الدولة الذين كانوا يحكمون القوى العظمى وقتذاك كانوا خائفين من العواقب السياسية للرغبة في تدمير الإمبراطورية. لم تكن «المسألة الشرقية» بحال من الأحوال نزاعا بين الشرق والغرب، وتاريخ هذه المسألة نفسها يكشف عن رغبة القوى الغربية، حتى روسيا نفسها، في تجنب تدمير الإمبراطورية العثمانية لأطول فترة ممكنة. وفي ذلك قال وزير الخارجية البريطاني لورد كاسليري Lord Castlereagh: «على رغم همجية تركيا، فإنها تشكل ضمن نظام أوروبا جزءا ضروريا». وفي روسيا، توصلت لجنة حكومية سرية في العام 1828 إلى أن «فوائد الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية تفوق أضراره» (لأنه قد يحل محلها قوى خاضعة لنفوذ بريطانيا أو فرنسا). وعندما تعافى ولينغتون من هواجسه الأولية في شهر أغسطس 1829 من انهيار الإمبراطورية الوشيك، كشف الحقيقة الكبرى، وهي أن «بقاء الإمبراطورية العثمانية ليس من أجل الأتراك، بل من أجل أوروبا المسيحية». وأعلن مترنيش Metternich عن رأيه بأن الإبقاء على الإمبراطورية العثمانية في أوروبا «ضرورة سياسية للنمسا». وعلى مدار السنوات المائة التالية، بقيت القسطنطينية عثمانية فقط بفضل أمثال هذه الآراء، فَضْلا عن تعافي الجيش العثماني من حين إلى آخر وولاء رعاياها المسلمين.

كان السلطان ووزراؤه بارعين في تحويل المصالح الأوروبية لمصلحتهم. من ذلك أنه في التاسع من سبتمبر 1829، وبعد التشاور مع الحكومة العثمانية،

كتب السفيران البريطاني والفرنسي، سير روبرت غوردن Sir Robert Gordon وكونت جوملينو Comte Guilleminot، إلى القائد الروسي: «صرح لنا الباب العالي رسميا، ونحن على يقين من صدق قوله، أنه في هذه الحالة [إذا واصل الروس تقدمهم] فإن الإمبراطورية ستنتهي من الوجود». وسمح الباب العالي للسفيرين باستدعاء أساطيل من البحرية الفرنسية والبريطانية، ظهرت أمام الدردنيل، للمساعدة في حال الحاجة إليها في الحفاظ على القانون والنظام في القسطنطينية. ففي بعض الأحيان، كانت السفارات الأجنبية تحرس المدينة بدرجة أقوى من أسوارها. وكانت الحكومة الروسية قد قررت من تلقاء نفسها ألا تهاجم العاصمة. ووقِّعت معاهدة سلام في إدرنة في الرابع عشر من سبتمبر ونالت روسيا مكاسب واسعة في القوقاز، وتراخت السيطرة العثمانية على الإمارات[20]. وتَقَرَّر مصير القسطنطينية، لمرة لن تكون الأخيرة، بالاتفاق بين الباب العالي والجيش الروسي والبحرية الملكية البريطانية.

وفيما بعد، حاولت القوى الغربية الإبقاء على الإمبراطورية من خلال الأفعال والأقوال. وبداية من العام 1834، بدأت روسيا وبروسيا وبريطانيا ترسل ضباطا عسكريين وبحريين إلى القسطنطينية لإصلاح الجيش والأسطول العثمانيين. وفي أربع حالات - في 1834-1835، و1836، و1853 و1878- منح الباب العالي السفير البريطاني سلطة استدعاء الأسطول إلى البسفور لحماية القسطنطينية إذا طلب السلطان.

اجتمعت على القسطنطينية بعد العام 1826، المذابح والاحتلال والحرائق- شبّ حريق آخر ربما أشعله انكشاريون سابقون دمر بيرا في العام 1831- ما جعلها متجهمة وكئيبة، مثل مدريد إبان العقود الكئيبة التي تلت الحرب الأهلية الإسبانية. عند عودته إلى القسطنطينية في العام 1832، كتب استراتفورد كاننغ: «كان الميل العام واضحا نحو الانحطاط وهجر المدينة». وكانت بيرا «حطاما بكل معنى الكلمة»، والإمبراطورية «تسرع بوضوح لا لبس فيه إلى التفكك»[21].

أثبتت الأحداث خطأ رأي السفير. إذ قام محمود الثاني الذي لم ينل منه الشك أو اليأس والمحصن بالفخر بعائلته، بتغيير عاصمته وحكومته ونفسه، وهو في حالة من البهجة. بدا أن الانكشارية فقط هم الذين أخروا عودة الإمبراطورية إلى انفتاح عهد الفاتح وأوائل القرن السادس عشر. فبعد العام 1830، لم يبدُ

قصر محمود الثاني أوروبيا من الخارج فقط، بل أُثِّث بخزف من مدينة سيفر Sevres الفرنسية وطاولات وكراسي وساعات فرنسية، على رغم أن الباشوات، وبما يذكّر بعادتهم في التمدد على الوثائر، ظلوا يجلسون على الكراسي مع إسناد أقدامهم على رافدة الكرسي بدلا من الأرضية. وأصبحت القهوة تقدم في القصر «على الطريقة الفرنسية تماما بأطباق وملاعق سكر وحتى ملقط سكر». كان السلطان يتناول وجبتين في اليوم، واحدة في الحادية عشرة صباحا وأخرى قبل الغروب، ليس بالطريقة التقليدية على صينية مرفوعة على الأرضية، بل على طاولة باستخدام منديل وشوكة وسكين. وكانت توضع قنينة شمبانيا كبيرة بجانبه على العشاء. لا يرجع المراقبون غير المحبين له بشرته المتوردة إلى ساعات التدريب الطوال التي كان يقضيها في الهواء الطلق، بل إلى ساعات الشراب في القصر. وقد كتب أطباؤه أنه «كان يحب أن يرى مائدته مغطاة بأفخر الأطباق وأجود الخمور الفرنسية ... وكان خبيرا في اختيار وجباته، وكان أحيانا يتخم نفسه بسخاء». وفي المساء كان قصره يدوي بصوت الموسيقى. وظهر في القصر راقصون أولاد، وكذلك بنات يونانيات من خارج القصر، وكان ظهور اليونانيات في القصر صدمة لحاشية السلطان[22].

كان السلطان أكثر الناس اطلاعا في إمبراطوريته، وكانت له عيون وآذان في كل مكان، وكان آخر سلطان يزور المقاهي «متسترا» (على رغم أنه كان معروفا دائما) للوقوف على الرأي العام. وكان يتحدث بالثقة الملكية مع الناقمين في الثكنات والمساجد، ويعفو عن الثوار، ويلعب مع أطفاله ويمزح مع الترجمانات dragomans . وفي طرابيا، رقص مع بارونة أوتنفيلز Baroness Ottenfels زوجة السفير النمساوي (وهي جرأة لا تصدق في إمبراطورية لم تكن الراقصات فيها أفضل كثيرا من المومسات)، وكان يخرج للصيد برفقة جماعات مختلطة من العثمانيين والأوروبيين. وخلال عقد، اختفت عادات عمرها قرون، من بينها حق السلطان في الإعدام العاجل. نُفذت آخر حالة إعدام عاجل في وزيريه بيرتف Pertev وواصف Vassaf في العام 1837. وعندما سأل زائر إنجليزي، هو سير غرينفيل تمبل Sir Grenville Temple، مسؤولا بالقصر عما إذا كانت الرؤوس لاتزال تُزيّن الباب الإمبراطوري لتوبكابي، تلقى الإجابة المتحسرة: «في السابق كثيرا جدا، لكن الآن نادرا»[23]. كان اقتناع السلطان وتصميمه على إنقاذ دولته

هـما القوة الدافعة وراء التحديث. على أنه لا توجد أدلة قوية على القصة التي تذهب إلى أن أمه نقش الديل(*) التي أصبحت السلطانة الوالدة من العام 1808 وحتى وفاتها في العـام 1817، كانت ابنة عم الإمبراطورة جوزيفين وأنها دفعت ابنهـا إلى التغريب. كانت نقش بصفتها السـلطانة الوالـدة بمقدورها أن تقيم اتصالات مع العالم الخارجي. لكن هذه الشائعات، مثل القصص اللاحقة حول أم مصطفى كمال أتاتورك، تكشف عن الرغبة الغربية في عدم نسب تحديث ناجح إلى شخص تركي[24](**).

وفي العام 1826، أجرى سـير اسـتراتفورد كاننغ في توبـكابي مقابلة اعتماده التقليدية سفيرا. وفي العام 1832، ارتدى في بيشيكتاش الزي الرسمي الديبلوماسي بلا قفطان، كما في البلاطات الغربية. اسـتقبله السلطان «بلطف شديد وبتكريم أكثر من المعتاد. وسـمح لكل الرجال المرافقين لي بالدخول عليه وتقديم أنفسهم له واحدا بعد الآخر، وأعطاني علبة سعوط ماسية وحصانا... إلخ»[25].

بعـد أن تبنى محمـود الثاني العادات الأوروبية، تبعـه وزراؤه على الطريق نفسـه. وقالوا إنه مادامت البراندي والشمبانيا لم تكونا موجودتين في زمن النبي، فـلا يمكن أن يكون قد حرمهما. في أثناء تناوله الإفطار في أوسـكودار في صبيحة مغـادرة قافلة الحج إلى مكة في العام 1834، تناول سـير غرينفيل تمبل من قائد القافلة فاكهة وسـمكا ولبنـة وبراندي، إضافة إلى الغليـون والقهوة التقليديين. وفي الخامس والعشرين من ينايـر 1835، أُقيمت في «قصر إنجلترا»(***) حفلة راقصـة كبـيرة حضرها عدد من الباشـوات، وعزفت فرقة الحـرس الإمبراطوري

(*) تقول أسـطورة إن نقش الديل Nakshidil هي نفسـها أيمي دو بوك دي ريفيري Aimee du Buc de Rivery ابنة عم الإمبراطورة الفرنسية جوزيفين، تاهت في البحر في عمر الحادية عشرة، وأسرها قراصنة شمال أفريقيا، وبيعت إلى الحريم السلطاني. [المترجم].

(**) والـدة مصطفى كمال هي زبيدة هانم، وهي تركية يعتقد أنها تنتمي إلى جماعة يوروك Yoruk التركية، لكن ثمة من يقول إنها من أصول سـلافية، أو فيها دم سـلافي، وهي أمور واردة بالنظر إلى التعددية العرقية الكبيرة التي ميّـزت الإمبراطوريـة وتجارة العبيد وعادة اقتناء الجواري، وتعد الأسرة الحاكمة التي كانت تتناسـل من خلال جوارٍ أجنبيات أوضح مثال على ذلك. لكن ما ينسبه المترجم إلى الغرب من سطو على نجاحات الأتراك بنسبها إلى أناس من أصول غربية، مثل الإيحاء بأن أم محمود الثاني ومصطفى كمال من أصول غربية ربما روّج لها كُتاب من أصول تركية أو إسـلامية من باب ذم هؤلاء الحكام «التغريبيين» والتشكيك في نسبهم وفي مقاصدهم، من هؤلاء المؤلف المجهول لكتاب «الرجل الصنم». [المترجم].

(***) تذكر أنهم كانوا يسمون مبنى السفارة قصرا. [المترجم].

المكوّنــة كليا من أتراك موســيقى رقصة الكدريل والفالــس والكوتليون. وافتتح القائــد العام للجيش العثماني الحفلة برقصة البولونيز مع الســفيرة الفرنســية. لم يســتطع الضيوف الإنجليــز أن يخفوا إعجابهم بـ«السرعــة المذهلة» لاختفاء زجاجات الشــمبانيا والبوردو. واكتسبت القســطنطينية هوية جديدة بوصفها عاصمــة التحديث. وفي ذلك العــام، تخلى الأمير الصربي ميلــوس أوبرينوفيتش Milos Obrenovich في زيارته إلى ســيده السلطان في القسطنطينية، عن لباسه العثــماني التقليدي ليرتدي الطربوش الجديد والفراك العثماني أي الإســطمبولين stambouline(*). وعلى العشــاء مع الصدر الأعظــم، تذوق لأول مرة الأطعمة والشمبانيا الفرنسية[26].

تغيرت الحكومة المركزية بالتزامن مع التغير الذي لحق بالقصر، إذ أُنشــئت في العام 1836 وزارات جديدة للداخلية والعدل والخزانة. وأصبح رئيس الكُتاب وزير الخارجية. وقدم مكتب الترجمة، الذي أنشــئ في العام 1821 لسد الفجوة الناتجة عن غدر الفنار phanar، التعليم لبعض كبار المصلحين المستقبليين. وغدا الصــدر الأعظــم أبعد عن أن يكــون «نائبا مطلقا» للســلطان وأقرب إلى رئيس للــوزراء. وجاءت بناية الباب العالي الجديــدة التي انتهى بناؤها في العام 1844 بقناطر وقوصرات إيطالية أشبه ببناية الحكومة البريطانية في كلكتا [27].

وفي نوفمبر 1831، ظهرت أول جريدة عثمانية رســمية باسم تقويم الوقائع Takvim-i Vekayi أو المرصد العثماني Moniteur Ottoman بطبعتين عثمانية وفرنســية(**). ونظرا إلى كون العلماء الأشــخاص الأفضل تعليما بين العثمانيين، فقــد كانوا دائما في طليعة الإصلاح، من ذلــك أن من تولى الإشراف على الطباعة كان واحدا من العلماء يدعى شيخ زادة أسعد محمد أفندي Sheyhzade Essed Mehmed Efendi وشخصا فرنسيا من سميرنا يدعى م. بليك M. Blaque. ومن أجل ضمان انتشــار الأخبار بين جميع ســكان العاصمــة، أضيفت لاحقا طبعات باللغــات اليونانية والأرمنية والفارســية والعربية. وقيل إن الســلطان شــخصيا

(*) الفراك، سترة رجالية سوداء تبلغ الركبتين. [المترجم].

(**) صدرت أول جريدة رســمية مصرية بالاسم نفســه «الوقائع المصرية» في وقت سابق على الجريدة التركية، في العام 1828. [المترجم].

كان يراجع المقالات ويكتب بعضها. كتب قسيس السفارة البريطانية روبرت أن «الجريدة شقت طريقها إلى المقاهي، وأن الأتراك أنفسهم الذين رأيتهم في السابق يضيعون وقتهم شبه مغيبين بالقهوة والتبغ، أراهم الآن منتبهين والجريدة في أيديهم، يتفحصون الأخبار بنهم»[28]. كان السلطان يعطي المدينة حياة جديدة.

كما غيّر السلطان المبدأ الحاكم لمعاملة الأقليات، وإن لم يتغير الواقع فوريا. فوعد في خطاب له في العام 1830 بأن «أميّز بين رعاياي، المسلمين في المساجد والمسيحيين في الكنائس واليهود في المعابد، لكن ليس ثمة فرق آخر بينهم. فمودتي وعدالتي لهم جميعا قوية، وكلهم أبنائي». لم تقطع أهوال العام 1821 الحاجة المتبادلة القديمة لدى الحكومة العثمانية إلى اليونانيين ولدى اليونانيين إلى الوصول إلى القسطنطينية والإمبراطورية العثمانية. ولم تكن الحكومة العثمانية ترغب في عاصمة إسلامية تماما. وفي شهر مايو 1821، قدم البطريرك الذي حل محل غريغوري الخامس مذكرة رصينة أكد فيها للسلطان «ولاء مواطنيه ووفاءهم المتين». وفي أغسطس 1821، دعا إعلان للحكومة العثمانية اليونانيين إلى العودة إلى المدينة وطمأنهم بأن أحدا منهم لن يعاقب.

وإذا كانت القسطنطينية مكانا لذكريات طويلة، فإن هذه الذكريات كانت انتقائية وفق الظروف. كتب ولش:

> عندما غادرت القسطنطينية [في العام 1825]، كان اليونانيون البؤساء في حالة من الذعر والكآبة الشديدين، لا يخرجون من بيوتهم إلا نادرا، وإن خرجوا يتخفون عن الأبصار ويسيرون في حالة من الريبة والذعر، ما طبع واقع الخوف والريبة الذي ظللهم. ولدى عودتي [في العام 1831] وجدتهم صاخبين ومفعمين بالحياة ومرحين كما كانوا دائما.

كان انبعاث اليونانيين في شوارعهم جليا. فـ«أخذوا الجدار» من الأتراك، بمعنى أنهم جعلوا الأتراك يمشون خارج الرصيف. وفي الاحتفالات الدينية، كانوا يرقصون في الشوارع بأزهى ملابسهم، تسبقهم الموسيقى، قبل أن يذهبوا إلى الحانات ليملأوها بصياحهم وضحكهم. وبعد العام 1830، بُنيت خمس وعشرون كنيسة يونانية جديدة، كما أُعيد بناء الكثير من الكنائس التي نهبت

مثل ضريح باليكلي، على نطاق أوسـع. وفي العام 1831، أسست مدرسة تجارية يونانيـة على جزيـرة خالكي Halki تضم فصولا باللغات الإنجليزية والفرنسـية والألمانية والتركيـة. وبداية من العام 1834، عاد البطريرك يتلقى تنصيبه وحلته من السـلطان مباشرة، كما كانـت الحال قبل خيانة سـلفه في العام 1657. وفي العام 1838، بُني مستشفى باسم «المؤسسة الخيرية القومية» في باليكلي، كانت الحكومة العثمانية تزوده بطعام مجاني[29].

ظهـر «فنار ثان» تقـوده عائلات مثل أريسـتاركي ومافروينـي وكاراثيودوري Karatheodory. كانـت لـوسي مافروكورداتـو Lucie Mavrocordato ابنة عم ألكسـندر مافروكورداتو حلقة وصل بين الفنارين القديم والجديد. ولدت لوسي في القسـطنطينية في العـام 1812 وماتت فيهـا في العام 1884. أسـس زوجها طبيب محمـود الثاني اسـتيفان كاراثيـودوري Stephane Karatheodory الذي قيل إنه يسـتطيع أن يقـرأ الكتاب المقدس بثماني عـشرة لغة، عائلة مـن اليونانيين تخدم السـلطان. شاهدت الكاتبة الإنجليزية جوليا باردو Julia Pardoe «الفنار الثاني» في حفلـة راقصة أقامها تاجر يونـاني ثري في البهو الطويل لبيته بالفنار في أثناء كرنفال العام 1836. احتفظ الضيوف بالحس العثماني باللون «مثل الأزرق الفاتح والقرنفلي الغامـق والقرمزي الوهاج التي لم أرها مـن قبل مجتمعة في مكان واحد. يمتد هذا الذوق المتألق إلى حليهم التي يمزجون بينها على نحو اسـتثنائي». رقصت جوليا مع نيقولاس أريسـتاركي بيـه Nicholas Aristarchi Bey، ذلك الشـخص الدمث ذي العيـنين اللامعتين و«الأسـنان التي لم أر أنصع منها بياضا مـن قبل». كان نيقولاس ابن الترجمان الذي قُتل بأمر السلطان في العام 1821، وتعرضت أمه وأخواته للنفي والإفقار. لكنه مع ذلك، كان يخدم السـلطان مستشـارا للسياسة الخارجية ويخدم البطريـرك وكيـلا له. وحدت الحفلة البلـدان والعصور المختلفـة، إذ كانت الفرقة الموسـيقية ولاشية، وثلثا الشـباب على الأقل يتحدثون الفرنسية، وارتدى أريستاركي الذي اشـتهر عن حق بولائه لروسـيا ملابس غربية، وفي الوقت عينه، وبما يتفق مع مكانته العثمانية، كان يتبعه إلى ساحة الرقص خدم يمدونه باستمرار بمناديل نظيفة، وغليون فاخر وكرسي يجلس عليه[30].

استفادت الجالية الأرمنية هي الأخرى من ذاكرة القسطنطينية القصيرة. ففي العام 1819 اكتشفت أخطاء في حسابات أرتين دوزيان Artin Duzian مدير دار سك العملة. ومن دون أن يُعطى أرتين الفرصة لإرجاع الأموال، أجبر أربعة من أفراد عائلته على التوقيع على اعترافات بالاختلاس ثم شُنقوا من نوافذ قصرهم الفخم الكائن على البسفور (أعطي المنصب لاحقا إلى حسين باشا مساعد السلطان في «الحدث المبارك»). ومع ذلك فقد استعادت العائلة منصب مدير دار سك العملة في العام 1834، وظل لهم حتى العام 1890. وفي العام 1830، وبعد صراع طويل ومؤلم مع الأرثوذكس الأرمن أدى إلى اضطرابات في كومكابي ونفيهم إلى الأناضول، جرى الاعتراف بالكاثوليك الأرمن كملة أو جماعة دينية مفصلة. وفيما بعد، دخلت الجماعة الأرمنية عصرا ذهبيا. ولاتزال الكنائس الأرمنية التي بُنيت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر ماثلة للأعين داخل القسطنطينية وحولها. كان مستشار محمود الثاني الأرمني هاروتيان أميرا بيزديان Haroutian Amira Bezdjian يتردد على القصر كثيرا، وحتى السلطان نفسه كان يزور بيته المتواضع في ينيكابي. وفي أثناء حرب العام 1829، نصح المستشار الأرمني سيده بتحرير أسعار الطعام وتركها لقوى السوق، وهو العمل الذي حال دون تجويع المدينة. وساعد أيضا في تأسيس مدارس وكنائس أرمنية ومستشفى سانت سيفيور القومية التي لاتزال باقية إلى اليوم. وعندما مات بيزديان في العام 1833، وضع رفاته في تابوت على مركب وجدف بها أمام قصر بيشيكتاش تكريما ووداعا من السلطان له[31].

نُقلت الصناعة تحت سيطرة السلاطين إلى الأرمن المخلصين المجدين الذين كانوا أكثر من المسلمين تعرضا للثقافة واللغات الغربية، بينما بقيت للمسلمين إدارة الحكومة والجيش. كان الجيش هو المبرر لإدخال المصانع، مثل أشياء أخرى كثيرة، إلى القسطنطينية. حتى العقد قبل الأخير من القرن الثامن عشر، كان البارود المحلي رديئا وشحيحا جدا، ما استلزم استيراد بارود أجنبي - سرا - من إسبانيا وإنجلترا. وبدافع الرغبة في بلوغ «المعايير الأوروبية» أو «المعايير الإنجليزية»، وهما العبارتان اللتان كانتا تترددان دائما في الخطابات الرسمية، فُتحت مصانع بارود جديدة بداية من العام 1795 في يشيلكوي Yesilkoy

التـي يوجد المطار بها حاليا وباكركوي Bakirkoy وأزادلي Azadli. قامت عائلة داديان Dadian الأرمنية الكبيرة التي شـكّلت مركز قوة في حياة القسطنطينية على مدار المائة سـنة التالية، عـلى إدارة هذه المصانع. وسرعان ما حصل أراكيل أمـيرا داد Arakel Amira Dad الـذي جاء إلى القسـطنطينية من الأناضول في العـام 1767 في عمر الرابعة عشرة للإقامة مع عم ثري له، على لقب البارودجي بـاشي Barutcubasi أي رئيس صناع البارود. وبدايـة من العام 1805، وبغرض الاسـتغناء عن الواردات الإنجليزية، دشنوا أنوالا لنسج القماش. وفي العام 1810، كتب محمود الثاني: «الأسطى أراكيل مخلص. بارك الله في الجميع!».

أدار ابـن أراكيـل المدعو هوفهانيـس أميرا داديـان Hovhannes Amira Dadian المولود في العام 1798، مصانع البارود، ومصنع ورق في بايكوز Beykoz تأسـس في العام 1804 ومصنع نسـيج في أيوب تأسـس في العـام 1827. عرض هوفهانيـس طرقه الجديـدة لإنتاج البنادق في حضور الصدر الأعظم نفسـه في التاسـع والعشرين من يونيـو 1827. وأصبح رجل أعمال دوليـا يعرف اللغات العثمانيـة والأرمنيـة واليونانية والفرنسـية ويعمل من خلالها(*). وزار فرنسـا وإنجلترا على نفقة الحكومة في الأعوام 1835-1836 و1842-1843 لدراسة أحدث التقنيـات الصناعية وشراء المحركات البخارية. وفي العقدين الرابع والخامس من القرن التاسـع عشر، أنشـئ المزيد من المصانع الحكومية داخل القسـطنطينية وحولها، كان بعضها يسـتخدم طاقـة البخار. كانت الأسـلحة والبنادق تنتج في مصنع قريب من القصر الإمبراطوري في دولمة بهجت Dolmabahce، والأحذية والمسكيتات(**) والجلد والنحاس والصوف فيما كان يشبه منطقة صناعية غرب إيديكولي Yedikule. وفي العام 1837، سُرّ محمود الثاني بمصنع البنادق في دولمة بهجت لدرجة أنه قال لهوفهانيس داديان: «اطلب مني ما تشاء؟» ولبى له طلبه بعدم جلب الأطفال المسيحيين من الأناضول للعمل في المصانع في القسطنطينية. لكن كانت هناك شـائعات أيضا عن عدم الكفاءة والفساد. وصف مبشر أمريكي

(*) لايزال أحفاده يقتنون خواتمه الثلاثة المختومة التي نقش اسمه على كل منها بحروف أبجدية مختلفة: العثمانية والأرمنية واللاتينية. [المؤلف].

(**) المُسكيت بندقية قديمة الطراز خاصة بجند المشاة. [المترجم].

عائلة داديان بأنهم «رجال يتسمون بالجرأة والمهارة والنشاط، يكمن تميّزهم في معرفة كيف يتعاملون مع الناس. فكان أحد مبادئهم أن لكل رجل ثمنا، وأنهم لم يصادفوا رجالا كثيرين استعصوا على استخدامهم». أغلقت بعض مصانع عائلة داديان لأنها لم تستطع أن تتنافس مع الواردات الغربية. وكانت المصانع الوحيدة التي عملت جيدا في مدينة المنسوجات هذه هي تلك التي كانت تنتج الطرابيش والمنسوجات والسجاد. وفي القصور الإمبراطورية التي بُنيت في وقت لاحق من القرن، كان من بين المنتجات القليلة المصنوعة في الإمبراطورية الأغطية الحريرية للجدران والكراسي المنسوجة في مصنع حكومي في هاراكا Hereke على بحر مرمرة[32].

أُدخلت القسطنطينية قسرا في العصر الصناعي على المستويين المادي والعقلي. ففي العشرين من مايو 1828 اصطفت حشود مذهولة على ضفتي البسفور لمشاهدة وصول أول سفينة بخارية، وهي السفينة الإنجليزية «سويفت» Swift التي اشتراها السلطان من دون إبطاء. وفي العام 1831، ظهر رمز آخر للتقدم والازدهار، وهو المسرح الذي افتتحه في شارع بيرا الكبير في مقابل غَلَطَة سراي Galatasaray، الكاثوليكي السوري ميخائيل نعوم أفندي Mihail Naum Efendi، وسرعان ما بدأ دونيزيتي باشا في إقامة موسم سنوي للأوبرا في هذا المسرح. وأخيرا في العام 1836، أنشئ المشروع الذي نوقش في أوائل القرن السادس عشر مع ليوناردو ومايكل أنجلو، وهو الجسر العابر للقرن الذهبي. كان السلطان أول من عبَر الجسر، وظل يقطعه ذهابا وإيابا بإحدى البدع الأوروبية الأخرى، وهي المركبة carriage[33].

أُنشئت مدرسة للجراحين الطبيين والبحريين في السنة نفسها بجوار مدرسة الغلمان القديمة في غَلَطَة سراي، جاء أساتذتها من فيينا، وقُدم التعليم باللغة الفرنسية. قال محمود الثاني للمسلمين المصدومين الذين تربوا على تفوق الطب الإسلامي، إن سبب التعليم باللغة الفرنسية هو استدماج أحدث منتجات التقدم العلمي الأوروبي بأسرع ما يمكن. والأوروبيون من جانبهم «بسّطوا طرق تدريس هذه الموضوعات كثيرا وأضافوا اكتشافاتهم الجديدة، ما جعل الكتابات العربية تبدو لي معيبة بعض الشيء مقارنة بالكتابات الأوروبية ... وغرضي من

أن أجعلكم تدرسون اللغة الفرنسية لا يتمثل في تعلم اللغة الفرنسية في حد ذاتها، بل كوسيلة لتعلم الطب، وبغرض دمج ذلك العلم خطوة بخطوة في لغتنا». فتحت هذه المدرسة أبوابها للعثمانيين من كل الأديان، وبحلول العام 1847، ضمت ثلاثمائة طالب مسلم وأربعين يونانيا وتسعة وعشرين أرمنيا وخمسة عشر يهوديا. كما أنشئت أيضا مدارس متعددة الفنون ومدارس إدارية وعسكرية وهندسية، كانت الأساس لبزوغ القسطنطينية بعد العام 1850 كعاصمة للتعليم الحديث[34].

بدأت اللغة الفرنسية تحل محل الفارسية لغة ثانية للنخبة العثمانية. وسرعان ما أصبحت لغة الأكاديمية العسكرية والرسائل من الديبلوماسيين العثمانيين في الخارج إلى وزارة الخارجية في العاصمة. وعلّمها نيقولاس أريستاركي لولي العهد عبدالمجيد أفندي. وانتشرت اللغة الفرنسية على نطاق واسع، حتى إنه بحلول القرن العشرين، كانت اللغة التركية قد أخذت خمسة آلاف وستمائة كلمة من اللغة الفرنسية، منها كلمات مثل makillaj [مكياج] وnoter [الموثق العام] وruj (أي rouge [أحمر] - شيوعي). وفرت اللغة الفرنسية للعثمانيين وسيلة أكثر فعالية من لغتهم للتواصل مع المدينة ومع العالم. كانت قلة من غير المسلمين تعرف كتابة اللغة العثمانية، بينما كانت اللغة الفرنسية اللغة الثانية لليونانيين والأرمن وسفارات بيرا وأوروبا المتعلمة. من أمثلة ذلك أنه بداية من العام 1835، كانت الترجمة الفرنسية لكتاب هامر العظيم عن تاريخ الإمبراطورية العثمانية، تباع في متاجر كتب اللغة الفرنسية في أنحاء أوروبا كافة، ومنها القسطنطينية التي ضمت في العقد الرابع من القرن التاسع عشر متجر كتب دوليا (هي مكتبة ج. ب. دوبوا J. B. Dubois) أفضل مما تضمه اليوم.

من ذلك الحين فصاعدا، لم تعد القسطنطينية على تواصل مباشر مستمر مع مكة والقاهرة فقط، لكن أيضا مع باريس وفيينا. وبعد فجوة الثورة والإمبراطورية، استأنفت باريس دورها عاصمة للعلم والطب والأدب والمتعة[*]. وكانت «مهد

(*) تشير فرنسا الثورية إلى الفترة من العام 1789 إلى العام 1799، وتشير فرنسا الإمبراطورية إلى الإمبراطورية الفرنسية الأولى أو الإمبراطورية الفرنسية الكبرى أو الإمبراطورية النابليونية التي بدأت بتتويج نابليون إمبراطورا في العام 1804 حتى سقوطه النهائي في وترلو في العام 1815، وتشير أيضا إلى الإمبراطورية الفرنسية الثانية التي تلت الجمهورية الثانية وسبقت الجمهورية الثالثة بين العامين 1852 و1870. [المترجم].

أوروبـا الجديدة والمختبر الكبير الذي يتشـكل فيـه التاريخ العالمـي» بتعبير زائر ألماني[35]. وهو الحكم الذي اتفق فيه مع شاعر عثماني قال:

اذهب إلى باريس أيها السيد الشاب إن كانت لديك أي أمنية،
فإن لم تذهب إلى باريس، فإنك لم تأتِ إلى العالم.

خدم المصلحون الكبار مصطفى رشيد باشا وعلي باشا وأحمد وفيق باشا بلادهم في باريس وتعلموا فيها. فباريس القرن التاسـع عـشر، وليس «المبادئ العليّة للعام 1789»، هي التي غيّرت القسطنطينية.

كان مـن الإصلاحات الأخرى التي أطلقهـا محمود الثاني إدخال كامل أجهزة الحجر الصحي ومستشـفيات الطاعون بداية من العام 1836 للتصدي لانتشـار الطاعـون. وحتـى العام 1914، ظل مجلـس صحي يتكون مـن طبيبين تركيين وخمسة أطباء أجانب يعيشـون في المدينة وخمسة ممثلين للسفارات الأجنبية، يدير نظام الحجر الصحي. كانت اللغة الرسـمية للمجلس هي اللغة الفرنسـية. وبحلول العام 1850، بدأ الطاعون يختفي. على أن التحديث والتغريب لم يكونا مترادفين على أي حال من الأحوال، إذ كان التحديث يشق طريقه دائما على رغم التأثير الغربي، وليس بسـببه. فعلى رغم أن السفارات الأجنبية ساعدت في إدارة نظام الحجر الصحي، فإن السـفير البريطاني لورد بنسـونبي Lord Ponsonby خشي من أن يؤدي نظام الحجر الصحي إلى إعاقة التجارة وإلى تفتيش السلطات لبيوت الأجانب على الرغم من الامتيازات. وضع السفير الامتيازات والأرباح قبل الحياة نفسها حين كتب في شهر يناير 1839: «إنني كاره لهذه الإجراءات»[36].

انعكس تغير المدينة في مكانة النساء. ذكرنا فيما سبق، مسيرتهن الاحتجاجية إلى القصر في العـام 1826. وسرعان ما أصبحت الحرية التي تمتعن بها كبيرة إلى حد أنها اسـتحثت مراسيم رسمية شجبت «إثم النساء» اللاتي يلبسن «كل أنواع البـدع»، وتحظر عليهن تعيين الحوذية والسـيّاس من الشـباب المتأنقين. كانت العباءة الشاش الرقيقة المسماة فراجة شفافة جدا بحيث كانت تكشف أكثر مما تسـتر. في موكب قافلة الحج، «وعلى رغم أنهن كن يخفين حواجبهن ووجوههن بحـرص، ما عدا أعينهن، كن يتركن فراجاتهن تسـقط بإهـمال، ولم يتورعن عن

أن يكشفن من أنفسهن أكثر مما تكشفه عادة أقل النساء حشمة في لندن وباريس».

لم تحظ امرأة بالحرية التي تمتعت بها أخت السلطان الأثيرة لديه أسماء سلطان Esma Sultan الشهيرة بجمال جواريها وانحلال أخلاقها. ولدت أسماء في العام 1778، وترملت في عمر الخامسة والعشرين، وعلى خلاف معظم الأميرات الأخريات لم تتزوج ثانية. في الليل، كان قصرها الكائن على البسفور يجذب مراكب الكياك من كل الأحجام التي كانت ترسو بجانبه لسماع موسيقى فرقتها النسائية الشهيرة. أعجب أمير جوانفيل Joinville ابن الملك لويس فيليب كثيرا بمنظر الأميرة ذات الملامح العُقابية aquiline - featured وثلاث مرافقات فاتنات يطرن عبر البسفور في قارب كياك يجدف عليه مجدفون لا تسع قمصانهم الرقيقة النسيج وسراويلهم أجسامهم الرياضية، إعجابا فاق إعجابه بجامع آيا صوفيا نفسه.

كانت زيارات الأميرة إلى مياه أوروبا أو آسيا الحلوة غارات لصيد العبيد. ففي تلك الوديان ذات الوفرة في النور والظل والماء، وبين لعب الأطفال ومجموعات النساء ذوات الملابس الزاهية الجالسات في ظل أشجار الليمون العتيقة، كانت الأميرة تحط على المكان مثل طائر جارح يحوم فوق قطعان من الطيور عديمة الحيلة. كان كل الرجال يرتعدون خشية أن يسترعي أحدهم انتباهها، لأنها كانت في هذه الحال تبعث خادما لاستدعائه إلى قصرها، مع العلم أن رفض هذا الاستدعاء كان مستحيلا. وبعد أن تشبع رغبتها، يقال إنها كانت تأمر بإغراق الذكر المنهك في البسفور[37].

بُني قصرها في أورتاكي (كانت لها قصور أيضا في ماتشكا Macka وأيوب وسلطان أحمد) في نهاية القرن السادس عشر، وكان يحوي أجنحة «مثقلة بالتذهيب ومنقبضة بالكورنيشات». كان الصالون الكبير مغطى بسجاد فارسي ويصطف حوله أربعون عمودا من الحجر السماقي. في شهادتها، كتبت جوليا باردو التي جاءت مثل كثير من الزوار الأوروبيين لملاحظة الثورة التي أحدثها محمود الثاني في القسطنطينية بعد 1826 وتسجيلها، أن «غرفة النوم التي يتدلى منها حرير قرمزي وأزرق وتَتَضَوَّعُ فيها عطور وأشياء تنم عن الذوق،

تعطي إحساسا إنجليزيا تماما بالراحة والسكن». جمع جناح السلطان بين الترف العثماني والراحة الإنجليزية، فشمل مباخر من الذهب مرصعة بأحجار كريمة، ومصحفا قرآنيا كتبه السلطان بيده و«يكثر به الذهب في الطغراء الإمبراطورية المزخرفة بحروف منمقة في كل زوايا الصفحات»، وسريرا أوروبيا مغطى بنسائج موصلين muslin زهري[38].

كانت أسماء سلطان واحدة من أغنى نساء القسطنطينية، وكان تأثيرها في «سيدي الملائكي»، كما كانت تدعو أخاها السلطان، كبيرا لدرجة أن محمد علي والي مصر وجه إليها رسائل على أمل أن تؤثر في قرارات السلطان. كانت بساتين المصطكاء (المستكة) المملوكة لها على جزيرة خيوس من أكثر ضياعها ربحا. وفي 1822، كانت مذابح اليونانيين على أيدي القوات العثمانية على الجزيرة قد أنتجت تخمة من العبيد اليونانيين في شوارع العاصمة وأسواقها. كان مشهد الشابات اليونانيات المرتعبات اللاتي يُسقَن «مثل الماشية في سوق إنجليزي» في عيني روبرت ولش «أبشع صورة للمعاناة الإنسانية رأيتها على الإطلاق». غضبا على الخسائر في الأرواح وخسارتها دخل ضياعها على الجزيرة، أقنعت أسماء السلطان بصرفِ الضباط المسؤولين عن المذابح. كما أطلقت سراح بعض العبيد وأرجعتهم إلى خيوس على نفقتها الخاصة[39].

دفع جمال جواري أسماء وحُسْن نصحها، أخاها السلطان إلى التردد عليها كثيرا. كان لدى السلطان محظيون ذكور، منهم شاب بدين وسيم يدعى مصطفى أفندي، «لوحظ» وهو يخدم في مقهى أبيه في بيبك. بعد أن بدأ مصطفى غلاما، ترقى إلى مدير بيت السلطان وسكرتيره الخاص، واشتهر بالجشع والطيش والتبذير[40]. وكان السلطان يحب النساء أيضا، خصوصا جارية أخته الرشيقة المنمشة نزيب Nazip التي كانت ضحكتها «صوت البهجة نفسها». كانت نزيب سعيدة في قصر أسماء لدرجة أنها تمنعت على السلطان نفسه ثلاث مرات، وهو الحق الذي تمتعت به لكونها ابنة أسماء بالتبني. ثمة جارية جميلة أخرى قدمتها أسماء لأخيها تسمى بسمة العالم Bezm-i Alem (حين أصبحت السلطانة الوالدة في العهد التالي، كانت من كبار المحسنين على فقراء المدينة ونسائها) أنجبت لمحمود الثاني ابنين - عبدالمجيد وعبدالعزيز - وهي المرة الأولى منذ

العام 1808 التي وجد فيها أكثر من ذكر واحد في العائلة ولم يكن العرش العثماني متوقفا على حياة واحدة. وهكذا استقرت البيولوجيا العائلية[41].

كان برنامج التحديث الذي أدخله محمود الثاني ثورة من أعلى، نشرت بين رعاياه إحساسا بالخوف والضعف. علاوة على أن أسعار الطعام كانت ترتفع منذ أن توقفت ولاشيا ومولدافيا عن إمداد القسطنطينية بالطعام الرخيص بعد معاهدة العام 1829. وأدت معاهدة تجارية مع بريطانيا في العام 1838 إلى إبطال الاحتكارات الحكومية وفتحت الإمبراطورية أمام طوفان من السلع البريطانية، ما جلب الخراب لكثير من الحرف العثمانية. وأصبح الشحاذون أكثر انتشارا في شوارع المدينة. وتكشف سخط الجنود في الجيش الجديد الذين كان كثير منهم من المجندين بالسخرة من المناطق الريفية. وجد ضابط بروسي بالجيش العثماني يدعى هيلموت فون مولتك Helmuth von Moltke الذي انتصر مستقبلا في الحرب الفرنسية - البروسية، السلطان وكبار المسؤولين والضباط أناسا مهذبين، في حين كانت النساء والأطفال في الشوارع يهينون الأجانب من حين إلى آخر، وحتى الجنود كانوا يطيعون ضباطهم الأجانب، لكن يرفضون أداء التحية لهم. ورأى مارمون Marmont المارشال السابق لنابليون الأول وتشارلز العاشر أن قوات السلطان في أسوأ حالة ممكنة: «إنهم ليسوا قوات، بل حَشد من الرجال، مظهرهم العام بائس ومخزٍ. ومن الواضح أنهم مدركون لضعفهم». وذكرت جوليا باردو أنه على النقيض من العظمة الخارجية للثكنات وورش الحرس الإمبراطوري، كان الجنود أنفسهم سيئين جدا، «مجرد صبية متسخين ومترهلين وسيئين جدا... إنهم غير جديرين بأن يكونوا قوات عائلة حاكمة كما يتخيل المرء»[42].

تمدد الاستياء الشعبي إلى السلطان نفسه. وزعم اليونانيون أنهم رأوا نذير تحول السلطان الوشيك، وهو صليب قسطنطين (الذي رآه مؤسس المدينة قبل اعتناقه المسيحية قبل ألف وخمسمائة سنة) يحوم فوق آيا صوفيا(*). وقال المسلمون: «الفرنجة يديرون رأس السلطان وقريبا سيكون منهم». وفي العام 1837، وبينما

(*) يقال إن الإمبراطور الروماني قسطنطين الأكبر (حكم من 306 إلى 337م) في أثناء حربه ضد مكسينتيوس Maxentius، رأى في منتصف النهار صليبا في السماء على هيئة كوكب مكتوبا عليه باليونانية «بهذا تغلب». [المترجم].

كان السلطان يعبر الجسر فوق القرن الذهبي، سبّه درويش يُعرَف باسم «الشيخ المُشْعِر» بالباديشاه الكافر: «ستسأل أمام الله عن معصيتك». وعندما وصفه السلطان بالمجنون، صاح الدرويش: «مجنون، أنا مجنون! مَنْ فقد عقله هو أنت ومستشاروك الوضيعون!» وعندما أُعدِم الدرويش، اعتبره الناس شهيدا. وسرعان ما شوهد نور ساطع يلمع فوق قبره[43].

بدأت القسطنطينية تفقد الثقة بنفسها. ففي زيارة إلى بيت عثماني، كررت السيدات المسلمات القول لجوليا باردو «لكَم أرى كل شيء في تركيا أدنى مما اعتدت عليه في أوروبا». ونظرا إلى معرفته بالتعليقات الوقحة من جانب الغربيين في كل مرة يندلع فيها حريق في المدينة، كتب المصلح الكبير رشيد باشا إلى السلطان في شهر نوفمبر 1836 يدعوه إلى تبني البنايات الحجرية وشوارع يخططها معماريون أوروبيون «وفقا لقواعد الهندسة»[44].

لم تأتِ أخطر معارضة لمحمود الثاني من رعاياه داخل العاصمة العثمانية، بل من داهية السياسة في القاهرة محمد علي باشا والي مصر. كان محمد علي بمنزلة الانتقام المصري لثلاثمائة سنة من التبعية والجزية للقسطنطينية منذ فتحها سليم الأول في العام 1517. كان محمد علي الذي يعد أحد الحكام المقتدرين إبان القرن التاسع عشر، قد شرع من العام 1820 في تحديث مصر وإرسال المصريين لتلقي العلم في أوروبا. وأنشأ ابنه إبراهيم باشا الذي حلم بخلافة عربية مستقلة عن الإمبراطورية العثمانية، جيشا قويا، كان أحد النماذج لجيش السلطان بعد العام 1826. وفي العام 1818، قال نابليون في سانت هيلانة وهو يتذكر حملته على مصر: «إن الشرق ينتظر رجلا فقط». فهل كان الباشا، وليس السلطان، هو «الرجل» الذي ينتظره الشرق؟ في العام 1832، ضم الجيش المصري سورية. وفي العام 1833، غزا الأناضول، وفي الثاني من فبراير وصل كوتاهية التي تبعد عن القسطنطينية بمائة وخمسين ميلا فقط. وحيث إن علاقات مصر كانت وثيقة مع فرنسا، فإن السلطان لم يجد غير العدو التقليدي للعثمانيين - روسيا - حليفا. وفي العشرين من فبراير، رست سفن روسية في القرن الذهبي. وعلى مدار معظم تلك السنة، عسكر أربعة عشر ألف جندي روسي على امتداد البسفور. وردّت الإمبراطورية على الاحتجاجات الفرنسية بالقول: «إن من يغرق في البحر يتعلق ولو بأفعى». وقال السفير البريطاني

المعادي لروسيا لورد بنسونبي للسلطان إنه يرمي تاجه في حجر الإمبراطور نيقولاس وذكّره بقدرة الأسطول البريطاني على إيقاف كل من محمد علي وروسيا [45].

وفي وقت لاحق من تلك السنة، تم التوصل إلى تسوية، عُيّن محمد علي بمقتضاها حاكما لسورية، وانسحبت القوات الروسية. وسرعان ما أعلن الباشا رغبته في أن يكون حكم مصر وسورية وراثيا لعائلته وإبعاد أعدائه الشخصيين من الحكومة المركزية. ونتيجة لادعائه بأنه بفضل مقدرته وشجاعته يعد المُدافع الأقدر عن «بيضة الإسلام وسلامة الإمبراطورية العثمانية»، كسب محمد علي الكثير من المعجبين في القسطنطينية، وحتى داخل القصر.

وفي العام 1839، شن محمد علي هجوما آخر على ولايات الأناضول. أدى قلق السلطان على جيشه وأسطوله إلى اعتلال صحته، حتى إنهم كانوا يغيرون له ملابسه. وانتشرت شائعات تقول إنه كان يشرب كحولا صافيا أو نبيذا مشددا بالبراندي، وأنه كان يصاب بهذيان ارتعاشي. وفي الرابع والعشرين من يونيو، دَحَرَ الجيشُ المصري الجيش العثماني مجددا في معركة نزيب في الأناضول. وفي التاسع والعشرين من يونيو، توفي السلطان في بيت أسماء سلطان في تشامليجا Camlica في عمر الرابعة والخمسين. وفي الخامس عشر من يوليو، أبحر القبطان باشا أحمد، المجدف السابق على قارب الكياك الإمبراطوري، إلى ميناء الإسكندرية وسلم معظم الأسطول العثماني إلى محمد علي[46]. ففي شهر واحد، فقدت الإمبراطورية العثمانية أسطولا وجيشا وسلطانا.

11

مدينة الأعاجيب

هل وصلت السـفينة الفرنسية؟ ما الأخبار الآتية من أوروبا؟
أول برقية يرسلها في القسطنطينية السلطان عبدالمجيد، 1847.

خلَف عبدالمجيـد (1839 - 1861) أباه محمود الثاني. وكما حـدث في العام 1829، سـاعدت أوروبـا في إنقـاذ الإمبراطوريـة العثمانيـة، إذ ألحقـت السـفن والقـوات العثمانيـة والبريطانيـة والنمسـاوية، التي كانـت تدار جزئيـا من جانب السـفراء في القسـطنطينية، الهزيمـة بجيش محمد علي في شرق البحـر الأبيض المتوسـط. وفي العام 1841، وافـق محمد علي عـلى التخلي عن سـورية وإرجاع الأسـطول العثماني وزيادة حجم الجزية، في مقابل تأمين الحكم الوراثي لمصر لأولاده. وظلت المضايـق مغلقة أمام

«بُنيت سلسـلة القصور الرائعة بغـرض إعـادة طمأنـة النفس فضلا على الاستعراض»

كل السفن الحربية الأجنبية. وفيما بعد، أسهمت مباهج القسطنطينية في تحويل أسرة محمد علي من عُصاة إلى أتباع موالين ظاهريا للسلطان. ففي أحر ساعات الصيف، كانت العائلة الحاكمة وأعداد متزايدة من أثرياء المصريين يغادرون مصر لقضاء عدة أشهر في القصور المطلة على البسفور. وفي العام 1846، زار محمد علي نفسه المدينة، وفي العام 1848 أقيم قصر لابنه إبراهيم باشا في بايكوز. وفي العام 1858، تزوجت إحدى بنات السلطان من حفيد محمد علي في القسطنطينية. ألقى العثمانيون المحافظون باللائمة عن ارتفاع الأسعار وشق «طرق جديدة للفسوق» في العاصمة على تبذير المصريين والأذواق الأوروبية.

من خلال الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية، دخلت القسطنطينية عصرها الذهبي الثالث. فالمدينة التي غدت أكثر تنوعا بكثير منها في عهد سليمان أو «عصر الزنبق»، أصبحت ممزقة بين قوى متناقضة: بين الحكم العائلي والنزعة القومية، وبين الرأسمالية والدولة ما قبل الصناعية، وبين الإسلام والمسيحية، وبين الجيش الروسي والبحرية الملكية. جلس عبدالمجيد على عرشه الذهبي في باب السعادة في قصر توبكابي يتلقى بيعة وجهاء الإمبراطورية على نغمات أوبرا «إكسير الحب»(*) التي تعزفها فرقته[1]. كان خصيه الثاني يزور قاضي المحكمة القنصلية العليا البريطانية إدموند هورنبي Edmund Hornby لتدخين الغليون والتحادث لبضع ساعات بلغة فرنسية طليقة، وإن كانت بنبرة أعلى من المعتاد. ثمة رجل مجنون مسن كانوا يعدونه وليا، كان يمشي عاريا تماما يدردش مع أصدقائه خلال شوارع القسطنطينية، وفي بعض الأحيان كان يزور الباب العالي. وكانت المحادثة مع السيدات العثمانيات اللاتي يلبسن أرفع أزياء باريس (الفستان النهاري الأزرق المصنوع من الكشمير وأكاليل الزهور والأطواق المجعدة الناعمة) ويقرأن أحدث الروايات الفرنسية تعطي الزائر الأجنبي الإحساس بأن «الثورة» وشيكة[2].

(*) إكسير الحب L'elisir d'more أوبرا هزلية من فصلين من تأليف الملحن الإيطالي غايتانو دونيزيتي Gaetano Donizetti. [المترجم].

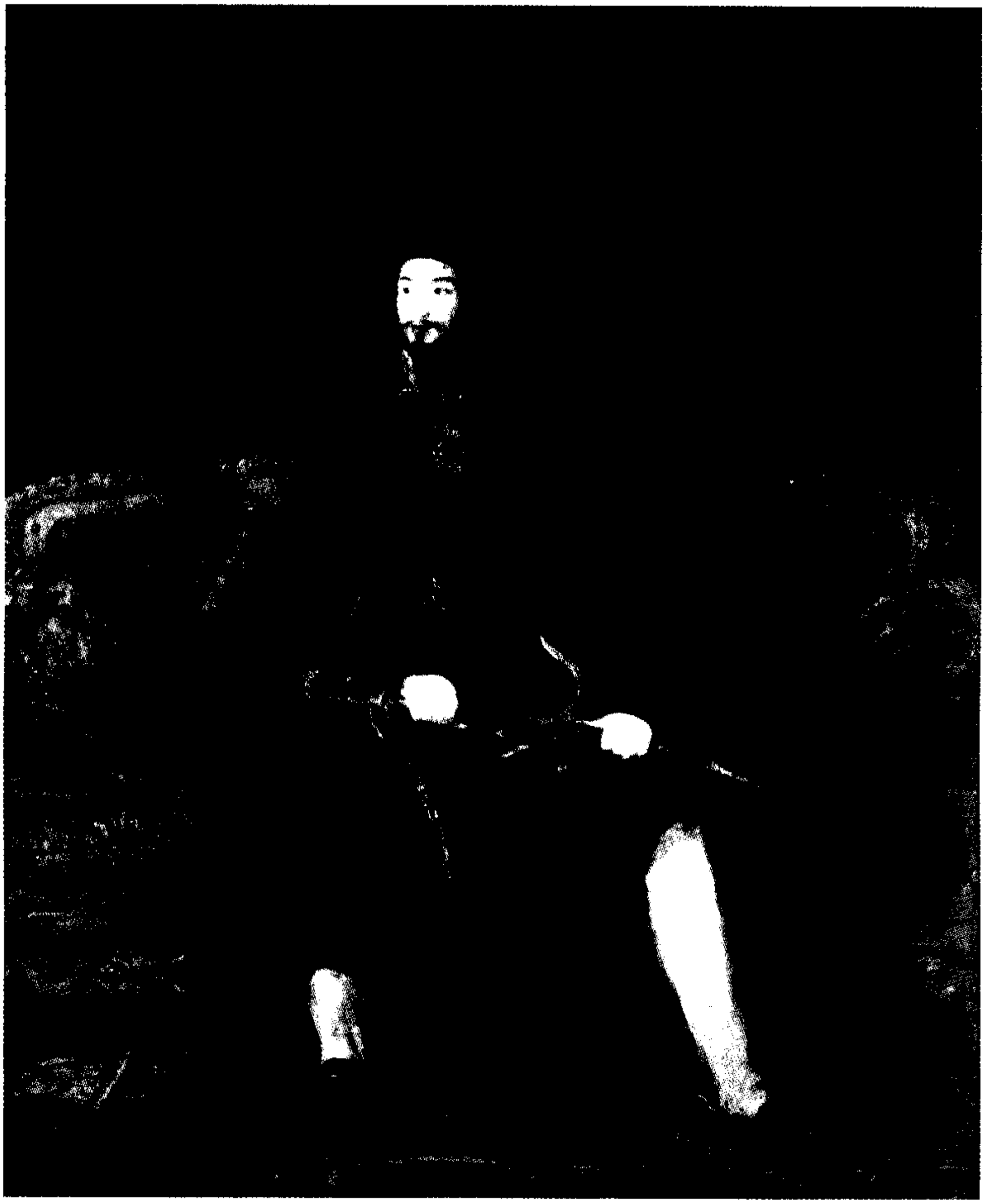

ديفيد ويلكي David Wilkie، عبدالمجيد الأول، 1840. يرتدي السلطان راعي الإصلاح ملابس حديثة وبعض الجواهر.

كانت القسـطنطينية المعقل الأخير للمحفة التي كانت وسيلة النقل الملائمة لمدينة تتميّز بالتلال الشاهقة والأيدي العاملة الرخيصة(*). وظلت قوافل الجمال تأتي من أوروبا وآسـيا. وإلى جانب ذلك، شهدت المدينة أيضا ثورة في الاتصالات.

(*) المحفة مقصورة لشـخص واحد عـادة مغلقة من جميع النواحي إلا من باب أمامـي للدخول والخروج ونوافذ جانبية، مزودة بعريش أمامي وخلفي يحملها منهما رجلان أو أكثر، بينما يجلس الراكب في المقصورة. [المترجم].

فتوافرت خدمة بواخر منتظمة إلى أوديسا بعد العام 1833، وإلى إزمير بعد العام 1834، وإلى مرسيليا بعد العام 1837، وبين المدينة وضواحيها بعد العام 1851، على أنه كان من الصعب الالتزام بجداول العبّارات لأن العائلات المختلفة التي كانت تلتقي في مرسى العبّارات كانت تصر بتأدب زائد على أن تركب العائلة الأخرى أولا. واختُصرت الرحلة من مرسيليا من ستة أسابيع إلى ستة أيام. وارتفع عدد السفن التي تصل إلى ميناء القسطنطينية خمسة أضعاف خلال ثلاثين عاما من سبعة آلاف وثلاثمائة واثنتين وأربعين سفينة في العام 1837 إلى تسعة وثلاثين ألفا وتسعمائة وسفينة واحدة في العام 1868. حينذاك كان الكثير من السفن البخارية التي تعمل بالفحم تتردد على الميناء حتى إن سحابة من الدخان الأسود كانت تخفي عادة مراكب الكياك المسرعة تحتها[3].

بعد العام 1855، أصبح للباب العالي مكتب برق خاص به، ما يسر كثيرا سيطرته على الولايات والتواصل مع أوروبا. وبداية من العام 1872، امتدت شبكة ترام تجرها الخيول من يديكولي (التي لم تعد سجنا بل حديقة حيوان) في غرب المدينة إلى بيرا في الشمال، على رغم أن الخدمة ومركبات الترام كانت دون المستوى في أحياء المسلمين. جلب الترام حياة أوروبا وصخبها إلى شوارع المدينة العثمانية. من ذلك ما سجله الكاتب الإيطالي إدموندو دي أميتشس الذي زار المدينة: «يروّعك صوت النفير ووطء أقدام الخيل، فتستدير ولا تستطيع أن تصدق عينيك: مركبة عمومية كبيرة الأبعاد تندفع نحوك على قضيبين حديديين لم تنتبه أنت إليهما، تغص بالأتراك والفرنجة، يرتدي قائدها زيا رسميا».

تمثلت صرة المدينة في الجسر الذي شُيّد بطول كيلومتر واحد عبر القرن الذهبي في العام 1845 بين الحشود المتدافعة والصائحة من المنادين والحمّالين على أرصفة ميناء غَلَطَة، والهدوء الملوكي لجامع السلطانة الوالدة في ناحية القسطنطينية. ومن خلال قلب المثل العثماني القائل بأن العالم له جسر، صار الجسر هو العالم. ومع تحسن النقل والاتصال، توافدت قوميات على القسطنطينية إبان القرن التاسع عشر أكثر من قبل، وكانت جميعها تعبر جسر غَلَطَة الذي وصفه زائر ياباني بأنه «جسر العشرة آلاف أمة».

كان اليونانيون بتنوراتهم البيضاء التي تتسع من أسفل يسيرون جنبا إلى جنب مع الأكراد بستراتهم المطرزة والعرب ببرانسهم وكوفياتهم(*). وكان الألبان بسراويلهم البيضاء وزنانيرهم البرتقالية التي تتورم بالمسدسات، يبيعون شراب الليمون أو البوظة(**) للاز وهم المسلمون من أصل جورجي الآتون من ساحل البحر الأسود بملابسهم السوداء الضيقة وأحذيتهم المدببة. وكان الحمّالون بستراتهم البنية يترنحون تحت أحمّال هائلة (أحيانا كان الحمّال يحمل بيانو أو عربة على ظهره). وكان الشحاذون المكفوفون يخشخشون بأكواب من الصفيح وينادون «الله! الله!»، ويمر من أمامهم أوروبيون متدثرون بأحدث الأزياء، أو مركبة سفير يركض أمامها الخدم بزيهم المميّز. وفي العام 1847، أثار منظر ضابط عثماني أسود على ظهر جواد يتبعه مرافقون بيض يسيرون على الأقدام، عجب زوار أمريكيين[4].

من منظور بيرا والقصر، غدا اللباس العثماني التقليدي تحفة من الماضي، يُلبس فقط في الحفلات الراقصة التنكرية أو يُعرض - كما في حالة الأزياء الرسمية القديمة للانكشارية - في متحف بالأتميدان (لايزال بعض هذه الأزياء الرسمية معروضا إلى الآن في المتحف العسكري باسطنبول). وغدا المسؤولون العثمانيون يرتدون أزياء غربية الطراز، أو الأكثر منها الاسطمبولين وهو سترة مذيلة تشبه تلك التي كان يرتديها رجال الدين الفيكتوريون، جرى تبنيها بعد العام 1839. وظل الأتراك القرويون أو التقليديون يرتدون عباءات فضفاضة وعمائم من الموصلين المزهر. وبجوار السيدات الأوروبيات المرتديات القبعات، كانت السيدات العثمانيات يرتدين فراجي زاهية الألوان - الأخضر التفاحي والقرمزي والأزرق الفاتح - التي أفسحت المجال في وقت لاحق من القرن مع اشتداد تمكن الأذواق الغربية لألوان أقل زهوا، مثل الذهبي أو البرونزي أو القرمزي. وأيا كانت ألوان الملابس، فقد تمكنت السيطرة الاقتصادية الغربية على المدينة حتى صار كل شيء تقريبا بعد العام 1850 مصنوعا في الخارج[5].

عكس الجسر صعود الإمبراطوريات وانهيارها والتغير في ساعات النهار والفصول. كتب ماريون كراوفورد F. Marion Crawford: «لا يوجد شبيه له في العالم كله من

(*) البُرنس عباءة مغاربية طويلة بها غطاء للرأس، تكون عادة بيضاء من الصوف الخشن. والكوفية kheffiyeh أحد أسماء الغترة أو الشماغ. [المترجم].

(**) البوظة شراب من الدّخن المخمر لايزال يباع في ناحية اسطنبول من الجسر.

ســـان فرانسيســـكو إلى بكين، لا شيء يشبهه في الحيوية والنشـــاط والتباين، فهو متفرد جدا وســـاحر جدا». كان الجسر في الظهيرة مزدحـــما وفي الليل مهجورا. وفي أثناء حرب القرم التي خاضتها ضد روســـيا في الأعوام 1854 - 1856 الإمبراطورية العثمانية وفرنسا وبريطانيا، كان الجسر يكتظ بالجنود الإنجليز والفرنسيين (الذين كان الباعة في شوارع المدينة يســـمونهم جوني! ودي دونك!)(*). اســـتفزت الطريقة الباردة التي كان الجنود الأجانب ينظرون بها إلى الســـيدات المســـلمات في مركباتهن، الخصيـــان المرافقين لهن، فكانوا يهمسون «كافر» ويفرقعون بسياط الخيول[6].

كان الشركس بقبعاتهم المصنوعة من جلد الغنم التي كانت في ارتفاع قبعة الحرس، وستراتهم السوداء الضيقة عند الخصر، يعكسون في شوارع القسطنطينية تقدم الجيوش الروســـية في القوقاز، أو رغبتهم في بيع بناتهم وأخواتهم في أفضل الأسواق(**). وقد زاد وصـــول البواخر من أعداد الحجاج الذين يمرون بالمدينـــة. ففي أثناء الحج، كان الفرس والبخاريون بستراتهم المحشـــوة والمزخرفة بألوان زاهية، يصلون إلى المدينة في طريقهم إلى مكة. وكانت القصص التي يسردونها عن المقاومة الإســـلامية للتقدم الروسي في آســـيا الوســـطى تلهب مقاهي العاصمة. كانت هناك تَكْية خَشَبِية للدراويش الأوزبكيين على تل أعلى أوســـكودار أنشـــئت إبان القرن الثامن عشر، كانت بمنزلة فندق لحجاج بخارى وسفارتها في القسطنطينية. وكان الحجاج الروس في طريقهم إلى القدس يأتون إلى المدينة كل عـــام قبل عيد الفصح، وفي وقت لاحق مـــن القرن، بنى لهم نيقولاس الثاني فندقا في غَلَطَة ملحَقا به مصلى ذو قبة بصلية الشـــكل بالطابـــق الخامس. كان المرور على جسر غَلَطَـــة كثيفا جدا حتى تمت توســـعته في العـــام 1863 وفي العام 1878 عندما بُني صف مـــن الدكاكين والمطاعم تحت الجسر من الطرفين، ووسع مرة ثالثـة في العام 1912[7].

(*) مؤكد أن جوني Johnny للإنجليز ودي دونك Des donc للفرنســـيين، والأخيرة تعبير يستخدم للترحيب أو إبداء الإعجـــاب أو لفت الانتباه، ومؤكد أن الاســـم منهما يشـــير إلى أبنـــاء أمة كاملة، كما يفعل النـــاس في المملكة العربية السعودية بالنداء على أي شخص لا يعرفون اسمه باسم محمد. [المترجم].

(**) اشـــتهرت الجواري الشركســـيات على من عداهن بالجمال، حتى صارت العبارة «الحســـناوات الشركســـيات» Circassian beauties مضرب الأمثال بين الناس والكُتاب من أمثال فولتير وهنري فيلدينغ ولورد بيرون وغوســـتاف هوغـــو ومـــارك توين، وكن المفضلات في كل البلاطات من جنوة إلى دلهـــي. ونظرا إلى الحياة المترفة التي تنتظرهن في الحريم الســـلطاني، وما يمكن أن يعود على أسرهن بعد ذلك فضلا على أثمان بيعهن الأولى، كان الشركس الفقراء - في أغلبهم - يأتون إلى القســـطنطينية بمـــلء إرادتهم لبيع بناتهم وأخواتهم الجميلات للحريم الســـلطاني. من المؤكد أن علاقة الأهل بالجارية لم تكن تنقطع ببيعها للحريم، بدليل أنه عند إغلاق الحريم السلطاني و«تسريح الحريم»، كانوا يحتفظون بهن إلى أن يأتي أهلهن لتسلمهن. [المترجم].

الرسام فوستو زونارو Fausto Zonaro، جسر غَلَطَة، في نحو العام 1900. يضج الجسر بالسفن والبشر. يغطي دخان السفن على جامع السلطانة الوالدة. رسم زونارو مئات اللوحات للقسطنطينية وسكانها في أثناء مقامه بها بين العام 1893 والعام 1910. أكسبته لوحته لفوج فرسان النخبة الإتوغرول Etughrul وهم يعبرون هذا الجسر لقبّ رسام صاحب الجلالة الإمبراطورية السلطان في العام 1896.

كانت الحشود على الجسر تكشف عن الروح الانفتاحية لعهد السلطان عبدالمجيد الذي أحب الخمر والنساء والإصلاح. وفي العام 1847، أُغلق سوق العبيد بالمدينة، ومنذ ذلك الحين كان العبيد يُنزلون ليلا على شواطئ بحر مرمرة، ثم يطاف بهم للبيع في البيوت الخاصة حول طوفان والجامع السليماني. كشف قرار السلطان بتحريم العبودية الذي سُلم إلى الترجمان البريطاني فريدريك بيساني Frederick Pisani في العام 1851، عن تغير جلي في المواقف العثمانية: «إنها لممارسة مخزية وهمجية... أن تقوم كائنات عاقلة بشراء رفاقهم وبيعهم. وعلى رغم أن العبيد في تركيا يلقون معاملة أفضل منهم في أي مكان آخر، فإنهم يعاملون بقسوة أحيانا. أليست هذه المخلوقات مساوية لنا أمام الله؟» وعلى أي حال، فقد ظلت العبودية قانونية حتى نهاية الإمبراطورية. وحتى السلطان نفسه لم يتوقف عن امتلاك الجواري في حريمه، على رغم أنه أعطاهن حرية استثنائية، إذ كانت أحجبتهن هي

الأكثر شفافية في المدينة وكن يتحدثن مع الشباب من مركباتهن أو من نوافذ القصر «بأسلوب مفعم ومثير»[8]. أخفت محظية السلطان صافيناز هانم عشيقا سريا لها في الحديقة الإمبراطورية لقصر يلدز الواقع على التل أعلى قصر تشيرغان. وعندما اكتشف السلطان الأمر، لم يأمر بإعدام غريمه، بل اكتفى بإرساله إلى بورصة.

ذات مرة، وبّخ شاب من عائلة داديان السلطان على التدخين وهو يزور مصنع هاراكا للسجاد، على الرغم من التحريم المُلصَق على الجدران. وقال السلطان لوالد الشاب: «ابنك محق» ورمى سيجارته[9]. وواصلت الحكومة العثمانية دورها التقليدي كحام لليهود ضد التعصب المسيحي الذي كان عميقا جدا إلى درجة أن أعمال الشغب المعادية لليهود ظلت تتواتر في الأحياء المسيحية حتى نهاية القرن. وصدر خط شريف (مرسوم إمبراطوري) في السادس من نوفمبر 1840 يجدد انتقاد «الطعن الدموي» blood libel المسيحي ويعلن أنه «سيظل يحمي الأمة اليهودية ويدافع عنها». وأمر السلطان شخصيا بتوفير الطعام المباح في الشريعة اليهودية وإعطاء «إجازة السبت» في المدرسة الطبية الإمبراطورية لتشجيع اليهود على الالتحاق بها.

تدين القسطنطينية إبان القرن التاسع عشر بعظمتها إلى تحديها للنزعة القومية. كانت لدى عبدالمجيد وبعض وزرائه رؤية للإمبراطورية بصفتها متراسا ضد النزعة القومية. قال السلطان للامارتين Lamrtine في العام 1849 إنه يريد أن يخلق شعبا واحدا من أعراق وأديان متنوعة: «بإيجاز من خلال خلق أمة واحدة من كل هذه الشظايا من الأمم التي تغطي تراب تركيا، وذلك عن طريق تعزيز النزاهة والدماثة والمساواة والتسامح إلى الدرجة التي تجعل كل منها تجد شرفها وضميرها وسلامتها في التعاون على الحفاظ على الإمبراطورية عبر نوع من الفدرالية الملكية تحت رعاية السلطان». وكرس نفسه لهذه الغاية، فأنشأ حرسا من أبناء الوجهاء، اثنين من كل عرق من أعراق الإمبراطورية: الكرد والسوريين والألبان والشركس. كان طول هؤلاء الشبان نحو ستة أقدام ويلبس كل واحد منهم زيه القومي الخاص في نوبات حراسة طقوسية لقصور السلطان وفي أثناء خروجه لصلاة الجمعة[10].

كان أقدر الحكام على مدى معظم الفترة 1839 - 1876 ثلاثة من الباشوات، وإن كانوا مستبدين، وهم رشيد وفؤاد وعلي. خدم رشيد باشا، الذي استعمله

محمود الثاني لكونه ذكيا وواعدا، سفيرا لبلاده في لندن وباريس. وبين العام 1837 ووفاته في العام 1858، شغل منصب الصدر الأعظم ست مرات ووزير الخارجية ثلاث مرات. اشتهر رشيد إلى جانب التزامه بالإصلاح، بعدد بيوته على البسفور وفخامتها. تعلم فؤاد باشا، ابن أحد مشاهير الشعراء، في المدرسة الطبية، قبل أن يخدم في غرفة الترجمة بالباب العالي وكديبلوماسي في أوروبا. ومن خلال اشتهاره بأنه «رجل يحب الإبداع والابتكار في كل الأمور»، خدم صدرا أعظم مرتين ووزيرا للخارجية خمس مرات بين العام 1852 ووفاته في العام 1868. وكان من رأيه أن «الإسلام ظل في مكانه على مدى القرون وسيلة رائعة للتقدم. وهو اليوم يشبه حوض السفن الذي فات زمانه ويجب دفعه للحاق بالزمن»[11]. أما علي، فكان ابن تاجر فقير بالبازار، شاركهما في هذه المعتقدات عينها حتى وفاته في العام 1871.

برعاية هؤلاء الثلاثة، صدر المرسومان الإمبراطوريان العظيمان للعام 1839 والعام 1856 اللذان كانا الأساس لما سمي بالتنظيمات tanzimat، أي سياسة الإصلاح التي اتبعتها الحكومة العثمانية بعد العام 1839. وعد المرسومان بالمساواة بين المسلمين والمسيحيين أمام القانون بدلا من أنظمتهما القانونية المنفصلة، والمساواة في الخدمة العسكرية والوصول إلى المناصب الحكومية، والحرية من المصادرة، وبتعبيرات مرسوم العام 1856: «بلوغ السعادة الكاملة لكل طبقات رعيتنا الإمبراطورية الذين تجمعهم أواصر الصداقة والوطنية المشتركة والمتساوين جميعا أمام نظرتنا الرحيمة العادلة». نُفذ آخر حكم بالإعدام في شخص اعتنق الإسلام ثم ارتد إلى المسيحية، في الرابع من أكتوبر 1843. وعلى رغم احتجاجات السفراء الأوروبيين الخمسة الذين استنجد بهم أقارب الضحية، فقد ضرب عنق المرتد الأرمني في مكان عام ورميت جثته في الشارع. وفيما بعد انتكس القانون. إذ ظهرت المحاكم المختلطة للحكم في القضايا التي تشمل أطرافا من الدينين في العام 1847. وفي العام 1876، صدر قانون تجاري يستند إلى القانون الفرنسي. وتراجعت سلطة القضاة على ضبط الأخلاق والأسواق منذ العام 1826، إذ نقلت هذه المهام إلى وزارة جديدة للشرطة، أنشئت هي الأخرى وفق النموذج الفرنسي. وبحلول العام 1876، بالدرجة الأولى بفعل تأثير فرنسا، كان القانون العثماني قد تغير كليا، كما تقلصت أيضا سلطات البطاركة على الجماعتين الأرمنية والأرثوذكسية[12].

كان المقصـــود بهذه الإصلاحات أن تــؤدي إلى تحديث الإمبراطورية وقطع الطريق على التدخل الخارجي. وبعد أن ســاعد السفراء في إنقاذ الإمبراطورية في الأعوام 1839 - 1841، بــدأوا - مزهويــن بالتفوق العســكري والتقني لبلادهــم - يوجهون الأوامر إلى الباب العالي. وعُرِفوا في هذه الفترة باســم «القوة العظمى السادســة»(*) أو (بعد إعلان إيطاليا الموحدة في العام 1861) «ملوك القســطنطينية الستة»(**). كان السفراء يأتون إلى القســطنطينية على متن بوارج حربية تسمى الراعد Thunderer أو شارلمان Charlemagne، ويروحــون ويجيئون بين ســفاراتهم الشــتوية في بــيرا ومقر إقامتهم الصيفــي في طرابيــا في قوارب كياك خاصة بالســفارة يجدف عــلى الواحد منها عشرة مجدفين، وكان الجنود يؤدون لهم تحية السلاح في كل نقطة حراسة يمرون عليها.

تمتع الســفراء بالســلطة والنفوذ. من ذلــك أنه قيل لعميل إبراهيم باشــا ابن محمــد علي في العام 1840 إن الســفير البريطاني «لورد بنســونبي هــو الذي يدير سياســة الحكومة العثمانية اليوم». وكانت القرارات يتخذها الصدر الأعظم أحيانا، لكــن ليس في القصر أو الباب العالي، وإنما في اجتماعات مع الســفراء الأوروبيين في الســفارة البريطانية. كما عقد السفراء مؤتمرات في القســطنطينية لتقرير مستقبل صربيا أو مصر أو الإمبراطورية نفسها. وفي العام 1869 شكّلت «السفارات» والباب العالي معا اللجنة الدولية لإعادة تنظيم الميناء[13].

أعيد بناء معظم الســفارات في بيرا بعد الحريــق الهائل الذي أحرق المنطقة في العام 1831، بأسلوب يكشف عن قوة الأمة التي تمثلها السفارة وشخصيتها. فجاءت الســفارة الروســية التي بُنيت بين العامين 1836 و1843 قصرا أحمر من قصور آل رومانوف فوق البســفور، يضم عشر غرف استقبال، منها صالة رقص مُعَمَّدة بيضاء مزيّنة بمناظر لسانت بطرســبرغ. كان مصمم السفارة هو غسبار فوساتي Gaspare Fossati الــذي قام لاحقا بتجديــد جامع آيا صوفيا للســلطان عبدالمجيد، بإضافة مقصــورة إمبراطورية، في إعادة تأكيد للســلطة العثمانية عــلى الضريح الذي توقع الكثير من المسيحيين، خاصة الروس، أنه سيؤول إليهم قريبا[14].

(*) القوى العظمى الخمس هي إنجلترا وفرنسا وروسيا والنمسا - المجر وبروسيا. [المترجم].

(**) في العام 1857، وبغرض التقليل من شأن السفراء الآخرين، وصف السفير الفرنسي زميله السفير البريطاني لورد استراتفورد دي ريدكليف بـ«القوة العظمى السادسة».

أما قصر فرنســا الذي بُني بين العامين 1839 و1847 والمغطى بالرمز LP الذي يرمز إلى الملك لويس فيليب Louis - Philippe، فكان يبدو من الخارج مثل مُجمّع إداري ضخــم لولاية إقليمية فرنســية. ومن الداخل، أُثث كقــصر بكراسي خفيفة مُذَهّبة وأقمشــة غوبلين وسجاد أوبيسون وزهريات سيفر وصور السلاطين والملوك والســفراء(*). وكانت الســفارة البريطانية نســخة طبق الأصل من نادي الإصلاح في بال مال(**)، صممها و.ج. ســميث W. J. Smith وسير تشارلز باري Sir Charles Barry وبُنيــت في الأعوام 1844 - 1851. كان هذا المبنى المربع بعرض ثلاث عشرة نافذة وجدرانه العالية وفنائه الفسيح ومروجه الخضراء، بمنزلة واحة من الهدوء في وسط اضطراب المدينة.

كانت غطرســة الســفارات في بعض الأحيان مفيــدة للإمبراطورية، إذ حمتها مــن الأعداء الخارجيين وعضدت الإصلاحيين في الباب العالي ضد المحافظين، حتى إن رشــيد باشــا أراد - بتعبيره - مزيدا من «الرقابة» من جانب السفارات ومزيدا من الســفن الحربية الأجنبية متمركزة في البســفور لإجبار السلطان على الإصلاح بخطى أسرع[15].

غير أن نفوذ السفراء قد زاد من الإحساس العثماني بالسخط على نظام الامتيازات الأجنبية. وبدأت المحاكم القنصلية تدعي لنفسها الحق في محاكمة الأجانب المتهمين في أعــمال إجرامية ضد الرعايا العثمانيين، واســتغل الكثير مــن الأجانب والمواطنين العثمانيين - ما يناهز عشرة بالمائة من الســكان - الحماية الديبلوماسية لعدم دفع الضرائــب. وبدأت الحكومــة العثمانية تنظر إلى الامتيــازات بوصفها العائق الأكبر أمام تقدم بلادها. وفي العام 1847، تقدم الســكان الأوروبيون أنفسهم إلى السلطان بعرائــض ضد جرائم تقرها ســفاراتهم، لكن هذه الالتماســات لم تُحْــدِث أثرا. وفي العام 1848، احتج لورد اســتراتفورد دي ريدكليــف Stratford de Redcliffe على بالمرســتون Palmerston بالقول: «في الوقت الذي نتباكى فيه على الفوضى الحادثة، نصر نحن على الحق البريطاني في امتيازات تجارية غير منقوصة»[16].

(*) غوبلين Gobelins وأوبيسون Aubusson وسيفر Sevres منتجون فرنسيون مشهورون لهذه المنتجات. [المترجم].

(**) نــادي الإصــلاح Reform Club أنشــئ في العام 1836 في منطقة بال مــال Pall Mall بقلب ما يعرف بأرض النوادي Clubland في لندن، كانت عضويته مقصورة على أعضاء البرلمان من حزب الويغ الذين أيدوا قانون الإصلاح للعام 1832. [المترجم].

تمكن الإحساس بالمعصومية من استراتفورد كانِنغ، الرجل الوسيم سريع الغضب الذي كان يعمل اثنتي عشرة ساعة يوميا بيده والذي كان موظفوه يبغضونه. وحين نجا من حادث ركوب خيل، قيل إن موظفيه شربوا النخب: «حظا أفضل في المرة المقبلة». طلب علي باشا من لندن ثلاث مرات أن تستدعي سفيرها لأنه يحاول أن ينسب كل الإصلاحات إلى نفسه ولا يسمح للسلطان بأن يحكم كند له. وكان من النكات الخاصة بين السفير وزوجته أن يطلقا على السلطان اسم «بادي» Paddi بدلا من «باديشاه». وقال السفير النمساوي كونت فون بروكيش أوستين Count von Prokesch - Osten الذي كان من رأيه أن الإمبراطوريتين النمساوية والعثمانية إن لم تتقاربا وتعملا معا فإنهما ستندمان كلتاهما، إن كانِنغ لا يتصرف كسفير، بل كملك. وقد كان عداء كانِنغ لروسيا الذي أشعله بالمرستون وصحفيو لندن والرأي العام البريطاني، أحد الأسباب التي أدت إلى اندلاع حرب القرم[17].

كان من العوامل الأخرى لاندلاع هذه الحرب، رغبة نابليون الثالث الذي أعلن نفسه إمبراطورا أخيرا في تحدي تسوية فيينا للعام 1815 وتقسيم النمسا وروسيا. كان الدين الأداة التي اختارها نابليون الثالث. ففي شهر ديسمبر 1852، حصل السفير الفرنسي الكاثوليكي المتعصب مركيز دي لافاليت Marquis de Lavalette مؤقتا على حق الكهنة الكاثوليك في أن تؤول لهم مفاتيح كنيسة المهد في بيت لحم. ومع أن القيصر نيقولاس الأول لم يشارك جدته كاترين الثانية في الطموحات الإقليمية، فقد أصر على مقاومة المطالب الفرنسية في الأماكن المقدسة وعلى فرض حماية روسية على الكنيسة الأرثوذكسية، مدعيا حق المسؤولين الروس في «إعطاء الأوامر» حتى للكنائس في القسطنطينية وفي أي مكان آخر. وكان يسعى على المدى البعيد، بالتنسيق مع القوى الأخرى، إلى تقسيم الإمبراطورية العثمانية في أوروبا، وتحويل القسطنطينية إلى مدينة حرة. كانت القوات الروسية متمركزة على البسفور والقوات النمساوية في الدردنيل. وكانت لغة القيصر عادة عدوانية جدا[18]. وفي أوائل العام 1853، أبدى ملحوظة شهيرة إلى السفير البريطاني في سانت بطرسبرغ: «لدينا رجل مريض، مريض لا يرجى شفاؤه» (لكنه لم يكن شديد المرض بدليل أن أعدادا كبيرة، من رعايا

القيصر المسلمين والكاثوليك والمؤمنين القدامى آثروا أن يغادروا الإمبراطورية الروسية ويذهبوا للعيش في الإمبراطورية العثمانية)(*).

وفي الثالث والعشرين من فبراير 1853، نزل على أرض القسطنطينية المبعوث الخاص للقيصر الأمير ألكسندر منشيكوف Alexander Menshikov الجندي المحترف المتغطرس، وفي صحبته رئيس هيئة أركان الجيش الخامس الروسي، وسط حشود فرحة من اليونانيين. تمثلت مهمة الأمير في عقد اتفاقية رسمية لا تحفظ كل الحقوق التقليدية للكنيسة الأرثوذكسية وحسب، بل أيضا من خلال إساءة تفسير شروط المعاهدة التي أنهت حرب الأعوام 1768 - 1774، تعطي لروسيا الحق في التدخل لدى الحكومة العثمانية نيابة عن رعاياها الأرثوذكس. إبان القرن السابع عشر، كانت الحكومة العثمانية تعبّر عن غطرستها بالاعتداءات البدنية على المبعوثين الروس إلى الباب العالي. أما في القرن التاسع عشر، وفي ساحة معركة الطقوس عينها، أهان الروس ضحيتهم بطريقة أقل عنفا. ففي أثناء زيارة مجاملة إلى الصدر الأعظم، ارتدى منشيكوف ملابس مدنية بدلا من الزي الديبلوماسي، ومر في هدوء أمام مكتب وزير الخارجية الموالي لفرنسا فؤاد باشا، متظاهرا بأنه لا يراه، على رغم محاولات ضابط التشريفات لأن يقود السفير إلى الباب المفتوح على الوزير المنتظر. واستسلم السلطان للضغط الروسي بعزل فؤاد باشا وتعيين رفعت باشا مكانه[19].

لم تكن الكنيسة الأرثوذكسية هي القضية في القسطنطينية، بل الهيبة الدولية للدول المتنافسة. وحتى الأساقفة نتيجة لإدراكهم معاملة القياصرة المتعجرفة مع الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، خافوا من أن تأتي «الحماية» في صورة «استعباد». وقالوا لديبلوماسي روسي: «نحن الآن أغنياء وأقوياء. وتوجد تسعة ملايين نَفْس تحت يدي البطريرك ومجمعه الكنسي وسبعين أسقفا. وأنتم بحق الحماية ستحرموننا من كل شيء». فضلا على أن الحكومة الروسية كانت في الواقع مستعدة لتعديل كل طلباتها [20].

وعلى أي حال، فقد ساء الموقف في مارس 1853 بإرسال أسطول البحر الأبيض المتوسط الفرنسي إلى المياه اليونانية. وفي أبريل، عاد استراتفورد كاننغ الذي رُقي أخيرا

(*) المؤمنون القدامى Old Believers، في تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية الروسية، هم الأرثوذكس الذين انفصلوا عن الكنيسة الرسمية احتجاجا على الإصلاحات الكنسية التي أدخلها البطريرك نيكون في العام 1652 والعام 1666، وظلوا يمارسون الطقوس السابقة على هذه الإصلاحات. [المترجم].

إلى مرتبة النبلاء باسم الفيكونت استراتفورد دي ريدكليف، إلى القسطنطينية وفي نيته - على نحو ما كتب إلى زوجته - أن «يجعل الباب العالي يقف بجانبي». وكما كانت الحال مع السفراء البريطانيين السابقين، اينزلي وبنسونبي، في جو العاصمة العثمانية المسكر، كان الفيكونت مستعدا للمخاطرة بدخول الحرب مع روسيا، وكانت لديه السلطة لاستدعاء أسطول البحر الأبيض المتوسط إذا شاء السلطان. وعندما زار منشيكوف رشيد باشا في ياليه، انتظر استراتفورد في قارب كياك لكي يناقش الطلبات الروسية بمجرد خروج منشيكوف[21]. حتى الديبلوماسية في هذه الأشهر كانت محمومة على نحو غير اعتيادي في القسطنطينية. استغلت الحكومة العثمانية فرصة الدعم الفرنسي والبريطاني لكي تهندس حربا على روسيا في ظروف مواتية أكثر من تلك التي خاضت فيها حروب الأعوام 1829 و1787 و1768. وفي أغسطس 1853، استخدمت مظاهرات للصوفتا (طلاب المدارس softas) لطلب وصول الأسطولين الفرنسي والبريطاني اللذين رسوا بعد ذلك قبالة ساحل بشيكا Besika بالقرب من الدردنيل لحماية أرواح الأجانب وممتلكاتهم. وفي الأيام من السادس والعشرين إلى الثامن والعشرين من سبتمبر، اجتمع السلطان بـ«مجلس كبير» من ممثلي القضاء والجيش والأسطول والطوائف الحرفية الذين صوتوا لمصلحة الحرب. يذكر مراقب من السفارة البريطانية أن عبدالمجيد كان مختلفا جدا عن أسلافه، وغيّر المجتمع العثماني بسرعة كبيرة، لدرجة أن المجلس الكبير المكوّن من مائة وعشرين عضوا بدلا من أن يظل صامتا أو يطلب مزيدا من الأوامر، كان أشبه في مناقشاته باجتماعات مجلس العموم البريطاني. وبعد أن ضمن السلطان فتوى مؤيدة، أعلن الحرب على روسيا في الرابع من أكتوبر 1853. وفي الثاني والعشرين من أكتوبر، رسا أسطول فرنسي - بريطاني مشترك قبالة القرن الذهبي[22]. وفي الثامن والعشرين من مارس 1854، اندلعت الحرب بين روسيا وبريطانيا وفرنسا.

تدفق المتطوعون على القسطنطينية، ومن بينهم فرقة كردية بقيادة بطلة سافرة الوجه غير متزوجة تدعى فاطمة السوداء، أصبحت حديث المقاهي. كان مما أفزع الكثير من سكان المدينة أن القوات الفرنسية عسكرت خارج الأسوار وبجانب جامع آيا صوفيا. وغطيت تلال أوسكودار بالخيام البيضاء الثلجية لحلفائهم البريطانيين. وسرعان ما أحاط بهم جيش آخر من المموّلين وتجار الخيول والباعة المتجولين

و«محتالين من كل الأمم»[23]. جابت القوات الفرنسية والبريطانية شوارع المدينة، وتعرض بعض الضباط للطعن، والدكاكين للنهب. واستوردت بريطانيا وفرنسا قوات شرطة من بلديهما للحفاظ على الأمن. وعند نقطة ما في الأحداث، امتلأ السجن القنصلي البريطاني بالمجرمين، واضطر البريطانيون إلى احتجاز الباقين على سفينة في البسفور. ومكّنت الحرب والامتيازات التجار الأجانب من مهاجمة احتكارات الطوائف الحرفية بالمدينة التي كانت لاتزال تشكل قوة فعالة في الحياة الاقتصادية للقسطنطينية. ومع نهاية العام 1855، كان عدة مئات من النوتية السلاف والمالطيين يعملون في الميناء، وفُتحت دكاكين خمور أجنبية في الكثير من زوايا المدينة. كتب مراقب سياسي أمريكي يدعى ناسو سنيور Nassau Senior في شهر أكتوبر 1857 أنه «لا يوجد على وجه الأرض أناس متوحشون أسوأ من حراس هذه الدكاكين، ولا أوكار للرذيلة والجريمة أسوأ من تلك الدكاكين نفسها»[24].

حوّلت حرب القرم القسطنطينية إلى مدينة للجرحى. وإلى جانب المستشفيات العثمانية التقليدية، كان هناك مستشفى فرنسي كفء في بيرا ومستشفيان بريطانيان عائمان في القرن الذهبي ومستشفى بحري بريطاني في طرابيا. قدمت مستشفى الثكنات التي أنشئت في الثكنات السليمية في أوسكودار، الرعاية لأكثر من ألفي مصاب بريطاني. كانت مديرة المستشفى هي نايتنغيل فلورنس التي كانت تقيم في أحد الأبراج التي تشكل حاليا متحف فلورنس نايتنغيل(*). عندما تولت نايتنغيل الإدارة كان المستشفى - في رأيها - قد جعلته القذارة والمرض والازدحام أسوأ من أسوأ بيت في أسوأ حي رأته على الإطلاق. وفي مكان قريب كان يوجد المستشفى العام والجبّانة (تعد جبّانة القرم التذكارية حاليا المقبرة الأساسية للجالية البريطانية بالمدينة). كان من المشكلات التي واجهتها نايتنغيل قلة الدعم من السفارة البريطانية[25]. فـ لورد استراتفورد دي ريدكليف وزوجته كانا ماهرين في إقامة الحفلات أكثر منهما في زيارة المرضى.

بحلول أوائل العام 1856، كانت روسيا على وشك الاندحار وكانت مفاوضات السلام على وشك الانطلاق في باريس. احتُفل بانتصار تحالف القرم بحفلة راقصة

(*) فلورنس نايتنغيل Florence Nightingale مؤسسة التمريض الحديث في بريطانيا، أنشأت في العام 1860 بعد أربع سنوات من مشاركتها في حرب القرم مدرسة لتعليم التمريض في مستشفى سانت توماس التي تحولت لاحقا إلى متحف يحكي قصة السيدة ذات المصباح منذ طفولتها مرورا بحرب القرم حتى حملاتها دفاعا عن الإصلاح الصحي. [المترجم].

في السـفارة البريطانية، حضرها السـلطان نفسـه. ففي ليلـة الثامن من فبراير 1856، وتحت اسـمي فيكتوريا وعبدالمجيد المضاءين، انتظرت السـلطان قوات المدفعيـة ورماة القنابـل وقوات المدفعية الاسـكتلندية في الفناء. ألقت المدافع التحية ودوى صوت السـلام الوطني «حفظ الله الملكة» لدى وصول السـلطان برفقة الرماحين الإنجليز. كان في استقباله لورد استراتفورد دي ريدكليف على باب المركبة. واسـتقبلته ليدي اسـتراتفورد دي ريدكليف بلباس القرن الثامن عشر في أعلى السُـلم. وبعد وقفة للاستراحة في إحدى غرف الانتظار، دخل السلطان على مشهد يضاهي حفلة راقصة بملابس عصور سالفة تقيمها الملكة فيكتوريا في قصر بكنغهام. ففي صالة الرقص المتألقة بالإنارة، ارتدى موظفو السـفارة ملابس من عهود الملكة آن أو الملك جورج الثالث. على أن ملابس موظفي السـفارة لم تكن شـيئا يذكر أمام الأزياء التقليدية لضيوف محليين مثل البطريرك اليوناني والحبر الأعظم والأتراك واليونانيين والفـرس والألبان وزوجات أثرياء اليونانيين والأرمن اللاتي كن يتلألأن بالماس. تجول رئيس الخصيان السـود متأبطا ذراع رجل أسـود آخر وسـيفاهما يتجرجران على الأرض. ودخل كبير الطباخين الشـهير أليكسيس سوير Alexis Soyer ومعه دب راقص سرعان ما تكشف أنه صديق متنكر.

أما السـلطان الذي ارتدى سترة سـوداء طويلة، فقد أخذ يتجول خلال صالة الرقـص «وينحني على اليمين وعلى اليسـار ويوّزع البسـمات في طريقه» أمام عيـون الحضور المحدقة فيه كأنه حيـوان بري، تتبع خطاه «مجموعة رائعة من الباشوات». وبدلا من أن يجلس على الكرسي المرتفع الذي جهز له، ظل السلطان واقفا لمشاهدة رقصة الكدريل والفالس، ولاستقبال زوجات الديبلوماسيين اللاتي يقدمـن له. وبعد ذلك تجول خلال الغـرف وأكل قطعة حلوى مجمدة، وأبدى إعجابه بقوات المدفعية الاسـكتلندية وسلاح الفرسـان الإنجليزي الذي اصطف على السلم، ثم غادر، بينما بقي الباشوات ليأكلوا ويشربوا حتى الصباح.

تسـبب سـلوك سـيدة تركية محجبة بفراجة رمادية في حالة من الذهول، إذ صعـدت إلى الضبـاط البريطانيـين وتفحصت نجومهـم ورتبهـم «بطريقة وقحة وصفيقة جدا» وتوعدت الباشوات المارين بتهديدات الحرية: «لن نوضع في أقفاص بعـد اليـوم. سـنخـرج لنرى العالم ونحكم على الأمور بأنفسنا ونحـب مـن نشـاء.

يا لهؤلاء الضباط الإنجليز من رجال سامقين!» وقالت كلاما آخر. وحين أصر فؤاد باشا أخيرا على أن تكشف السيدة عن هويتها، اتضح أنها أفضل متحدثة للغة التركية بين سكرتيرات الملحق الإنجليزي بيرسي سميث Percy Smythe(26)(*).

في صلح باريس في شهر مايو 1856، أُدخِلت الإمبراطورية العثمانية رسميا ضمن المستفيدين من «مزايا القانون والنظام العامين في أوروبا». وغدت سلامة أراضيها واستقلالها مكفولين من جانب كل الموقِّعين. وظل الدردنيل والبسفور مغلقين أمام السفن الحربية لكل الأمم، وحُرمت روسيا من الاحتفاظ بأسطول في البحر الأسود. وتلت احتفالات أخرى انتقال عبدالمجيد إلى مقر إقامته الجديد في قصر دولمة بهجت Dolmabahce في السابع من يونيو 1856. كان الوزراء والسفراء سعداء بولع السلطان بالقصور، وربما شجعوه أيضا، وهو الولع الذي جعل القسطنطينية مثل فيينا وسانت بطرسبرغ إعلانا عن قوة إمبراطورية من قوى القرن التاسع عشر، إذ بنى السلطان قصر دولمة بهجت (1849 - 1856) وقصر بليرباي (1861 - 1865) وقصر تشيرغان (1864 - 1871) والكثير من الأكشاك وبيوت الصيد والقصور الخاصة على طول البسفور. وكان المعماريون هنا أيضا من أبناء عائلة باليان: كارابيت أميرا باليان Karabet Amira Balian وأبنيه المدربين في باريس نيكوغوز Nikogos وأغوب Agop باليان. وهُجِر قصر توبكابي، ليصير قصر الدموع لسيدات الحريم والخصيان البيض الذين استُغنِي عنهم. وكان السلطان يزوره فقط في حاله تنصيبه أو مرة في السنة لزيارة أثر النبي. كان منتصف القرن التاسع عشر أوج «مرض الغرب»(**). وبأمر السلطان، صُهِرت الزخرفات الموجودة بغرفة العرش بقصر توبكابي، فنتج عنها ثمانية وثمانون كيلو غراما من الفضة وتسعمائة واثنا عشر كيلو غراما من الذهب. وفي

(*) في كنيسة القرم التذكارية بأسفل شارع بيرا الكبير، وهي أول بناية قوطية مُحْدَثة في القسطنطينية، نصبت «زوجته المحبوبة والمحبة» (زوجة الملحق بيرسي سميث) لوحة تذكارية بعد موته في العام 1869 أثنت فيها على «ارتباطه بالإمبراطورية التركية الذي لم يضعف يوما».

(**) الكلمة الأجنبية المستخدمة هنا هي (Occidentitis) التي تعني حرفيا مرض الغرب أو الإصابة بمرض الغرب وهي ترجمة غربية لمصطلح غرب زادجي Gharbzadegi الذي سكه الفيلسوف الفارسي أحمد فرديد Ahmad Fardid والذي يتكون من مقطعين: gharb الذي يعني الغرب وzadegi الذي يشير إلى الإصابة بمرض أو التقاط عدوى، وظهر في سياق نقد الوظيفة الشريرة للتقنية الغربية الحديثة. وقد تُرجم المصطلح الفارسي نفسه أيضا إلى Weststrucknss وWestoxication اللتين تؤديان المعنى نفسه. [المترجم].

العام 1871، أزيلت الأكشاك الشاطئية والقصور الصيفية الأسطورية التي كانت قد تضررت بشدة بفعل الحرائق، لإفساح الطريق لأسمى رموز التقدم: خط السكة الحديدية[27](*).

لم يمتلك ملك القصور الحديثة والفاخرة التي امتلكها السلطان العثماني. أشرف عبدالمجيد بنفسه على عمارة قصر دولمة بهجت وتزيينه من خلال زيارات يومية إلى موقع البناء. يعد هذا القصر المثال الأرقى للعظمة العثمانية. تماشيا مع الإرث العثماني، جاءت الأبواب المنقوشة بغابة من الجِرار والورد والأكاليل، أشبه بأقواس النصر. وتبرز الواجهة الملوكية للقصر التي تمتد بطول مائتين وأربعة وثمانين مترا كشعاع من المرمر الأبيض بين خضرة الأشجار أعلاها وزرقة البسفور أسفلها.

ومن الداخل، احتوى القصر على ثلاثمائة وأربع غرف، مملوءة بالمرايا المُذَهّبة، وفيض من بلتكانات النوافذ والأبواب، والمدفئات الخزفية، والمشاعل البلورية المرتفعة بست أقدام عن الأرضية، والسُلم ذي الطرقتين وأعمدة درابزينه من البلور الأحمر. لقد أفسحت البساطة النسبية للإرث الإمبراطوري العثماني المجال لأسلوب وصفه تيوفيل غوتييه بأنه «المقابل الشرقي لأسلوب لويس الرابع عشر»، وبالفعل كان الكثير من الأثاث لقصر دولمة بهجت قد صنع على أيدي سيشون الباريسي ووليام غبس روجرز اللندني(**).

حوّل المُجمّع المحيط بالقصر، المكوّن من الاسطبلات والمطابخ والمسرح والثكنات والوزارات، بيشيكتاش القرن التاسع عشر إلى ضاحية للبلاط العثماني، حيث كان صف منازل الباشوات المتجاورة يحاكي الشارع اللندني. أبقى القصر على العناصر العثمانية التقليدية مثل انقسامه إلى سلاملك وحرملك، وقاعات أو صوفات وسطى كبيرة تفتح فيها غرف أخرى. غير أن عمارته وأثاثه كانا أوروبيين في جوهرهما. ازدانت الجدران بصور لملوك أوروبيين ومجموعة من اللوحات الشرقية لسيدات الحريم والحج والمياه الحلوة لأوروبا وآسيا التي افتتن بها

(*) خط السكة الحديدية الذي يربط القسطنطينية بالضواحي وبإدرنة، وبعد العام 1888 بأوروبا الغربية مباشرة.

(**) سيشون Sechan هو مصمم دار الأوبرا الفخمة في باريس. وليام غبس روجرز William Gibbs Rogers أحد نحاتي الخشب البارزين إبان القرن التاسع عشر. [المترجم].

السلاطين العثمانيون المتأخرون بقدر ما افتتنت بها النخبة الأوروبية. وشملت الحدائق رياضا فرنسية أشرف عليها بستانيون أوروبيون. ولم تبقَ حديقة عثمانية تقليدية واحدة في اسطنبول، ولم يبقَ واحد من أنواع الزنبق العثماني الألف والخمسمائة التي هُجِّنت فيها[28].

في منتصف قصر دولمة بهجت، يعلو طابقان شاهقان فوق بقية القصر، كانا يضمان أكبر غرفة عرش في العالم. يحمل ستة وخمسون عمودا كورنثيا(*) سقفا ضخما خادعا للعين مزيّنا بالرسوم الجصية كأنه خلفية لأوبرا إيطالية، وأعمدة وعروقا مرمرية داكنة وستائر وأكاليل زهور. ارتفاع الغرفة ستة وثلاثون مترا، وعرضها أربعون مترا، وطولها خمسون مترا. أصبحت غرفة العرش البؤرة الطقوسية للإمبراطورية بدلا من باب السعادة بقصر توبكابي. ففيها كان يوضع العرش الإمبراطوري المُذَهّب، الذي نقل دون غيره من خزانة توبكابي، عندما يستقبل السلطان تهاني البلاط والحكومة والحريم في نهاية شهر رمضان.

وفي الثاني والعشرين من يوليو 1856، أقيمت مأدبة لمائة وثلاثين شخصا للاحتفال بانتهاء العمل في القصر والانتصار على روسيا معا. كان الصدر الأعظم علي باشا ووزير الخارجية فؤاد باشا في استقبال الضيوف الذين قدموهم إلى السلطان الخجول والمبتسم الذي انسحب بعد ذلك، ذلك أن البلاط العثماني لم يكن قد «تغرّب» إلى الدرجة التي تجعل الخليفة السلطان يأكل مع الضيوف في مأدبة رسمية. وعلى مائدة المأدبة في غرفة العرش المضاءة بثريا عملاقة تشعلها أربعمائة شمعة غاز، جلس في مكان الشرف الصدر الأعظم، وعلى يمينه لورد استراتفورد دي ريدكليف وعلى يساره مارشال بليسير Marechal Pelissier قائد الجيش الفرنسي المنتصر في القرم. كان من بين الضيوف القائد العام العثماني عمر باشا، وكونت بيساني الذي لا يستغني عنه استراتفورد، وديبلوماسيون نمساويون وبروسيون وساردينيون. عزفت الفرقة الإمبراطورية السلام الوطني الإمبراطوري تلاه السلام الوطني الفرنسي والبريطاني. وعندما ثارت عاصفة بالخارج، ذُعرت الفرقة الموسيقية من دوي الرعد ووميض البرق فهربت من المكان، وانطفأ نصف الشموع لأن أحد الأبواب كان مفتوحا، وعلى رغم أن الضيوف أعجبوا بالقصر،

(*) نسبة إلى المدينة اليونانية القديمة كورنث Cornith التي اشتهرت بالترف والتهتك. [المترجم].

فإنهم لم يستطيعوا أن يقاوموا مقارنة المأدبة بوليمة بلشاصر(*) وزوال بابل اللذين ينبئان بمصير القسطنطينية[29].

تضم قوائم الطعام التي بقيت خليطا من الأطباق الأوروبية والعثمانية التي تميّز بها البلاط العثماني المتأخر: البوريك والبيلاو والقطايف والبقلاوة، يتخللها حساء الخضر واللحم المحشو بالخضر وفطائر كبد الأوز. وكانت بعض الأطباق اختراعات جديدة، وكان غيرها توليفات بين أطباق شرقية وغربية، مثل فطائر الأناناس السلطانية وشركسية الدجاج وأصابع الست [30].

بُنيت سلسلة القصور الرائعة بغرض إعادة طمأنة النفس، فضلا على الاستعراض. كانت العائلة الحاكمة تفقد الثقة بالنفس. من ذلك أنه قبل زيارة الإمبراطورة أوجيني في العام 1869 وهي في طريقها إلى افتتاح قناة السويس، أُرسِل رئيس الخدم السلطاني م. ماركو M. Marco إلى باريس لاستئجار طباخين وخدم وشراء أدوات مائدة، كأن معايير البلاط العثماني لم تعد مقبولة[31].

وخارج القصور، كان تَحْديث المدينة يجري على قدم وساق. فأصبحت المساواة مع المسيحيين واليهود مرئية للأعين، من خلال ارتداء الملابس نفسها، وكذلك مسموعة للآذان، إذ سُمح للكنائس بعد العام 1856 لأول مرة منذ العام 1453 بأن تقرع أجراسها في القسطنطينية. تذمر بعض المسلمين من الخط الهمايوني hatt - i humayun (المرسوم الإمبراطوري) للعام 1856 الذي كان «يوم بكاء وحداد للمسلمين». على أن الكثير من اليونانيين كانوا يفضلون التمييز السابق لمصلحة الإسلام على البدعة غير المقبولة ممثلة في مساواتهم باليهود. وفي العام 1859، نُفذت مؤامرة ضد «البدعة» بقيادة شيخ جامع بايزيد. غير أن معظم العلماء نالهم نصيب من غنائم الانكشارية، وخافوا من عملية إبادة مماثلة إذا عارضوا الحكومة، فلاذوا بالصمت[32].

(*) بلشاصر Belshedezzar (القرن السادس قبل الميلاد) هو ابن نابونيدوس آخر ملوك بابل وشريكه في الحكم بعد أن اختلى الأول لعبادة إله القمر، ورد ذكره في سفر دانيال، إذ إنه في مأدبة دعا إليها خمسة آلاف سيد سقاهم فيها من الآنية الذهبية التي جاء بها من معبد أورشليم، رأى يدا تكتب على الحائط من دون أن يرى صاحبها فعرف أنها من عند الله، فأتى بدانيال الذي يفسر الرؤى وسأله عن تفسير هذه الكتابة، فقال له دانيال إن هذا اليوم هو آخر يوم في مُلكك وإن مُلكا آخر سيبدأ ويأخذ عرشك، وقد كان، إذ انهار ملكه وحل محله الميديون الفرس بقيادة قورش الأكبر في شهر أكتوبر من العام 539 قبل الميلاد. [المترجم].

فضلا علـى أن الحكومة كانت حريصة على الإبقاء على المظاهر الإسـلامية. كانت مراسم السلاملك(*) في عهد عبدالمجيد بها شيء من الطيش. فكان السلطان مصحوبا بفرقة تعزف مقطوعة لروسيني أو السلام الوطني الفرنسي، يبدو أحيانا محطما جدا من متع الليلة السـابقة إلى درجة أن الحضور كانوا يخشون من أن يسقط من فوق حصانه. وكانت السلاملك في عهد عبدالعزيز الذي اعتلى العرش بعـد مـوت أخيه في العام 1861 أكثر وقارا. كان السـلطان يعـبر عادة في قارب الكيـاك الإمبراطـوري إلى الجامع القائم في أورتاكي الـذي بُني في العامين 1853-1854 على البسـفور شـمال قصر دولمة بهجت. تذكر سير هنري وودز باشا Sir Henry Woods Pasha أحـد الإنجليز الذين عُيّنوا في الأسـطول العثماني كيف كان السـلطان يعبر البسـفور مسرعا، «رجل جليل متعجرف المظهر ذو حاجبين منخفضـين وتعبـير متجهم على محياه العابس قليلا، ينظر أمامه في اسـتقامة». كانت المجاديف «تعمل في انسجام مثالي، فتصعد وتنزل كأنها مجداف واحد، ولا تطرطش ماء، وإن كانت عندما تخرج من الماء تتساقط من راحاتها قطرات تتلألأ مثل الماس في نور الشمس الساطعة». وعلى طول ضفتي البسفور، تعزف الفرق السـلام الوطني وتؤدي القوات سـلام السـلاح ويؤدي الناس انحناءات الاحترام عند مرور السـلطان. وكانت المدافع تطلق نيرانها تحية للسـلطان من الحصون والسـفن الحربية، وحين كان يمر مركب السـلطان كانت مراكب الكياك تتزاحم للحصـول على رؤية أفضل للسـلطان[33]. فقد اتحد السـلطان والمدينة والبحر للاحتفاء بالله والإمبراطورية.

لَمْ تَمَـس التنظيمات الحكومية العالم التقليدي للمدينة المقدسـة الذي كان الطلاب في مساجده ومدارسه ملزمين بدراسة القرآن والحديث باللباس التقليدي، على رغم أن الوزراء كانوا يعرفون أن المدارس تحتاج إلى إصلاح. ففي القسطنطينية تعايشـت الثقافتان الغربيـة والعثمانية جنبا إلى جنـب. وكان عبدالمجيد يحب الأوبرا الغربية والخط اليـدوي التقليدي كليهما: تعلق أمثلة لخط يده في جامع الخرقة الشريفة Hirka-i Sherif (البردة الشريفة)، ذلك الجامع الذي يشـبه من الداخـل دور الأوبرا الإيطالية والذي بُني بالقرب من جامع سـليم الأول. وبعيدا

(*) تذكر أن السلاملك - غير جناح الرجال في القصور والبيوت - هو مراسم ذهاب السلطان إلى صلاة الجمعة. [المترجم].

عـن الصعـود الظاهري للتحديث، ازدهـرت طوائف الدراويـش. جاءت التكية المولوية التي بُنيت في العام 1855 بشـارع بيرا الكبير مزيجا مميّزا من الأسـلوبين الشرقي والغربي. فكانت بأعمدتها الكورنثية وأرضيتها الخشـبية الخضراء أشـبه بصالة رقص إيرلندية. وانتعشت الطريقة البكتاشية التي حظرها محمود الثاني في عهد ابنه، ووصلت المدينة طوائف جديدة مثل النقشبندية. فقد كانت إصلاحات هذه الفترة بتأكيدها على المسـاواة بين الأديان وأهمية العلم الحديث والفلسفة، تشترك في المبادئ عينها مع تعاليم الصوفية. وفي ذلك كتب صوفي لاحق، هو رضا توفيق المفكر البارز في نهاية الإمبراطورية: «لا فرق بين روح الصوفية وروح العلم الحديث». وبحلول العام 1900 كانت القسطنطينية تسع ثلاثمائة وخمسين تكية، بكل منها مسجد وقاعة اجتماعات ومكتبة(34).

انطلقـت ثورة ثقافيـة في العاصمة بفعل وجود المـدارس الجديدة التي تقدم التعليم باللغة الفرنسـية والتي كان طلابها المسـلمون يقرأون لفولتير، وبفعل تأثير الطـلاب العثمانيـين العائدين من باريس. فظهرت أول صحيفة غير رسـمية باللغة العثمانية في القسـطنطينية في العام 1861، أسسـها طالب سابق من طلاب باريس هو إسـماعيل شـناسي Ismail Sinasi الـذي كان مؤمنا بإصلاح اللغـة العثمانية. وارتفع عدد الكتب المنشـورة سنويا باللغة العثمانية من أحد عشر كتابا في الأعوام 1820- 1839 إلى ثلاثـة وأربعين في الأعوام 1840- 1859، وإلى مائة وسـتة عشر في الأعـوام 1862- 1876، وإلى مائتين وسـتة وثمانين في الأعـوام 1877- 1908، ثم إلى سـتمائة وخمسـين كتابا في الأعـوام 1909- 1920. كان من بين هـذه الأعمال أول مسرحيـة عثمانية حديثة «زواج شـاعر» (1860) وأول روايـة حديثة «قصة حب طلعـت وفتنت» (1871) التي هاجمت دعائم المجتمع العثماني التقليدي من نوع الزواج المرتب والعبودية. كان الكاتب الأشـد ثورية بين الكتاب العثمانيين هو نامق كمال Namik Kemal المعروف باسم «عزرائيل الانحراف اللغوي» الذي بدأ بإزالة الكلمات الفارسـية التي خنقت اللغة العثمانية، وشرع في تتريكها عمديا. بالإشـارة إلى ثورة النشر والتغير في العقلية، كتب إدوارد غب في تاريخه للشـعر العثماني: «في العـام 1859 كان الأتـراك لا يزالون فعليا مجتمعا من القرون الوسـطى. وفي العام 1879، كانوا قد أصبحوا أمة حديثة»(35).

يعـد الكاتب ورجل الدولة أحمد وفيـق Ahmed Vefik مثالا للتحول الفكري السريع لجزء من النخبة المسـلمة في القسـطنطينية. ولد وفيق في القسـطنطينية في العام 1818، وتعلم في مدرسـة سـانت لويس الثانويـة في باريس في الأعوام من 1834-1837 حـين كان أبـوه يشـغل وظيفة القائـم بالأعمال العثـماني. وبعد أن قضى بضع سـنوات في مكتب الترجمة بالباب العالي (الذي ترأسـه جده بعد إعدام اسـتافراكي أريستاركي في العام 1821)، خدم في السلك الديبلوماسي في لندن وطهران وبوخارسـت وباريس، وفي القسـطنطينية خدم عضوا بالمحكمة العليا ومحاضرا في الجمعية العلمية العثمانية.

كان أبـوه، وفق مـا ذكر صديقهما عـالم الآثار والديبلوماسي أوسـتن لايارد Austen Layard، «سـيدا تركيا مثاليا، يتحـلى بأرقى العادات والأخلاق وبمظهر وقور جدا بلحيته البيضاء كالثلج وعمامته وعباءاته». عاش الأب في بيت خشبي قديم بالقرب من الجامع السـليماني، يحوي سـجادا فخما وديوانا مغطى بحرير بورصة أو دمشـق وأشـياء أخرى قليلة. أما أحمد وفيق، فـكان مثالا «للأفندي الإسطنبولي» الجديد: ريان وداكن اللون وبلا لحية، يلبس طربوشا وإسطمبولين، وملما بالثقافتين العثمانية والغربية على حد سـواء. وفي بيته الجميل غير المنظم الكائـن في حديقة وراء حصن محمد الثاني روملي حصاري، الواقع عبر البسـفور من يـالي كوبرولـو Koprulu Yalisi، أبقى على الفصـل التقليدي بين جناحي الرجال والنسـاء، لكن كانت له زوجة واحدة فقط. وقيل إنه كان يعرف سـت عشرة لغة، من بينها الفارسـية والعربية واليونانية والفرنسية والإنجليزية، وإنه كانت لديه أكثر مكتبة شمولا في القسطنطينية (من بين القائمة التي نُشرت بعد موتـه التي ضمت ثلاثة آلاف وثمانمائة وأربعة وخمسـين كتابا ومخطوطة، كان ألف وثلاثمائة وستة وسـتين فقط باللغات العربية والفارسية والعثمانية). أحب التوراة وشكسبير وديكنز. وكتب عنه لايارد أنه «كان مستودعا كاملا للمعلومات في كل الموضوعات الغربية والشرقية ... وكان الرفيق الأكثر بهجة ومرحا وإمتاعا»، وأنه كان وسـيطا بين القسـطنطينية والغرب. فترجم فيكتور هوغو وموليير إلى اللغة العثمانية، وسـاعد تشارلز وايت Charles White مراسل الديلي تليغراف بالقسـطنطينية- إذ كانت المدينة قد دخلت عـصر الصحافة- في كتابة «الرواية

الأفضل والأشمل لأساليب السكان المختلفين في العاصمة التركية وعاداتهم» بعنوان «ثلاث سنوات في القسطنطينية» (ثلاثة مجلدات، 1845)[36].

كانت معظم الوثائق والكتب والصحف العثمانية لاتزال تكتب بلغة لا تقل زخرفة عن أبواب قصر دولمة بهجت، وهي لغة مختلفة كثيرا عن اللغة التركية البسيطة المستخدمة في الشارع. حتى رسائل سيدات الحريم الإمبراطوري لم تكن تقل إسهابا عن لغة القرن السادس عشر إلا قليلا. وليس مفاجئا على أي حال من الأحوال أن نجد كثيرا من «أفندية إسطنبول» الذين تعلموا الفرنسية قد شعروا بالغربة عن ثقافتهم العثمانية الخاصة وانتقدوا الروايات التركية الأولى. من أمثلة ذلك الشخصية الرئيسة- أفلاطون بيه- في رواية أحمد مدحت المعنونة «أفلاطون بيه ورقيم أفندي» Felatun bey ile Rakim effendi التي نُشرت في العام 1876، الذي يحب الأثاث الغربي ويحتقر الشعر العثماني: «يالها من بلاهة مطلقة، ويالها من فضيحة كاملة». وكان خادمه اليوناني يعلن وقت الطعام بالعبارة: Monsieur est servi [مسيو المائدة جاهزة]. وانتقل للإقامة بالقرب من بيرا، واستمتع بارتياد مقاهيها الحديثة. وتوقفت أخته عن عمل التطريز التقليدي، وأخذت تشتري منسوجات مصنوعة بالماكينات. لقد بدأ التماسك العثماني القديم في التلاشي.

غير أن أحمد وفيق احتفظ أيضا بثقافته وكبريائه العثمانيين. فقرأ لحافظ وعمر الخيام وكتب تاريخا للعثمانيين ومعجما عثمانيا حاول أن يبسّط فيه اللغة العثمانية ويُتَرّكها. وعلى العشاء في السفارة البريطانية، كان لورد استراتفورد دي ريدكليف هائجا بسبب اعتقال السلطات لمجرم يحظى بالحماية البريطانية وتساءل عما ستفعله السلطات إن ذهب بنفسه ومعه قواسه(*) لإطلاق سراح المجرم. فرد عليه وفيق: «بسيطة، سيضعونك أنت وقواسك معه في السجن، وسيكونون في هذه الحالة يؤدون واجبهم!»[37].

تمثلت إحدى حلقات الاتصال بين النخب العثمانية والأوروبية الغربية في اشتراكهم في الإمبريالية. من ذلك أن أحمد وفيق في رحلاته في خدمة السلطان أطلق على ولاشيا اسم «سدوم الجديدة»(**) وأفزعه «أولئك الناس البغيضون الذين

(*) القواس cavass في اللغة التركية هو الحارس المسلح، ربما تكون مشتقة من حامل القوس العربية. [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة حول سدوم ومغزاها. [المترجم].

يسـمونهم مسـيحيي سـورية». عرف وفيق أن وجود الإمبراطورية العثمانية كان ضرورة أوروبية: «بلغراد [التي ظلت عثمانية] تسـتحق جيشا من مائة ألف رجل، أقول مائة ألف رجل للدفاع عن المصالح الأوروبية. فالصرب الذين يسـيطرون على «بوابات الحديد»(*) سيكونون قوة غير مريحة للجميع». لكنه كان يستسلم لليأس من حـين إلى آخر. ففي العام 1857، وهو جالس بجوار حصن روملي حصاري، رمز الفتح العثماني للقسطنطينية، تحسر على ضعف الإمبراطورية أمام الأوروبيين: «ربما يعاقبنا الله بما نستحقه. فقد كنا متغطرسين وظالمين في تعاملنا مع الأمم الأجنبية في أيام عزنا. وقدرنا الآن أن تدوسوا علينا. إنها إرادة الله».

دفعـت حالة اليونـان وفيق إلى القول إنه «لا توجد يونـان بل يوجد يونانيون فقـط»[38]. ففـي أثينا القومية الفوضويـة، قيل إن ألكسـندر مافروكورداتو رئيس «حـزب مافروكورداتـو»، أي الحزب الإنجليزي، هو السـياسي اليوناني الوحيد الذي «أراد حكومـة منتظمة عـلى النحو الذي يفهمه الناس في أوروبـا»[39]. وفضّل كثير من اليونانيين الإمبراطورية العثمانية على اليونان المسـتقلة مصوتين بأقدامهم التي حملتهم مهاجرين إلى القسـطنطينية. ووفقا لإحصاء العام 1881، كان أكثر من 50 في المائة من المائتي ألف يوناني المقيمين في القسطنطينية مولودين خارج المدينة.

طفا «مموّلو غَلَطَة» على سـطح الجماعة اليونانيـة بالمدينة خلال هذه الفترة. وبينـما أصبح الفنـار منطقة راكـدة نظيفة وهادئـة مثل الحـي الإكليروسي بأي بلدة إقليمية فرنسـية، أقـام المموّلون في بيرا وطرابيا وعملـوا في غَلَطَة. غادر أبناء العمومة البعيدين لعائلة مافروكورداتو، الذين كانوا يحملون الاسـم مافروغورداتو Mavrogordato، خيـوس في العقد الرابع من القرن التاسـع عشر ليصيروا مموّلين في القسـطنطينية. حققت هذه العائلة نجاحا كبيرا حتى إن بيتهم السابق في شارع بيرا الكبير كان أشـبه بواحد من فنادق فوبور سـانت جيرمين(**). لم تنشـأ أهمية اليونانيين للأعمال المصرفية العثمانية عن تفضيل اليونانيين لأبناء جلدتهم فقط، كما عرف مديرو البنوك التركية الأولى التي أنشئت في العقد الثالث من القرن العشرين.

(*) بوابات الحديد Gates of Iron خانق على نهر الدانوب يشكل حاليا جزءا من الحدود بين صربيا وكرواتيا، ويقع بين رومانيا في الشمال وصربيا في الجنوب. [المترجم].

(**) فوبور سانت جيرمين Faubourg Saint Germain: حي تاريخي في باريس اشتهر تاريخيا بأنه السكن المفضل لكبار نبلاء فرنسا واحتواء كثير من الفنادق الفخمة. [المترجم].

فلم يكن المســلمون مدربين على الأساليب المصرفية الحديثة، ولم يكونوا مستعدين للبدء مــن الصفر، وكانوا بحكم العادة يلتحقون بخدمــة الحكومة أو الجيش. وفي العامــين 1871 و1872 وحدهما بدأت عشرة بنوك جديدة في القســطنطينية، حتى أطلق على المدينة اســم «كاليفورنيا الجديدة»(*). وبينما كان المموّلون يقرضون في أوروبا بسعر فائدة بين 3 و 4 في المائة، كانوا يقرضون الحكومة العثمانية التي كانت في أمــس الحاجة إلى النقــد لدفع النفقات الجارية وفوائد الدين الحكومي بســعر فائدة يتراوح بين 12 و18 بالمائة[40].

يتجلى صعود القسطنطينية كعاصمة مصرفية في حياة عائلة بالتازي Baltazzi. فكما فعلت عائلة مافروغورداتو، جاءت عائلة بالتازي إلى القسطنطينية من خيوس في نحــو العــام 1830. من خلال العمل مموّلين وملتزمي ضرائب يعيشــون في خان بالتازي في غَلَطَة وبيت في طرابيا، سرعان ما اشــتهر أفراد العائلة بأنهم أغنى أغنياء الإمبراطورية. واصلت النســاء اليونانيات إرث بيرا في الإغواء وظللن يَتَزَوَّجْنَ أزواجا أجانــب في كثير من الحالات(**). وفي العام 1864 تزوج القنصل النمســاوي بارون فيتسيرا Baron Vetsera في القسطنطينية من هيلين بالتازي، وهي في عمر السابعة عــشرة. وأخذ إخوتها المال الذي جمعوه على البســفور، ومــن خلال حبهم للخيول ورعاية بروكيش أوســتين لهم، حوّلوا أنفسهم إلى جزء من الأرستقراطية الفينية[41]. وجلبت أخت فيتسيرا ماري فسوق بيرا إلى قصور ڤيينا، وفي صحبتها، آثر ولي العهد النمساوي الأمير رودولف أن ينتحر في مايرلينغ في العام 1889(***).

(*) في النصف الثاني من القرن التاســع عشر، اشــتهرت كاليفورنيا بكثرة البنوك التي أسهمت في تعمير الغرب البري، ومنها بنك كاليفورنيا Bank of California الذي تأسس في العام 1864. [المترجم].

(**) إبــان القرن التاســع عشر، تزوج أميديــو برزيوسي Amedeo Preziosi الرســام المالطــي، وجيلوم بيرغرين Guillaume Berggren المصــور الســويدي اللذان عاشــا في القســطنطينية، زوجتين يونانيتــين. وأقامت أورديس اريستاركي Eurydice Aristarchi أميرة ساموس Samos علاقة غرامية مع سير هنري بلوار السفير البريطاني في العقد الســابع من القرن التاســع عشر. بنى لها الســير قلعة على جزيرة في بحر مرمرة كان قد اشــتراها ليطورها إلى مزرعة للخضراوات. يقول عنها سير هنري درموند وولف Sir Henry Drummond Wolff إنها كانت «امرأة تتمتع بسحر وكياسة بالغين ... وكانت سفارات كثيرة مختلفة تتودد إليها بسبب علاقتها الوثيقة مع حريم السلطان ... وكانت المرأة الوحيدة التي تستطيع أن تناقش الأمور السياسية ببرود». وطردت في العام 1877 لكونها عميلة للروس.

(***) كان رودولف ولي عهد النمسا (21 أغسطس 1838 إلى 30 يناير 1889) ابن الإمبراطور فرانز جوزيف الأول، متزوجا من أميرة تدعى ســتيفاني، لكنه وقع في غرام ابنة البارون ألبين فيتســيرا، وكان البلاط وزوجة الأمير على علم بذلــك. وفي الثلاثــين من يناير 1899، وُجد الاثنان ميتين في بيت صيــد للأمير في بلدة مايلرلينغ Mayerling وأمامهما زجاجة ومرآة، فقيل إنهما انتحرا بإرادتهما، وقيل إن البارونة قتلت حبيبها وانتحرت. [المترجم].

كان أهم ممول في غَلَطَة منافسا لمافروغورداتو وبالتازي، وهو جورج ظريفي George Zarifi. وظريفي الذي تعلم في اليونان، جمع ثروة طائلة في القسطنطينية في أثناء حرب القرم من خلال تزويد أساطيل التحالف بالفحم. وفي العام 1864 أسس ظريفي مع بالتازي وممول يوناني آخر يدعى رالي Ralli واليهودي كونت ألبرت دي كاموندو Count Albert de Camondo، بنكا تحت اسم الجمعية العامة للإمبراطورية العثمانية Societe Generale de l'Empire Ottoman. وفي العام 1875، كتبت صحيفة ليفانت هيرالد Levant Herald أنه «يتمتع بسمعة مالية في المشرق لا يسبقه فيها أحد وأنه بلا شك يمثل قوة مالية». تمتع ظريفي بنفوذ لدى الحكومة العثمانية مثل كل الفناريين إبان القرن الثامن عشر، وقيل إن «ظريفي وكريستاكي Christaki وأغوب أفندي عندما يريدون أن يتموا صفقة، فإنها كانت تتم على رغم أي شيء». وإلى جانب كونه محسنا كريما على المدارس اليونانية في أنحاء الإمبراطورية كافة، وكذلك المدرسة الكبيرة في الفنار، التي ساعد في إعادة بنائها، كان في الوقت عينه عثمانيا حقيقيا. فكان ممول عبدالحميد أفندي أكثر أبناء السلطان عبدالمجيد ذكاء، وكان يسافر بجواز سفره العثماني وليس اليوناني. وعندما ناداه موظف جمارك فرنسي باليوناني، رد عليه: «أنا عثماني». وعلى رغم ارتباطه الوثيق بالبنك الأهلي اليوناني، فقد رفض في العام 1867 أن يشارك في قرض للحكومة اليونانية طُرح في سوق القسطنطينية، لأن هذه الأموال ستذهب لتغطية الإنفاق العسكري. وكتب في رسالة بتاريخ الخامس من أبريل 1867: «يقول بعض القوميين المتحمسين بالطبع إنه بالقروض تُبنى الجيوش وتنتزع الولايات التركية. وأنا أقول إنه بهذه الطريقة يستحيل نيل الولايات. والطريقة الوحيدة هي أن نبني الجسور، وأن نتخلص من اللصوصية، وأن تتوازن الموازنة»[42]. وتمنى الخير لليونان «بلدي»، لكن مصالحه كانت متمركزة في القسطنطينية. ولم يوافق على تقديم القرض.

ازدهرت الجالية اليونانية في ظل الحماية التي وفرها ممولو غَلَطَة. وبمبادرة من علي باشا وفؤاد باشا، أعيد تنظيم البطريركية والمجمع الكنسي المقدس وفق «النظم القومية لأمة الرومان» التي وضعتها في الأعوام 1858- 1859 جمعية من اليونانيين وأقرها فرمان إمبراطوري في العام 1862. وأُغلقت الطوائف الحرفية

اليونانية القديمة أمام طوفان الرأسمالية الجديدة التي اكتسحت الإمبراطورية، وحُوّلت ثرواتها إلى المدارس اليونانية الثماني والثمانين الموجودة في العاصمة وحولها، التي كان من أشهرها مدرسة زوغرافيون Zographeion التي بناها المموّل اليوناني الناجح كريستاكي زوغرافوس أفندي Christaki Zographos Efendi بأسلوب كلاسيكي مُحْدَث يوناني لايزال يقف بارزا بجوار المدرسة العثمانية الإمبراطورية بغَلَطَة سراي بمظهرها الأكثر وقارا. وفي العام 1861 أسس زوغرافوس وطبيب السلطان إستيفان كاراثيودوري الجمعية الأدبية [فيلولوجيكوس سيلوجوس] Filologikos Syllogos في بناية بشارع بيرا الكبير. والجمعية التي لم يكن بمقدورها أن تعيد الإمبراطورية البيزنطية سياسيا، تمكنت على الأقل من الإنفاق على أولى علميات التنقيب العلمية في قصر الأباطرة البيزنطيين العظيم الواقع بالقرب من جامع السلطان أحمد[43].

وعلى الرغم من ازدهار «الفنار الثاني» بعد العام 1860، كانت أثينا العاصمة الفكرية والسياسة لليونانيين. وكان الأطفال اليونانيون يرسلون من القسطنطينية إلى أثينا لتلقي تعليمهم، وليس في الاتجاه المقابل. وفي أثينا أيضا نشأت «الفكرة الكبرى» بإحياء الإمبراطورية البيزنطية بعاصمتها القسطنطينية، وتحولت إلى عاطفة راسخة يتبناها الناس من المهد إلى اللحد. وفي العام 1844 أعلن رئيس الوزراء اليوناني كوليتيس Collettis في خطاب أمام الجمعية التأسيسية، أن مكان القسطنطينية في قلوب اليونانيين وعقولهم: «ثمة مركزان عظيمان للهلينية: أثينا والقسطنطينية. وأثينا هي عاصمة المملكة فقط، أما القسطنطينية فهي العاصمة الكبرى والمدينة وأمل كل الهيلينيين ومحط أنظارهم»[44]. وعُلِّقت على الجدران في بيوت اليونانيين بجانب صور ملك الهيلينيين وملكتهم، صور للبطريريك المسكوني وآيا صوفيا بلا مآذن.

عانى اليهود من «الحدث المبارك» بسبب ارتباطهم الوثيق بالانكشارية الذين قيل إنهم الوحيدون الذين نجحوا في تمويلهم. وشُنق بيهور إسحاق كارامونا Behor Isaac Carmona رئيس الجماعة ومموّل أسماء سلطان، وكانت العقود التالية الحضيض بالنسبة إلى الجماعة اليهودية في المدينة. كتب عنهم المقيم الأرمني أوسكانيان Oscanyan الذي تدعم ملاحظاته مصادر أخرى:

> إنهم يعيشون في أماكن لا يقبل أحد غيرهم أن يسكنها. بيوتهم مثل خلايا النحل تعج فعليا بالحياة الإنسانية، وتُتخَذ الغرفة الواحدة بيتا وحيدا لعدة عائلات، أما شوارع أحيائهم، فلا يمكن المرور فيها بسبب أكوام القمامة وكل أنواع النفايات التي ترمى عشوائيا من نوافذ مساكنهم.

بعد العام 1850 كان أبرز يهود المدينة هو ألبرت كاموندو الذي كرّمه ملك إيطاليا لاحقا ورفعه إلى مرتبة النبيل باسم كونت ألبرت دي كاموندو، والذي عُرِف باسم «روتشيلد الشرق»(*). ولد ألبرت في أورتاكي في العام 1785، وكان صديق مصطفى رشيد باشا ومموّله. وفي العام 1854، أسهم في إنشاء أول مدرسة يهودية علمانية كانت تقدم البدع المروعة ممثلة في الدروس التركية والفرنسية. كان من بين تلاميذ هذه المدرسة ديفيد مولخو David Molho الذي صار لاحقا مترجما أول للديوان الإمبراطوري من العام 1880 إلى العام 1908. عارض الأحبار المغتاظون الإصلاحات، ومنها الدروس التركية. وحُرّم كاموندو كنسيا وهوجم. في طريقه إلى صلاة الجمعة في أيوب في قارب الكياك السلطاني، وجد السلطان عبدالعزيز نفسه محاطا فجأة بمراكب مملوءة عن آخرها بالأحبار وأتباعهم ينشدون أغاني دينية. وحصلوا من السلطان على وعد بإطلاق سراح الحبر الذي قاد الهجوم على كاموندو. وأخيرا، جاء الدستور الليبرالي نسبيا الذي تبناه الباب العالي في العام 1864، ليعطي اليهود حرية التجمع ويقلل من سلطة الأحبار والمحاكم الدينية. غير أن كاموندو غادر إلى باريس قرفا. فقد حالت نزعة اليهود المحافظة وغياب نظام التعليم الرسمي الحديث، دون أن يحقق يهود القسطنطينية ازدهارا ثقافيا شبيها بذلك الذي حققه يهود ڤيينا[45].

يتجلى دور القسطنطينية كعاصمة للتحديث في تأثيرها على البلغاريين. فحتى العام 1876 كانت القسطنطينية عاصمة البلقان. جَذَبَ الكرواتيين والمونتينغريين «الأمناء والمخلصين فضلا عن وسامتهم»(**) ثراءُ المدينة المتنامي وسهولة الاتصالات المتزايدة، إذ كانوا يأتون للعمل كمقاولين أو عمال بناء،

(*) تشبيها له بماير أمشيل روتشيلد Mayer Amschel Rothschild مؤسس العائلة اليهودية الشهيرة التي اتخذت من فرانكفورت مقرا لأعمالها المصرفية وأنشأت بنوكا في مختلف أرجاء العالم، وكانت تقرض الحكومات وتموّل الحروب. [المترجم].

(**) المونتنيغريون: نسبة إلى مونتنيغرو وهو الاسم الآخر لدولة الجبل الأسود البلقانية حاليا. [المترجم].

وكانوا بعد بضع سنوات في العاصمة يعودون بمدخراتهم إلى جبالهم. ومع كل ربيع، كما اعتادوا على مر القرون، كان يأتي إلى المدينة ألفان أو ثلاثة آلاف بلغاري من «الرجال الغلاظ الأشداء» بستراتهم السمراء وقبعاتهم المصنوعة من جلد الغنم، يسوقون قطعانا من الحملان والماعز. وفي أثناء الصيف كانوا يعملون في الحقول الخارجية كباعة حليب وبستانيين، ويزعجون المارة بصوت مزاميرهم العالية[46].

ومع وجود أربعين ألف ساكن بلغاري، أصبحت القسطنطينية المدينة الأكبر للبلغاريين. وفي العام 1845 شجعت إصلاحات التنظيمات السكان البلغاريين على أن يعملوا لأول مرة كجماعة قومية منفصلة، إذ اختاروا ممثلَين، هما إيلاريون ماكاريوبولسكي Ilarion Makariopolsky ونيوفيت بروزفيلي Neofit Bozveli، طلبا من الحكومة كنيسة بلغارية في القسطنطينية وأساقفة بلغاريين في المناطق ذات الأغلبية البلغارية. اعتقلت البطريركية المسكونية- اليونانية بجملتها على الرغم من اسمها- الزعيمين البلغاريين وسجنتهما على جبل أثوس. وعلى أي حال، فقد فُتحت صحيفة بلغارية في القسطنطينية في العام 1847. ومن العام 1848 إلى العام 1861 مارست الصحيفة البلغارية تساريغرادسكي فيستنيك Tsarigradski Vestnik التي كانت تُنشر من خان بجوار جسر غَلَطَة، دورا حاسما في الحياة الثقافية والتربوية البلغارية، وكان من بين كتابها المعلمون البلغاريون الأوائل وكُتاب ذلك العصر[47].

كان زعيم الجالية واحدا من أولئك الوجهاء متعددي الوجوه الذين تميّزت بهم القسطنطينية مثل كاموندو وظريفي وعائلة داديان، وهو استيفاناكي فوغوريدي Stefanaki Vogoridi. ولد استيفاناكي في العام 1782، وعمل ترجمانا عثمانيا في السنوات الأولى من القرن، وكان في الوقت عينه عميلا سريا للسفارة البريطانية في تعاملاته مع القصر، حين كان استراتفورد دي ريدكليف يعبر بمركبه القرن الذهبي في منتصف الليل إلى الفنار لحضور اجتماعات في بيت فوغوريدي. وكان لورد بنسونبي يتحدث ثلاث أو أربع ساعات في المرة الواحدة مع المسؤول الذي اعتبره «ربما أفضل رجل ملم بأحوال هذه البلاد»، رجل تمتع بـ«تسلط كبير على عقل السلطان»، رجل كان يتكلم مع السلطان بجرأة

لا يقـــدر عليها أي من وزرائه. كان من علامات ثقة الســـلطان بفوغوريدي أنه عَيّنــه قائم مقام مولدافيا في العامين 1821-1822 في بداية الثورة اليونانية، وفي العام 1833 عَيّنه الأمير الأول لساموس(*)، تلك الجزيرة ببحر إيجة التي ضخت فيها النخبة اليونانية بعضا من المكانة والأرباح التي كانوا يقدمونها في الســـابق لولاشيا ومولدافيا. وبفضل أناته ورصانته وإخلاصه للإمبراطورية، عارض التسرع في تطبيق المســـاواة القانونية بين المسلمين والمسيحيين (ربما لأن ذلك كان يهدد ســـلطة البطريركية). وفي العام 1851، حضر الســـلطان عبدالمجيد بنفسه زفاف ابنـــة فوغوريدي على جون فوتياديس بيه John Photiades Bey ذلك اليوناني القســـطنطيني الذي بلغت ثقة الباب العالي بـــه أن أعطاه المنصب غير المريح: الممثل العثماني في أثينا (48).

شغل فوغوريدي منصب أمين أختام البطريركية، وكان البطريرك يعتبره يونانيا. بيـــد أن أم فوغوريـــدي كانـــت تتحدث البلغاريـــة وتلبس لبـــاس البلغاريين. وكان اســـتيفاناكي فوغوريدي أيضا هو اســـتيفان بوغوريدي Stefan Bogoridi البلغاري الذي شـــجع الإحياء الثقـــافي والاســـتقلال الكنـــسي ecclesiastical البلغاري. وظل عثمانيـــا مخلصا و- فـــوق كل شيء- واقعيا. من ذلك أنه قال للســـفير البريطاني إن تجربة روســـيا أكدت أن «البلغاريين يجب أن يكونـــوا أصدق المدافعين عن الأتراك ضد روسيا، إذا كان مقدرا لهم الازدهار». وكما أوضح لاحقا سلوك الأقليات الأخرى، بل والأتراك أنفســـهم، فإن المحدد النهائي للـــولاء للإمبراطورية العثمانية كان أداؤها في ساحات المعارك.

وبعد أن انتقل إلى بيت واسع في أرنوتكاي على البسفور، سمح فوغوريدي بـــأن تقام أول صلوات كنســـية باللغـــة البلغارية في القســـطنطينية في بيته في الفنـــار. وعلى مدار العقد الســـابع من القرن التاســـع عـــشر، وقعت نزاعات شريـــرة مع البطريركيـــة، تخللتها تنازلات كانت تقدم بعـــد فوات الأوان. كان البلغاريـــون يســـتخدمون الســـلطان ضد البطريـــرك. وفي عيـــد الفصح للعام 1860، أنشـــدوا ترتيلة خاصة مديحا للســـلطان عبدالمجيد، لكنهم حذفوا اسم البطريـــرك من القداس. وأخيرا في العام 1870، بتشـــجيع من الســـفير الروسي

(*) أعطتها ثروتها وأسطولها استقلالا تحت حكم أمراء يعيّنهم الباب العالي.

كونت نيقولاي إغناتيف، صدر فرمان بإنشاء سلطة كنسية بلغارية مقرها القسطنطينية: اكسرخسية(*). وكُرّست كنيسة بلغارية سبق تجهيزها في ڤيينا بخليط من الأسلوبين «الروسي والقوطي المُحْدَث»، على القرن الذهبي بجوار الفنار. وأصدر البطريرك المسكوني تحريما بحق الإكسرخس وأساقفته، لم يُرفَع إلا في العام 1945. وصل التوتر بين البلغاريين واليونانيين مداه حتى تظاهر اليونانيون في شوارع القسطنطينية صائحين «يحيا الانشقاق الديني! لن نكون أتباعا للسلافيين، ولن نترك أطفالنا يُبَلغَروا!» Bulgarized [49]. حقق هذا الشقاق مآرب الباب العالي من منح مزيد من الحرية لرعاياه المسيحيين، إذ من خلال تلبية طلباتهم، شَقّ صفوفهم.

وإضافة إلى الإكسرخسية، أقيمت مدرسة جديدة، هي كلية روبرت Robert College، ساعدت في إعادة تأكيد الهوية البلغارية. وُضع حجر الأساس لهذه المدرسة بالقرب من قلعة روملي حصاري في الأول من يوليو 1869، على أرض تبرع بها أحمد وفيق، على رغم معارضة الجيران المسلمين بقيادة زوجة إمام محلي. وعندما فتحت المدرسة في الرابع من يوليو 1871، كانت لغة التدريس بها هي الإنجليزية، وقام على إدارتها مبشرون أمريكيون، وجذبت أعدادا كبيرة من الطلاب البلغاريين، وبين جدرانها أقيمت جامعة بوغازيجي Bogazici، أفضل جامعة في تركيا اليوم. كانت القسطنطينية تتحول إلى عاصمة عالمية للتعليم، مثل لندن وباريس. غير أن كلية روبرت لم تأت- على نحو ما تمنى السفير الأمريكي- برهانا على «الأخوة العالمية بين البشر»، بل تعهدت النزعة القومية. وشهدت المدرسة مشاجرات بين الطلاب اليونانيين والبلغاريين، وبعد سنوات قليلة- في العام 1876- قاد بلغاريون تعلموا في كلية روبرت الثورات ضد الإمبراطورية العثمانية[50]. لم تقدم مدينة، ولا حتى لندن، التعليم لزعماء الثورات القومية ضد الإمبراطورية التي كانت هي عاصمتها، على نحو ما فعلت القسطنطينية.تسارع تحديث القسطنطينية بفعل وصول زهاء مائة ألف مهاجر من أوروبا الغربية، حوّل وجودهم القسطنطينية في الفترة من 1839 إلى 1880، ولأول مرة منذ العام 1453، إلى مدينة ذات أغلبية مسيحية. جذبت بعض المهاجرين الفوضى الأخلاقية للمدينة، وجاء غيرهم لاجئين

(*) الإكسرخسية Exarchate : سلطة دينية مستقلة تعادل مرتبة البطريرك على أتباعها. [المترجم].

مثـل البولنديـين والمجريين الذين فروا من القمع الروسي والنمسـاوي بعد ثورات العام 1848. وعبّرت الإمبراطورية عن أرقى تقاليدها وتسببت في نزاع ديبلوماسي في العام 1849، حين رفضت السـماح بتسليم هؤلاء اللاجئين، وأغلقت النمسا وروسيا سفارتيهما فترة قصيرة(*).

وعلى ذلك، فإذا كانت النخبة العثمانية قد تبنت الثقافة الغربية، فإن العلاقة لم تكن أحادية الجانب بأي حال من الأحوال، إذ استمر كثير من الأوروبيين الغربيين- كما كانوا يفعلون دائما - يفضلون القسـطنطينية على أوطانهم. جدد اللاجئون الصداقة العثمانية - البولندية القديمة، وأصبحت القسطنطينية بعد الثورة البولندية الفاشلة للعام 1831، أحد مراكز بولندا في المنفى، إذ كانت الكراهية المشـتركة لروسيا أقوى من الاختلاف في الدين. حتى إن الثائر البولندي قسـطنطين بوزيكي Constantine Bozecki (1828 – 1877) اعتنق الإسـلام، وأصبح لاحقا باسـمه الجديد مصطفى جلال الدين باشا، أحد المدافعين الأوائل عن الإصلاح السياسي والقومية التركية. عمل هذا الباشا المعادي بشدة لروسيا بتدريس فن رسم الخرائط في الأكاديمية العسكرية، واقترح إنشـاء جمعية قومية تُخصص المقاعـد فيها وفقا للعرق والدين. وتزوج من ابنة عمر باشـا، الجندي الكرواتي السابق بالجيش النمساوي الذي أصبح قائدا عاما للجيش العثماني في أثناء حرب القرم(51).

وبالمثل، كان شاعر بولندا القومي آدم ميكيفيتش Adam Mickiewicz يشعر بأنه في وطنه في القسـطنطينية التي ثمّن فيها أمانـة التجار. وكانت عادة الأتراك في العيـش بين حشـود من الكلاب والدجاج تذكّره ببلدتـه الأم في ليتوانيا: «نحن البولنديين نقدّر للأتراك أنهم لم يستسلموا للإكراه من جانب عدونا». ومات الشاعر في القسطنطينية في العام 1855، في أثناء حرب القرم، بسبب الإصابة بالكوليرا، حين كان ينظم فيلقا بولنديا للقتال بجانب الجيش العثماني ضد روسيا. (ثمة قوة أخرى عُرفت باسـم القوزاق والبولنديين والمؤمنين القدامى التابعين للسـلطان حاربت مع الجيش العثماني تحت راية رسـم عليها النجمة والهلال العثمانيان والصليب). وهناك بولندي آخر، هو ستانيسـلاس شليبوفسكي Stanislas Chlebowski، كان رسام البلاط للسلطان عبدالعزيز، وعمل في أستديو في قصر دولمة بهجت من العام

(*) إرث القسطنطينية العثمانية كملاذ للكون، كما أطلق السلاطين على إمبراطوريتهم وعاصمتهم. [المترجم].

1864 إلى العام 1876، ورســـم مشاهد للأمجاد العثمانية القديمة والحالية. ولاتزال لوحاته مثل دخول الفاتح إلى القســطنطينية ورســومه الجصية لبوارج السلطان، تزيّن القصور حتى اليوم[52].

أما «الفرنجة»، فجاءوا في أغلبيتهم بحثا عن الثروة، وليس الحرية. فقد وجد رجال الأعمال الذين أثقلتهم النظم والضرائب في أوروبا الغربية، أن من الأيسر لهم أن يجمعوا المـــال في الإمبراطورية العثمانية، خصوصا بعد المعاهدة مع بريطانيا للعام 1838 التي قلصت ســيطرة الدولة على الاقتصاد. ازدهرت الرأسمالية على أنقــاض النظام الاقتصـــادي القديم. وبين العامـــين 1838 و1847، ارتفعت قيمة الأرض في بيرا بنسبة 75 في المائة، وبين العامين 1820 و1850، انخفض الإيجار في البازار الكبير بنســبة 90 في المائة. ومن بين الألف ومائة وتســعة وخمسين تاجرا وممــوّلا في المــؤشر القســطنطيني Indicateur Constantinopolitain للعام 1868، كان مائتـــان واثنان وعشرون تاجرا فقــط يحتفظون بمقرات لأعمالهم في القسطنطينية نفسها، إذ كانت معظم أعمالهم في بيرا وغَلَطَة، وكان 3.6 في المائة منهم فقط من المسلمين[53].

تشكل البنوك الواقعة في شارع البنوك Bankalar Caddesi في غَلَطَة معَلما بــارزا على هـــذه المرحلة من تاريخ القســطنطينية. لم تتغــير الخريطة الثقافية للمدينة ولا العشـــق الغربي للأرباح العثمانية منـــذ القرن الخامس عشر، بل إن هؤلاء المصرفيين الغربيين أبناء القرن التاســع عشر عملوا في الشارع نفسه الذي كان التجار الجنويون يلتقون فيه قبل أربعة قرون- في قصر بوديســتا Palazzo del Podesta - لمناقشة رفع الأسعار وخفضها، وكذلك رفع الباشوات وخفضهم. وعلى غـــرار نظيراتها في مدينة لندن، بُنيت البنوك في القســطنطينية بأســاليب معمارية مختلفة عكست قوميات أصحابها: المملوكي المُحْدَث والبندقي المُحْدَث والكلاســيكي المُحْدَث. ترمز الواجهــة الأمامية للبنك العثــماني، في «عصر نهضة المموّلين» المُعَمَّدة، إلى انتصار الرأســمالية الأوروبية. فيما تشــكل خلفية البنك توليفة عثمانية متأخرة. كان المعماري الذي صمم البنك (إلى جانب بنايات القرن التاسع عشر الأخرى بالقسطنطينية مثل لجنة الدين العام Caisse de la Dette وحلقة الشرق Cercle d'Orient والمتحف الإمبراطوري) هو فالوري Vallaury

ابن فطاطري كان يعمل في شارع بيرا الكبير. اتساقا مع الازدواجية المعمارية لهذا البنك الذي تأسس في العام 1863، فقد كان بنكا إنجليزيا- فرنسيا خاصا وكذلك البنك الرسمي للإمبراطورية العثمانية الذي يملك دون غيره سلطة إصدار الأوراق النقدية.

ظهرت الجاليات الفرنسية والألمانية والبريطانية في القسطنطينية، وكان لكل منها غرفة تجارة خاصة ومكتب بريد خاص، ذلك أن أغلبية الأجانب لم يكونوا يثقون بالخدمة البريدية العثمانية التي بدأها محمود الثاني. عملت الجالية البريطانية في السفارة والبنوك «والمحاكم القنصلية العليا لصاحبة الجلالة» ومستشفى البحارة البريطاني في برج غَلَطَة ودار سك العملة العثمانية الإمبراطورية والمدرسة الثانوية البريطانية للبنات التي أسستها ليدي استراتفورد دي ريدكليف في شارع بيرا الكبير. وقبل أن ينشئ اليونانيون جمعيتهم الأدبية، افتُتحت الجمعية الأدبية والعلمية البريطانية في بيرا في العام 1860. كان جون ريدهاوس John Redhouse الذي عاش في القسطنطينية من العام 1826 إلى العام 1853 وعمل مترجما لكل من الباب العالي والسفارة البريطانية، إحدى المرجعيات الموثوقة حول اللغة العثمانية. كتب جون معجم «اللغة التركية العامية» Turkish Campaigner's Vade Mecum (1855) للجنود في حرب القرم، وأول قاموس إنجليزي - تركي الذي لاتزال نسخة منه تطبع في إسطنبول، وكتب في العام 1877 كتاب «تبرير لقب الخليفة السلطان العثماني» Vindication of the Ottoman Sultan's title of Caliph.

بين العقد السابع من القرن التاسع عشر والعقد السادس من القرن العشرين، ازدهرت العائلات التجارية (مثل ويتال Whittall وباركر Barker ولافونتين La Fontaine) في القسطنطينية بفضل العمل بالتصدير والاستيراد. ومهما طالت مدة بقائهم هناك، فإنهم كانوا يحرصون دائما على إرسال أبنائهم لتحصيل التعليم في إنجلترا. كانت تقام مباريات كريكيت منتظمة بين «السفارة» و«القسطنطينية»، ولاحقا بين «بيبك» و«مودا» Moda، والأخيرة قرية على الجانب الآسيوي كانت قريبة من ميدان «وعر» ملائم لإطلاق النار وكانت سكنا

لكثير من فروع عائلة ويتال، الذين عاشوا في بيوت كبيرة على «الطريق» The Avenue وكانوا يذهبون إلى العمل «جماعة» بالباخرة يوميا(*).

وبحلول العام 1878، ضمت الجالية البريطانية زهاء ثلاثة آلاف شخص، كانوا بتعبير القنصل العام «ممثّلين دينيا بأكبر من حجمهم بكثير». كان مصلى السفارة نخبويا ورسميا، ونحت كنيسة القرم التذكارية نحو الطقوسية، وشملت القسطنطينية أيضا مشيخية بروتستانتية وكنيسة لأسكتلندا وكنيسة حرة وكنائس أمريكية مارس كثير منها التبشير لإدخال الناس في مذهبه، وكنيسة كل القديسين All Saints بمودا التي أسست في العام 1876[54]. وعلى رغم الاضطهاد من جانب البطريركية الأرمنية والسفارة الروسية، تجاسر بعض أرمن القسطنطينية على التحول إلى البروتستانتية.

ومع أن المدينة الإسلامية ظلت في معظمها كما هي دون تغيّر نسبيا، فقد ساعد تدفق الأوروبيين في تحويل بيرا وغَلَطَة إلى مدينة غربية حديثة. كانت السنوات العشرون التالية لحرب القرم حاسمة لهذا التحول. أكدت مذكرة تأسيس لجنة تنظيم المدينة على الرغبة في محاكاة «الطرق الأجنبية» و«أفضل المدن الأوروبية» بغرض دَحْض النقد الأجنبي لـ «عتبة السعادة» الذي ظل اسم القسطنطينية في الوثائق الرسمية: «في إسطنبول تحتل حالة البنايات والإضاءة ونظافة المدينة أولوية متأخرة ... ولذلك قررنا الاستفادة من معرفة العائلات العثمانية والأجنبية المقيمة في المدينة منذ مدة طويلة والعارفة بالطرق الأجنبية من خلال تشكيل لجنة بلدية». كان سبعة من الأعضاء الثلاثة عشر الأوائل أجانب. وفي العام 1865، اندلع أسوأ حريق في تاريخ المدينة، دمر معظم المنطقة الواقعة بين بحر مرمرة والقرن الذهبي وجامعي بايزيد وآيا صوفيا. بعدها جرت توسعة الشوارع، وفي بعض الحالات دمج أجزاء من الجبّانات في الشوارع. وفي السنة نفسها، غطت أسماء الشوارع أنحاء العاصمة كافة. وتدريجيا، فُرضت نظم لنوعية مواد البناء. وعلى أي حال، فقد تَجَنَّبت القسطنطينية عملية التحول

(*) أسس سير جيمس ويتال (1838-1910) الشركة العائلية التي تحمل اسمه «ويتال وشركاه» J.W. Whittal and co المتخصصة في تصدير الحبوب والبندق والأفيون في العام 1875، كما ساعد في تأسيس غرفة التجارة البريطانية في القسطنطينية في العام 1887.

الحضري الوحشـــية والوحدة البصريـــة visual unity المفروضة اللتين غلبتا على العواصم الأخرى. فلم يُشــق بالمدينة «طريق دائري»(*) ولا شــوارع مستقيمة كئيبة من نوع البولفار boulevard كتلك التي شــقها بارون هوســمان Baron Haussmann خلال القلب التاريخي لباريس والتي شــقها الخديوي إســماعيل خلال القاهرة في محاكاة مباشرة للأولى[55].

وفي العــام 1857، أسســت الحكومة العثمانيــة المنطقة البلدية السادســة في غَلَطَة وبيرا برئاســة نســيب فؤاد باشا وأعطتها ســلطة فرض ضرائب محلية. كانت ســجلات هذه المنطقة تُحفَــظ باللغة الفرنســية والعثمانية، بينما كانت الأولى وحدهــا لغة المداولات. قبل بضع ســنوات، ووفقــا لصديق أحمد وفيق تشــارلز وايت، كشــفت غَلَطَة عن «صورة للفســق والخلاعة لا نظير لها في أي مدينــة في العالم»، وكانــت قذرة جدا إلى درجة تضطر المــرء إلى أن يلبس حذاء فــوق الحذاء. وفي الفــترة بــين العامــين 1858 و1859، نُظّفت غَلَطَــة مجازيا وحرفيا. فهُدمت دكاكين وبيوت، ووســعت الشــوارع ومهــدت، ورُكبت بواليع، وطُــرد الباعة والمومســات، بالقوة في بعض الحالات. وصعدت المومســات التل إلى الشــوارع المتفرعة من شــارع بيرا الكبير. يذكر كتــاب «الحب الخطر» Les Amours dangereuses للمؤلــف رءوف دوبــري Raouf d'Orbey الذي نشر في القسطنطينية في العام 1874، أن بعض مواخير المدينة كانت تشبه مثيلاتها في باريس باحتوائها على سلالم مرمرية وخادمات متبرجات وأرائك حريرية قرنفلية، فضلا عن «السُكر والمتعة». وفي العام 1856، وصلت مصابيح الغاز إلى شارع بيرا الكبير (بعد مائتي عام من إدخال إنارة الشوارع في باريس)، وكان الغاز يأتي من مصنع خاص يملكه الســلطان. وفي العامين 1864و1865، هُدمت أغلب الجدران الجنوية القديمة بغَلَطَة، ونُقلت الجبّانتان الكبيرة والصغيرة إلى الحدائق البلدية، وفي الأعوام 1864- 1869، خطط المتنزه العام في شارع تقسيم[56].

غدت بيرا باريســية عن وعي وقصد. كتب مؤرخ عصرها الذهبي ســعيد نعوم دخاني Said Naum Duhani حفيد شــقيق مؤســس مسرح نعــوم أنها كانت في

(*) الطريق الدائري Ringstrasse الذي يدور حول منطقة ستادت Stadt الداخلية بفيينا والذي بدأ تبنيه في العقد السابع من القرن التاسع عشر. [المترجم].

الوقـت عينه مونتمارتر وفوبور سـانت جيرمـين(*) (لأنها وسـعت أماكن الترفيه ومسـاكن النخبـة). كانت تصطف على جانبي شـارع بيرا الكبـير دكاكين ومطاعم اسـتدعت أسماؤها البوليفار: La Maison des Modes Francises [بيت الأعمال الفرنسـية العصريـة] و Bon Marche [رخيـص] وGrand Hotel de Londres [فنـدق لندن الكبير] وCafe Chantant Parisiana [مقهى الطرب الباريسي]. وفي الصيف، عندما كانت العائلات الموسرة تنتقل إلى البيوت الواقعة على الجانب الآخر للبسـفور، كان كثير من الأزواج، المسـلمين والمسيحيين على حد سـواء، يتعمدون أن تفوتهـم آخـر عبّارة تعبر إلى البيـت. وكانوا بعدها يسرعـون إلى مكتب البريد ليرسلوا برقية اعتذار إلى زوجاتهم، وبعد ذلك يقضون الليلة «في المدينة» في «السكر والمتعـة». أصبحت بيرا مرادفا للفسـاد، مثل البلاط في الانتقـادات الموجهة لأفراد الحاشـية. وغدت الجملـة «عندما يذهب رجل إلى بيرا، فإنـك تعرف لماذا يذهب إلى هناك» عبارة لا تحتاج إلى تفسـير. و«حتى السـيد الطيب يصير مختلفا في بيرا» كما قالت أم حزينة لابنها الذي رفض أن يغادر بيرا لزيارتها في أوسـكودار(57). كانت تتفرع من شـارع بيرا الكبير ممرات مغطاة تصطف حولها دكاكين على النحو الذي ميّز باريس والقسطنطينية إبان القرن التاسع عشر. وعندما افتُتح ممر بيرا Cite de Pera (ممـر الزهور الحالي) في العام 1876، وصفتـه صحيفة لو ترك La Turquie [تركيا] بأنه «معلم تفخر به باريس نفسها»(58).

وبحلول العام 1882، بلغ عدد سـكان غَلَطَة 237,293 نسـمة، أي ربع سـكان القسـطنطينية كلهـا. وارتفع عدد سـكان المدينة ككل من نحو 391 ألف نسـمة في العـام 1844 إلى 430 ألفـا في العـام 1856 ثم إلى 650 ألفـا في العام 1878 ثم إلى 873,565 في العام 1885. وكان ثلاثة أرباع سـكان غَلَطَة مسـيحيين يعيشـون في معظمهـم تحت حماية جوازات السـفر الأجنبية، بينما دُفع اليهود والمسـلمون الفقراء خارج غَلَطَة بفعل الضغوط الاقتصادية والاجتماعية.

دفع التعارض بـين ظلام القسـطنطينية وانحطاطها وإنارة غَلَطَـة وازدهارها، والنمو في عدد السـكان المسـيحيين وتزايد البنايات والمنتجـات الأوروبية الحديثة

(*) في مقابل منطقة فوبور سـانت جيرمين Faubourg Saint-Germain بباريس التي اشـتهرت بمسـاكن النخبة والفنادق الفاخرة، اشتهرت منطقة مونتمارتر Montmartre بباريس بالمسارح وأماكن الترفيه. [المترجم].

في غَلَطَــة، كلا من العثمانيين والأجانب إلى التوصل إلى اســتنتاجات سياســية. من ذلــك ما كتبه ضياء باشــا Ziya Pasha في صحيفة «الحريــة» Hurriyet العثمانية الجديدة بتاريخ السادس عشر من نوفمبر 1868: «ظللنا نتفرج بينما كانت تجارتنا وحرفنا، وحتى أكواخنا المهشمة، تعطى للأجانب ... قريبا لن يتمكن [أهل المدينة] من كســب أرزاقهم، وسوف يضطرون إلى الانتقال إلى بورصة أو كوتاهية أو قونية، وبهذه الطريقة ســتفرغ إسطنبول من أهلها، وسيأخذ الأوروبيون أماكننا». وبعدها بست سنوات، كتب إدموندو دي أميتشس:

> على الواجهة الفخمة للمدينة، يظهر في العمارة وفي الأعمدة الصراع الكبير الذي يخوضه المســيحيون الذين أعادوا احتلال المدينة المقدسة وأبناء الإسلام الذيــن يدافعون بكل قوتهم عــن التراب المقدس. فإســطنبول التي كانت في السابق مدينة تركية فقط، تغزوها الآن ببطء- من كل الأنحاء- أحياء مسيحية تلتهمهــا ببطء وتمتد على طول شــواطئ القرن الذهبي وبحــر مرمرة، وعلى الجانب الآخر يتقدم الغزو بضراوة، إذ تلتهم الكنائس والقصور والمستشفيات والحدائق العامة والمصانع والمدارس أحياء المسلمين، وتَغْمُر الجبّانات، وتتقدم من تل إلى آخر.

لا أحد يمكن أن يتنبأ بالطرف الذي ستكون الغلبة من نصيبه[59].

كان يعيش بالمدينة أيضا ســكان آخرون أقصر بدنيا من ســكان القســطنطينية البشريين وأقبح منهم وأغزر شــعرا. فمنذ القرن الســادس عــشر، قام آلاف الكلاب بتقسيم المدينة إلى أحياء، يخضع كل واحد منها لسيطرة قطيع له قائد واحد. ونظرا إلى كونهــم مكانس حية للشــوارع، فقــد كانوا يجوبون الشــوارع بحثا عن الطعام وأحشاء الذبائح. وكما كانت الحال مع الطيور والقطط، كانوا يحصلون على طعامهم من الســكان، خاصة المســلمين، الذين كانوا يقدمون لهم الخبــز واللحم (الكبد أو الطحال التــي كان الألبانيون المتجولون يبيعونها) والماء. وكان أهل المدينة يخبزون رغيفا ناعما كبيرا يشــبه الفطيرة الســميكة خصيصا لإلقائه للــكلاب. لكنهم في بيرا وغَلَطَة، كانوا يخافون من عصي المسيحيين وسمومهم.

كان كل قطيع يقتل كلاب القطعان المنافســة التي تجور على أرضه أو يطردها. ولم تكــن الــكلاب تخشى من النــوم في منتصف الطريق وتجعل ســكان حي كامل

يلتفـون بعيدا عنهـا. ورأى مارك توين Mark Twain ثلاثـة كلاب ظلت راقدة في الشـارع بلا حراك فيما كان قطيع من الخراف يسـير فوقهم. وكانت خطوط الترام الأولى تحتاج إلى أن يسير أمامها رجال بعصي ليبعدوا الكلاب عن طريقها[60].

مع غروب الشـمس، الذي يجعل القرن ذهبيا حقا، كانت القسطنطينية تدخل في بحـر من الظلام، مثل قرية ريفية صغيرة. وفي بـيرا وغَلَطَة، كانت مصابيح الغاز تضاء، فتبدأ الكلاب في العواء. كتب زائر إنجليزي في العام 1850: «كان عواء الكلاب ونباحها وهريرها وزمجرتها تندمج معا في صوت منتظم موحد ومتواصل، مثل نقيق الضفادع عندما يُسمع من على مسافة». وإذا عدت إلى بيتك ليلا سيرا على الأقدام، فلا مناص من أن تحمل عصا وفانوسـا صينيا ورقيا. وقد وقع بحار إنجليزي سكران في شارع غَلَطَة في إحدى الليالي، فلم يجدوا منه في الصباح التالي غير عظامه.

ثمة مثل شرق أوسـطي يقـول إن المدينة التي لا تنبح فيهـا الكلاب ليلا مدينة ميتـة. فقد كانـت الكلاب جزءا من حياة المدينة التـي كان كثير من أهلها يؤمنون بالحظ. وكان في مقدورها - أي الكلاب - أن تتحدى السـلطان نفسـه. من ذلك أن عبدالمجيـد أمر ذات مرة بنقلها إلى جزيرة في بحر مرمرة[61]. لكنها أحدثت ضجيجا عاليا، ما اضطره إلى شحنها ثانية إلى القسطنطينية.

12

الطريق إلى تساريغراد(*)

هل سيقام القداس في سانتا صوفيا بحضور القيصر؟

تيوفيل غوتييه

في السابع عشر من يناير 1875، أول أيام عيد الأضحى الذي يحتفل فيه المسلمون بافتداء إسماعيل(**)، افتُتح خط سكة حديدي معلق قصير بين غَلَطَة وشارع بيرا الكبير أعلى التل. وبعد الرحلة الافتتاحية، تناول الوزراء العثمانيون والسفراء الأوروبيون «وجبة خفيفة فاخرة مع الشمبانيا وخمور أخرى ممتازة»، قدمها فالوري فطاطري بيرا على طاولات مزيّنة بأناقة اصطفت على جانبي رصيف القطار في محطة بيرا. شرب السيد ألبرت مدير السكة

«كانت الإمبراطورية تواجه تحديين: داخليا متمثلا في صعود النزعة القومية، وخارجيا متمثلا في تدهور مكانتها الدولية»

(*) يُذكر أن تساريغراد Tsarigrad، بمعنى مدينة القياصرة، هو الاسم المحبب للقسطنطينية لدى الصرب والبلغار والروس. [المترجم].

(**) النص الإنجليزي لهذه العبارة هو celebrating Abraham's sacrifice of Isaac وترجمته المباشرة هي «الذي يحيي فيه (المسلمون) ذكرى تضحية نبي الله إبراهيم بابنه إسحاق»، ←

الحديد في صحة صاحب الجلالة الإمبراطورية السـلطان عبدالعزيز، ثم ألقى كلمة عـبّر فيها، وسـط تصفيق حماسي، عـن الأمل في أن يكون الخـط (الذي بدأ العمل اليوم) «حلقـة اتصال جديدة للأخوة تدعم الصداقة بين العناصر الشرقية والغربية التي تجتمع في القسطنطينية». ثم عُزف السلام العزيزي الذي أُلف تكريما للسلطان. ونظرا إلى أن الإنجليز كانوا ملاك شركة السكك الحديد، فقد شرب الضيوف أيضا في صحة ملكة إنجلترا «أقدم حليف للسلطان» واستمعوا إلى السلام الوطني الإنجليزي «حفظ الله الملكة».

تكشف كلمة مدير السكة الحديد عن مسألة ثقافية أوسع، إضافة إلى الهاجس السـياسي المهيمن حـول ما إذا كانت روسـيا يمكـن أن تأخذ المدينـة: هل تربط القسـطنطينية الشرق والغرب حقا؟ أم إن المسـلمين واليونانيـين والأرمن واليهود والأوروبيين في المدينة كانوا منقسـمين كقطعان الكلاب المتنافسـة في شـوارعها، ما جعل المدينة فريسة سهلة لأي قوة أجنبية؟[1].

قدمت سلسـلة من المؤسسـات الحضرية الحيوية - الأوبرا والبورصة والمدرسة والمحفل الماسـوني - إحدى الإجابات الممكنة، إذ أوضحت أن القسـطنطينية - على أحد المسـتويات - أصبحت كوزموبوليتانية حقا. لم يثر جانـب من الثقافة الغربية حماسـا لدى القصر العثماني أكثر مما أثارته الموسيقى الكلاسيكية الغربية فيه. وقد دفع الاهتمام الشـخصي من جانب محمـود الثاني وعبدالمجيد أفـرادا من العائلة الإمبراطورية وسـيدات الحريم إلى تشـكيل فرق أوركسـترالية خاصـة بهم. وألف الأمراء والأميرات مقطوعات للبيانو. بعد صلاة الجمعة، كان عبدالمجيد يتوجه أحيانا مـن الجامـع إلى الأوبرا في مسرح نعـوم الكائن في بيرا التي كانـت عروضها تُقدم باللغـة الإيطالية، فيما كانت الحفلات النهارية يوم الجمعة تُقدم باللغة العثمانية، وتضمنـت برامجها عموما ملخصات لحبكات العروض باللغة العثمانية. كان وميض الجواهر وراء البارافانات المشـبكة يشير إلى وجود سيدات عثمانيات بين الجمهور. وكانت دار الأوبرا بالقسـطنطينية تعرض أحدث الأوبرات الأوروبية، ومن ذلك أنها

← ذلك أن التوراة تقول إن الذبيح هو إسـحاق وليس إسـماعيل. فالتوراة تقصر النسـل الوارث للنبوة في ابني سارة: إسـحاق ويعقوب، بينما تسمي إسـماعيل ابن الجارية، لذلك أطلق اليهود والمسيحيون على المسلمين والعرب قديما اسم «الهاجريين» أي أبناء هاجر الجارية. [المترجم].

عرضت أوبرا «الشاعر الغنائي» (il Trovatore) في العام 1853 قبل أن تصل إلى لندن. وفي العام 1846، توفي الملحن العظيم للموسيقى العثمانية التقليدية إسماعيل دده أفندي (Ismail Dede Efendi) في مكة التي ذهب إليها حاجا، ربما بسبب الضيق من تراجع تقدير فنه في مدينته الأم.

وكما كانت الحال في المدن الأخرى، أدت الأوبرا الغرض المزدوج المتمثل في إمتاع علية القوم والإعلان عن ثرائهم المادي والثقافي. عندما ذهب أمير ويلز وأميرتها في أثناء زيارة رسمية في العام 1869 لمشاهدة أوبرا «المرأة الأفريقية» (L'Africaine) بصحبة السلطان عبدالعزيز، انبهر الصحافي الشهير رسل (W. H. Russell) بأزياء السيدات الأرمنيات والمشرقيات الحاضرات بين الجمهور وحليّهن: «تطلب الأمر جهدا مني حتى أصدق أننا كنا في القسطنطينية، فقد كان المشهد رائعا وأوروبيا تماما». كانت المدينة قد تغيرت تماما منذ زيارته الأخيرة في أثناء حرب القرم في العام 1855: «لقد نفض «الرجل المريض» أمام الأعين الخارجية عن نفسه كل أعراض المرض العضال الذي كان قد تمكن منه وكاد أن يودي به»[(2)].

وفي العام 1868، افتتح مسرح آخر هو المسرح العثماني (Tiyatro-i Osmani) في غيديك باشا (Gedikpasha) فيما وراء ديوان يولو (Divan Yolu)، أنشأه غولو أغوب (Gullu Agop) الأرمني الذي اعتنق الإسلام. عمل بهذا المسرح سبعة ممثلين مسلمين وتسعة عشر ممثلا أرمنيا وثماني عشرة ممثلة أرمنية، لم يكن نطقهم للغة العثمانية دائما فوق مستوى النقد. وكتب دكران تشوخاجيان (Dikran Tchoukhadjian) ابن مراقب الساعة السلطانية ومؤسس جمعية الموسيقى الشرقية، أوبرا «عارف» (Arif) لتكون أول أوبرا باللغة العثمانية. وبعد عرضها الافتتاحي الناجح على المسرح العثماني في التاسع من ديسمبر ، كتب تشوخاجيان ثلاث أوبرات عثمانية أخرى في الأعوام 1873 و1875 و1890 وأغاني ومقطوعات للبيانو مستوحاة من المدينة مثل «تذكار القسطنطينية» (Souvenir de Constantinople) و«عودة إلى كياخانة» (Return of Kiathane) و«برج العذراء» (Tour de Leandre). وأصبحت القسطنطينية مدينة ذات ميراثين موسيقيين[(3)]. من ذلك أن غوتيلي باشا (Guatelli Pasha) مدير الفرقة الإمبراطورية من العام 1861 إلى العام 1899 في الوقت الذي قام فيه بتعليم الموسيقى الغربية

للعثمانيين، استخدم الألحان الشرقية في السلامين الوطنيين اللذين كتبهما للسلطانين عبدالمجيد وعبدالعزيز، كما دوّن الموسيقى العثمانية لنشرها في الغرب.

وإلى جانب الأوبرا، عرض المسرح العثماني مسرحيات. وفي الأول من أبريل 1873، أثارت المسرحية الوطنية «وطن» (Vatan) التي ألفها نامق كامل (Namik Kemal) حول أحد الانتصارات العثمانية في حرب القرم، المشاهدين فخرجوا في مظاهرة تأييدا للوريث المحبوب للعرش المعروف بأفكاره التقدمية مراد أفندي ابن عبدالمجيد وابن شقيق السلطان الحاكم عبدالعزيز. وكشفت نداءات المظاهرة بالدفاع عن الإمبراطورية بأي ثمن، عن قوة الرابطة العثمانية:

إن خنجر العدو مغروز في صدر وطننا.
ألا يوجد أحد هنا ينقذ وطننا التعس؟
إذا قدر لي أن أموت قبل أن تسود بلادي
فاكتبوا على قبري: مات كمدا وكذلك بلادي![4]

لم تكن القسطنطينية تقل إمبريالية عن لندن أو فيينا. وبداية من العام 1865، كان الخوف من استعداد الحكومة للتنازل عن أجزاء بعيدة من الإمبراطورية لمصلحة دول مسيحية أحد الدوافع لدى أنصار الملكية الدستورية الأوائل المعروفين باسم «تركيا الفتاة» (Young Ottomans). وبالفعل، غادرت آخر القوات العثمانية بلغراد في العام 1867[5].

باستثناء المسلمين الذين أحجموا عن تجريب أشكال جديدة للتجارة، اشتركت الجاليات المختلفة في القسطنطينية في الولع بالبورصة. أنشئت بورصة حديثة في العام 1854 في خان خاويار (Havyar) (كافيار) بغَلَطَة. ووفقا للنظام الأساسي لبورصة القسطنطينية للعام 1867، «تقوم على إدارة البورصة لجنة من ثلاثة عشر عضوا، يُنتخَبون سنويا، على أن يكون خمسة منهم يونانيين وأربعة من الأرمن واثنان كاثوليكيين واثنان يهوديين»[*]. تجاوزت المضاربة قيود الزمن والمكان، فكانت الأسهم تباع وتشترى في شوارع غَلَطَة وفي الحانات وفي الفواصل بين عروض الأوبرا.

(*) في حقيقة الأمر كان الكثير من المسلمين يضاربون في البورصة من خلال أطراف ثالثة. ضمت غرفة التجارة التي أسست في العام 1882 ثمانية أعضاء من الأرمن وستة من اليونانيين وخمسة من المسلمين واثنين من اليهود.

وفي العام 1868، وعلى رغم معارضة البابا والأساقفة والأحبار، افتُتحت مدرسة غَلَطَة سراي الثانوية الإمبراطورية الجامعة للطوائف الدينية بمنحة من الحكومة الفرنسية. حاليا، تستخدم جامعة غَلَطَة سراي بنايات هذه المدرسة الواقعة في شارع بيرا الكبير. شمل الطلاب الأوائل بهذه المدرسة مائة وسبعة وأربعين مسلما وثمانية وأربعين أرمنيا وستة وثلاثين أرثوذكسيا وأربعة وثلاثين يهوديا وأربعة وثلاثين بلغاريا وثلاثة وعشرين كاثوليكيا وتسعة عشر كاثوليكيا أرمنيا، وكانت الفرنسية هي لغة التدريس الأساسية.

وفي العام 1869، أعيد تنظيم النظام التعليمي وبدأ في التحول نحو العلمانية، إذ أصبحت الدولة، لا المساجد، هي المسؤولة عن تعليم المسلمين. وأنشئت أولى المدارس الحديثة للبنات المسلمات. وفي العام 1870، فتحت جامعة حديثة في بناية كلاسيكية ضخمة بناها غسبار فوساتي بجانب آيا صوفيا في العام 1846، كان أغلبية طلابها الأربعمائة وخمسين من المسلمين الذين انتقلوا إليها من المدارس. في كلمته الافتتاحية، اعترف وزير المعارف بمأساة القسطنطينية العثمانية:

> لو استمر تشجيع رجال العلوم والفنون واحترامها وحمايتها الذي تجلى إبان القرنين الأولين من التاريخ العثماني لمائتي سنة أخرى، ولو ترسخ الاحتكاك بأمم أوروبا المتحضرة واستمر، ولو حافظنا على سرعة التقدم مجاراة لتلك الأمم، لكانت تركيا اليوم في وضعية مختلفة. لذلك ينبغي على كل طبقات الإمبراطورية أن تطوّع نفسها مع متطلبات الزمن وتمضي على طريق التقدم في كل فروع العلوم والفنون.

لكن لو كانت الحكومة تفعل حقا ما كانت تطنطن به، لقلل السلطان والباشوات من بناء القصور وأكثروا من بناء المدارس، ولما انتظرت الجامعة التي خُططت لأول مرة في العقد الخامس من القرن التاسع، ثلاثين عاما حتى تفتح أبوابها[6].

كانت نخبة العاصمة ترتاد النوادي عينها والمحافل ذاتها. وبداية من العام 1884، خُصِّصت لحلقة الشرق، وهي أحد المراكز الأساسية للأخبار والقمار بالمدينة، بناية رائعة في شارع بيرا الكبير. فتحت الحلقة أبوابها للرجال من كل الأعراق والأديان، وكان الوزراء أعضاء فيها بحكم مناصبهم. كان الماسونيون موجودين في القسطنطينية منذ القرن الثامن عشر، وثمة تشابهات واضحة

ومقررة أيضا بين الطريقة البكتاشية والماسونية، ربما بسبب الاحتكاك مع فرنسا من خلال بونفال باشا. كانت الرسالة الماسونية القائمة على الأخوة العالمية وإلغاء الاختلافات الدينية والقومية ملائمة جدا للإمبراطورية العثمانية. تأسس محفل التقدم (lodge Le Progres) في العام 1868، وعقد اجتماعاته باللغتين العثمانية واليونانية، وانضم إليه رجال من الأديان المختلفة: نامق كمال، وأدهم باشا (Edhem Pasha) آخر صدر أعظم من العبيد (اشتُري بعد مذبحة خيوس في العام 1822)، والمصرفي ستيفن مافروغورداتو (Stephen Mavrogordato)، والديبلوماسي الأمريكي والخبير في طوائف الدراويش جون بورتر براون (John Porter Brown). وفي محفل آخر، سمي «اتحاد الشرق» (Union d'Orient) في العام 1866، صاح ملحد فرنسي، ربما للمرة الأولى في القسطنطينية، بكلام إلحادي ينكر وجود الله.

ثمة عضو آخر بمحفل التقدم، هو سمسار البضائع اليوناني كلينثيس اسكاليري (Cleanthes Scalieri)، كان من المؤمنين بالإمبراطورية العثمانية، وكان راديكاليا على اتصال بالوزير الإصلاحي العظيم مدحت باشا (Midhat Pasha) والسفارة البريطانية وولي العهد العثماني نفسه. كان من علامات مكانة اسكاليري أنه سُمح له بتناول الغداء في حريم ولي العهد مراد أفندي. وفي العام 1872، انضم مراد أفندي الذي كان دائما يجوب المدينة متنكرا، إلى محفل الشرق في بيت محام يدعى لويس أميابل (Louis Amiable) في حي قاضيكوي. وفي السنة التالية كتب مراد إلى المحفل الماسوني الأساسي في أوروبا «محفل الشرق الكبير بفرنسا» (Grand Orient of France) يتعهد باتباع الغايات الماسونية: «من خلال الإخاء بين شعوب الشرق التي تقسمها الأديان المتنوعة والقوميات المختلفة، ستتمكن هذه الشعوب من تجنيد أنفسها في خدمة التقدم الصحيح»[7].

كان من الوارد أن يكون البيت الواحد كوزموبوليتانيا مثل المدرسة أو المحفل. فقد كانت البيوت الكبيرة، مثل السفارات منذ أيام ليدي ماري ورتلي مونتاغو، مرايا للإمبراطورية متعددة الجنسيات: المربيات أغلبهن شركسيات أو أفريقيات، والخادمات يونانيات، وكبير الخدم أرمني، والطباخون من بولو (Bolu) (بلدة صغيرة بين القسطنطينية وأنقرة تشتهر بطعامها)، والنوتية (Boatmen) أتراك أو

يونانيون، والبستانيون ألبان، وآغوات الحريم أفارقة، والمعلمات فرنسيات ولاحقا روسيات. كانت كل القوميات، العثمانية والأجنبية، تحب الخدم اليونانيين بسبب اشتهارهم بالنظافة، لذلك كانت عائلة ويتال في مودا تتحدث اللغة اليونانية أفضل من التركية.

كان من الوارد أيضا أن تتبع البيوت المختلفة تخصصات مختلفة. ففي بيت كبير في تشامليجا التي تبعد ساعة ركوبا عن أوسكودار والواقعة على تل يحتوي على مناظر رائعة للمدينة كلها، عاش واحد من الهاشميين الكثيرين الذين استقروا في القسطنطينية إبان القرن التاسع عشر، هو الشريف علي حيدر. بفضل إيراداته الكبيرة من مكة وراتب من السلطان، وظف الشريف في بيته عبيدا وخصيانا سودا، بينما كان الطباخ وكبير الخدم تركيين، وقامت كردية برعاية الدواجن، وكانت المربية والمراكبي يونانيين، وكان الحوذي جيم (Jim) (حسن آغا) رجلا إنجليزيا اعتنق الإسلام. وكانت اللغات الإنجليزية والفرنسية والعثمانية والعربية تستخدم في البيت. والتحق أبناء الشريف من زوجته الأولى التركية بالمدرسة الثانوية الإنجليزية أولا، وبعدها بجامعة دار الفنون (Darulfunun). وتعلمت بناته من زوجته الثانية الإيرلندية إيزوبيل دون (Isobel Dunn) (ابنة ضابط خدم في الجيش العثماني) اللغة الإنجليزية على يدي الآنسة بيتالا (Petala)، واللغة الفرنسية على يدي الآنسة بوتان (Boutan)، واللغة التركية على يدي أمين أفندي[8].

أظهرت اللغة نفسها أن القسطنطينية كانت مزيجا من التناقضات والتوليفات، فكانت معظم الإعلانات الرسمية أو التجارية وأظرف الخطابات تكتب باللغة العثمانية أو الفرنسية أو بكلتيهما، بينما كانت الروزنامة وبرامج المسارح والفواتير التجارية ولاحقا الكاريكاتير السياسي وقواعد اتحادات العمال، تكتب بأربع لغات أو أكثر: العثمانية والفرنسية واليونانية والأرمنية، مع إضافة لغة اللادينو (Ladino) من حين إلى آخر. حتى تذكرة البلدية التي كانت توضع على الحاويات الزجاجية للسقائين كانت تشير إلى أنهم مرخص لهم بمزاولة هذه الحرفة، كانت تكتب غالبا باللغات العثمانية واليونانية والأرمنية والفرنسية، فقد توحد أهل القسطنطينية على طريقة الحياة والأذواق، بينما فرقتهم اللغات.

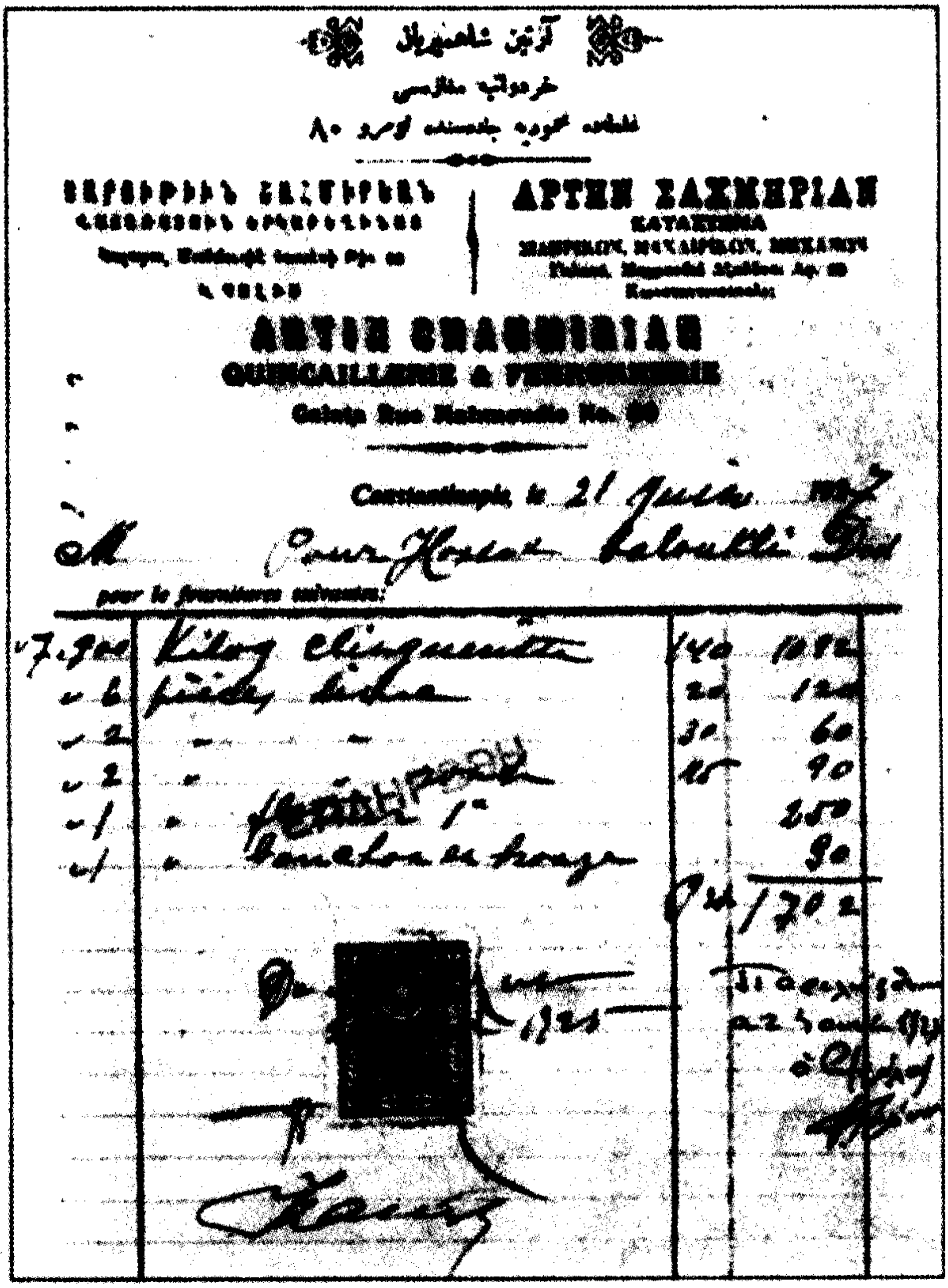
ARTIN CHAHMIRIAN
QUINCAILLERIE & FERRONNERIE
Galata Rue Mahmoudie No. 80
Constantinople, le 21 Juin 1927
pour les fournitures suivantes:

فاتـورة تاجر حديد: أرتين شـاهمريان، غَلَطَة، الشـارع المحمـودي، رقم 80، في 21 يونيو 1927. تسـلم التاجر من حسـن بالوكي مبلغـا قدره ألف وسـبعمائة قرش واثنان. اسـم المحل وعنوانـه مطبوعان باللغة التركية (بالأبجدية العربيـة قبل عام من التحول إلى الحروف اللاتينية) والفرنسـية واليونانية والأرمنية، لكن الفاتورة مملوءة باللغة الفرنسـية والملاحظات باليونانية.

تمثل «الروزنامة المستخدمة في المشرق» (Almanach a l'usage du Levant) المثال الأوضح لكوزموبوليتانية الطباعة في المدينة. فعلى الصفحة نفسـها، سـجلت الروزنامة التاريخ الإسـلامي واليهودي والمسـيحي القديـم (الأرثوذكسي والأرمني) والمسـيحي الجديد (الكاثوليكي والبروتسـتانتي) والتقويمات الروميـة (والأخيرة تقويم مالي خاص كان يسـتخدم في بعض المصالح الحكومية). كانـت الروزنامة تمنح المؤمن فرحة، وفقا لدينه أو مذهبه، من خلال مناسـبات الحبل بلا دنس والإسراء والمعراج وتكريس معبد القدس، وهي ثلاث مناسـبات تزامنت ذكراها في اليوم نفسـه. أما اللغات المستخدمة في صفحـة الروزنامـة فهي العثمانية واللاديـنـو (بحروف عبريـة) واليونانية والأرمنية والفرنسـية، وعبارة موجزة فوق المنتصف باللغة البلغارية. وسُـجلت في الصفحة أيضا الوسـائل المختلفة لتحديد الوقت من اليوم، بداية من الغروب عند المسلمين واليهود، وبدايـة من منتصف الليل عند المسـيحيين. ولكي يتمكن الناس مـن إخبار العثمانيين والأوروبيـين بالوقت من اليوم، كان بعضهم يحمل سـاعتين أو سـاعة بوجهين. كانت البواخر تعمل بالتوقيت العثماني، والقطارات بالتوقيت الأوروبي[9].

صفحـة مـن روزنامـة المـشرق ليـوم 20 أبريـل 1991. تسـجل الصفحـة التاريـخ وأوقـات الشروق والغـروب والمناسـبات الدينية ذات الصلـة باللغات العثمانيـة واليونانية والفرنسـية واللادينويـة (الإسـبانية مكتوبـة بحـروف عبريـة) والأرمنية والبلغاريـة. وتشـمل أيضـا التقابـل بـين التوقيت الـتركي والأوروبي، في 20 إبريـل 1911، كان منتصف الليل عند الأتـراك، أي بداية اليوم وفقا للتقويم الإسلامي، في السـاعة السادسة وتسع وأربعين دقيقة، بعد الغروب بقليل.

عكســت الصحافــة أيضا كوزموبوليتانيــة المدينة. فبعد العــام 1860، بدأ صــوت جديد يــدوي بين باعة الشــوارع في المدينة، إنه صــوت باعة الصحف الذيــن ينــادون عليها متجولين في الشــوارع. ارتفع عدد الصحــف الصادرة في القســطنطينية مــن أربع عشرة صحيفــة في العام 1850 إلى تســع وأربعين في العام 1876، ثم إلى ســبع وخمســين في العام 1902. وفي العــام 1876، كانت هناك صحف باللغة التركية (13) واليونانية (9) والأرمنية (9) والفرنســية (7) والبلغاريــة (3) والعبرية (2) والإنجليزية (2) والعربيــة واللادينوية والألمانية والفارسية (واحدة لكل منها)[10].

كان الكثير من الصحف يصدر بالقرب من الباب العالي، إذ كان معظمها يتلقى منه إعانات مالية، وأصبح الباب العالي (Bab-i Aali) مرادفا لصحافة القســطنطينية، فضلا عن الحكومة العثمانية. وســاعدت إحدى الصحف الصــادرة فيه على تحديث الفرس، على النحو الذي أســهمت به صحيفة تساريغرادسكي فســتنيك في تحديث البلغاريين. فقــد كانت صحيفة «أخطــار» (Akhtar) الصادرة في القســطنطينية من العام 1876 إلى العام 1896 عاملا حاســما في تقديم الأفكار الحديثة والإصلاحات العثمانية لقرائها الفرس. وفي القسطنطينية، راقب مرزا حسين خان(Mirza Husayn Khan) الذي خدم ســفيرا لبلاده لدى البــاب العالي من العام 1858 إلى العــام 1869، الإصلاحات في الزي والتنظيم الوزاري، وحاول أن يطبقها في بلاد فارس عندما عمل رئيسا للوزراء من العام 1870 إلى العام 1880. كان بعض صحافيي القســطنطينية شــخصيات كوزموبوليتانية مثل جــورج ظريفي واســتيفان بوغوريدي. وقــام الصحافي اليونــاني الفرنسي الثقافة تيودور كساب (Teodor Kasap) (1835 - 1905) بتعديل مسرحيات موليير للمسرح العثماني، فضلا عن تحريره مجلة ديوجين (Diyogin)، وهي أول مجلة هزلية عثمانية، ظهرت في أوقات مختلفة باللغات العثمانية واليونانية والأرمنية والفرنســية. واشتهرت مجلــة أخرى من النوع نفســه، هي مجلة «خيال» (Hayal)، برســومها الكاريكاتيرية. وفي مشهد بالشارع، ربما تكرر في العام 1995، وقعت مواجهة بين امرأة بلباس تقليدي وأخرى بلباس حديث:

> «ابنتي، ما هذا اللباس الذي تلبسينه؟ ألا تخجلين من نفسك؟».
>
> «في قــرن التقــدم الــذي نعيــش فيــه، يجب علــيــكِ أنتِ أن تخجــلي مــن نفسك»[11].

كانت كوزموبوليتانية القسطنطينية مغايرا بطوليا للنزعة القومية الحادة التي طبعت الحياة السياسية والفكرية والوجدانية للعواصم الأوروبية الأخرى. وباستثناءات قليلة جدا، تبنى الرأي «الليبرالي» النزعة القومية منتشيا. أما المواطنون الذين لم تكن القومية تعني لهم شيئا، مثل اليونانيين الذين تركوا اليونان وجاءوا إلى الإمبراطورية العثمانية، فقد عبّروا عن أنفسهم بالأفعال، وليس بالكلام. تمثلت روح العصر في المقولة «كل أمة دولة» التي كانت عقيدة ماتزيني (Mazzini)، أحد صناع إيطاليا الجديدة، الذي آمن بأن الأمم قدر إلهي. لذلك كانت الدول القائمة على عائلة حاكمة أو دين أو منطقة جغرافية، تبدو نوعا من المفارقة التاريخية. وعلى الرغم من الأهمية الكبرى للمدن في الحياة البشرية، ونظرا إلى زوال صيغة الدولة - المدينة(*)، فلم تكن هناك أيديولوجية منافسة قائمة على الولاء الحضري تستطيع أن تتصدى لهيمنة الأيديولوجية القومية. وحتى في منافس القسطنطينية القديم - البندقية - الذي كان لديه ما يبرر الحزن على استقلاله السابق، كانت الإقليمية الحضرية قد فقدت بعدها السياسي. وفي العامين 1848 و1866، صوّت البنادقة لمصلحة الاتحاد مع إيطاليا.

ربما كانت براغ المدينة الوحيدة التي أثارت في ساكنيها مشاعر القومية الامتلاكية بقوة مساوية للقسطنطينية(**). بعد العام 1850، انفصلت الثقافتان التشيكية والألمانية في براغ. وبحلول العام 1890 كان التشيكيون والألمان يترددون على مقاه مختلفة، ويستمعون إلى فرق أوركسترالية متنافسة، ويتعلمون في جامعات مختلفة (تستخدم المكتبة عينها في أيام مختلفة)، وينتخبون نوابا متنافسين. وكانت تقع مشاجرات في الشوارع بين الشبان التشيكيين والألمان. وانتشر السم أيضا إلى بقية المملكة الهابسبرغية التي بقيت في نصف إقليمها بالإذعان للقومية المجرية، وفي النصف الآخر بالاقتراب من القومية الألمانية.

(*) الدولة - المدينة أو الدولة المدينية city-state كيان سياسي مستقل أو قائم بذاته، يتكون إقليمه من مدينة واحدة فقط، أو مدينة واحدة كبيرة وملحقاتها، من أمثلتها التاريخية المدن السومرية في بلاد ما بين النهرين مثل بابل وأور، ومدن كنعان الفينيقية مثل صور وصيدا، ومن أشهر أمثلتها التاريخية المدن اليونانية مثل أثينا وأسبرطة وثيفا وكورنث، ومن أمثلتها المعاصر إمارة موناكو وسنغافورة والفاتيكان. [المترجم].

(**) تشير القومية الامتلاكية (proprietary nationalism) إلى فكرة ادعاء الناس ملكية أشكال معينة من السلوك أو العادات أو الثقافة المادية كالسمات البدنية أو حتى اللغة. [المترجم].

وفرضت المجر سياسة «التمجير» على غير المجريين بعد العام 1867. وأدى رفض متحدثي الألمانية تعلم اللغة التشيكية في العام 1897 إلى اضطرابات كادت تتحول إلى ثورة في فيينا التي كانت مدينة ثلاثية اللغات تعايش فيها الناطقون بالألمانية والإيطالية والفرنسية وراودتها طموحات لأن تكون عاصمة أوروبا. وبداية من العام 1900، كان على كل مهاجر يتقدم بطلب حقوق المواطنة أن يقسم «بالحفاظ على الطابع الألماني للمدينة»(12).

في هذه الأثناء، وفي تحول وثيق الصلة للقسطنطينية، كانت روسيا تتحول من نزعة أرثوذكسية كلية إلى نزعة سلافية كلية، ومن حماية اليونانيين إلى سياسة بلقانية تؤيد النزعة القومية البلغارية. وبداية من العام 1870 غصت صحف القسطنطينية بتقارير العصيان القومي: في دالمسيا والبوسنة وبلغاريا وألبانيا وبلاد ما بين النهرين(13).

وداخل القسطنطينية نفسها، بدأ الكثير من العثمانيين يستسلمون للنزعة القومية، إذ لم تستطع الروابط الاجتماعية والاقتصادية والثقافية التي تولدت عن العيش في مدينة واحدة، أن تصمد أمام الإشباع الوجداني والإحساس بالقوامة والتضامن والتضحية بالذات التي وفرتها النزعة القومية، وبدا أن المدينة لم تكن كافية، وأخذ الكثير من السكان يتطلعون إلى دولة تخص كلا منهم. من ذلك ما أعلنه المفكر الأرمني البارز باريسي الثقافة كريكور أوديان Krikor Odian الذي كان يكتب من القسطنطينية، من أن حب الأمة «يتطابق مع أقوى المشاعر وأكثرها طبيعية. فالحب والاحترام اللذان يكنهما المرء لأبيه وأمه، والمحبة والشفقة اللتان يشعر بهما نحو أشقائه في الدم، والحب والحنو اللذان يربطانه بأطفاله، توجد جميعها موحدة في حب الأمة». كانت الأمة بالنسبة إليه تعني الجالية الأرمنية، وليس الإمبراطورية العثمانية. كان هناك فرق حاسم بين النصين الأرمني والعثماني للدستور الذي مُنح في العام 1863 للملة الأرمنية، في الوقت نفسه الذي مُنح فيه للملتين اليونانية واليهودية. فمن خلال إنشاء مجلسين، واحد للشؤون الدينية وآخر للشؤون العلمانية، يُنتخَبان بالاقتراع العام، كان الدستور انتصارا للطوائف الحرفية والمفكرين في المدينة على الكنيسة والأمراء (الوجهاء). وقد سمي باللغة الأرمنية «الدستور القومي للأرمن»، بينما

سمي باللغة العثمانية «نظام البطريركية الأرمنية»[14]. غير أن أمل عبدالمجيد في أن تنصهر هوية العثمانيين في إمبراطوريتهم، كما فعل المهاجرون في الولايات المتحدة، لم يتحقق.

انعكس في حالة الأرمن الصراع القائم في القسطنطينية بين الحكم العائلي والقومية. والأرمن، بوصفهم ناقلين مقدّرين للثقافة الغربية، عملوا بالتدريس في المدارس العسكرية، وعملوا مموّلين وسكرتيرين وأطباء للوزراء، وسيطروا على إدارة الجمارك. شيّدت عائلة باليان قصور السلطان، وصنعت له عائلة داديان البارود. وعمل الأرمن أيضا أمناء خزانة حكوميين وأطباء وطباعين ومصورين ومزخرفين للسلطان. باختصار، لم تحظَ أقلية أخرى بمثل هذه الدرجة من الحظوة الإمبراطورية[15].

بلغ الإعجاب من عبدالمجيد بعائلة داديان أن أعطاهم امتياز ارتداء الطغراء السلطانية الذهبية على طرابيشهم. وعلى نحو ما فعل أبوه، زارهم عبدالمجيد في العام 1832، ونزل في قصور عائلة داديان الساحلية الفخمة في يشيلكاي، في زيارات كانت الواحدة منها تدوم من يومين إلى ثمانية أيام في الأعوام 1842 و1843 و1845 و1846. كانت إقامة الملك عند واحد من الرعايا شرفا لا يدانيه شرف في أي دولة، وفي الإمبراطورية العثمانية، ضاعفت الحواجز بين الأديان هذا الشرف أضعافا كثيرة. ولايزال الطست والإبريق الفضيان اللذان استخدمهما السلطان لغسل يديه في أثناء زياراته لهم، محفوظين في كنيسة سانت استيفان الأرمنية في يشيلكاي[16]. وتفاخر أحد أفراد عائلة داديان في العام 1867 بـ«الثقة غير المحدودة» في الأرمن من جانب العثمانيين. غير أن الكثير من المسلمين استاءوا من ازدهارهم[17].

كان أرمن القسطنطينية، الأغنياء جدا، سعداء بحالهم، وكان كريكور أوديان واقعيا وقوميا في الوقت عينه. قال كريكور أوديان للبطريرك الأرمني القومي المتحمس خريميان (Khrimian) المعروف باسم «الأب الصغير» أو «البطريرك الحديدي»: «لا تُمَنِّ نفسك بآمال كاذبة أيها الابن الحبيب لأرض أجدادنا الغالية، فلن تنشأ عنقاء جديدة من الرماد. ونحن هنا نمتلك قصورا ضخمة أنشئت على أيدي خبراء. انفض عنك ذلك الرماد، وعد، تعال حتى تستقر عيناك على الأردية الذهبية».

إنه صوت العاصمة المقبل عبر العصور[18]. بيد أن قصور القسطنطينية كانت أحد أسباب ما أسماه خريميان «ويلات أرمنيا وجراحها». فحكام الأقاليم المصرون على أن يعيشوا في ترف في العاصمة، كانوا ينتزعون رشا ضخمة من المناطق التي أساءوا إدارتها. وفي ذلك كتب الصحافي السياسي الأمريكي ناسو سنيور في العام 1857: «لا يوجد قصر على البسفور لم يستنزف سكان الولايات». كان الأكراد النهّابون يشكلون خطرا ماديا أكبر. وفي الولايات الشرقية المضطهدة المقسمة بين الأتراك والأكراد والأرمن دخل الكثير من الأرمن في عصيان وطلبوا مساعدة روسيا. وفي القسطنطينية نفسها، تعلم الأرمن عادة ممارسة الشغب ضد زعمائهم في الأعوام 1820 و1848 و1861، وفي العام 1863 أمام الباب العالي نفسه حتى يسرّعوا إقرار دستورهم. وإلى جانب المظالم، فقد أغرتهم النزعة القومية التحررية الثورية ونموذج فرنسا «الدولة المحبوبة» أو «أرض الميعاد» أو «جنة الفكرة» التي تعلم معظمهم لغتها وتحدثوا بها[19]. وقع الأرمن بين جاذبية الحل الثوري من النوع الذي أحبوا فرنسا لأجله وواقع ضعفهم الشديد في حال الصراع المسلح، وأدخلوا أنفسهم في موقف لم يكن من الممكن أن ينتصروا فيه.

وإذا كان الأرمن ساخطين، فإن الجالية اليونانية كانت مقتنعة بأن الوقت قد حان «للفكرة الكبرى». وكانوا يعتبرون المسيحية مرادفا للتقدم، والإسلام مرادفا للانحطاط. ففي أثينا، كتب جورج مافروكورداتو ابن عم ألكسندر مافروكورداتو ووزير خارجية مستقبلي لليونان: «إن الجنس الفاتح على وشك الاندحار، والجنس اليوناني أسمى من كل الأجناس الأخرى». وكان حضور اجتماع الجمعية الأدبية (Syllogos) في القسطنطينية والاستماع إلى تعبيرات الفخر القومي في كل الكلمات الملقاة، يكشف عن قوة تعصب اليونانيين لأرض أجدادهم[20].

والبلغاريون أيضا أصبحوا أكثر عداء للعثمانيين. وفي ذلك كتب أحد زعمائهم الثوريين، هو ليوبن كارافيلوف (Lyuben Karavelov)، في العام 1869: «التركي هو التركي، ولا يستطيع الرب ولا الشيطان أن يجعل منه إنسانا». وفي العام 1875، خطط بعض الثوار البلغاريين لأن يشعلوا النار في القسطنطينية، بينما كان غيرهم يستعدون للعصيان في الولايات البلغارية. كان القليل من المسلمين أيضا قد بدأوا ينصتون إلى نداء القومية ويسمون أنفسهم أتراكا، وليس عثمانيين، دفعهم إلى

ذلك شعور التضامن مع ضحايا التوسع الروسي الناطقين بالتركية في آسيا الوسطى، الذين لجأت أعداد كبيرة منهم إلى القسطنطينية. من ذلك أنه في العام 1876 كتب ضابط شاب مقتدر يدعى سليمان باشا (Suleyman Pasha) ولد في العاصمة في العام 1852، عمل مديرا للمدارس العسكرية وألف كتابا في قواعد اللغة التركية: «المصطلح عثماني هو اسم دولتنا فقط، أما أمتنا فاسمها تركيا. وعلى ذلك، فإن لغتنا هي اللغة التركية وأدبنا هو الأدب التركي». وكان أيضا من مؤيدي وضع دستور للبلاد[21].

في حماية القوة العثمانية وتوازن القوة الأوروبي، عاش أهل القسطنطينية، من خارج الطبقة الحاكمة، وجودا محميا. وتلا الصدمات التي شهدها عهد محمود الثاني فاصل من الاستقرار. غير أنه بعد العام 1875 باتت المدينة مهددة بفعل انغماس المتقاسمين فيها في التاريخ. وجرى إحياء الطموحات القديمة في بطرسبرغ، والمركز الأرمني في إيتشيمادزين(*)، وفي صوفيا وأثينا كذلك، وحتى في مكة.

كانت الإمبراطورية تواجه تحديا داخليا ممثلا في صعود النزعة القومية، وخارجيا ممثلا في تدهور مكانتها الدولية. وبعد العام 1866، تحوّلت إمبراطورية النمسا -المجر إلى منطقة البلقان للتوسع فيها وتعويض طردها من إيطاليا وألمانيا. كان ظهور الدول الجديدة قد أضاف سفارتين جديدتين إلى القسطنطينية: السفارة الإيطالية في شارع بيرا الكبير، والسفارة الألمانية في قصر كلاسيكي مُحْدَث بُني فوق تل على البسفور. كانت النسور الألمانية تنشر أجنحتها في كل زاوية بالبناية. قال السلطان عبدالعزيز إنه يشعر بمناقيرها تنقر في دماغه.

كان عبدالعزيز شخصا غريب الأطوار مولعا بعراك الكِباش وصراع الجِمال. وفي عهده أُنفق المال المقترض لتمويل السدود والسكك الحديد على بناء مزيد من القصور، غير قصر دولمة بهجت. حتى العام 1871، كان السلطان يمتلك الحكمة التي تجعله يترك زمامه في يدي فؤاد باشا وعلي باشا. غير أنه بعد وفاتهما، وقع السلطان وصدره الأعظم الجديد محمود نديم (Mahmud Nedim) تحت تأثير السفير الروسي المروّع كونت إغناتيف (Count Ignatiev) الديبلوماسي الذي يبدو استراتفورد دي ريدكليف ضعيفا بجانبه. قام إغناتيف بسجن أو اختطاف

(*) راجع هامشا سابقا للمترجم حول إتشيمادزين (Echmiadzin) الكنيسة الأم الأرمنية. [المترجم].

أعداء الأرثوذكسية مثل البروتستانت الأرمن والكاثوليك البلغاريين، وموّل الثورات البلغارية، وساعد في خلق اتحاد بلقاني معاد للعثمانيين بين اليونان وصربيا ورومانيا، وكان أيضا أول المؤيدين للنزعة السلافية في الدوائر الحكومية الروسية. كان من بين كنياته في القسطنطينية «نائب السلطان» (menteur pacha) والشيطان[22].

الجنرال إغناتيف السفير الروسي في القسطنطينية من العام 1864 إلى العام 1877. على الرغم من أنه نال ثقة السلطان بنصح الأخير بألا يمنح دستورا لرعاياه، حوّل إغناتيف السفارة الروسية إلى مقر لجيش خفي من المتمردين السلاف. وفي العام 1878، حرض الجيش الروسي على احتلال المدينة.

تكشف كتابات الجنرال عن خوفه من الإمبراطورية العثمانية وكراهيته لها: «إن الحكومة التركية التي تتحسن تدريجيا، على الرغم من كل مساوئها، تزيد قواتها العسكرية وتطوّرها بثبات، بينما يضعف المسيحيون ويفقدون

روحهم القتالية». وساعد إغناتيف في «الإعداد لاستقلال المسيحيين إخوتنا في الدين» و«شحذ العمل التدميري للسكان المسيحيين». وكان من رأيه أيضا أن البطريرك المسكوني يجب أن يكون مسكونيا حقا وليس يونانيا إلى الأبد. كانت روسيا مغتاظة من حرمانها من الوصول إلى المضايق بالاتفاقية التي أنهت حرب القرم. وكان من رأي السفير الروسي أيضا أن القسطنطينية يجب أن تكون مدينة حرة يحكمها دوق أكبر وعاصمة لاتحاد بلقاني، إلى أن تضمها روسيا في النهاية. وجدت آراؤه، التي لم تجد آذانا مصغية في وزارة الخارجية الروسية في بادئ الأمر، جمهورا أكثر تأييدا بعد هزيمة فرنسا في العام 1870. من ذلك على سبيل المثال أن دوستوفسكي Dostoevsky كتب في العام 1876: «من البديهي أن تكون القسطنطينية لنا عاجلا أم آجلا». ومع ذلك فقد وضع السلطان والصدر الأعظم ثقتهما في كونت إغناتيف[23].

بدأ لولب الهبوط يمسك بتلابيب الإمبراطورية العثمانية. ففي العام 1871 أقلقت راديكالية الجامعة السلطات، فأغلقتها. وفي العامين 1873 و 1874 دمر الجفاف والمجاعة الإمبراطورية. وبين العامين 1854 و1881، لم يصل الحكومة من قروض بقيمة نظرية قدرها أربعة وتسعون مليون جنيه إسترليني، غير خمسة وأربعين مليونا فقط، فيما ذهب الباقي في شكل عمولات لمموّلي غَلَطَة ورشاوى إلى الباشوات وقروض لوالدة السلطان. كان البند الأكبر للإنفاق هو القوات المسلحة. جعل السلطان الأسطول العثماني ثالث أكبر أسطول على مستوى العالم، وبلغ ولعه بالبوارج أن جعل شليبوفسكي يرسمها على أسقف القصر. وبحلول العام 1875 كان الجيش العثماني مجهزا بأفضل مدافع الميدان والبنادق وأحدثها. غير أنه في ذلك الوقت أيضا، كان نصف الإنفاق العثماني يذهب إلى خدمة الديون. وفي الثالث من أكتوبر 1875 خفّضت الحكومة العثمانية دفعات خدمة الديون إلى النصف، وهي ضربة قاتلة لقدرة الحكومة على الوفاء بالديون[24].

دخل ظريفي ومموّلون يونانيون آخرون سرا في اتصالات مع مراد أفندي. وبدت القسطنطينية مثل مستشفى مجانين على حافة جرف هاو. وفي شهر مايو 1876 دخل العمال اليونانيون والمسلمون المشتغلون في الترسانة والذين لم يقبضوا رواتبهم لعدة أشهر، في إضراب، ربما كان الأول في تاريخ المدينة. أخذ

السلطان يتنقل سريعا بين قصر دولمة بهجت وقصره الجديد في تشيرغان الذي كان مزودا من الخارج بصف من النوافذ القوطية المُحْدثة والأعمدة المرمرية الوردية مثل قصر دوج البندقية، واحتوى من الداخل على غرف «شرقية» عن وعي مزيّنة بالعاج والحجر السماقي والمرمر وعرق اللؤلؤ[25]. ولأنه كان مكروها من الناس الذين أطلقوا عليه «مفترس أرزاق الناس»، فقد قيل إنه كان يأكل البيض المسلوق جيدا فقط لأنه الطعام الوحيد الذي يثق فيه. واستأجر إغناتيف مزيدا من الكرواتيين لحراسة سفارته، ونشر الذعر في المدينة. وفي التاسع من مايو، اشترى طلاب المدارس الدينية وطلاب المدارس الحكومية كميات كبيرة من البنادق. ونظرا إلى وجود معظم الجيش خارج العاصمة يقاتل الثوار البلغاريين، فقد شكل طلاب المدارس قوة مسلحة هائلة، وكانوا على اتصال مع الصدر الأعظم الإصلاحي السابق مدحت باشا. وفي اجتماعات جماهيرية في الجامع السليماني، طالبوا بتغيير الصدر الأعظم والمفتي. ووزعت نصوص قرآنية تبيّن أن استبداد السلطان مخالف للشريعة. فلمرة، لن تكون الأخيرة، تكاتفت قوى «المدينة المقدسة» مع قوى الإصلاح السياسي. وفي الولايات البلغارية، وبسبب الثورة البلغارية، ذُبح آلاف المدنيين على أيدي القوات العثمانية غير النظامية. وفي القسطنطينية، ضَخّم الديبلوماسيون والصحافيون، الذين كان بعضهم يعمل لحساب إغناتيف، أعداد ضحايا «الأعمال الوحشية البلغارية»، وتبنى غلادستون قضيتهم[26].

وفي الثاني عشر من مايو، نزل طلاب المدارس إلى الشوارع، وأُغلقت الدكاكين، وتمترس المسلمون والمسيحيون خلف الأبواب الحديدية للخانات. ومن أجل إرضاء الطلاب، استبعد محمود نديم من الصدارة العظمى، وبعد أسبوع عُيّن مدحت باشا وزيرا. وعلى الرغم من أن المسيحيين الأجانب ادعوا أنهم مذعورون، فإن هدف طلاب المدارس في حقيقة الأمر كان حكومتهم. كانت النخبة، من أمثال كريكور أوديان ومدحت والصدر الأعظم الجديد محمد رشدي (Mehmed Rushdi) وشيخ الإسلام، يريدون عزل عبدالعزيز وإعلان دستور للبلاد[27].

استمال الإصلاحي سليمان باشا وحسين عوني (Huseyin Avni) وزير الحربية والعدو الشخصي للسلطان، ضباط الحرس إلى جانبهما، وتواصلوا مع مراد من

خلال طبيبه الماسوني كابوليون (Capoleone). وأجاز شيخ الإسلام خيرالله أفندي (Hairullah Efendi) عزل السلطان. فحين سُئل: «إذا أبدى أمير المؤمنين حماقة في سلوكه وكان لا يمتلك المعرفة السياسية اللازمة للحكم الرشيد، وإذا كان إنفاقه الشخصي أكبر من تحمل الإمبراطورية، وإذا كان بقاؤه على العرش سيؤدي إلى عواقب وخيمة، فهل يلزم خلعه أم لا؟ الشريعة تقول نعم، هكذا رد عليهم خيرالله تغمده الله برحمته».

وفي الساعة الثالثة مساء يوم الثلاثين من مايو، دخل سليمان باشا قصر دولمة بهجت تتبعه فرقتان من الجنود. كان مراد وخدمه وأمه قد أحيطوا علما بالتحرك من قبل. قال له سليمان باشا: «من فضلك، إننا ننتظر حضورك، والجنود ينتظرونك». ادعى مراد الجهل بالأمر حتى يعفي نفسه من المسؤولية إذا فشلت المؤامرة، ورافقه الجنود إلى خارج القصر. وأُخِذ بقارب كياك إلى القسطنطينية، وهناك تلقى البيعة سلطانا، ليس في قصر توبكابي، وإنما في الغرفة الإمبراطورية في وزارة الحربية. لاحت دموع الفرح في أعين الجنود والناس في الشوارع وأخذوا يصيحون: «يعيش باديشاهنا! تعيش أمتنا!» «يعيش يعيش!، وإن كانوا يونانيين قالوا «زيتو، زيتو» (يعيش، يعيش). غير أنه كان هناك انشقاق بين مؤيدي الحكم المطلق والدستوريين. من ذلك ما قاله الصدر الأعظم للوزراء: «رفاقي الأعزاء، لا يصلح أن تعطوا هؤلاء الناس امتيازات. فبمجرد أن تعطوهم ميزة سيطلبون المزيد والمزيد»[28].

انجذب الناس إلى أسلوب مراد البسيط ونيته الحسنة الواضحة، وغصت الصحف بقصائد مديح له. وفي هذه الأثناء استيقظ عبدالعزيز في قصر دولمة بهجت على صوت المدافع التي تلقي التحية لتنصيب ابن أخيه. وعندما نظر من النافذة ورأى السفن قبالة قصره، قال بهدوء: «لقد توّجوا مرادا». ثم أُخذ في قارب كياك إلى قصر توبكابي وأُسكن في الغرفة التي قُتل فيها سليم الثالث. وأُخذ بعد ذلك ومعه أمه وجواريه وأفراد أسرته إلى ملحق بقصر تشيرغان يدعى القصور الفرعية Feriye. وزاد الإذلال من توتره العصبي، إذ منع أحد الضباط السلطان المخلوع الذي كان مولعا ببناء القصور من الإشراف على ترميمات تجرى في الحديقة: «ممنوع أن تقف هنا. ادخل!»، وأمضى معظم وقته في قراءة القرآن. وفي صبيحة الثالث من

يونيو طلب من والدته مقصا لكي يشـذب لحيتـه. ولم تجرؤ الأم أن ترفض الطلب. وبعد بضع دقائق، وُجِد مرميا في وسط بركة من الدم بعد أن قطع معصميه. ورغم شهادة الانتحار من ثمانية عشر طبيبا، سرعان ما انتشرت شائعات بدس من السفارة الروسية، على أن الانتحار كان قتلا[29].

وفي الخامـس عشر من يونيو، اقتحم ضابط شركسي، كانت أخته إحدى زوجات عبدالعزيز(*)، اجتماعا وزاريا، وقتل حسـين عوني ووزيـر الخارجية وجرح آخرين انتقاما لعبدالعزيز. وجد مراد الخامس، الذي لم يكن مستقرا نفسيا، الملاذ في الشراب والمورفين. وسرعان ما فقد القدرة على اسـتقبال السـفراء أو مناقشة شؤون الدولة. واتفق الأطباء على أن تعافيه غير وارد. وفي الثلاثين من يونيو، أعلنت صربيا والجبل الأسـود الحرب على الإمبراطوريـة العثمانية. ولاذ الوزراء بأخي السـلطان الأصغر المقتدر عبدالحميد الذي وعد بوضع دسـتور جديد والالتزام به واتباع نصحهم. وفي الحادي والثلاثين من أغسـطس، اجتمع في الغرفـة المقببة بقصر توبكابي، التي كان الصدر الأعظم في السـابق يعقد فيها ديوانه، مجلس وأخذ قسم الولاء لعبدالحميد وهو في عمر الرابعة والثلاثين.

في طريقـه إلى حفـل تنصيبه في أيوب، مر السـلطان الجديد على قارب الكياك الخـاص بالشـاب جولـين فيـود Julien Viaud الضابـط البحـري الفرنسي الذي اشـتهر لاحقا باسـم بيير لوتي Pierre Loti، جزئيا بسـبب الروايات التي كتبها عن القسطنطينية. لاحظ بيير سيماء الشباب والطاقة على السلطان الجديد: «إنه نحيف وشاحب ومهموم، له عينان سوداوان واسعتان تحيطهما بقع داكنة، كان شكله ينم عن الذكاء والتميّز». في هذه المرحلة، قال السلطان: «سياستي هي أن أطيع الوزارة. وعندما أتعلم ما هو المطلوب، سـأغيّر سياسـتي وأجعل الوزارة تطيعني». وضعت لجنة شـملت مدحت ونامق كمال وسليمان باشـا وأوديان وكاراثيودوري، دستورا ليبراليا يتضمن إنشاء مجلسـين تشريعيين، على غرار الدستور الفرنسي للعام 1814 والبلجيـكي للعـام 1831[30]. وبدلا من التوليف بين الشرق والغرب، جاء الدسـتور الجديـد انتصارا للأفكار الغربية على الحكم المطلـق العثماني التقليدي، ووازن بين تأثير العلماء والخوف من العزل.

(*) لمثل هذا كان الشركس يأتون ببناتهن وأخواتهن لبيعهن في العاصمة العثمانية. [المترجم].

دُعي إلى مؤتمر ديبلوماسي في القسطنطينية لمناقشة الموقف في البلقان. وفي الثالث والعشرين من ديسمبر 1876، قاطع الجلسة الافتتاحية للمؤتمر المنعقدة في الغرفة الإمبراطورية في وزارة البحرية، صوت المدافع يعلن موافقة السلطان على الدستور الجديد. وجاء إعلانه قبل تسعة وعشرين عاما من إقرار روسيا دستورا حديثا، وبعد ثمانية وعشرين عاما فقط من حصول النمسا وبروسيا على دستوريهما، والذي جاء في الحقيقة تتويجا لدور القسطنطينية كعاصمة للتحديث. وكان أول دستور حديث في العالم الإسلامي (باستثناء فترة قصيرة في تونس التابعة للعثمانيين في الأعوام 1864 - 1866).

قُرئ نص الدستور وسط أمطار غزيرة أمام الباب العالي بحضور مدحت باشا الذي صار صدرا أعظم والمفتي والبطريركين اليوناني والأرمني وحشود فرحة من كل الأديان والأعراق. وعد السلطان بمجلس تشريعي من غرفتين و«بركات الحرية والعدالة والمساواة» لكل رعاياه من دون تمييز. ووُزِّعت آلاف النسخ من نص الدستور في جميع أنحاء المدينة. وأنيرت البيوت والدكاكين كما يحدث في ليالي رمضان. واحتفل الطلاب والدائنون بمسيرات بالمشاعل أمام قصر دولمة بهجت ومراكز القوة الأخرى في المدينة والسفارات الأوروبية، وهم يصيحون باليونانية والتركية «يعيش السلطان!»، «يحيا الدستور!»، «يعيش مدحت باشا!».

أخذ مدحت خطوة غير مسبوقة بزيارة البطريركين الأرمني واليوناني. وحياه الأخير بـ«باعث الإمبراطورية العثمانية». وفي الانتخابات الأولى للبرلمان، انتخب خمسة نواب مسلمين وستة غير مسلمين (ثلاثة أرمن ويونانيان ويهودي واحد) للقسطنطينية، ومرت الانتخابات في هدوء على رغم أن الصحف اليونانية شجبت المؤامرة التركية - الأرمنية لخفض التمثيل اليوناني. غير أن السلطان خشي من أن تهدد آراء مدحت الدستورية سلطته، وبالفعل كان مدحت قد أرسل كريكور أوديان المفكر والسياسي الأرمني الذي أصبح أحد مستشاريه المقربين، إلى لندن ليطلب من القوى العظمى أن تكون ضامنا للدستور والإصلاحات العثمانية. وفي الخامس من فبراير 1877، عُزل مدحت وأرسل إلى المنفى على اليخت الإمبراطوري[31].

وفي التاسع عشر من مارس 1877، اجتمع في غرفة العرش بقصر دولمة بهجت، التي أقام فيها عبدالمجيد مأدبة جلوسه على العرش في العام 1856، أعضاء مجلس الدولة والباشوات والأشراف والبطاركة والأحبار والنواب والجنرالات والديبلوماسيون والصحافيون لكي يشهدوا افتتاح أول برلمان عثماني. من إجمالي مائة وخمسة عشر نائبا، كان سبعة وستون من المسلمين وثمانية وأربعون من غير المسلمين، من بينهم مَنْ يتحدثون اللغات العثمانية والفارسية والعربية واليونانية والأرمنية والبلغارية والصربية - الكرواتية والبوسنية (وهي شكل من اللغة الصربية - الكرواتية يستخدم في البوسنة) والألبانية والفلاخية(*) والعبرية والسريانية والكردية واللادينوية. وعندما قال صحافي لجاره إنه يحاول أن يعرف عرق كل نائب ودينه، جاءه الجواب: إنهم ليسوا مسلمين ولا يونانيين ولا أرمن، لكنهم جميعا عثمانيون. دخل السلطان يتبعه إخوته ووزراؤه ووقف أمام العرش المطلي بالذهب، وسترته الداكنة تبرز في تعارض مع الأزياء الرسمية كثيفة التطريز للباشوات المحيطين به، انحنى الجميع انحناءة شديدة وساد صمت عميق أمام الملك الذي كان لايزال يسمى «الخليفة الميمون سيدنا الكريم السلطان... الملك المجيد... مجد السماوات والأرض». وبعد الدعاء من العلماء، قرأ كلمة السلطان سكرتيره الأول، بينما ظل السلطان واقفا «تستند يده اليسرى على مقبض سيفه، وتروح يده اليمنى من حين إلى آخر، لاشعوريا على الأغلب، لتمسد على ذقنه وتبرم شاربه، وفي عينه نظرة ضَجِرة، وعلى وجهه يرتسم شيئا فشيئا تعبير قلق». لقد تلاشت سيماء الشباب والطاقة التي لاحظها لوتي عليه قبل ثمانية أشهر. وعدت الكلمة بالالتزام بالدستور والإصلاحات الإدارية، وانتهت بالادعاء: «لدي إيمان راسخ بأن رعاياي سيعملون من هذه اللحظة على توحيد قواهم لكي يحتفظوا لاسم العثماني بالقوة والهيبة التي تقترن به حتى الآن». لم تستطع عظمة المكان في الداخل، ولا طلقات التحية من البوارج في الخارج، أن تخفي لامعقولية كلمات السلطان(32).

كان السفير الوحيد الذي تغيب عن حفل الافتتاح هو إغناتيف. ففي الثالث والعشرين من أبريل، كان بمقدور الحشود في شارع بيرا الكبير أن تشاهد النسر الضخم ثنائي الرأس المعلق على مدخل السفارة الروسية مثنيا وراء حاجز السقف، إذ يبدو أن

(*) الفلاخية Vlach لغة شعوب لاتينية حديثة تحمل الاسم نفسه وتنحدر من السكان اللاتينيين في رومانيا ومولدافيا والأجزاء الجنوبية من البلقان وجنوب نهر الدانوب وغربه. [المترجم].

المعماري الذي أخذ تقلبات الأحوال في حسبانه، كان قد علقه على مفصلات. وغادرت السفارة والموظفون والأرشيف بحرا. وفي اليوم التالي، أعلنت روسيا الحرب. نظر الروس الذين اكتسحتهم أول حركة شعبية على مستوى الأمة في تاريخهم، إلى الحرب باعتبارها حملة صليبية نيابة عن إخوتهم السلافيين ضد الإمبراطورية العثمانية.

كانت السنة التالية الأصعب والأشق منذ العام 1826. رفض البرلمان الذي انعقد من التاسع عشر من مارس إلى الثامن والعشرين من يونيو ومن الثالث عشر من ديسمبر 1877 إلى الرابع عشر من فبراير 1878 في بناية الجامعة السابقة المجاورة لآيا صوفيا، التنازل عن أي أرض عثمانية، وعلى الرغم من رئاسة أحمد وفيق للبرلمان، فقد آثر الأخير أن يوجه النقد إلى فساد الحكومة وعدم كفاءتها وأن يستجوب الوزراء، بدلا من أن يقترح حلولا عملية للمشكلات. تدفق التونسيون والمصريون واليونانيون والتتر والبخاريون والملايويون على المدينة للانضمام إلى الجيش العثماني. وأخذ الفدائيون المعروفون باسم الزيبق(*) من جنوب غرب الأناضول، بسراويلهم البيضاء القصيرة وستراتهم الزرقاء، يلوّحون بسكاكينهم ومسدساتهم في قاعات الحفلات الموسيقية في بيرا.

جاء أداء الجيش العثماني أفضل، والروسي أسوأ مما كان متوقعا. غير أن القلعة العثمانية العظيمة في بليفنا Plevna جنوب حوض الدانوب الواقعة في بلغاريا الحالية، سقطت في العاشر من ديسمبر بعد مقاومة بطولية لمدة ستة أشهر. دخلت كلمات «مذبحة» و«لاجئ» و«يتيم» في الحوارات اليومية للمدينة. وبدأت عربات السكة الحديدية والعربات التي تجرها ثيران المحملة باللاجئين (اليونانيين والمسلمين على حد سواء) الفارين من التقدم الروسي تظهر في الشوارع[33]. وإجمالا، وصل المدينة زهاء ثلاثمائة ألف لاجئ، أي ما يعادل نصف سكانها. وتحركت الحكومة لنقل أكبر عدد ممكن منهم إلى الأناضول أو إلى ولايات أبعد. وعلى رغم ذلك، انبثقت مدينة من خيام اللاجئين حول محطة السكة الحديدية أسفل قصر توبكابي، وجرى إيواء آخرين في المساجد.

(*) الزيبق Zeibeks أو Zeybeks ميليشيات غير نظامية من أصول تراقية عاشت في الأناضول وفي بحر إيجة العثمانيين من القرن السابع عشر حتى القرن العشرين، كانوا يحمون القرى من الإقطاعيين وكانوا أيضا قطاع طرق وجامعي ضرائب. حاربوا إلى جانب الإمبراطورية العثمانية أينما وجدوا، خاصة في الحرب التركية - اليونانية في الأعوام 1919 - 1922 وساعدوا المقاومة التركية في النهوض، وانضموا إلى الجيش الوطني التركي بعد تأسيسه. ربما من اسم هذه الجماعات استمد اسم الزيبق المصري علي الذي تشمل سيرته أفعالا مشابهة لأفعالهم، أو لعله يعود إلى أصولهم. [المترجم].

الرســام م. تانكويني M. Tancoigny، اللاجئــون في آيا صوفيا، 1878. دفعت الحرب الروسية العثمانية آلاف اللاجئين إلى المدينة، وجرى إيواء الكثيرين منهم في المساجد، ليوضع البــؤس في حضن العظمة. وبعد أن انتشر التيفوس في آيا صوفيا اضطر اللاجئون إلى مغادرة الجامع، وغسلت الفسيفساءات بحمض الكربوليك.

وبينما ارتفع ســعر الخبز خمســة أضعــاف، كان الشركس يسرقون كل شيء تطولــه أيديهم، حتى الأطفــال. وفتحت البيوت الخاصة، حتى قصر تشــيرغان، للاجئــين والجرحى. وبحلول شــهر ينايــر 1878 بدأ الناس يفقــدون الأمل. ولم يعــد الوزراء يجرؤون على الظهور في الشــوارع. قال إمام مســن لمقيم أمريكي: إن الباشــوات يشكّلون أعداء للبلاد أســوأ من الروس أو الإنجليز: «دُمرت أمتنا. تحوّلــت أمتنا خرابا». وفي الحادي والعشرين من يناير دخل الروس إدرنة (التي أكملــوا فيها تدمير القصر العثماني القديم الذي شرعوا في هدمه في أثناء غزوهم لها في العــام 1829). وعلى الرغم من العواصف الثلجية ودرجات الحرارة الأدنى من الصفر، واصــل الروس التقدم. كتب قائدهم الدوق الأكبر نيقولاس إلى أخيه القيصر: «يجب أن نذهب إلى المركز، إلى تساريغراد، وهناك ننهي المهمة المقدسة التي أخذتها على عاتقك»[34].

وفي لحظة الذعر هذه، وللمرة الرابعة خلال القرن نفسه، كما حدث في السنوات 1829 و1839 و1853، أنقــذت القســطنطينية باتفــاق أوروبا. كانــت إمبراطورية النمسا - المجر مستعدة لأن تدخل الحرب حتى لا تسيطر روسيا على المضايق. ورأت بريطانيا أن توسع روسيا في البلقان والقوقاز وآسيا الوسطى يهدد الطريق البريطاني إلى الهند، وأن دور القسطنطينية كمدينة عالمية يعني احتلالها من جانب روسيا، ما يهدد أيضا الســيطرة البريطانية في الهند. كان ارتباط المسلمين الهنود بالإمبراطورية العثمانية يشــتد منذ القرن الثامن عشر، لكونها القوة العظمى الإســلامية الأخيرة، واعترفوا في الهند بالســلطان خليفة، ودعوا لــه على المنابر، وكان بعض الحكام مثل الســلطان تيبو(*) قد بدأ في العام 1786 في إرســال سفارات إلى القسطنطينية لنيل الاعــتراف من الخليفة الســلطان. زاد الاحــترام والاهتمام الهنديــان بالإمبراطورية العثمانيــة منذ زوال الإمبراطورية المغولية وفــرض الحكم البريطاني المباشر في العام 1856. حــذر نائب الملكة في الهند الحكومة البريطانية في أوائل العام 1877 من أن القسطنطينية إذا سقطت أمام روســيا فإن فقدان هيبة بريطانيا وغضب المسلمين الهنود من الهجوم على الخليفة سيجعلان الهند تسبح في «بحر من الدماء»[35].

وبداية مــن يوليو في العام 1877، احتفظت الحكومــة البريطانية، التي اعتبرت الاحتلال الروسي للقســطنطينية مبررا كافيا للحرب، بجزء من أســطول البحر الأبيض المتوســط بالقرب من الدردنيل. وقدم الملحق العســكري والمهندســون البريطانيون بالســفارة النصح لتحسين تحصينات المدينة والمضايق. وتأرجح الرأي العام البريطاني بــين التعاطــف مع البلغاريين ودعــم العثمانيين. كان هناك ضابطــان بريطانيان في الجيش العثماني أمير البحر أوغســطس هوبارت باشا (Augustus Hobart Pasha) وفالانتايــن بيكــر باشــا (Valentine Baker Pasha) قــد تميّزا في قيادة أســطول البحر الأســود العثماني وفرقة عســكرية عثمانية في البلقان عــلى التوالي. وأصبحت القســطنطينية قضية بريطانية. وأرســلت لجنــة دار ســتافورد (Stafford House Committee) ولجنة دار غروزفينور (Grosvenor House Committee) وصندوق مؤازرة الأتــراك (Turkish Compassionate Fund) وجمعية المســاعدة القومية

(*) سلطان الفتح علي تيبو صاحب Tippu Sahib (من 20 نوفمبر 1750 إلى 4 مايو 1799) سلطان سلطنة مايسور الهندية الإسلامية. [المترجم].

البريطانية ضمادات وأموالا وعمال إغاثة إلى المدينة، وفتحت فيها مستشفيات. خاب أمل الكثيرين منهم بسبب الفوضى والفساد الحكوميين، بيد أن الممرضات وجدن الرجال الأتراك «أكثر دماثة في تعاملاتهم مع الإناث من المرضى الذكور العاديين في مستشفياتنا الإنجليزية».

عملت السفارة البريطانية بإدارة سير أوستن لايارد (Sir Austen Layard) السفير الأوروبي الوحيد الذي بقي في المدينة (كان السفراء الآخرون قد سُحبوا في يناير 1877 بعد الرفض العثماني لطلبات الإصلاح الأوروبية) كمركز للتوريدات الطبية. وتعلمت السكرتيرات والحراس كيف يلفون الضمادات. كتب السفير الروسي أن لندن كانت منفعلة جدا حتى إن «المرء ليظن نفسه حقا موجودا في القسطنطينية». والقسطنطينية التي ألهمت العدوان لدى معظم القوميات، أعطت اللغة الإنجليزية مفردة jingoism (الشوفينية). وحين رفرف العلم العثماني في ميدان طرف الغار في لندن(*)، أخذت الحشود تغني:

إننا لا نريد الحرب،
لكننا ضد الشوفيني نحارب،
لدينا السفن،
لدينا الرجال،
ولدينا المال أيضا.
قاتلنا الدب قبل ذلك
وإن كنا بريطانيين حقا
فإن الروس لن يأخذوا القسطنطينية[36].

وفي الحادي والثلاثين من يناير 1878 وُقِّعت هدنة بين روسيا والإمبراطورية العثمانية. وفي الثامن من فبراير، وبعد كثير من التردد في لندن، صدرت الأوامر إلى سفن أسطول البحر الأبيض المتوسط البريطاني بأن تتقدم من مراسيها على ساحل بشيكا إلى الدردنيل تحت ذريعة الدفاع عن أرواح الأجانب في القسطنطينية. وفي الثالث عشر من فبراير رست ست قطع بحرية بريطانية قبالة جزر الأمراء في عاصفة

(*) سمي ميدان طرف الغار Trafalgar على اسم معركة طرف الغار البحرية التي هزم الإنجليز فيها أسطولا فرنسيا إسبانيا مشتركا في 21 أكتوبر 1805 خلال حرب التحالف الثالث (من أغسطس إلى ديسمبر 1805) من الحروب النابليونية (1803 - 1815) عند رأس طرف الغار على الجنوب الغربي لإسبانيا. [المترجم].

ثلجية، عند البقعة التي رسا فيها أمير البحر دكويرث Admiral Duckworth في محاولته لإرهاب المدينة قبل واحد وسبعين عاما. وفي هذه الأثناء دعا البرلمان العثماني إلى محاكمة وزير الحربية وبعض الجنرالات. وفي الرابع عشر من فبراير قرأ أحمد وفيق الذي أصبح رئيس وزراء (وهو المسمى الذي استخدمه الدستور الجديد بدلا من الصدر الأعظم) وكان مؤيدا للحكم المطلق، مرسوم تعليق البرلمان العثماني. ولم يُدع إلى الانعقاد ثانية لمدة ثلاثين عاما[37].

غضب القيصر من أخبار وصول البحرية الملكية، فأبرق إلى أخيه في العاشر من فبراير يأمره بدخول القسطنطينية: «أترك لتقديرك لحظة تنفيذ الاحتلال». كان إغناتيف الموجود في مقر قيادة الدوق الأكبر هو الآخر يؤيد الاحتلال. كانت الحكومة العثمانية تفقد أعصابها. وكان أحمد وفيق قد أصبح رجلا عجوزا يستبد به الخوف من أن يلاقي مصير اللاجئين. كتب مذكرات إلى صديقه القديم لايارد الذي كان يقابله يوميا تقريبا، يحثه فيها على إنقاذ الإمبراطورية. فكتب له في يناير: «إننا غير قادرين على الانتحار»، وكتب له في فبراير: «لم تقل لي شيئا ولا أعرف ماذا أفعل في المجلس»، وكتب له ثانية: «لقد دُمرنا ولا أعرف كيف نقاوم لسنة أخرى؟».

أما السلطان الذي تمكن منه الإحساس بالضعف، فكان قد انتقل قبل سنة من قصر دولمة بهجت إلى قصر يدعى يلدز Yildiz على تل أعلى تشيرغان، لكونها منطقة يصعب مهاجمتها من البحر أو البر. وعندما هدد الدوق الأكبر باحتلال القسطنطينية ما لم يُسلم له الأسطول العثماني، قال السلطان: «أفضل أن أموت أولا ويهلك أطفالي معي على أن ندع جنديا روسيا يطأ المدينة بقدمه. قبل أن يدخل الروس المدينة سيمرون فوق جثتي». بيد أنه في الحقيقة كان قد أخذ عهدا في حال دخول الروس المدينة بضمان هروبه هو وعائلته على سفينة السفارة البريطانية «صاحبة الجلالة أنتيلوب» HMS Antelope التي ظلت راسية قبالة رصيف تشيرغان المرمري ومرئية له من يلدز، لكي تثبت للسلطان أنه يمتلك وسيلة للهرب.

وفي النهاية، أُوقف التقدم الروسي بسبب نقص الإمدادات. لم يكن يوجد مع الدوق الأكبر نيقولاس غير أربعين ألف جندي ناقصي التجهيزات ومنهكين بين إدرنة والمدينة. وخارج أسوار «تساريغراد»، كانت تنتظره عقبة هائلة مكوّنة من ثلاثين ألف جندي عثماني (بحلول شهر مايو ارتفعت الأعداد على الجانبين إلى نحو تسعين

ألفـا). علاوة على أن الـدوق خشي من أنه إذا حاول دخول العاصمة المحتقنة، فقد تندلع اضطرابات ويتمكن السلطان من الهرب إلى بورصة[38].

وعـلى رغم ذلك، فقد وافقت الحكومة العثمانية على أن تدع بضعة آلاف من الجنود الروس يتقدمون إلى يشيلكاي، على بعد ستة أميال من أسوار المدينة، وعلى مرمـى البصر من قباب المدينـة ومآذنها. وفي الرابع والعشريـن من فبراير، وصل الدوق الأكبر نيقولاس نيقولافيتش بالقطار من إدرنة، وكان في انتظاره وزير الحربية العثـماني والجـنرالات العثمانيون والكهنـة الأرثوذكس. وبالترتيب مع السـلطات العثمانية، أقام الدوق وأجرى المفاوضات في قصور أراكيل بيه وأرتين داديان باشـا. (عندما رأى واحدا من أكشـاكهما الفخمة معدة للعشاء قيل إنه صاح: «إن القصر الشتوي ليس أفخم من هذا!»). وفي الثالث من مارس، وقّع إغناتيف وأحمد وفيق باشا في فيلا ناريمان القريبة من بحر مرمرة، صلح سان استيفانو الذي وسع الوجود البلغـاري من البحر الأسـود إلى ألبانيا. غير أن روسـيا انزعجت من الغضب الذي عم بريطانيا والنمسـا من الشروط. وبدافع الخوف مـن البحرية الملكية والجيش النمساوي وافق الروس على تعليق معاهدة سان استيفانو وحضور مؤتمر برلين[39].

وبينما كانت المفاوضات متواصلة في برلين من الثالث عشر من يونيو إلى الثالث عشر من يوليو، أظهرت القسـطنطينية مزيجا فريدا من التوتر والتضامن. فالجيش العثماني هُزم، والجيش الروسي كان قريبا من المدينة لدرجة مستفزة، وأكثر الضباط الروس من التردد على المدينة. وكان من شأن المظاهرات أو مناشدات المساعدة من جانب المسـيحيين المحليين أن تعطي الروس ذريعة للاحتلال. بيد أن شيئا من ذلك لم يحـدث. ورضيت نفوس أصحاب الدكاكين بالتردد على القوات الروسـية بعربات محملة بأكثر من حمولتها بالمؤن والعودة بمحافظ منتفخة.

أثبتت القسـطنطينية قـدرة على التكيف أكثر من العاصمـة الأوروبية الكبرى الأخـرى الوحيـدة التي شـهدت بعينها جيش العـدو خارج أسـوارها بين العامين 1815 و1940، وهـي باريـس في أثناء الحرب الفرنسـية البروسـية 1870 - 1871. فبعد هزيمة الجيش الفرنسي، أُسقطت الإمبراطورية الثانية وأُعلنت الجمهورية. وفي أثناء الحصار الألماني، اضطر بعض السـكان إلى أكل الجـرذان، وانتشرت اضطرابات الخبز. وبعد أن استسـلمت باريس طافت القوات الألمانية المظفرة في استعراضات

خلال شوارع المدينة. وأخيرا، انفجرت التوترات الاجتماعية في الحرب الأهلية بين الحكومة الفرنسية وكومونة باريس. وباستثناء الجنود، بلغ العدد الكلي للمدنيين الباريسيين الذين ماتوا فيما عرف بـ«السنة الرهيبة» نحو عشرين ألفا، أُطلقت النار على الكثيرين منهم بدم بارد. أما أجهزة القسطنطينية العسكرية والحكومية، فقد أثبتت في «سنتها الرهيبة» أنها أكثر ثباتا، ساعدها في ذلك التكافل والانضباط الإسلاميان، وواقعية النخبة العثمانية وتماسكها.

غير أن الأقليات - على رغم ذلك - لم تكن صادقة في ولائها. صحيح أنهم قدموا تأكيدات كثيرة للولاء في العلن، ومنها قول البطريرك الأرمني: «إذا قدر لهذه الدولة العظيمة أن تُهدم، فإن من واجبنا أن ندفن تحت أنقاضها». بيد أن أحد الأمريكيين ذكر أن الأرمن في السر كانوا فرحين بنجاح الجنرالات الأرمن في الجيش الروسي: فـ«بالنسبة إلى الأتراك، يعد الأرمن خدما مُكرَهين وأذلاء، واليونانيون أصدقاء منافقين، والبلغاريون أعداء شبه متنكرين. أما اليهود، فإنهم يستغلون الأتراك ويكرهونهم في الوقت عينه، غير أنهم يؤيدونهم دائما في الخلافات مع المسيحيين». ولم يتطوّع غير قلة من المسيحيين المحليين للانضمام إلى القوات التي جُمِعت تحت «راية الحب الأخوي» التي رسم النجم والهلال العثمانيين في منتصفها وصليب أبيض في كل زاوية من زواياها. وكما قال الترجمان الإمبراطوري استيفاناكي فوغوريدي، فكل شيء يتوقف على النتيجة في ساحة المعركة. ففي السابع من ديسمبر، عندما بدت المقاومة العثمانية ناجحة، صوّتت الجمعية العامة الأرمنية في القسطنطينية بالموافقة على الخدمة في الحرس المدني الذي أنشأته الحكومة مؤخرا. بينما في السابع عشر من ديسمبر، بعد سقوط بليفنا، وعلى رغم نصيحة البطريرك وفائدة حيازة الأسلحة في مدينتهم، قرر المجلس الإكليروسي الأرمني أن الأرمن يجب ألا يخدموا في القوات العثمانية[40].

بحثا عن استقلال المقاطعات التي يقطنها الأرمن من قيليقية إلى بحيرة وان Lake Van (التي لم يكن الأرمن يشكلون الأغلبية في أي منها، على الرغم من كونهم الجماعة الأكبر والأقل رضا)(*)، زار البطريرك الأرمني الدوق الأكبر وإغناتيف مرارا وتكرارا في سان استيفانو. كما أرسل وفدا خاصا به إلى مؤتمر

(*) تشكل هذه المناطق حاليا جزءا من الدولة التركية. [المترجم].

برلين لكي يطلب الاستقلال والجندرمة الأوروبية. وعندما أبدى السلطان سخطه، رد البطريــرك: «اذهب وأخبر الســلطان أنني أرســلت هــؤلاء المندوبين لأضمد جــراح جماعتي، وأنني لن أســتدعيهم حتى لو كان معنى ذلك أن أُشــنق على بــاب البطريركية مثل البطريرك اليوناني الذي شُــنق قبــل نصف قرن». وعندما لم يمنح مؤتمر برلين الأرمن شــيئا أكثر من وعود فارغــة بالإصلاح، بينما نال جزء مــن بلغاريا حكما ذاتيا، حــذر البطريرك المندوبين الأوروبيين: «ســيعود الوفد الأرمني إلى الشرق حاملا درسا مؤداه أنه بلا كفاح وعصيان (مثل ذلك الذي شنّه البلغاريون)، فإنه لن يحصل على شيء»[41].

ولم يكــن بلغاريو القســطنطينية أكــثر ولاء من أرمنها. فانقلــب ولاء عائلة فوغوريدي التي صعدت عاليا في إدارة الإمبراطورية العثمانية. ووضع ألكســندر فوغوريــدي هويتــه البلغارية قبل ولائه العثماني، واســتقال من منصبه ســفيرا عثمانيــا لدى فيينا في العــام 1877. وفي النهاية، فعلت عائلــة فوغوريدي كمــا فعل الكثير من العائــلات التي كوّنــت ثرواتها في القســطنطينيــة، بأن انتقلــت إلى باريس[42].

كان اليونانيون منقســمين على أنفســهم، فظلت البطريركيــة ومصرفيو غَلَطَة موالــين للدولــة أو حذرين من اتخــاذ أي فعل. وعندما قصد جنرال أرســله الدوق الأكبر الفنار، قيل له إن البطريرك مريض ولا يســتطيع أن يستقبله. وخوفا من عدم الاسترداد الممكن لقروضهم إذا تفككت الإمبراطورية العثمانية، رتب المصرفي اليوناني جــورج ظريفي قرضا دفاعيا وقروضا لشراء الأســلحة، حقق منها هو ورفاقه أرباحا هائلــة. وفي مايو 1878، في أحط درجات تدهــور الإمبراطورية، حصل ظريفي أيضا عــلى الحق في جمع عائدات جمارك المدينة. وكتبــت الجمعية الأدبية اليونانية من القســطنطينية إلى مؤتمر برلين مذكرة تطفح بالغطرســة سخروا فيها من البلغاريين لكونهم «شعبا زراعيا بكل معنى الكلمة، يفتقر تماما إلى روح التركيز العقلي». وبعد «كفاح لأربعمائة ســنة ضد الغزو التركي» عبّرت الجمعية عن أملها في «دولة يونانية من البحر الأيوني إلى البسفور»[43].

أضيــف النزاع الداخلي إلى الهزيمة الخارجيــة، حين قام واحد من العثمانيين الشــبان يدعى علي الصوافي (Ali Suavi) في شهر مايو 1878 بالدعوة إلى تحرير

مراد الرابع(*). وداخل قصر تشيرغان، كان السلطان السابق قد بدأ يسترد توازنه العقلي. حيكت مؤامرة من جانب سيدة بالحريم تدعى نقش الديل وصديق مراد القديم وأخيه في المحفل الماسوني كلينثيس اسكاليري، إذ تواصلوا مع مراد من خلال تعليق غسيل أحمر اللون في شرفة قريبة، حتى أنهم دخلوا تشيرغان من خلال أنابيب تبدأ من صهريج ماء خارج جدران القصر. لكن المؤامرة اكتشفت، وفر المتآمرون إلى أثينا.

كانت تُحَرِّك علي الصوافي مجموعة من الدوافع: الرغبة في العودة إلى نقاء الإسلام المبكر وأن يكون هو نفسه شيخ الإسلام، والغضب من الشروط المذلة التي جرى الاتفاق عليها مع روسيا، والليبرالية الجمهورية. ربما كان يلقى تحريضا سريا أيضا من الصدر الأعظم وأفراد من العائلة الإمبراطورية. غير أن الأدلة على ذلك تظل ضعيفة لأن زوجته الإنجليزية أحرقت كل أوراقه. وفي الحادية عشرة من صباح يوم العشرين من مايو 1878، هاجم ثلاثمائة لاجئ من البلقان القصر من البر والبحر. ودخل علي الصوافي القصر من أحد جوانبه البرية وصعد سلم الحريم، ووجهه الخدم إلى جناح مراد. كان لدى السلطان السابق علم مسبق بالتخطيط، غير أنه لم يُحط علما بالموعد المحدد لتحريره. أخذه علي الصوافي ومتآمر آخر ونزلوا به على السلم الأرابيسك وهما يمسكانه من ذراعيه ويهتفان «يعيش السلطان مراد!» أما الكلمات الوحيدة المسجلة لمراد في هذا الموقف، فكانت السؤال الحاسم الذي سأله الكثير من المرشحين للعرش العثماني في الماضي: «ماذا فعلتم مع أخي؟».

ولكن سرعان ما وصلت قوات نظامية من بيشيكتاش، ومن صرخات الخدم استدلوا على أماكنهم وتمكنوا من الثوار سريعا. ضُرب علي الصوافي حتى الموت على يدي جندي موال لعبدالحميد. وامتلأ السلم بأطراف وجثث ممزقة. وأُخذ مراد إلى مقصورة مالطا في متنزه يلدز ليكون تحت عيني أخيه القاسيتين[44]. وبلغ عدم ثقة السلطان في مرافقيه أنه لم يكن ينام خوفا من الاغتيال. وبعد مقابلة له مع لايارد، ظن الأخير أنه على وشك الجنون، أو ربما جُن فعلا: «إنه يمشي مسرعا بين أركان الغرفة في حالة من الهياج الشديد ويتحدث كثيرا عن أطفاله».

(*) «العثمانيون الشبان» Young Ottomans على غرار عبارة «الأتراك الشبان» Young Turks التي تترجم عادة إلى «تركيا الفتاة». [المترجم].

وفي مؤتمر برلين، أنقذت الإمبراطورية العثمانية معظم البلقان بدعم من النمسا وبريطانيــا. واحتلت بريطانيا قبرص بدافع الرغبة في تأمين قاعدة عســكرية ملائمة للتــصرف إذا مــا تعرضت القســطنطينية للتهديد مرة ثانيــة. وفي الثامن عشر من أغســطس، وبعد استعراض عســكري توديعي في يشيلكاي، شاهده آلاف المتفرجين من القســطنطينية، أبحرت القوات الروســية إلى بلادهــا. وفي مارس 1879، أبحرت سفن البحرية الملكية عائدة إلى الدردنيل[45].

حال تماسك القسطنطينية ودعم أوروبا دون أن يشهد القيصر القداس في سانت صوفيا. ومع ذلك، ظلت السيطرة العثمانية على القسطنطينية قلقة، فوقعت حرائق متكررة وساد الخوف من «فوضى وشيكة في الأمة». كان عبدالحميد السلطان الثامن والعشرين الذي يحكم القســطنطينية، وتذكر الناس نبوءة قديمة تقول إن السلطان الثلاثين سيكون الأخير. وفي مساء أحد الأيام في العام 1880 نزل ديبلوماسي إنجليزي شاب يدعى إدغار فنسينت Edgar Vincent أصبح لاحقا شخصية بارزة في المدينة على مدى السنوات العشرين التالية، إلى جسر غَلَطَة ليستقل باخرة. نظر الشاب إلى المآذن والمساجد التي تقف بارزة على خلفية الغروب وسأل نفسه السؤال الذي كان يدور في كل العقول: «إلى متى ستبقى الإمبراطورية العثمانية»[46].

13

يلدز

> لا شيء يغيب عن يقظة صاحب الجلالة السلطان وحيويته. حقا لا يستحق ملك دعاء رعيته مثل صاحب الجلالة السلطان عبدالحميد.
>
> **صحيفة المرصد الشرقي،**
> **في 31 أغسطس 1896**

إذا كان جسر غَلَطَة أوضح تعبير - بملامح الناس ولباسهم - عن دور القسطنطينية كملتقى للشرق والغرب، فإن قصر يلدز الذي صار مقر إقامة السلطان عبدالحميد من العام 1877 حتى العام 1909، كان نظيره في هذا الدور، لكن بالحجارة والخشب. تجلت الأذواق الأوروبية العصرية في كل مكان في القصر. يرجع الكشك الضخم المسمى «المابين الكبير» (Buyuk Mabeyn) (لأنه كان يوجد بين أجنحة السلطان الخاصة والأجنحة العامة)، وكذلك الإسطبلات ومقصورة مالطا الخضراء الواقعة

«كانت القسطنطينية في السابق مدينة تستقبل المنفيين، وها هي تصبح مُورِّدا لهم»

بعيدا أسفل التل، إلى عهد السلطان عبدالعزيز الذي شيّدها وفق أسلوب كلاسيكي بسيط. زيّنت جدران بالقصر مناظر ولوحات لرسام البلاط في عهد عبدالحميد فوستو زونارو (Fausto Zonaro) من فينيتو(*) الذي رأى نفسه وريث جينتلي بليني. وأُضيفت أكشاك بطراز فني حديث من تصميم معماري السلطان العصري حتى النخاع ليغوريان ريموندو دارنوكو (Ligurian Raimondo d'Aronco). وفي العام 1893، افتُتحت ورشة لخزف سيفر للسلاطين العثمانيين في المتنزه، كانت عبارة عن مصنع للخزف علّم فيه خبراء سويسريون وفرنسيون الأتراك فنيات صنع الخزف والرسم عليه. وفي البنايات الرسمية مثل مكتب البريد العام التركي المُحْدَث الضخم في القسطنطينية ومراسي العبّارات على طول البسفور، كانت هناك عودة إلى الموضوعات العثمانية التقليدية. وعلى الأطباق والزهريات التي صُنعت في يلدز، كانت الغلبة لزخارف درسدن الوردية والرسوم البشرية.

وعلى رغم ذلك، كان قصر يلدز عثمانيا جدا أيضا في طرازه. صُنعت المنسوجات المعلقة على الجدران والمفروشة على الكراسي في هاراكا، في مصنع الحرير الذي أنشأه والد السلطان في العام 1843. احتفظ هذا المصنع بالاستخدام العثماني التقليدي للألوان المتضاربة الزاهية، وفُتح في العام 1886 دكان له في شارع بيرا الكبير، في إشارة إلى تعافي الصناعات العثمانية الذي شهدته صناعات أخرى في ذلك الوقت. كان الذوق العثماني جليا في زخارف الأرابيسك المتقنة على الجدران والأسقف وفي المناظر الطبيعية الخضراء القاتمة الشبيهة بالزجاج في قصر يلدز والخالية من التمثيلات البشرية، التي رسمها للسلطان صقر أحمد باشا (Seker Ahmed Pasha) وأحمد ضياء (Ahmed Ziya).

كما عاد قصر يلدز إلى نمط القصر العثماني التقليدي، فكان على غرار قصر توبكابي وعلى خلاف قصري دولمة بهجت وتشيرغان، فسيفساء من البنايات المنفصلة - المقصورات والأكشاك والورش - محاطة بحدائق وسور شاهق. وعلى غرار توبكابي أيضا، كانت أبنية قليلة جدا يزيد ارتفاعها على طابقين، وكانت شؤون الحكم تدار في الفناء الخارجي.

احتوى المابين الكبير على معظم سكرتارية السلطان ومستشاريه. وعلى الجانب المقابل للفناء الأول، كانت توجد بناية طويلة منخفضة لضباط السلطان، أسقفها

(*) فينيتو (Veneto): مدينة تقع في شمال شرق إيطاليا. [المترجم].

خشــبية مثلثة على طريقة الشاليه السويسري. وفي الفناء الثاني، كانت توجد أجنحة السـلطان الخاصة، وهي عبارة عن بيت بعرض عشر نوافذ، يســمى المابين الصغير (Kucuk Mabeyn). مـع الجـدران المطلية بـ «الأصفر البرتقـالي» والداخل الملوّح بخشب أبيض وذهبي مفرط الزخرفة، كان حري بالمابين الصغير أن يكون في ضواحي فيينا. هنا وفي بنايات مجاورة، أقام السلطان مع نسائه وخصيانه. كان السلطان يثق بالخصيان لدرجة كبيرة حتى إنه رفع رئيســهم إلى رتبة صاحب الســمو، وهي رتبة مساوية لرتبة الصدر الأعظم وشيخ الإسلام وأمير مكة.

كان يلــدز مُجمّع متاحــف ومُجمّعا صناعيــا، فضلا عن كونه قــصرا ومُجمّعا حكوميا. فداخل الحدائق، كان يوجد متحف للتاريخ الطبيعي وآخر لصور السلطان ومقتنياته، ومصنع أثاث اشتغل به 60 عاملا في صنع أثاث القصر من النوع العثماني المتأخر المتقن المُذَهّب أو المطعم ذي الظهر العالي. كما تجلت أشــكال الاســترخاء المفضلة لدى الســلطان في مختبر التصوير الفوتوغرافي الشــخصي والمكتبة وورشــة النجارة، إذ كان نجارا بارعا صنع مكاتب لبناته وعكازات لجنوده المصابين. وشملت يلــدز أيضا أربعة مستشــفيات ومرصدا ومختــبرا صيدليا ومطبعة وورشــة تطريز وحديقة حيوانات[1].

كانت الحدائق التي غطت خمســمائة ألف متر مربع المزروعة بأشجار وزهور من أنحاء العالم كافة مفخرة قصر يلدز. وفي الحديقة الداخلية الواقعة خلف المابين الصغــير، وفقا لزوجة المســتشرق ماكس موللر (Max Muller)، «كانت شــجيرات ونخــلات رائعــة مزروعة في كل الأنحــاء، بينما كانت حدود مشــاتل الزهور وهجا من الألوان. وكان الهواء محملا برائحة زهر البرتقال، والبســتانيون منهمكين في كل منعطف بِرَشّ المروج، وحتى المماشي الحصوية بالماء».

على خلفية خضرة الحدائق، كانت الطرابيش الحمراء لحرس الســلطان تتوهج. كان خوف الســلطان من الاغتيال مرده جزئيا خلع سلفيه المباشرين، فضلا عن قيام إرهابيــين أو فوضويــين باغتيال - مــن بين حكام معاصرين آخرين - قيصر روســيا (1881) ورئيس الجمهورية الفرنســية (1896) وإمبراطورة النمسا (1898) وملوك إيطاليــا (1900) وصربيا (1905) والبرتغال (1908). لم يكن الســلطان يثق إلا بقلة صغــيرة من الناس، ولاتزال بعض مسدســاته الشــخصية سريعــة الإطلاق المطعمة

بالذهب معروضة اليوم في المتحف العسكري بإسطنبول. كان الحراس الألبان والعرب والأتراك يتمركزون في ثكنات حول يلدز. وكان حراسه الداخليون ألبانا أشداء المظهر يزيد طول الواحد منهم على ست أقدام. جاء قائدهم طاهر باشا إلى القسطنطينية في شبابه لتركيب بلاط الرصيف الذي لايزال يعرف باسم «البلاط الألباني». كانت العداوة بين الألبان والصرب شديدة في العاصمة، تماما كما كانت في جبال البلقان، وفي أحد الأيام قتل طاهر واحدا من الصرب في مبارزة. وأخبر سائق المركبة التي أخذت طاهر من مكان المبارزة حميد أفندي، كما كان اسم السلطان حينها، عن بسالة هذا الألباني. فقابله حميد وأحبه وعرض عليه أن يكون حارسا له، ومن هنا ولد حظ هذا الألباني[2].

لم يكن الحرس القوة الوحيدة التي تحمي السلطان، إذ قيل إنه استأجر نصف سكان إمبراطوريته للتجسس على النصف الآخر، وإنه في كل بيت كبير كان الطباخ أو أحد العبيد يتجسس لمصلحة السلطان. وفي بعض الأحيان كان الأبناء يبلّغون القصر عن آبائهم. وكان السلطان يرتاب في أي شخص يستخدم ترزي أخيه ووريثه رشاد (Reshad) (الذي كان يقيم في كشك في المتنزه في يلدز)، وكان يفتش عن أدلة المؤامرة في قوائم الضيوف إلى الحفلات التي كان أقرباؤه يقيمونها، وكذلك حلقة الشرق والنادي الإنجليزي. وعندما عقد البطريرك المسكوني اجتماعا مع أسقفين في الفنار، سألهم عن عدد الأشخاص الذين كانوا في الغرفة، وجاءت إجابتهم: «ثلاثة»، فأخبرهم بالعدد الصحيح: «سبعة، الكهنة الثلاثة والجدران الأربعة»[3].

وعلى رغم أن عبدالحميد لم يغادر يلدز إلا نادرا، فقد كان متاحا للناس أكثر من ملوك معاصرين مثل الملكة فيكتوريا أو ألكسندر الثالث، إذ كان في مقدور أي شخص يرتدي ملابس مناسبة ومعه مشروع يريد أن يناقشه أن يدخل المابين الكبير. ولكي يترك السلطان انطباعا طيبا في الإمبراطورية العثمانية، أدخل سابقة جديدة، إذ بدأ في تنظيم حفلات منتظمة لأعضاء النخبة، كما كان يحدث في البلاطات الغربية. فكان يقيم مائدة عشاء يدعو إليها عددا كبيرا من الزوار الملكيين والسفراء والجنرالات والسياح الذين كانوا يزورون القسطنطينية في آخر سنوات مجدها الإمبراطوري. وعلى رغم أن السلطان كان يعرف اللغة الفرنسية أكثر مما يظاهر به، فقد كان رئيس التشريفات منير بيه يترجم التحية دائما. كان من بين الضيوف

الآخرين الباشــوات الذين كانــوا يتصرفون مثل العبيد أمام ســيدهم. فعندما كان السلطان يدخل للعشاء، كانوا ينحنون من عند الخصر حتى يمر، لدرجة أن ظهورهم المستوية تماما كانت تصلح لأن يجري طفل فوقها. كانت غرفة الطعام، وفقا لضيف أمريكي، «أقرب إلى قاعة استقبال أوروبية فاخرة الأثاث، لايزال يغلب عليها أسلوب آخــر الحكام النابليونيــين وذوقه في الحِليات كثيفة التذهيب لكورنيشــات النوافذ وإطــارات المرايــا». كان خدم يرتدون أزيــاء حمراء وذهبية يقومــون على خدمة الضيوف الذين كانوا يأكلون في أطباق ذهبية. وسواء كان الطعام عثمانيا أو أوروبيا، فإنــه كان باردا ورديئا دائما، إذ كان يعاد تســخينه بعــد أن يقطع رحلة طويلة من مطابخ القصر. أما فيما يتعلق بنوع الطعام، فقد ذكر ماكس موللر وزوجته في العام 1894 أنهما جلســا إلى مائدة عليها حساء ويندسور (potage Windsor) وبوريك (لحم أو جبن مطبوخ في فطائر) وســمك ترس ولحم حملان ودجاج وســمان ونبات الهليون وبيلاو وأناناس فيكتوريا. وكما كانت الحال إبان القرن الســادس عشر، كان «الصمت المطبق» يســود حضور الســلطان، إلا إذا تحدث هو. ومع أن الســلطان نفسه لم يكن يشرب الكحول، فإن الضيوف كانت تقدم إليهم خمر كلاريت فاخرة، كما كان يقدم إليهم شراب بنش قوي[4].

وبعد العشاء، كان السلطان يسلي ضيوفه وحريمه أحيانا بعروض أوبرالية في مسرح القصر ذي الألوان التركوازية والذهبية والسمنية الذي بناه سركيس باليان بيه في العامين 1888 و 1889. مثــل معظم الأبنية في يلدز، من جدران المســجد إلى مفارش الكراسي، كان سقف المسرح مزيّنا بنجوم ذهبية على خلفية زرقاء تنسجم مع اسم القصر (يلدز yildiz في اللغــة التركيــة تعني «نجم»). وبعد العام 1893، اســتأجر الســلطان فرقة متنقلــة إيطالية من مدينة غيتا(*) كانت مكوّنة من الأب أرتورو اســترافولو (Arturo Stravolo) وزوجته وابنته وأخته وأخيه وأبيه. كان الحَمل المتكرر لســنيورة استرافولو يجعــل من الصعب تصديقها وهي تمثــل أدوار الفتيات الصغيرات. ومع ذلك، فلم يبدِ السلطان ملاحظة، غير أن أمنياته كانت أن ينضم عضو جديد إلى فرقته.

كان يلدز العالم الخاص للسلطان الذي كان يتصرف فيه كما يشاء. فبالنسبة إلى العروض المسرحية، كان يغيّر حبــكات المسرحيات والأوبرات، ويضيف حوادث من

(*) غيتا (Gaeta): مدينة تقع على خليج بالاسم نفسه في وسط إيطاليا. [المترجم].

عنده لتجنب النهايات الحزينة. فتغيّر اسـم أوبـرا لاترافياتا (La Traviata) (المرأة الساقطة) إلى مدام كاميليا (Madame Camelia) وتغـيّرت نهايتها: يأتي الطبيب ويعيد إلى فيوليتا عافيتها. كما أعاد السلطان تسـمية أوبرا ريغوليتو (Rigoletto) المفضلة لديه إلى أوبرا ابنة الملك[5] (L'Opera de la fille du roi) . وفي أمسـيات أخـرى، كان السـلطان يقدم تسـليات تركية تقليديـة، مثل الموسـيقى التركية، أو مصارعـين حليقي الرؤوس ضخام البنية «عراة حتـى خصورهم، وحتى تحت ذلك الخط التقليدي... ومدهونين بالزيت حتى بناطيلهم التي كانت تلمع مثل الساتان». مؤكد أنه كان يستمتع بمراقبة تعبيرات ضيوفه الأوروبيين.

في إحدى الأمسـيات، ساد قصر يلدز - بتعبير الكاتبة الأمريكية أنا بومان دودز (Anna Bowman Dodds) - «مزاج مثير إلى حد الغرابة» بسبب جاذبية السلطان القصير النحيل بسيط الملابس أسود اللحية. كان السلطان يشبه قصر يلدز، بمعنى أنه كان مجموعة من التناقضات؛ فهو رقيق وسـخيف، شجاع ومذعور، قاس ومتسامح، حديث وتقليدي، يسـمع القرآن وفي اللحظة التالية يسـمع مغامرات شرلوك هولمز (التـي كانت تقرأ له ليلا مـن وراء حاجز عبر ترجمات أعدت له خصيصا). وفي رأي الدارس المجري أرمنيوس فامبري (Arminius Vambery) كان السـلطان «من أكثر الشـخصيات الساحرة التي قابلها على الإطلاق». وهو الحكم الذي اتفقت معه فيه ليدي دوفرين (Lady Dufferin) زوجة السـفير البريطاني: «يتمتع السلطان بوجه جميل جدا وأسلوب لطيف». كان يشعل الكبريت لسجائر ضيوفه بنفسه[6].

كان السـلطان الذي يدخن باسـتمرار يتكلم ساعات من خلال مترجم، فيمتدح اليابـان (التي كانـت نموذجا للإمبراطوريـة العثمانية في نظامها الملـكي التحديثي وعدائها لروسيا)، أو يبرر حله للبرلمان في العام 1878 لأنه لم يكن يمثل البلاد. كما أكد للصحافي الفرنسي هنري دي بلوفيتز (Henri de Blowitz) عزمه على حل مشكلات البـلاد الماليـة ودفعها إلى التقدم لمواكبـة العصر: «لكن الحريـة الزائدة عما اعتاد عليـه المرء لا تقل خطورة عن الغياب الكامل للحريـة. فالبلد الذي يُعطى الحرية يشبه الرجل الذي يؤتمن على بندقية وهو لا يعرف كيف يستخدمها». كان التعليم هو الإجابة عن المشـكلات، لذلك أسـس الكثير من المدارس الجديدة. وكان الطلاب المتفوقون في المدرسة التي أنشأها للإدارة المدنية يخدمون بين موظفيه في يلدز. كان

من رأي السلطان أن «أمراضنا جميعها ليست بلا علاج وأننا نمتلك خصالا وملكات تمكننا من الشفاء التام. صحيح أننا لا نملك الكثير من الأصدقاء، وبلدنا رائع لذلك تريده دول كثيرة وتتبع سياسات هدفها الوحيد هو أن تجعل منا فريسة سهلة»[7].

كانت السلطة المفتاح إلى جاذبية السلطان. فعلى رغم أن الدستور كان لايزال ساريا من الناحية النظرية، فإن البرلمان لم يجتمع في القسطنطينية. ففي الوقت الذي كانت فيه البلاطات الأخرى تفقد سلطتها، كان يلدز يحكم العاصمة والإمبراطورية. وفي العام 1880 قيل للايارد إن «جلالته حتى الآن هو الآمر الناهي في كل شيء وكل شخص تحت إدارته وسيطرته المطلقة أكثر من أي وقت مضى». وفي العام 1895، كتب السفير الفرنسي: «آلت الأمور إلى أن صار السلطان يسيطر على كل شيء... فكل الأمور تقرر في القصر، من أتفهها إلى أخطرها شأنا». وكان السلطان يستدعي الوزراء إلى يلدز في أي وقت من النهار والليل، وقيل إنه كان يقرأ كل مراسلاته شخصيا وأنه كان يحتفظ بأوراقه بطريقة منظمة تمكّنه من إيجادها حتى في الظلام. وكانت أكياس الخطابات المتسلمة تعقم في ماكينة خاصة قبل أن تُرسل إلى طاولة السلطان[8].

تجلت سلطة السلطان المطلقة في العام 1881 في المحاكمة التي أجريت في خيمة بالحديقة الخارجية بيلدز للإصلاحي العظيم مدحت باشا الذي اتهم بتدبير «اغتيال» السلطان عبدالعزيز. أدلت والدة السلطان المتوفى نفسها بشهادتها. وخلصت المحاكمة إلى أن مدحت مذنب، ونفي إلى الطائف جنوب مكة التي اغتيل فيها في العام 1884.

في استخفاف بالنزعة القومية التي تفتت الإمبراطورية خارج أسوار القصر، وظف السلطان في يلدز جهازا بيروقراطيا لم يفقه في التنوع القومي إلا المفوضية الأوروبية بعد عقود كثيرة، شمل الأتراك واليونانيين والأرمن والعرب والألمان والبولنديين والإيطاليين. وسرعان ما أعطاهم دخولهم اليومي على السلطان سلطة أقوى من الوزراء العاملين في الباب العالي. كان رئيس موظفي القصر - والمعارض القوي للغرب - من العام 1878 حتى وفاته في العام 1900، المشير غازي عثمان باشا (Gazi Osman Pasha)، بطل المقاومة العثمانية في حصار بليفنا. تزوج اثنان من أبناء الباشا اثنتين من بنات السلطان. وكان السكرتير الأول للسلطان تركيا، هو ثريا

باشــا (Sureyya Pasha) الذي حل محله في العام 1894 تركي آخر هو تحسين باشا (Tahsin Pasha)، وهو شــخص «متفان في عمله، موجــود دائما في مكتبه، وخادم مخلص وطيع لســيده». قيل إن تحسين باشــا لم يأخذ إجازة طوال اثني عشر عاما، حتــى إنه لم يكن يعرف بمجيء فصل الصيف إلا عندمــا تقدم له الفراولة لتناولها. كان يعمل تحت ســلطته عشرون سكرتيرا من خريجي مدرسة الإدارة المدنية، كانوا ملزمين بالاســتعداد للعمل ليلا ونهارا. وكان الرجل المقرب من الســلطان لطفي أغا (Lutfi Agha) شــماشرجي القصر تركيا هو الآخر، وهو رجل كان إن رأى «حلما في مصلحة» شخص - وهو ما لم يكن بلا ثمن - فُتحت طاقة القدر لهذا الشخص، وكانت أحلامه الوســيلة التي وصل من خلالها فردناند أمير بلغاريا إلى رتبة المشير العثماني. ثمة مســؤولون أتراك آخرون كانوا يُختــارون، مثل بعض موظفي بلاط لويس الرابع عشر، لاسترضاء الساخطين المحتملين ووضعهم تحت مراقبة قصر السلطان. كان من هؤلاء الكاتب الراديكالي والمحرر السابق لمجلة «ديوجين» تيودور كساب الذي عُيِّن أمين مكتبة في القصر[9].

ضــم القصر مكاتب خاصة للتعامل مع ألبانيا وشــؤون البلقــان والجيش وتقارير التجسس. كما ضم مكتب ترجمة كان يترجم الروايات البوليسية التي تعجب السلطان. كانــت المقتطفات من الصحافة الأوروبية التي يقوم على ترجمتها مكتب آخر ترأســه الأرمني نيشان أفندي (Nishan Efendi)، كثيرا ما تثير استياء السلطان، مثل الصحيفة الفرنســية التي أطلقت عليه «المأســوف عليه الكبير»(*). وكان أغوب كازاريان باشــا Agop Pasha Kazarian وزيــر المخصصات الملكية (وهي الوظيفة التي ظل يشــغلها دائما شــخص أرمني) يســاعد عبدالحميد في الاســتحواذ على إمبراطورية من العقارات الخاصة، كان من بينها أراض واعدة بالنفط في بلاد ما بين النهرين.

كان مــن بين مكاتب القــصر أيضا مكتب اســبيريديون مافروييني (Spiridion Mavroyeni) حفيد شــقيق نيقولاس مافروييني، الفناري الوحيد الذي أصبح جنرالا عثمانيا، وعمل فيه طبيبا للسلطان ووسيطا مع البطريركية. وعلى رغم أن اسبيريديون عمل عضوا بالبرلمان ووزيرا ومفتشــا عاما للمستشفيات المدنية والعسكرية، ورئيسا

(*) المأســوف عليــه الكبير (le grand seigneur) ســخريــة من لقبــه «الســيــد الكبــير» أو «عظيم الترك» (Grand Turk). [المترجم].

لثلاث دورات للجمعية الأدبية اليونانية، غير أن رأيه في سيده لم يكن إيجابيا. ففي العام 1892، كتب من يلدز نفسها، واصفا إياه بأنه «ذلك الطاغية المطلق الأناني الشكاك الذي لا يشبه أسلافه المجيدين في أي شيء». وكانا يتشاجران كثيرا، وفي إحدى نوبات الخصام، لجأ مافرويني إلى السفارة الروسية.

كان ألكسندر كاراثيودوري باشا أهم يوناني في القصر. كان ألكسندر الذي ولد في العام 1833 لاستيفان كاراثيودوري طبيب السلطان عبدالمجيد، يتقن عدة لغات، وكان أحد الموفدين العثمانيين إلى مؤتمر برلين، وعمل وزيرا للخارجية في العامين 1878 - 1879، وأميرا لساموس من العام 1884 إلى العام 1894، وحاكما لجزيرة كريت في العامين 1895 - 1896، و«مترجما أول لصاحب الجلالة السلطان». كان موضع ثقة السلطان عبدالحميد الذي وصفه بأنه «رجل ذو قدرات فذة، لا يعد من أذكى الدبلوماسيين في تركيا وحسب، بل في أوروبا كلها»، وأعطاه جناحا في يلدز. وكاراثيودوري الذي كان يقول دائما إن لديه بناتٍ يريد أن يزوجهن، لم يبدِ اهتماما بالنزعة القومية اليونانية. وفي العام 1901، كان عضوا بالوفد العثماني إلى جنازة الملكة فيكتوريا، بينما كان أحد أبناء عمومته اليونانيين عضوا في الوفد اليوناني. فرح اليوناني برؤية ألكسندر كاراثيودوري باشا وبدأ يقص عليه أخبار الكثير من أقاربه اليونانيين. وفي المقابل لم يرد الباشا الذي تظاهر بأنه يقابل ابن عمه لأول مرة، بغير «شكرا، شكرا» بنبرة مُحْرَجة. وفي العام 1906 كانت جنازته في أرنوتكاي التي سار على رأسها البطريرك وكل المجمع الكنسي المقدس، نهاية لإرث الفناريين الذي بدأه أسلافه من عائلة مافروكورداتو(10).

وبعد العام 1895، ترقى عربي من دمشق يدعى أحمد عزت العبد (Ahmed Izzet al-Abid) في تراتبية يلدز حتى صار سكرتيرا ثانيا، وله قاعدة يرعاها في سورية واشتهر بأنه الرجل الأكثر تأثيرا في القصر. وصفه الزعيم الصهيوني تيودور هرتزل الذي قام بست زيارات إلى القسطنطينية في عهد عبدالحميد خلال محاولات لشراء فلسطين، بالنمر المتأهب للانقضاض. هذا الرجل ضعيف البنية ومتوسط الطول كان «وجهه المرهق والمجعد والذكي في الوقت نفسه يميل إلى القبح: أنف كبيرة، ولحية متوسطة الطول سوداء متطايرة، وعيون فطنة». شغل عزت منصب رئيس لجنة إصلاح الخزانة، وجمع ثروة طائلة من خدمة السلطان. ومع ذلك، فإنه

مثل مافروويني، لم يخفِ أمام الأشخاص المقربين منه احتقاره لسيده. وعندما زاره هرتزل في العام 1896، وجد عزت يعمل في مكتب صغير قذر في المابين الكبير به طاولتان وبضعة كراسي بمسند وسرير بأربعة قوائم، ملفوفة حوله ستارة (في حال اضطر إلى قضاء الليل في المكتب)، و«هذا كل شيء» كما كتب هرتزل. «لكن كانت في مكتبه نافذة تطل على الجمال الواسع والضاحك للبسفور وعلى المآذن البيضاء وجامع السلاملك، وأبعد من ذلك على جزر الأمراء التي يلفها الضباب».

تمثل أحد إنجازات عزت والسلطان في قطار الحجاز الذي شُيِّد لأخذ الحجاج المسلمين من دمشق إلى مكة. جرى تمويل هذا الخط من المسلمين في أنحاء العالم كافة، ورغم المشكلات التي فرضها مد خط سكة حديدي في الصحراء، وصل الخط في العام 1908 حتى المدينة المنورة. غير أن البدو الذين كانوا يعيشون على أموال الحماية غضبوا لأن القافلة الشريفة التي كانت تغادر القسطنطينية سنويا بهداياها وحجاجها أصبحت منذ ذلك الحين تقطع معظم الطريق بالقطار[11].

كان خط سكة حديد الحجاز تجليا خارجيا لواحدة من السياسات الأساسية للسلطان وهي بعث الإسلام. كان الإسلام سلاحا ضد الإمبراطوريات التوسعية الأوروبية، ووسيلة لإعطاء الأمل والاتحاد لرعايا السلطان الفقراء المحبطين. لذلك وقع عليه - أي الإسلام - اختيار السلطان الذي اختار مستشاريه المقربين من اليونانيين والأرمن، وكان يشاهد الأوبرات الإيطالية. وكما كتب لسكرتيره الأول في العام 1892، فإن «الطريقة الوحيدة لمحاربتهم (أي المبشرين المموّلين من المسيحيين «الأغنياء والمتعصبين») هي أن نزيد السكان المسلمين وننشر الإيمان بأقدس العقائد». وفي عهده، كانت يلدز فاتيكان المسلمين. كانت القسطنطينية منذ عهد عبدالعزيز تجدد دورها كعاصمة للإسلام، وجذبت لاجئين مسلمين فارين من الإمبريالية الروسية والبريطانية. كان هؤلاء اللاجئون يديرون صحفا ويأخذون إعانات مالية من الحكومة ويبشرون بالانتقام والحرب المقدسة. وبعد العام 1876، توافد سيل من الدعاة والدراويش والطلاب والعلماء المسلمين على القسطنطينية. كانت الحكومة تعطي هؤلاء نسخا من القرآن والرايات العثمانية وترسلهم إلى أماكن بعيدة مثل زنجبار وسيبيريا وجاوة حتى يحثوا المسلمين على دعم آخر دولة إسلامية مستقلة والخليفة السلطان الذي كانوا يقولون في قوته ومجده رواياتٍ مبالغا فيها[12].

كان من التجليات الأسبوعية للإسلام، خروج السلطان من يلدز للصلاة في الجامع الحميدي الواقع على بعد خمسين ياردة أسفل التل. بنى سركيس باليان بيه هذا الجامع في العام 1886، على الأسلوب القوطي المُحْدَث العثماني المتقن، بمسحة من جامع الحمراء. كانت جدران الجامع مزخرفة بزخارف أرابيسك حمراء وزرقاء وذهبية، وعلقت بداخله أطباق مكتوبة بالخط اليدوي ومزيّنة بعرق اللؤلؤ، وكان السلطان نفسه هو الذي نحت منضدة القراءة. وفي العام 1884، وصف ولفريد بلنت Wilfrid Blunt مراسم السلاملك بأنها «أمر بسيط جدا: سريتان من الجنود السيئي الإعداد، وبضعة رجال على خيول رثة، ونحو ست عربات تراب مملوءة بالرمل لرش الطريق، وعربتان مملوءتان بالسيدات لم يكن يدخلن الجامع، ونحو خمسين مسؤولا بالزي الرسمي»[13].

وخلال عشر سنوات، أصبحت مراسم السلاملك التي يتوجه بها عبدالحميد إلى الجامع أفضل أوبرا عثمانية على الإطلاق. كانت الأفواج تصل واحدا بعد الآخر - المشاة والفرسان والمدفعية والرماحون والبحرية - أمام القصر، وكانت الأوامر العسكرية وضربات الجنود المشاة للأرض تقطعها من حين إلى آخر الموسيقى القوية للسلام الحميدي والسلامات العثمانية الأخرى. كانت الطرابيش على رؤوس الجنود تحيل تل يلدز إلى بحر من الحُمرة. كان السفراء بلباسهم الرسمي والوجهاء والأجانب والمحليون والعملاء السريون يراقبون المشهد من شرفة وكشك بُنيا خصوصا لهذا الغرض يطلان على الطريق إلى الجامع. وكان ضباط معاونون مبتسمون يتأكدون من توافر أماكن جيدة للمتفرجين، وينتشر بينهم الخدم بصوان ذهبية عليها قهوة وشاي وشربات وكعك وسندويتشات وسيجار مختوم بالأحرف الأولى من اسم السلطان.

كانت القوات تقف في وضع «للأمام سلاحا». ومن باب القصر، تخرج عربات الحريم يرافقها الخصيان ويتبعها رئيس الخصيان، ثم الباشوات على ظهور الخيل، ثم سكرتارية القصر على رأسهم تحسين باشا، ثم أبناء السلطان، وأخيرا تعلن الأبواق ظهور السلطان. وعندما يظهر السلطان في عربة فيكتورية مفتوحة يجرها زوج من الخيول ببطء شديد، يهتف الجنود «يعيش باديشاهنا!» وينحني المتفرجون احتراما. وبعد الهتاف يسود صمت مفاجئ، بينما تمر العربة تحت الشرفة الديبلوماسية. كانت كل الأعين تُثبَّت على السلطان، وعينا السلطان - من الناحية الأخرى - كانتا مفتوحتين على اتساعهما ترسلان نظرات ترقب مَنْ يتفرجون.

وفي المسجد، يتبادل السلطان الابتسامات مع أبنائه في الفناء. يقوم المؤذن الأعذب صوتا في المدينة بالأذان وتذكير السلطان بأنه ليس أكثر من رجل. يدخل السلطان المسجد. وبعد قضاء نصف ساعة في الصلاة، يقود بنفسه عربة أصغر ومعه أقرب أبنائه إليه برهان الدين أفندي (Burhaneddin Efendi)، ويتبعه الباشوات والسكرتارية لاهثين وهم يصعدون التل. كان نزول السلطان العثماني التل يُظهِره ملكا أوروبيا حديثا، فيما كانت عودته تمثيلا رمزيا للسلطان العثماني الذي يقود جيشه إلى معركة[14]. حفاظا على الإرث العثماني، كانت تجمع العرائض من الناس الذين يراقبون من وراء كردون الجنود، وتؤخذ إلى مكتب خاص في القصر. وكان يُرد على معظم العرائض[15].

وبعد السلاملك، كان السلطان يختفي في الكشك المُسيج (Hedge Kiosk) الذي يستقبل فيه السفراء والأجانب البارزين. كانت هذه المقابلات وسيلة مفيدة للحصول على المعلومات وتقديمها، وكان السلطان عادة يكتب ملاحظات بالحبر على معصمه بما ينوي أن يقوله. من ذلك على سبيل المثال أن هرتزل عرض على السلطان مالا يكفي لإعفاء الإمبراطورية العثمانية من لجنة الرقابة على الديون في مقابل إعطائه كيانا صهيونيا مستقلا في فلسطين. بدا السلطان مترددا لأنه كان يريد أن يستخدم اتصالات هرتزل الصحافية لتحسين الصورة العثمانية في أوروبا. غير أنه في حقيقة الأمر لم يتردد في مقاومته للصهيونية: «لا أستطيع أن أبيع حتى قدما من الأرض، لأنها ليست ملكي، بل ملك شعبي... ليوفر اليهود ملايينهم لأنفسهم. عندما تقسم إمبراطوريتي، ربما يأخذون فلسطين بلا ثمن، لكن دون ذلك تقطيع جثتنا. لن أوافق على التشريح». وفي الوقت الذي قال فيه السلطان «عندما تقسم إمبراطوريتي...»، كانت الحوليات الرسمية التي تنشر في القسطنطينية لاتزال تعلن أن العائلة العثمانية واحدة من أقدم العائلات الحاكمة في العالم وأنها ستبقى «إلى الأبد». فقد كان السلطان يخشى، مثل الكثير من أهالي المدينة، من أن تقسيم الإمبراطورية كان مسألة وقت وحسب[16].

كان بعض الحرس في مراسم السلاملك من ذوي العمائم (zouaves a turban) المعروفين، وهم عرب من إقليم طرابلس كانوا يعتمرون عمائم خُضرا. كان الكثير من المتفرجين في الشرفة من زعماء العرب الذين سبق لهم أن حاربوا السلطان،

لكنهم في هذا الموقف كانوا ضيوفا عليه يرتدون قفاطين الشرف العثمانية. ففي عهد عبدالحميد كانت الإمبراطورية العثمانية لاتزال تشمل كل العالم العربي تقريبا، وكانت القسطنطينية في الوقت نفسه عاصمة عربية وسلاحا عثمانيا. منذ القرن السادس عشر كان هناك معلمون وشعراء وتجار عرب فضلوا القسطنطينية على الركود السائد في بغداد والقاهرة. أدخل العرب إلى المدينة متعة القهوة إبان القرن السادس عشر والأوبرا في القرن التاسع عشر. وكان عبدالحميد أول سلطان يستخدم العرب في مناصب سياسية(*). وقد عيّن شيخا من حلب يدعى أبو الهدى معلما للمذهب في يلدز وقاضي عسكر الروملي (أي كبير قضاة الولايات الأوروبية). كتب أبو الهدى ما يناهز مائتين واثني عشر كتابا وكتيبا، أكد فيها أن الحكم المطلق (Absolutism) موافق للإسلام، فقد أمر الله والقرآن والنبي بطاعة الخليفة السلطان. والخليفة بتقواه وعدله يهتم برفاه رعيته، ومن الواجب طاعته، خاصة في أوقات الحرب ضد الأعداء الظالمين، وكذلك في الصراع ضد الخارجين عليه. باختصار، أصبحت القسطنطينية بغداد جديدة[17].

وبينما كان أبو الهدى يحشد سورية وراء السلطان، كان الشيخ ظافر المدني من إقليم طرابلس مسؤولا عن السياسة الإسلامية في شمال أفريقيا. وبداية من العام 1892، كان المجدد الإسلامي العظيم والداعي إلى الاتحاد في مواجهة الغرب جمال الدين الأفغاني يقيم أيضا في بيت في حدائق يلدز، يأخذ طعامه من مطبخ السلطان، ويستخدم إحدى المركبات الإمبراطورية. كان السلطان قد دعاه إلى زيارته من لندن لمنع الحكومة البريطانية من استخدامه في الدعوة إلى خلافة أحد أشراف مكة. ومن مُقامه المريح في يلدز، كتب إلى وجهاء الشيعة في إيران يحثهم على دعم الإسلام السني والخلافة العثمانية في مقابل هدايا ورواتب من السلطان. كانت آراؤه إلهاما لاغتيال المنافس المقيت للسلطان شاه فارس في العام 1896. كشف القاتل مرزا رضا (Mirza Riza) في أثناء استجوابه في اجتماع في القسطنطينية في العام 1895، أن الأفغاني قد عبر عن الحاجة إلى التفاف كل المسلمين «حول الخلافة وجعل السلطان

(*) على خلاف أسلافه الذين اتخذوا كل القوميات والأعراق - ما عدا العرب - صدورا عظماء ووزراء وولاة وأمراء ومستشارين وتُرجمانات وجنرالات، اتخذ عبدالحميد من العرب مسؤولين ومستشارين، ربما في محاولة من جانبه لأسلمة الدولة حتى تصمد في وجه محاولات التقسيم. وربما لذلك، فضلا عن رفضه بيع فلسطين للصهاينة، تحتفظ له الذاكرة العربية بذكر طيب. [المترجم].

أمير المؤمنين لكل المسـلمين»، وشـجعه على قتل الطاغية (الشاه). مات الأفغاني في يلدز، في حالة من الخزي رسميا، في العام 1897[18].

كانت المدارس أداة أخرى في سياسة السلطان العربية، فكان يأتي بأبناء الوجهاء من الولايات إلى القسـطنطينية ويلحقهم بالكليات العسـكرية أو الإدارية. وأنشـأ مدرسة القبائل البدوية بالقرب من قصر دولمة بهجت في العام 1892، بقصد «تمكين البدو من المشاركة في الازدهار الذي ينبثق عن المعرفة والحضارة، وزيادة على ذلك تعظيم ميلهم الطبيعي المعروف نحو الخلافة الإسلامية الكبرى والسلطنة العثمانية العليّة وحبهم لها». بعد خمس سنوات في القسطنطينية، كان هؤلاء الطلاب يعودون إلى ولاياتهم للعمل معلمين أو مسـؤولين. كما كان يُـؤتى بالصبية من أماكن بعيدة مثـل فارس والمغرب وجاوة، لتعليمهم على نفقة السـلطان في المدارس الحديثة في العاصمة. وكانوا غالبا يعودون إلى بلادهم يدعون إلى الوحدة الإسـلامية ويتوقعون من سادتهم الاستعماريين أن يعاملوهم معاملة الأوروبيين[19].

قَوّى عبدالحميـد الصلات العثمانية مع عائلة الهاشـميين العربية الذين كانوا من قاعدة سـلطتهم شبه المستقلة في الحجاز رعايا للعثمانيين ومنافسين لهم في آن معا منذ العام 1517. وفي أوائل القرن التاسـع عـشر، ومع ضعف القوة العثمانية، أخذت عداوة الهاشميين تشتد. فطن رحالة فرنسي إلى «الكراهية الشديدة والعداوة المستحكمة بين الأتراك والعرب». ردت الحكومة العثمانية على ذلك بتقوية الحامية العثمانية في جدة ودعوة الهاشميين إلى القسطنطينية.

وبداية من العام 1816 كان بعض الهاشـميين يأخذون رواتب سخية وزوجات وبيوتـا في العاصمة. كان هؤلاء الهاشـميون، الذين كانوا في الوقت عينه سـجناء وضيوفـا مكرمين لدى السـلطان، يُعامَلون بوصفهم جزءا مـن النخبة العثمانية. وفي عشـاء في بيت رشيد باشا في شهر أكتوبر 1857 كان أحد الضيوف شابا وسيما وقـورا في نحو الثلاثين من عمره يدعى الشريف عبدالله. كان الشـاب ينتمي إلى فرع أصغر وأكثر توقيرا من العائلة يسمى «ذوي عون»، كانت الحكومة العثمانية تسـتخدمهم ضد الفـرع الأكبر «ذوي زياد»، وعندما سُـئل الضيف لماذا لا يلبس العمامة الخضراء المميّزة لأحفاد النبي، أجاب: «ألبسـها أحيانا، لكن نسـبنا أوضح من أن يحتاج إلى شارة».

في المقابل، كان وجود الأشراف في القسطنطينية سلاحا ذا حدين. فمن خلال اكتشاف ضعف السلطان أمام التدخل والتفوق التقني الأوروبيين، كان من شأن الإقامة في العاصمة أن تزيد العصيان بين رعيته، وليس أن تستحث ولاءهم. من ذلك أن الشريف عبدالمطلب عندما عاد من القسطنطينية، في أثناء حرب القرم، قال للعلماء في الحجاز إن العثمانيين في حكم المرتدين وأعلن «الجهاد» ضد الحاكم العثماني الذي تسببت محاولاته لإيقاف تجارة العبيد في غضب السكان المحليين[20].

هُزِم عبدالمطلب وأعيد إلى القسطنطينية وأقام فيها من العام 1856 إلى العام 1880. ولكونه صديقا لمدحت باشا حضر حفل جلوس مراد الرابع على العرش في العام 1876. وقبل أربعين عاما من إطلاق الشريف حسين الثورة العربية في مكة بتشجيع من بريطانيا، كان هناك كلام في السفارة البريطانية في القسطنطينية وفي الولايات العربية عن «تدهور حالة الأتراك» وعن إمكانية عودة الخلافة «إلى بلاد العرب». وفي العام 1880، تحدث صديق السلطان سير أوستن لايارد مع «سيد عربي» أخبره بأن «السخط على الحكم التركي يعم بين السكان العرب في أنحاء الإمبراطورية العثمانية كافة. وأنهم مستعدون - كما قال - لإعتاق أنفسهم إن وجدوا دعما من إنجلترا... ينظر المسلمون الحقيقيون حاليا إلى أشراف مكة بوصفهم رؤساءهم الدينيين الحقيقيين». وفي تلك السنة، أُعلِن عبدالمطلب أميرا وشريفا لمكة رسميا في الباب العالي، وعاد ثانية إلى مكة، إذ يبدو أن السلطان رأى أن وجود صديق مدحت ومراد في القسطنطينية يشكل خطرا أكبر من وجوده في مكة[21].

ومع ذلك، فقد ظل الأشراف في عهد عبدالحميد يلقون التقدير والاحترام في المدينة. تلقى حفيد عبدالمطلب علي حيدر، الذي ولد في القسطنطينية في العام 1866، تعليمه في مدرسة القصر، في أحد أكشاك حدائق يلدز، مع الأمراء العثمانيين وأحفاد خانات القرم وأبناء الباشوات. وصار صديقا للشيخ أبي الهدى وعبدالمجيد أفندي ابن السلطان عبدالعزيز. وعندما تذمر من المدرسة، قال له جده: «إذا لم تذهب إلى المدرسة في الحال، فسأعيدك إلى مكة». فإبان القرن التاسع عشر، كانت عائلة النبي تعتبر القسطنطينية وطنا ومكة المكرمة منفى[22].

وفي العام 1893، عاد هاشمي آخر، هو الشريف حسين من فرع ذوي عون، كان قد ولد في القسطنطينية في العام 1853، لكي يعيش هناك في يالي فخم في

إينيكـوي عـلى الجانب الأوروبي للبسـفور مع أبنائه علي وعبداللـه وفيصل. كان حسـين من مؤيدي الحكم المطلق وقيل إنه كان يتجسس لحساب السلطان، وكان عضوا بمجلس الدولة، وهي مؤسسـة عملت بديلا عن البرلمان. كان حسين متزوجا من عربية من أبناء أعمامه، وفي القسـطنطينية تزوج من حفيدة رشيد باشا عادلة هانم التي ولدت له ابنه الأخير والمفضل زيد في العام 1898. وبعد سـنوات قليلة انتقل من إينيكوي إلى كشك بناه على تل كثيف الأشجار فوق بيوكدير «بعيدا عن السلطان وجواسيسه».

احتفظ الشريف حسـين والشريف علي حيدر وعائلتاهـما بهويتين: العثمانية والعربية. أجبر المعلمون الذين وفرهم السـلطان أبناء علي حيدر على تحدث اللغة التركية التي ظلوا حتى آخر حياتهم يستخدمونها كشفرة شفهية عندما يكونون بين العرب. في مذكراته، امتدح عبدالله الابن الثاني للشريف حسين (كان في ذلك الوقت ملك الأردن) «الضيافات العربية والنخيـل والبنايات العربية المحبوبة» في الحجاز، لكنه مع ذلك كان أكثر حماسا للقسطنطينية «مقر الخلافة... التي يعجز الكلام عن وصف سـحرها، مدينة الجمال السـاحر في كل الفصول، الصيف والشـتاء على حد سواء. ما أنقى عيونها وما أطيب فاكهتها!... إنها تسع مسلمين من كل الأنواع، بأزياء وألسـنة مختلفة، ومع ذلك لا يبدو في ذلك شـيئا غريبا، وتستطيع فيها أن تجد أي شيء تريده من أي بلد»[23].

تذكر الشريف عبدالله البسـفور بمتعة خاصة. بينما كان السـلطان يحكم من وراء أسـوار يلدز العالية، شـهد البسـفور عصرا ذهبيا ثانيا. ففي شهر مايو من كل عام، كان الطريق على التلال من القسطنطينية إلى طرابيا تنتشر عليه عربات تجرها ثـيران تنقل أثاثـا إلى الفيلات الواقعة على البسـفور. كان الخدم من خلال مغادرة المدينـة في الصباح الباكر، يسـتطيعون أن يجهزوا المُقام الجديد لسـادتهم قبل أن يصلوا في المسـاء. كان الهواء على البسـفور الأعلى نقيا جدا لدرجة أنه كان يوصف «دواء للجسـم وإنعاشـا للروح». انبهر لويس رامـبرت (Louis Rambert) الذي عمل في البنك العثماني في عهد عبدالحميد بجو البسـفور: «ما هذا النور؟! وما هذا الإشراق؟! يمضي فصل الصيف من شـهر مايو إلى شـهر نوفمبر في مسـاره، من دون غيمة واحدة، ناشرا في الهواء صحوا شـديدا، ينعكـس في المرآة الزرقاء الكبرى: مياه

البســفور. إن وصول مراكب البســفور إلى العاصمة في كل صباح ومغادرتها في كل مســاء، يترك في خيالك منظرا لسحر حقيقي». إن «حلاوة الحياة» في القسطنطينية قبــل العام 1912، مثلها مثل باريس قبــل العام 1789، لم تزل أبدا من ذاكرة أولئك الذين ذاقوها[24].

كان هناك خط متواصل من اليايات (Yalis) يمتد على طول شــاطئي البسفور كليهما، كانت أكبرها يايات الأميرات الإمبراطوريات القريبة من القصور الإمبراطورية. وفي طرابيا، كانت توجد سلســلة من المتنزهات الخضراء تنحدر نحو يايات السفراء الخشــبية البيضاء وزرقة البسفور التي ترســو فيها السفن الخافرة (stationnaire) (كان مسموحا لكل سفارة بأن تحتفظ بسفينة واحدة في البسفور). بعد الظهيرة، كان رصيف طرابيا يشــبه نزهة دولية، يتعرف فيها الصحافيون على أحدث الشائعات أو ينشرونها، ويخطط الديبلوماســيون والمصرفيون لبطولات تنس ومباريات بولو (كان نادي البولو في القســطنطينية الذي كان هارولد نيكولســن (Harold Nicolson) ســكرتيره في العام 1913، يوجد في بيوكدير) والحفلات الراقصة وأشياء كثيرة أخرى. كتب مؤرخ المدينة العثمانية المتأخرة ســعيد نعوم دخاني الذي كان أبوه مســؤولا كبيرا في وزارة الخارجية:

> كان العشــاق والخــبراء الماليــون والأزواج اللطفــاء وصائــدو الفتيــات الطموحون يصنعون إشارات بعضهم لبعض لا يفهمها إلا الضالعون. وبالنسبة إلى المشرقيــين (عائلــة مافروغورداتو وعائلــة ظريفي وعائلة تيســتا وعائلة أوســتروروغ Ostrorog) من الجنســين، كان هذا المعــرض أو النزهة مفيدة لأغراضهم: للرجــال الحصول على صفقة، وللفتيات غــير المتزوجات لاصطياد عريس من ملحقي السفارات الذين يمرون عليهن[25].

كانت طرابيا أوروبية ومشرقية في الوقت عينه. كانت مراكب الكياك بؤرة النمط التقليدي للحياة. في روايته «نور بابا» في العام 1921، وصف يعقوب قدري (Yakup Kadri)، الذي يعد أحد أعظم الروائيين الأتراك الحديثين، مراكب الكياك المنتظرة في البســفور المتلألئ كأنها كانت معلقة في فراغ أزرق أمام يالي مسؤول غني في البلاط يدعى صفاء أفندي: «يغمر النور والتناغم الشــاطئ كلــه، كأنه في ليلة لعيد النور. وكثيرا ما تقف هنا كل الصنادل (مراكب التجديف) التي تنطلق رشيقة ومرتجفة في

المياه الضحلة من شاطئي البسفور كليهما، من بيبك وقنديلي (Kandilli) إلى سارير (Sariyer) وشوبلوكو (Cubuklu) بحثا عن البهجة والمتعة». وكان كثير من مراكب الكياك ترسو قريبة بعضها من بعض ويستمع الناس للموسيقى معا، وكان، في هذا الجو، للرجال والنساء أن يتبادلوا النظرات أو الزهور.

وفي الليالي المقمرة، كان صفاء أفندي المستغرق كليا في هذا الجو، لا يبرح نافذته ولا ينزل منظاره بينما يتحدث ببطء شديد مع أصدقائه:

> هـذا المنظار رائع! حُسْـن هانم أمامـي هنا. لو مددت يدي للمسـتها. انظـروا إلى الرجـل في المركب التـالي! إنـه لا يفارقها لحظة واحـدة، كأنهما ملتصقان. أدارت سـيدات البلاط ظهورهن له. ما هذه التسريحة! يا لهن من عجائـز متصابيات!... ها هن بنات فايق بيه! يا لهن من صغيرات طائشـات! يتسـكعن من الصباح إلى الليل! بدأت أشك أن هناك شيئا بينهن وبين النوتية (Noatmen)! إنهن يتعاملن معهم بلا كلفة وبحرية وسهولة عندما يتكلمون ويضحكون معا! أمر مضحك! إنه أول مساء لا أرى فيه راكسيناز هانم أفندي (Raksinaz Hanimefendi) المصريـة في أي مـكان! أتمنى ألا تأتي وأن تكون قد غادرت المدينة.

وفي ليال أخرى، كانت مراكب الكياك تحمل موسـيقيين وصواني طعام وشراب، تلتقي عند شـاطئ كاليندار (Kalendar)، وتتحلق حولها قوارب أخرى للاسـتماع إلى الموسـيقى، ويشـكلون كتلة متنقلة من المراكب كأنها طوف خشـبي واحد. في عهد السلطان عبدالعزيز، «عندما كانت القلوب أكثر مرحا، والعواطف أشد التهابا، والعضلات أقوى، والبال أكثر خلوا من الهموم، والمحفظات أثقل»، قيل إن ما يقارب الألـف مركب كانت تنتقل من شـاطئ إلى آخر على صفحة البسـفور حتى الفجر، وهم سكارى بجمال الليل وصوت الموسيقى.

وفي مصر التي كَلَّف خديوها إسـماعيل بتأليف أوبرا عايدة، كشـف هو الآخر عن تذوق للموسـيقى الغربية. وفي القسـطنطينية التي اعتزل فيها في نهاية حياته، رجع إسـماعيل إلى أذواق طفولته. ففي الليالي المقمـرة، كانت جوقته المكوّنة من مائة جارية تغني له على أنغام الموسـيقى الشرقية في ياليه في إمرغان (Emirgan). وكانت مراكب الكياك التي تجتمع للاسـتماع في الخارج تشـكل جسرا من المراكب

يمتد من إمرغان إلى الشــاطئ الآسيوي للبســفور. كانت إحدى جواريه تمتلك صوتا يصل مــن إمرغان إلى الجانب الآخــر وهناك بعد أن يصطدم بالتــلال العالية كان صوتها ينتج صدى ثنائيا أو ثلاثيا. غير أن الســلطان كان يخاف من الحشــود الكبيرة ومن شــعبية الباشا. وبدعوى أنه لا يجوز سماع أصوات النساء المسلمات على الملأ، صدر من يلدز أمر بحظر الحفلات[26].

ثمــة قصر عــلى البســفور كان محظورا عــلى كل المراكب الاقــتراب منه. ففي تشــيرغان، كان السلطان المخلوع يشكل تهديدا مســتمرا، وكذلك تأنيبا دائما لأخيه في يلــدز. وبعد العــام 1876، وكما حدث مع ماري ملكة الأســكتلنديين وإليزابيث الأولى(*)، كان مراد الرابع وعبدالحميد الثاني أميرين متنافســين لم يلتقيا قط. عاش مراد في جناح الحريم المنفصل، الذي يشــكل مدرســة في الوقت الحالي، عن يســار القصر، محاطا بســتار من السرية أكثر منعة من أســوار قصره. شــاركته في السجن حاشــية مكوّنة من ســتين شــخصا، شــملت أطفاله وحريمه. كان أهل بيته يسلون أنفســهم بأعمال مسرحية غير ناضجة فضلا عن الموســيقى الكلاسيكية والعثمانية. قال غوتيلي باشــا مدير الموســيقى الإمبراطورية لعبدالحميد عــن أبناء مراد الرابع وأحفاده في تشــيرغان: «فخامتك، أنا أذهب للاســتماع إلى موســيقاهم وليس لكي أعلمهم». كان مراد يقرأ الشــعر والموســيقى ويكتبهما (بين ما ألفه أحد السلامات الوطنية ومقطوعة من موســيقى البولكا الراقصة)، وكان يمســح البسفور بالمنظار، ويشرب كوكتيلا من البراندي والشمبانيا. لم يؤد مراد صلاة المسلمين قط. وكان أحيانا يتحدث لأبنائه وأحفاده عن زيارته إلى فرنسا وإنجلترا مع عبدالعزيز في العام 1867 ويقول لهم: «سيطلق سراحنا يوما وآخذكم بسفينة إلى كل هذه البلدان».

وبســبب منع دخول أطباء الأســنان على مراد الرابع وأهل بيته، تعلم مراد أن يخلع أسنانه بنفسه. وكان نادرا ما يُعطى ملابس جديدة، لذلك كانت حريمه تصنع

(*) مــاري ملكــة الأســكتلنديين Mary Queen of Scotland (1542 - 1587): ملكــة أســكتلندا بالوراثة وزوجة ولي عهد فرنســا ثم ملكها فرانســيس (Francis)، التي عادت إلى أســكتلندا بعد موته وتزوجت من ابن عمها هنري ستيوارت لورد دارنلي (Lord Darnley) الذي قُتل في تفجير اتُّهم بتدبيره جيمس هيبيرن (James Hepburn) الإيرل الرابع لبوثويل الذي تزوجته بعد شهرين، قامت عليها ثورة عزلتها ونصبت ابنها جيمس من دارنلي وكان عمره عاما واحــدا. لجأت إلى ابنة عمها إليزابيث الأولى ملكة إنجلترا التي ســبق أن طالبت بعرشــها باعتبارها الوريثة الشرعية لعــرش إنجلترا. وضعتهــا إليزابيث قيد الإقامة الجبرية لمــدة ثمانية عشر عاما ونصف العــام، أعدِمت بعدها بتهمة التخطيط لاغتيال إليزابيث. [المترجم].

له الملابس. وكان يُرسَل شماشرجي يوميا من يلدز للاستفسار عما إذا كان مراد يريد شيئا، لكن الأخير كان أكثر أنفة من أن يطلب شيئا. وفي إحدى المناسبات، استسلم لإلحاح حريمه وطلب روزنامة، فرفض الشماشرجي أن يلبي طلبه. كان عبدالحميد يكره أخاه. وصدرت فتاوى من شيخ الإسلام تبيح للسلطان إعدام مراد الرابع، لكن قتل الإخوة لم يعد مستساغا في أواخر القرن التاسع عشر. ومات هذا الأمير التحرري (Liberal) الذي ربما كان باستطاعته أن يحوّل الإمبراطورية العثمانية إلى ملكية دستورية، في العام 1904 في عمر الرابعة والستين، بعد ثمانية وعشرين عاما في الأسر(27).

تحت العالم الصغير السحري للبسفور، كانت المدينة تبدو حديثة جدا. كان الأسلوب المعماري المسمى الفن الجديد (art nouveau) بتأكيده على الزهور والأقواس، جذابا للعثمانيين جدا. كان من بين البنايات التي صممها معماري السلطان الإيطالي ريموندو دارنوكو مدرسة حيدر باشا الطبية العسكرية الضخمة التي انتهى العمل بها في العام 1895 (بُنيت على الجانب الآسيوي من المدينة، ربما لإبعاد الطلاب من تأثير بيرا المفسد) وبناية كازا بوتر (Casa Botter) التي بُنيت في نهاية شارع بيرا الكبير في العام 1901 والسفارة الصيفية الإيطالية في طرابيا التي بُنيت في العام 1905(28).

على جسر غَلَطَة، كان الزي الأوروبي هو القاعدة، وليس الاستثناء. من ذلك أن فتى مسلما ذكيا يدعى خليل خالد (Halil Halid) رفض الدراسة في المدارس الدينية لأن الطلاب فيها كانوا ملزمين بارتداء الأزياء التقليدية والعمامة و«أنا مثل أغلبية أبناء بلدي يسيطر عليّ الطموح لأن أبدو عصريا وألبس على الطريقة الحديثة». ظلت البيوت البسيطة تزيّن بلوحات مؤطرة من الخط اليدوي ودواوين منخفضة وقليل من الأشياء الأخرى. فيما كان أعضاء النخبة العثمانية، مثل عثمان حمدي بيه (Osman Hamdi Bey) مدير المتاحف الإمبراطورية ومدرسة الفنون الجميلة، ونيجار هانم (Nigar Hanim) الشاعرة التي كانت تقيم في يالي بجوار قلعة روملي حصاري وتستضيف رجالا في صالونها، أو عائلة شاكر باشا (Shakir Pasha)، أبعد في الشبه عن أسلافهم وأقرب إلى نظرائهم في لندن أو باريس في الزي والإيماءات والأثاث. وبدأت تختفي الطقوس القديمة ممثلة في

الغليــون والعطر (لكن من دون القهوة بالطبع). وغــدا البيانو موجودا في بيوت الأغنياء جميعا. وباتت وجبات الطعام تقدم على الطريقة الفرنســية على منضدة وباســتخدام الشوكات والسكاكين، بدلا من الأكل في صينية على الأرضية، وفي حال مــا إذا كان أكــبر فرد في العائلة أنثى، فــإن الطعام يقدم إليهــا أولا. ولم يعد غير الطربــوش الذي كان الرجال يحرصون على وضعه على رؤوســهم حتى في الأماكن الأكــثر خصوصية، يوضح أنهم عثمانيون. وكانت بعض النســاء من فرع حليم من العائلة الحاكمة المصريــة واثقات جدا بحداثتهن حتى إنهن أطلقن موضة ارتداء الأزياء والجواهر العثمانية التقليدية[29].

شــمل التغيير العلاقــات العائلية هي الأخــرى. بدافع إحكام الســيطرة، كلّف عبدالحميد بإجراء أدق الإحصاءات في التاريخ العثماني. وجدت الإحصاءات أن 2.16 في المائــة فقط من الرجال المتزوجــين في المدينة في العام 1907 كان لديهم أكثر من زوجة واحدة. وكان سكان القسطنطينية أول جماعة مسلمة تستخدم موانع الحمل على نطاق واســع. وقد انزعج الســلطان من الاستخدام الواســع للإجهاض كوسيلة لضبــط حجم العائلات. كما انتشرت فرزجات Pessaries منع الحمل المصنوعة من الصابون أو عصير الليمون كمبيدات للمني[30].

وبدأ العثمانيون يتخلون عن اللغتين العربية والفارســية، وفي ذلك كتب المفكر حســين جاهيــد (Huseyin Cahid): «كانت للغة والثقافة الفرنســيتين - قبل كل شيء - الفضــل في يقظتي». وشــعر كاتب آخر بالقســطنطينية هــو أحمد مدحت (Ahmed Midhat) بــأن اللغة العثمانية كانت متعفنة تماما إلى درجة أنك لا تكاد تلمس أي بنية لغوية حتى تنهار[31].

كان هناك تناقض جلي بين النخبة التقدمية والحكم المطلق التقليدي للسلطان، وبــين المدينة والقصر. تحدى عبدالحميــد الحركتين الأكثر أهمية في عصره: التصنيع والقوميــة. فبغرض منع مزيد من الاختراقات للاقتصاد العثماني من جانب الشركات الأوروبية، لم يسمح بإقامة أي مصانع كبيرة في القسطنطينية. وبحلول العام 1891 لم تكــن المدينة تحتوي، إلى جانب المصانع الحكومية مثل مصنع الطرابيش على القرن الذهبي ومصانع المنســوجات والبارود، إلا على بضعــة مصانع خاصة كانت تصنع الحرير والطابوق والبلاط والزجاج، ومصنعين للغاز. سُمح بإدخال الكهرباء في إزمير

وسالونيك وفي عالم يلدز المنعزل، بينما لم يُسمح بإدخالها إلى القسطنطينية نفسها، إلا في المستشفيات والسفارات وفندق بيرا بالاس Pera Palace Hotel [فندق قصر بيرا][32]. فقبل العام 1876، جرى تحديث القسطنطينية نسبيا. لكن في عهد عبدالحميد، شهدت المدينة حالة من الجمود الزمني.

وفقا لإحدى قوائم الضرائب من العام 1887، كان مائتان وسبع وثمانون طائفة حرفية تقليدية لاتزال تعمل في العاصمة، مثل النوتية والجزارين والحمّالين، لكل منها رئيس، وقد أريد بذلك تقوية سيطرة يلدز على المدينة وقوة الطوائف. كانت طائفة عمال الميناء أحيانا تجبر السفن الكبيرة على أن ترسو بعيدا في البحر، ما يضطرها إلى استخدام مراكب صغيرة مملوكة للعمال، الأمر الذي كان يؤدي بدوره إلى تقليل عائدات الميناء. وعُطلت عملية تحديث مرافق الميناء التي خططتها الحكومة ومجموعة من المستثمرين الأجانب منذ العام 1890. وبعد العام 1895 تغيّرت طائفة عمال الميناء جذريا، إذ حل الأكراد محل الأرمن الآتين من شرق الأناضول، باعتبارهم المصدر الأساسي للأعضاء[33]، بعد أن تسببت النزاعات القومية في الولايات في إراقة الدماء في شوارع القسطنطينية.

إبان العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر، وعلى نحو ما تنبأ خريميان، لجأ بعض الأرمن إلى الثورة العنيفة. في العام 1887 تأسس الحزب الهَنشاقي في جنيف(*). كان هذا الحزب أول حزب ماركسي ثوري في المنطقة، نشأ متأثرا بالنزعة الشعبوية وحركة الاغتيالات الروسية، وجند سبعمائة عضو في القسطنطينية، كان أغلبيتهم من الأرمن العاملين في شركات أجنبية. وبعد ثلاثة أعوام تأسس في تفليس(**) حزب ثوري أرمني آخر، سرعان ما عرف باسم طَشناق Dashnaks. كانت القضية الأرمنية قد فقدت تعاطف الحكومة القيصرية الروسية، لكنها اكتسبت حماسا وتنظيما ثوريين. وشرع الهَنشاقيون والطَشناقيون في اغتيال الأرمن العاملين في خدمة السلطان.

(*) سُمي هذا الحزب بالهنشاقي على اسم جريدته هنشاق Hanchak التي تعني «البوق» أو «النفير»، وكان أول حزب اجتماعي في الإمبراطورية العثمانية وفارس. [المترجم].

(**) تفليس Tiflis أو تبليسي Tblisi عاصمة جورجيا الحالية. [المترجم].

أدى خوف الحكومة وريبتها إلى تغيير موقفها من الأرمن. في محادثة مع العميل المجري للحكومة البريطانية المؤرخ والمُستَترِك(*) أرمنيوس فامبري(**) في يلدز في العام 1889، بدا السلطان غاضبا جدا إلى درجة أنه خلع طربوشه عدة مرات: «قل لأصدقائك الإنجليز، وتحديدا لورد ساليسبيري(Lord Salisbury) الذي أكن له احتراما كبيرا، أني مستعد لعلاج الشرور في أرمنيا، لكني سأسمح بأن يقطع هذا الرأس من فوق جسمي (وهنا اشتد انفعاله) قبل أن أسمح بقيام دولة أرمنية منفصلة»[34].

تكشف أرشيفات يلدز أن السلطان ومسؤوليه اعتبروا الأرمن «دجالين» و«مملوئين بالنوايا الشريرة» نحو «الدولة العليّة». كانت الولايات الشرقية، وفقا للسلطان نفسه، تستحق أن يطلق عليها كردستان، لأن الأكراد القاطنين فيها كانوا أكثر من الأرمن. وكان فرض الإصلاحات في أرمنيا أشبه «بأن يمسك الرجل لحيته بيده اليسرى ثم يجز حنجرته بيده الأخرى»[35].

في يوم الأحد الموافق السابع والعشرين من يوليو 1890، أطلقت «مشاجرة كومكابي» خارج البطريركية الأرمنية في كومكابي، حلقة من الذعر. حاصرت مجموعة ثورية من الهَنشاق، أغلبيتهم من القوقاز، الكاتدرائية وتحرشت بالبطريرك، وقرأت بيانا معاديا للسلطان. فتحت الشرطة النار وقتلت نحو عشرين أرمنيا. كما قُتل شرطيان، ربما للمرة الأولى منذ العام 1453 التي يجرؤ فيها مسيحيون على مهاجمة قوات عثمانية في القسطنطينية. واحتجاجا على أفعال الشرطة والإرهابيين كليهما، استقال البطريرك. واجتمع حشد من الأرمن يهتفون «يعيش حزب الهَنشاق! يعيش الشعب الأرمني! تعيش أرمنيا!»، وأخذوا صف الهَنشاقيين. تمنى بعضهم أن يتحول المشهد إلى مذبحة معتقدين أن ذلك من شأنه أن يدفع تدخل القوى العظمى. وفي السنة التالية، عُلق الدستور الأرمني. وفي الخامس والعشرين من مارس 1894، أصيب البطريرك ثانية على يدي إرهابي أرمني شاب في كومكابي[36].

وفي الثامن عشر من سبتمبر 1895، وبعد أشهر من التحضير من جانب لجان الهَنشاق الثورية، تحرك نحو ألفي أرمني، معظمهم مسلحون بالسكاكين

(*) المُستَترِك، على وزن المستعرب والمستشرق، هو المهتم بالأدب والثقافة التركية أو متبنيها. [المترجم].

(**) كان فامبيري من اليهود العثمانيين، اعتنق الإسلام وارتد عنه أربع مرات، وكان جاسوسا للإنجليز في القسطنطينية وروسيا، وهو الذي رتب مقابلة تيودور هرتزل مع السلطان عبدالحميد الثاني، روّج لوجود قرابة عرقية بين الأتراك والمجريين بناء على التشابهات اللغوية. [المترجم].

والمسدسـات، من كومكابي نحو الباب العالي يهتفون: «الحرية أو الموت!»، ويغنون أغاني ثورية «لإيصال صوت الأرمن البائسـين إلى الباب العـالي». وأجبروا البطريرك بالإرهاب على مرافقة المظاهرة. ربط الأرمن قضيتهم بالإمبريالية الأوروبية. من ذلك أنهم أرسـلوا خطابا إلى السـفارات يطلبون فيها إصلاحات (حرية التعبير والتجمع، والسـماح بحمل الأسـلحة، وإيقاف المذابح) وقوة شرطة يقودها حاكم عام أوروبي في «المحافظات السـت الأرمنية» في الـشرق. وطالبوا بمزيد من الاختراق الاقتصادي الأوروبي، لكنهـم في الوقت عينـه هددوا بأنهم إذا لم يحصلوا على المسـاعدة، فإن احتجاجات الأرمن قد «تجد صدى لها بين الطبقات الكادحة في بلدانكم».

كان رد الفعـل العثـماني وحشـيا. فتحـت الشرطة النـار على الحشـد. وعمدت الحكومة، باسـتخدام العبارة الملائمة للقسـطنطينية في عهـد عبدالحميد، إلى «إطلاق العنان للغوغاء»، مسـتخدمة غضبا شـعبيا حقيقيا بين المسـلمين لأغراضها السياسية. وسـمحت للمسـلمين بأن يضربوا الأرمن حتى الموت في الشـوارع، ليـس بالقرب من كومـكابي فقـط، بل في كثير من الأحياء الأخرى بالمدينـة. والشرطة من جانبها، إما أنها وقفت سـلبية وإما أنها شـاركت بأيديها، إذ ضُرب بعض الأرمن بالهراوات حتى الموت في أفنيـة مراكز الشرطة. بـدأت الهجمات في وقت واحـد، وكان الغوغاء حريصين، إلا في حالات اسـتثنائية، على عدم التعرض للأجانب وخدمهم الأرمن، والكاثوليك الأرمن، والبروتسـتانت. واسـتمرت المذابح ليومـين، وفي بعض الأحياء لأسـبوعين. وكان فقراء الأرمن، من الحمّالين وعمال حوض السـفن، أكثر من أُوذي، فلكونهم مهاجرين حديثين من الشرق، كان من السـهل التعرف عليهم بزيهم ولهجتهم. أما الأرمن الأكثر ثراء، فقد لجأوا إلى بيوتهم أو إلى الكنائس. وخرّ البطريرك مريضا من هول الصدمة[37].

لم يظهـر اليونانيـون تعاطفا مع الأرمن في العام 1895 أكـثر مما أبداه الأرمن من تعاطف مـع اليونانيين في العام 1821. كان الأمير نيقولاس مافروكورداتو ابن أحد قواد حرب الاسـتقلال اليونانية، مثـل كثير من أحفاد الفناريين الآخرين، قد أصبح سياسـيا وديبلوماسـيا يونانيا. وعاد في العام 1894 إلى مدينة أسلافه سفيرا لليونان. وعلى الرغم من أنه أصبح شخصية معروفة في المدينة ورئيس حلقة الشرق، فإنه مثل أبيه كان قوميا يونانيـا متطرفا، اعتبر مبدأ سـلامة الإمبراطورية العثمانية «صيغة عقيمة وسـخيفة». وفي العام 1895 كتب إلى السـلطات العثمانية محاولا التمييـز بين الأرمن واليونانيين،

ومؤكـدا أن اليونانيـين «أصدقاءَ مخلصون»، ومتخليا عن الأرمـن الذين كانوا خدما في البيـوت اليونانية. حاول البطريرك المسـكوني أن يقدم دعما أدبيا: «يرى اليونانيون أنه من الحكمة أن يجتازوا هذه الأيام العصيبة في سـلام». وفي العاشر من سـبتمبر، هاجم بعـض الأرمن اليونانيين في أورتاكي. وتعرض الأرمن في الشرق إلى مذابح أبشـع. وأخيرا، تدخل السفراء الأجانب بمذكرة جماعية. ووقّع السلطان على مرسوم الإصلاح الذي ظل حبرا على ورق[38].

وفي السـادس والعشرين من أغسـطس 1896 عاد الرعب إلى القسـطنطينية. شنّ الثوار الأرمن من حزب الطَشناق سلسلة مخططة جيدا من الهجمات بالقنابل في أنحاء المدينة كافة، خاصة في غَلَطَة وساماتيا Samatya. وقع أشد هذه الهجمات في الواحدة مسـاء، حين قام خمسة وعشرون أرمنيا، متنكرين في هيئة حمّالين، بالاستيلاء على أحد مراكز القوة بالقسطنطينية، وهو المقر الرئيس للبنك العثماني في غَلَطَة. وقع اختيارهم على البنك بسـبب صلابة بنائـه الذي يمكنهم من مقاومة الحصـار، فضلا عن أهميته الماليـة التي تضمن الدعاية في أوروبـا. وبعد أن قتلوا موظفين اثنـين، واحتجزوا مائة وخمسـين موظفا وعميلا كرهائن، هددوا بنسـف البنك إن لم تلبَّ طلباتهم باستقلال أرمنيا تحت الحماية الأوروبية. فر إدغار فنسـينت الذي كان قد أصبح محافظا للبنك، من مكتبه بالطابق العلوي من خلال نافذة في السقف. وبعد مفاوضات طويلة، أجراها ترجمانات السـفارات، سُـمح للإرهابيين بمغادرة المدينة على يخت فنسينت، وبعدها سافروا إلى مرسيليا على سفينة تابعة للسفارة الفرنسية، وهناك أطلق سراحهم لاحقا.

أطلقـت الحكومة العثمانيـة العنان للغوغاء مرة أخرى. فبـدأ طلاب المدارس والمجرمون في مهاجمة الأرمن في هاسكوي وطوفان وغَلَطَة. ووقف الجيش والشرطة يتفرجـان، أو يسـاندان المهاجمين. أغلق معظم الناس على أنفسـهم في بيوتهم أو وراء الأبـواب الحديد الثقيلة للخانات. كتب موظف في البنك العثماني يدعى لويس رامـبرت في يومياته: «هوجمت كل بيوت الأرمن ودكاكينهم الصغيرة، ودخلها الناس ونهبـوا كل شيء فيهـا. كان ذلك يحـدث من دون صوت تقريبـا [لأن القتلة كانوا يسـتخدمون الهراوات وليـس البنادق]. وكان كل أرمني يُضبط في الشـارع يُقتل»، حتى في شارع بيرا الكبير. كانت الجثث تنقل بعيدا على عربات. شهد لويس بعينيه قتل مجدفين على قارب كياك أمام حشد كبير فرح على جسر غَلَطَة[39].

كتب ديبلوماسي إنجليزي سجل الأحداث، ما يلي:

> في هذه الأثناء بدأت تظهر عصابات تتكون جزئيا من أراذل السـكان الأتراك في الحـي، وكذلك من أفراد يلبسـون عمائم وعباءات كتانية طويلة لم يُشـاهَدوا في هـذا الجزء من المدينة مـن قبل [طلاب المدارس الدينيـة]. كانوا يقتلون كل الأرمن الذين يقابلونهم في الشـوارع، ونهبوا كثـيرا من الدكاكين في غَلَطَة. غير أن أعمال التخريب كانت أعنف في منطقتي قاسم باشا Kassim Pasha وهاسكوي Hasskoy التـي أبيد كل السـكان الأرمن فيها تقريبـا. وفي المنطقة الأخيرة، أخذ اليهود، الذين كانوا كثيرين جدا هناك، صف الأتراك ضد المسـيحيين... كما رأيت الغوغاء الذين كانوا في حالة معنوية عالية ويضحكون مثل أطفال في نزهة، وهم يندفعون عبر الجسر الذي يربط غَلَطَة بالقسطنطينية، وأصبحت على يقين من أن الجهود المدعاة من جانب الشرطة لنزع سلاحهم كانت مجرد مزحة.

في تجلٍّ صريح لتفاهم أوروبا(*) في شـوارع القسطنطينية، أنزلت السفارات جنود مشـاة وبحرية من السـفن الخافرة، ليس بغرض مسـاعدة الأرمـن، بل بغرض حماية مواطنيها. توجه الترجمانات الفرنسي والبريطاني والروسي إلى يلدز، ومعهم مذكرة تهديد من سـفرائهم و- كبرهان على الأحداث في المدينـة - هراوة وأحد المهاجمين. رد عليهم تحسـين باشـا، كأن القسـطنطينية لا يوجد فيها جنود أو شرطة، بأنه من الطبيعي أن ينتقم المسلمون من الأرمن الذين يهاجمون الأبرياء بالسكاكين والديناميت. قال السفير النمساوي لوزير الخارجية إن الحكومة العثمانية إذا لم تتمكن من الحفاظ على النظام فإن الرأي العام الأوروبي قد يطلب «علاجا». وهدد السـفير الروسي باسـتدعاء السفن الروسية لقصف بيوكدير. وفي مسـاء السابع والعشرين من أغسطس، يقينا بأوامر من الحكومة، سـلم المهاجمون هراواتهم إلى مراكز الشرطة، وعاد العمل، كأن شيئا لم يكن. ومـع ذلك، فقد ظل الثوار الأرمن، لعدة أيام، يرمون القنابل ويطلقون النار على الناس من البيوت. على مدار العام 1896، قُتل في القسطنطينية نحو ستة آلاف شخص[40].

في العامـين 1895و1896، تعامـل السـلطان والثوار الأرمن كلاهـما مع أرمن القسـطنطينية كبيادق من دون اعتبار للحياة الإنسـانية. حذر المسـتشرق ماكس

(*) تفاهم أوروبا Concert of Europe (يسـمى أيضا نظام المؤتمر Congress System): وصف للحالة الأوروبية التـي تلت مؤتمر فيينا، القائمة على التوافق وتوازن القوة، التي سـادت الفـترة من الحروب النابليونية (1815) حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى (1914). [المترجم].

موللر الثوار من أن أفعالهم ستودي بكثير من الأرواح، فردوا عليه بأن «مَنْ يموتون سيموتون وطنيين صادقين وشهداء». واستهجن السفير الفرنسي رغبتهم في الموت بأنها «أحد التجليات الواضحة للشعور القومي»[41].

تفوقت الصحف على السلطان نفسه في تحدي الواقع. وتعبيرا عن اشمئزازهم، رفض السفراء للمرة الأولى في عهد السلطان، أن ينيروا سفاراتهم احتفالا بعيد الجلوس على العرش. وفي الثاني من سبتمبر، ذكرت صحيفة المرصد الشرقي (Moniteur Oriental) أنه على جزيرة بيوكادا Buyukada، قام السفير الفارسي مالكوم خان (Malkum Khan) الأرمني الأصل باعتناق الإسلام، وأن هذا السفير المتزوج من امرأة من عائلة داديان، أقام مأدبة رائعة احتفالا بالمناسبة. ففي مقر إقامته: «غصت الصالونات المزيّنة بالزهور والنباتات النادرة بالحياة المترفة للجزيرة... وتنافست السيدات بزينتهن الجميلة في الأناقة والذوق الرفيع». وفي التاسع عشر من سبتمبر كتبت الصحيفة نفسها: «ليس ثمة مبرر للقلق في الحاضر أو في المستقبل، لأن السلطة العثمانية برعاية صاحب الجلالة السلطان، على أهبة الاستعداد دائما للحفاظ على الأمن والنظام العام». وفي الثامن من أكتوبر 1896، كتبت الصحيفة - بقسوة - أن الأرمن كانوا يغادرون القسطنطينية «من دون حتى أن يأخذوا نصف ثرواتهم». فتحت الصراع السياسي بين السلطان والثوار، كانت هناك حسابات مالية، ذلك أن ثروة النخبة الأرمنية كانت محط اشمئزاز من جانب الأعداء المسيحيين والمسلمين على حد سواء.

كان أحد الأرمن الذين غادروا شابا في السادسة والعشرين من العمر يدعى كالوسته غلبينكيان Calouste Gulbenkian. كان هذا الشاب مستشارا لابن جلدته الأرمني أغوب كازاريان باشا وزير المخصصات الملكية بشأن فرص النفط في بلاد ما بين النهرين. من قاعدته الجديدة في لندن، ظل كالوسته مهتما بالنفط، بمكتبه في دمير خان Demir Han في غَلَطَة. وفي العام 1912، ساعد مع إيرنست ويتال من العائلة التجارية الإنجليزية الشهيرة في تأسيس شركة النفط التركية (العراقية لاحقا) التي ضمت حصصا بريطانية وهولندية وألمانية، بينما احتفظ لنفسه بـ 5 في المائة من حصة رأس المال، ومن هنا سُمي بـ «السيد خمسة في المائة» Mr Five Per Cent عندما بدأت الشركة إنتاج النفط في العراق بعد العام 1927[42].

كان أرتين داديان باشا - ممثل التوليف العثماني - الأرمني الذي أهدر - آخر حلقة اتصال بين القصر والثوار الأرمن. سبق لأرتين ابن أوهانيس بيه داديان Ohannes Bey Dadian المولود في العام 1830، أن عاش في باريس طالبا وديبلوماسيا عثمانيا. حمل أرتين داديان باشا المقتدر والتقي والغني ثلاث هويات. فكان خادما مؤتمنا للسلطان الذي كان يعرفه شخصيا منذ طفولته بسبب زيارات عبدالمجيد المتكررة لعائلة داديان. وخدم في وزارة الخارجية العثمانية وكيل وزارة في العامين 1875و1876 والأعوام 1883-1885 والأعوام من 1885-1901. وكان أرتين كذلك شخصية أوروبية، باشا يتحدث الفرنسية أفضل من الأرمنية ويتلقى أوسمة من روسيا والنمسا وبروسيا وإيطاليا وهولندا واليونان. كان يُستدعى كثيرا إلى يلدز لترجمة آخر البرقيات من أوروبا، ومع اشتداد الرقابة أصبح في العام 1884 رئيس المكتب الذي أنشئ لمراقبة البرقيات الخاصة «الضارة» الآتية من أوروبا. وفي العام 1885، في أثناء زيارة ولي العهد النمساوي الأمير رودولف، أصبحت ابنته يفيكين Yevkine (أوجيني Eugenie) ابنة السابعة عشرة المترجمة الرسمية للحريم السلطاني[43].

كان أرتين داديان باشا أيضا شخصية بارزة في الجالية الأرمنية، إذ ساعد في التوصل إلى دستور العام 1860، وفي الأعوام من 1871-1875 شغل منصب رئيس المجلس القومي الأرمني. كان أرتين الأوروبي والعثماني والأرمني في الوقت عينه واحدا من آخر المدافعين عن الكوزموبوليتانية العثمانية. في كتابه «ضرورة الحفاظ على السيطرة التركية في الشرق» Necessite du maintien de la domination turque en Orient، أثنى أرتين على تسامح الحكومة العثمانية، ودلل على قدرة الإمبراطورية على البقاء بتفضيل بعض المسيحيين ارتداء البراقع واستخدام المحاكم العدلية الإسلامية. وقال في ذلك: «لم تشتهر حكومة في العالم مثل تركيا بمهارتها في إعادة توحيد هذا العدد الكبير من القوميات الشرقية المبعثرة حول العرش الإمبراطوري»، وتحت «سيطرة العرق الإسلامي الفاتح، تبنوا دائما موقفا هادئا من دون أن يتركوا أنفسهم نهبا للحركات الثورية الوحشية والعنيفة التي ضربت - في مرات كثيرة - الدول الأوروبية المكوّنة من أمم متباينة متنوعة مثل تركيا». فقد رد كثير من العثمانيين إبان النصف الثاني من القرن التاسع عشر على الغطرسة الأوروبية بإبداء الشفقة والازدراء لتفشي الاشتراكية والفوضوية في أوروبا الغربية، لكنهما لم تصلا إلى «ممتلكات السلطان المحروسة».

وفي العـام 1896 عيّن السـلطان أرتين داديان باشـا رئيسـا للجنة لحـل النزاع بين الإمبراطوريـة والثـوار الأرمن. وبعد أن ضمن العفو عن ألف ومائتي سـجين سـياسي وإطلاق سراحهم، أرسـل أرتين ابنه إلى جنيف للتفاوض مع المنفيين. قال أرتين إنه يعمل من أجل الإصلاحات في الشرق «كمسـؤول حكومي عثماني وكأرمني في آن معا». وعندما ابتسـم أحد الراديكاليين الأرمن من قوله، قال له: «أعرف أنكم أيها الأرمن الشـباب لا تصدقـون وطنيتي وتعتقدون أنني تركي متطرف. وهذا خطأ. أنا أعرف أن خوفهم ليس بلا أسـاس كليـا، واقتناعي هو أنه في موقف عصيب كهذا الذي تمـر به أمتنا الضعيفة، يكـون من واجبنا أن نعمل بإخـلاص للدولة وأن نخاف من الحـركات الثورية حتى لا نتكبـد عقوبات فظيعـة». وأنهى حديثه بصرخة من القلب: «وطنية متعقلة، أليسـت وطنية هي الأخرى؟».

في رسالة في العام 1898 موجهة إلى حزب الطَشناق، كان أرتين صافيا ونبوئيا:

> أرى أننـا اليـوم لا نمتلك غير الصـبر والتحمل. أولا، تُظهـر أوروبا نحونا لامبـالاة كاملة وتقول إنه لا توجد قضية أرمنيـة لأن مصلحتهم تقتضي ذلك. ثانيـا، لم يزُل تهديد الإبادة الكاملـة للأمة الأرمنية كليا بعد. ثالثا، أُنهك الناس من الأعمال الثورية وأصبحوا مسـتعدين لتسـوية خلافاتهم مع الحكومة لكي يأمنـوا من الأحداث البشـعة التي تكاد تبيد شـعبنا من فـوق وجه الأرض. رابعـا، تقاتل التنظيمات المختلفة من أجـل قضايا مختلفة، كل بطريقته، وفي وسـط كل هؤلاء يقف أرتين باشـا الضعيف، من ناحية يسـتعطف السلطان ويسـترحمه بالأرمن بالقول له إن ذلك من مصلحة إمبراطوريته، ومن الناحية الأخرى يحارب أناسا أخساء لا يتورعون عن بيع أمتهم من أجل بلوغ أهدافهم الأنانية... أعتقد أنه من المناسـب، كما قلت من قبل مرارا وتكرارا، أن يسـوي شعبنا خلافاته مع السلطان[44].

وعـلى أي حال، فإن الثوار الأرمن كانـوا يؤمنون بالعدالة والانتقام، وليس التعقل. وحاولوا في العام 1897 أن ينسفوا مجلس الوزراء، وفي العام 1903 أن يغتالوا البطريرك الأرمني. وفي مراسم السلاملك في الحادي والعشرين من يوليو من العام 1905، أخطأت قنبلة ركبها الطَشـناقيون في إحدى المركبات، السلطان ببضع دقائق. وفي طريق عودته من المسجد إلى القصر، بدا السلطان غير مكترث للهجوم ولا لهتافات الحشود[45].

وإلى جانب الكارثة الأرمنية، يضيف تطور الألبان مثالا آخر لتمكن النزعة القومية من الجميع. ففي العام 1878، وقعت ثورات مطالبة بالحكم الذاتي في بعض المناطق الألبانية. ساعد الإخوة فراشيري، أبناء وجيه ألباني سبق أن انتقل إلى القسطنطينية، في نشر القومية الألبانية. ففي العام 1879، ظهرت في القسطنطينية لفترة قصيرة لجنة مركزية للدفاع عن حقوق القومية الألبانية بقيادة عبديل فراشيري Abdyl Frasheri النائب السابق في البرلمان العثماني. وعلى رغم أن ابنه مدحت فراشيري Midhat Frasheri كان يعمل في الباب العالي، فقد كان قوميا ترجم إلى الألبانية حياة بطل قومي لشعب آخر من شعوب الجبل كافح من أجل الاستقلال، هو وليام تل(*).

غير أن سامي Sami شقيق عبديل فراشيري، ظل ألبانيا وعثمانيا في آن معا. ولد سامي في العام 1850، وجاء إلى القسطنطينية في عمر الثانية والعشرين. وسامي الذي كان حتى نهاية حياته يُعرَف في اللغة العثمانية باسم شمس الدين سامي Shemseddin Sami، ظل موظفا حكوميا عثمانيا. كان سامي أحد المُسْتَترِكين البارزين من عصره، ألف أعمالا باللغة التركية مثل «المعجم الشامل للتاريخ والجغرافيا» Universal Dictionary of History and Geography (القسطنطينية، 1894) وقاموس تركي - فرنسي(**). غير أنه مع ذلك، كان يتواصل سرا مع النشطاء في ألبانيا وفي الخارج، وأصبحت الجمعية الأدبية الألبانية Societe des Lettres Albanaises التي أسست برئاسته في القسطنطينية في العام 1879، بؤرة للقومية الألبانية. كان الأعداء في نظر أعضاء هذه الجمعية يتمثلون في اللغة اليونانية واللغة العثمانية. وصار أي شخص يستخدم الأبجدية اللاتينية المعدلة التي أعدها سامي فراشيري بدلا من الأبجدية اليونانية، عرضة للحرمان الكنسي من جانب البطريرك المسكوني. ويعد كتيبه

(*) وليام تل William Tell: بطل فولكلوري سويسري سجلت أسطورته في التأريخ السويسري لأواخر القرن الخامس عشر، إبان الفترة التأسيسية لأقدم كونفدرالية سويسرية. تقول الأسطورة إنه قتل الطاغية غسلر Gessler الرايف (الحاكم) الهابسبرغي في مقر حكمه في ألتدورف بوسط سويسرا الحالية، وأصبح بطلا قوميا يستدعى في الشدائد القومية. [المترجم].

(**) Dictionnaire Turc-Francias par Ch. Samy-Bey Fraschay. Approuve par la Commission du Minister de l'Instruction Publique. Constantinople Imprimerie Mibran. Rue de la Sublime Porte No. 7. 1885.

«ألبانيــا الماضي والحاضر والمســتقبل» Albania, what she was, is and will be (نُشر في العام 1899 في بوخارســت) دعــوة إلى مجلس تشريعي من غرفتين ورئيس وزراء لألبانيا يرشــح من القســطنطينية، ما يؤدي في النهاية إلى استقلال ألبانيا كجمهورية. وفي تلك السنة وُضع قيد الإقامة الإجبارية.

كتــب أخوه نعيم فراشــيري Naim Frasheri الذي كان يعمل في الســكك الحديد العثمانية، قصائد في مديح اكسندربيرغ البطل الألباني المعادي للعثمانيين إبان القرن الخامس عشر[*]، وسعى إلى إزالة العناصر الأجنبية من اللغة الألبانية. وفي كل يومي جمعة وأحد كان الأصدقاء يجتمعون في بيته في الضواحي لمناقشة الأدب الفارسي والاستقلال الألباني. وهكذا، فبحلول العام 1900، كان أبناء الوجيه الألباني أصحاب الامتيازات الذين لقوا معاملة حسنة من الإمبراطورية العثمانية، قد انقلبوا عليها. وعلى ضفاف البسفور، حلموا بـ «تحرير» وطنهم[46].

كانــت القوة الصاعدة في البلقان هي بلغاريــا التي حكمها من العام 1887 الأمير فردناند الكوبيرغي Ferdinand of Coburg المقتدر والطموح. ونظرا إلى كونه اســميا تابعا للعثمانيين، فقد زار القســطنطينية في العام 1896، قبل ستة أشــهر من المذابح الأرمنية، لنيل اعتراف السلطان به أميرا حاكما، وهي الخطوة اللازمــة لإضفاء الشرعية عــلى حكمه في أوروبا. وفي آيــا صوفيا، وقف عن عمد على لوح الحجر الســماقي الــذي كان الأباطرة البيزنطيــون يُتوَّجون فوقه، لأن بلغاريــا كانت مجرد خطوة في حلمه الأكبر: بيزنطة. تفسر الطموحات البلغارية، إلى جانب الأعمال الوحشــية البلغارية في مقدونيا، السبب الذي جعل السلطان ينصح الأمير نيقولاس اليوناني على العشــاء في يلدز في العام 1900 بصوته الناعم الحنون: «عدونا واحد»[47].

(*) أخذ اكســندبيرغ Scanderbeg (من اســمه العثماني اســكندر بيك) (من 1405 إلى 17 يناير 1468) رهينة من عائلة كاســتريوتي Kastrioti في العام 1423 في عهد الســلطان مراد الثاني والد محمد الفاتح، واعتنق الإســلام وخدم الإمبراطورية عشرين عاما. وعندما عُيِّن حاكما لســنجق ديبرا، ارتد إلى المســيحية وانفصل عن الإمبراطورية في العام 1443، ونظــم تحالف الشــعب الألباني، وحكم أجــزاء من ألبانيا، ودافع عن حكمه ضد الإمبراطورية طوال خمســة وعشريــن عاما، وأخضع ملكه لمملكة نابولي، وعُــيِّن قائدا عاما للحملة الصليبية التي خططها البابا بيوس الثاني لكنها لم تنفذ بســبب وفاة البابا، وتحالف مع البنادقة في الحرب العثمانية- البندقية في الأعوام 1463 - 1479 حتى وفاته. يعد في أوروبا الغربية مثالا للمقاومة المسيحية للمسلمين العثمانيين. [المترجم].

بينـما اختار بعض الأرمـن والبلغاريين طريـق العنف، كان معظـم اليونانيين مزدهريـن وأثرياء إلى درجة ردعتهم عن القتال من أجـل «الفكرة الكبرى»(*)، إذ شـعروا بأن العثمانيين مع أنهم كانوا يتمتعون بالسيادة الاسمية، فإن اليونانيين من خلال بنوكهم وتجارتهم كانوا الحكام الفعليين. وبتعبير أحد رجال الأعمال اليونانيين: «إننا نعطيهم حيوية ذكائنا ومهاراتنا في التجارة، وهم يحموننا بقوتهم مثل عمالقة طيبين ... لدي يقين واحد، وهو أن المسـتقبل لليونانيين، صحيح أنه بعيد بلا شـك، لكن الشـعب يمكن أن ينتظر»، حتى إن سـكرتيرا بالمفوضية اليونانية يدعى جون دراغوميس Jon Dragoumis كان يعمل مع «تنظيم القسطنطينية» القومي اشتكى من قلة الاهتـمام من جانب يونانيي المدينة. لقد تمـشرق(**) بعضهم حتى إنهم صاروا يرسـلون أبناءهم إلى المدارس الكاثوليكية: «سيظل الملك المرمري مرمريا إلى الأبد ... إننا نفقد المدينة تماما»[48](***).

لم تؤثـر حـرب يونانية - تركية قصيرة في العام 1897 عـلى العلاقات اليونانية - العثمانية في المدينة، على رغم أن بعض اليونانيين القسـطنطينيين حاربوا في الجانب اليوناني. ربح الجيش العثماني هذه الحرب بسـهولة. كانت لوحة باسـم «الهجوم» The Attack، رسمها رسـام البلاط فوستو زونارو، تعرض تصويرا تخطيطيا للقوات العثمانية التي تقتل اليونانيين، معلقة في غرفة انتظار السفراء في قصر دولمة بهجت. وفي العامـين 1895 و1896 ترك عبدالحميد الشـوارع تسـبح في الدماء. وفي العام 1897 عزز الدوريات في المدينة، وضمن عدم الإخلال بالنظام العام. وفي تلك السنة، تلقى البطريرك الذي زار يلدز لتهنئة السـلطان بعيد جلوسـه على العرش، وشـاح نظام عثمانية Osmaiye الكبير[49].

(*) الفكـرة الكـبرى Great Idea (باليونانية Megali Idea): هي المفهوم التحـرري والوحدوي المعبر عن القومية اليونانية الطامح إلى إقامة دولة يونانية تضم اليونانيين في كل المناطق اليونانية، بما في ذلك المناطق التي بقيت تحت الحكم العثماني بعد استقلال اليونان في العام 1830. [المترجم].

(**) تمشرق levantinized أي صار مشرقيا، بما يميز المشرق من تعددية وتنوع وتعايش. [المترجم].

(***) تذكر الأسـطورة، التي راجت بـين اليونانيين بعد الفتح، أن الكاهن الذي كان يقيـم القداس الذي قطعه الفتح قد تخفى في شـكل عمود مرمري بالكنيسة، وأنه حين تأتي سـاعة التحرير، سيخرج من مخبئه بوجه متألق وفي يده كأس ويسـتأنف القداس. وتقول الأسـطورة أيضا إن الإمبراطور الأخير لم يمت، بل تحول إلى مرمر وأخذ ينام في كهف في باطن الأرض تحـت الباب الذهبي للمدينة الذي كان النقطـة التقليدية لدخول الأباطرة البيزنطيين المنتصرين، وإنه في يوم من الأيام سيسمع نداء من السماء ويعطيه أحد الملائكة سيفا ويعيده إلى الحياة ويمكّنه من طرد الأتراك بعيدا. [المترجم].

تجمدت ذاكرة خليفة هذا البطريرك إلى هذا اليوم. فبالنسبة إلى صحافي زائر، كان «البطريرك الحالي جوكيم الثالث - بلا استثناء - أكثر الشخصيات التي قابلتها وقارا على الإطلاق. فجسده الضخم في ردائه الأزرق البسيط يعلوه رأس نبيل بلحية تقليدية متدفقة من النوع الذي يميّز رجال الدين الشرقيين. وحتى العرج الطفيف الذي بدا في مشيته عبر الغرفة حين همّ لمقابلتي، فيه سيماء الجلال والروية». بدلا من مواجهة السلطات العثمانية، تعاون البطريرك معها. وفي تعبير معماري عن تصاعد مد «الهلينية» في القسطنطينية، حصل البطريرك على إذن بفتح أيازما أي عين مقدسة في حائط قصر توبكابي في مقابل الباب العالي. كما استعاد البنايات البطريركية في الفنار ووسعها. وكما كانت الحال في بداية الإمبراطورية، عاد البطريرك يُستقبَل مجددا من جانب السلطان شخصيا الذي ميّزه فوق ذلك بمخاطبته باللغة اليونانية. وفي الاحتفال الإسلامي الكبير المسمى عيد السكر(*) الذي يلي شهر رمضان، كان جوكيم الثالث يزور عزت باشا في يلدز لتقديم تهانيه وتأكيداته على رضا الجالية اليونانية. (جرت العادة حتى نهاية الإمبراطورية على أن يدوّن المسؤولون - أيا كان دينهم - تواريخ كل الأعياد الدينية للملل الأخرى). ورد السلطان بأن أرسل إلى البطريرك خصيا يحمل رسائل الرضا وتذكارا للحظوة عبارة عن حبة أناناس زُرعت في صوبة في القصر. رفع البطريرك حبة الأناناس إلى شفتيه وقبلها وكرر ذلك، وذلك في الثقافة التركية تعبير عن ولاء الأمة اليونانية وامتنانها لزعيمها[50]. لم تكن هذه الإيماءات والعبارات صادقة في حقيقة الأمر، لكنها كانت تأكيدا - من الجانبين كليهما - على قبول الوضع الراهن.

وإلى جانب الولايات البلقانية، كانت القوى العظمى تتخذ موقفا عدوانيا متصاعدا نحو الإمبراطورية العثمانية. كانت بريطانيا واثقة بقدرها الإمبريالي، كما كانت الإمبراطورية العثمانية قبل ذلك. وقد أكدت ادعاءها بالأحقية في الخليج العربي، وكانت في الوقت عينه تزيد قوتها في مصر التي احتلتها في العام 1882. حيّد الاحتلال البريطاني للقاهرة المنافس الأساسي للقسطنطينية على قيادة العالم

(*) عيد السكر (Seker Bayrami أو Sheker Bayram): هو المقابل التركي لعيد الفطر في اللغة العربية، سُمي كذلك لأن الأتراك يستعدون له بصنع الحلوى من نوع البقلاوة، فرحا بانتهاء رمضان. [المترجم].

الإسلامي. غير أنه أيضا جعل القاهرة بؤرة السياسة البريطانية في الشرق الأوسط. ومع وجود مصر «عصفورا في اليد»، لم تعد القسطنطينية في أهميتها السابقة للدفاع عن طريق بريطانيا إلى الهند. وبعد وقوع المذابح الأرمنية الأولى في العام 1895، رفض مجلس الوزراء، على الرغم من إلحاح رئيس الوزراء لورد ساليسبيري، المخاطرة بالحرب مع روسيا من خلال إرسال الأسطول إلى البسفور.

أما روسيا، الواثقة هي الأخرى بقدرها الإمبريالي، فلم تتخلَّ عن مخططاتها للقسطنطينية. وبداية من العام 1882، كان السفير الروسي لدى الباب العالي نليدوف (Nelidov) يدعو دوما إلى إبرار مفاجئ في بيوكدير والزحف على المدينة لتحويلها إلى «جبل طارق» روسي(*). وفي أثناء زيارة له إلى بالمورال(**) في العام 1896، كشف القيصر نيقولاس الثاني أيضا عن طموحه إلى أن تستولي روسيا على «المفتاح إلى بابها الخلفي»: القسطنطينية. ولم يبدِ لورد ساليسبيري معارضة شديدة(***). وبعد أربع سنوات اتفق وزراء القيصر على أن الاستيلاء على البسفور كان «المهمة الأولى لروسيا إبان القرن العشرين»، على أن الظرف لم يكن مواتيا بسبب ضعف مالية روسيا وأسطولها في البحر الأسود(51).

تمثل رد السلطان على التهديدات الموجهة إلى إمبراطوريته في تركيز السلطة في يده أكثر وأكثر، وفي استضافة صديق جديد في يلدز، هو الكشك الجديد المسمى كشك الشاليه Chalet Kiosk الذي أكد عظمة الإمبراطورية العثمانية وحداثتها ووقوفها على قدم المساواة مع القوى التي كانت متلهفة لالتهامها. لايزال هذا الكشك في حالة جيدة إلى اليوم، ولا يزوره الناس إلا نادرا، ما يجعل الزوار لا يجدون صعوبة في تخيل أنهم ليسوا سياحا في العقد الأخير من القرن العشرين، بل ضيوف على السلطان قبل مائة عام. بدأ كشك الشاليه كشاليه سابق التصنيع نُصِب في العام 1880. وأضاف إليه سركيس باليان بيه أجنحة جديدة في العام 1889، ثم

(*) في مقابل سيطرة بريطانيا على منطقة جبل طارق الواقعة في أقصى جنوب شبه جزيرة أيبيريا على مدخل البحر الأبيض المتوسط، التي لاتزال تسيطر عليها إلى اليوم. [المترجم].

(**) بالمورال Blamoral: قلعة في أسكتلندا كانت مقرا للأسرة الحاكمة البريطانية منذ العام 1852 حين اشتراها الأمير ألبرت زوج الملكة فيكتوريا. [المترجم].

(***) لاقت مخططات روسيا للقسطنطينية قبولا واسعا. من ذلك أنه في العام 1915 كتب رئيس الوزراء البريطاني أسكويث Asquith أن «المصير الصحيح» للقسطنطينية هو أن تصير روسية.

ريموندو دارنوكو في العام 1898. وعلى الرغم من اسمه الألبي(*)، فقد كان الشاليه قصرا عثمانيا فخما مكوّنا من ستين غرفة ومقسما وفقا للتقاليد إلى قسمين: حرملك للحريم وسلاملك للذكور. يزدان كشك الشاليه بأثاث كثيف على الطراز الأوروبي (نحت بعضه السلطان بنفسه) وأرضيات باركيه، ومنسوجات زهرية متقنة، وألواح حوائط بأسلوب الركوك المُحْدَث. أما الزهريات وطسوت الغسل فإنها مصنوعة من خزف يلدز. فقد ورث السلطان الذي كان يستخدم منظارا مزخرفا بالذهب ويأكل بعيدا عن الأعين بسكين وشوكة من الذهب، التذوق العثماني للترف. وكان يستضيف ضيوفه على العشاء في القاعة الزرقاء ذات الأبواب المرصعة بعرق اللؤلؤ والأسقف ذات الطراز الإسلامي المُحْدَث ومفروشات الكراسي الحريرية الزرقاء المذهلة المصنوعة في المصنع الإمبراطوري في هاراكا والثُريات القوطية. وكما هي الحال في بعض الغرف المزيّنة بالأرابيسك بالألوان الحمراء والزرقاء والذهبية الوهاجة في القصور العثمانية المتأخرة الأخرى، تعطي هذه الغرفة الإحساس المُلَغّز لتماثيل تَدمُر أو قندهار، إحساس اجتماع الشرق والغرب في المصنوعات نفسها[52].

كان السبب وراء توسيع الكشك هو الحاجة إلى إسكان حليف السلطان الجديد القيصر الألماني الذي زار القسطنطينية في العامين 1889 و1898. أخيرا، أعطى التحالف مع ألمانيا الإمبراطورية حليفا أوروبيا ليست له طموحات إقليمية في المنطقة. ثمة نصب تذكاري معماري آخر لهذا التحالف تمثل في محطة السكة الحديد ذات المظهر الأوروبي الشمالي الواضح في منطقة حيدر باشا على الجانب الآسيوي من البسفور. بُنيت هذه المحطة لتكون نقطة النهاية لخط السكة الحديد برلين - بغداد(**) الذي شُيّد بتشجيع من القيصر وتمويل من البنك الألماني Deutsche Bank شبه الرسمي. وبحلول العام 1908 وصل خط السكة الحديد إلى أطنة. عزز هذا الخط السيطرة العسكرية للسلطان على إمبراطوريته، إذ غدا نقل القوات أسهل كثيرا عن طريق القطار، فضلا عن أنه جلب الحبوب إلى القسطنطينية من مصدر جديد هو سهول الأناضول.

(*) كلمة شاليه Chalet كلمة سويسرية، حتى إن هذه البناية الخشبية تسمى أيضا الشاليه السويسري Swiss Chalet، حيث نشأت في سويسرا وتوسعت في منطقة جبال الألب الأوروبية. [المترجم].

(**) يعرف هذا الخط في ألمانيا أيضا بالاختصار BBB أي خط برلين - بيزنطة - بغداد.

تمثل أحد الأسباب وراء نجاح الصداقة الألمانية - العثمانية في مهارة وكياسة الترجمان الأول بالسفارة الألمانية تشارلز دي تيستا Charles de Testa الذي كان آخر فرد من عائلته يؤدي دورا بارزا في المدينة. كان منتصف القرن التاسع فترة عنفوان عائلة تيستا. ففي القسطنطينية خلال العقد الخامس من القرن التاسع عشر عملوا ترجمانات للنمسا وبروسيا والسويد وهولندا وتوسكانيا وعمل أحدهم سفيرا لهولندا، وأحدهم سكرتيرا لرشيد باشا، وأحدهم النائب الأسقفي العام للبابا. غير أنهم بعد العام 1850 تحولوا هم أيضا نحو القومية الأوروبية الحديثة. وفضلت فروع من العائلة أن تغادر القسطنطينية وتعيش في فرنسا أو النمسا أو هولندا.

وعلى الرغم من أن تشارلز دي تيستا بقي في المدينة، فقد كان يخدم ألمانيا، وحصل على الجنسية الألمانية. كعضو مؤسس لحلقة الشرق، كان تشارلز يزور يلدز يوميا، ويعمل «بالصبر والمرونة والحيل الشرقية لترجمان عظيم من المدرسة القديمة». وكرئيس لشركات سكك حديد الأناضول وبغداد وسالونيك - القسطنطينية، ومدير لشركة ميناء حيدر باشا والممثل الألماني بمجلس إدارة الدين العام العثماني، كان يقاتل بحماسة من أجل المصالح الاقتصادية الألمانية، وأحيانا ضد الحكومة العثمانية. كانت وزارة الخارجية الألمانية تثمّن دوره عاليا (وصفه المستشار الأمير فون بولو (von Bulow) بأنه «أحد أفضل المرجعيات في الشأن التركي»)، حتى إنه عندما غدت المغرب البؤرة الديبلوماسية للقوة العظمى، رُقي إلى ممثل ألماني في طنجة[53].

وبعد العام 1898 واصل قصر يلدز التوسع. فبُنيت مدرسة لمهندسي السكة الحديد، تشغلها حاليا جامعة يلدز، على أحد جوانب تل يلدز. ومثل الفاتح الذي بنى مقصورات تمثل الممالك المختلفة في حديقة قصر توبكابي، بنى عبدالحميد في متنزه يلدز مقصورة يابانية سميت القرية الصغيرة Petit Trianon، وكذلك بنى مقصورة فارسية تكريما لزيارة من شاه فارس الجديد. وبنى ريموندو دارنوكو في الأعوام 1895- 1900 إسطبلات جديدة لخيول السلطان العربية البيضاء، وقد جاءت أبنيتها توليفة مميّزة من أسلوب الفن الجديد والأسلوب القوطي المُحْدَث. وجاء المسجد والنافورة التذكاريان لمستشار السلطان الديني لشمال أفريقيا الشيخ ظافر

في أسفل تل يلدز، اللذان بُنيا في العام 1903، نسخة مصغرة من مبنى الانشقاق في ڤيينا(*)، لولا نقش طغراء عبدالحميد عليهما. وبحلول العام 1908، وفقا لأحد التقديرات، كان اثنا عشر ألف شخص يسكنون مدينة القصر. ومن دلائل كثرة الطعام الذي كان يعد في مطابخ القصر أن الطباخين بنوا لأنفسهم بيوتا من الأرباح التي حققوها مّن بيع بقايا الطعام[54].

أصبح يلدز قويا جدا إلى درجة أن «القصر» و«الباب العالي» كانا يُشبَّهان أحيانا بدولتين منفصلتين، حتى قال فريد باشا (Ferid Pasha) الصدر الأعظم من العام 1903 إلى العام 1908 الذي كان مُمَزقا بين الاثنين إنه خير له أن يكون حمّالا على أرصفة ميناء غَلَطَة على أن يظل الصدر الأعظم. تبنى القصر والباب العالي موقفين مختلفين من سيادة القانون. استوعبت عائلة بدر خان (Bedir Han) من وجهاء الأكراد الأغنياء والأقوياء التي جلبها السلطان إلى المدينة، العادات الحضرية، من دون أن تفقد عاداتها. حين سألته شريكة في لعبة البريدج عما إذا كان الأكراد لصوصا، رد عليها عبدالرزاق بدر خان (Abdul Razzak Bedir Han) رئيس التشريفات في يلدز بالقول: «مدام، نحن قطاع طرق إن شئتِ، لكننا لسنا لصوصا». وفي العام 1906، وبعد نزاع بين حاكم القسطنطينية واثنين من عائلة بدر خان، وُجد الحاكم مقتولا بالرصاص على رصيف السكة الحديد. وكان مما أثار غضب حكومته أن السلطان، بلا محاكمة مستوفية الإجراءات، نفى عائلة بدر خان فقط.

كان حفيد مرضعة السلطان يدير إحدى فرق الشرطة السرية، وهو شخص بدين وردي الخدين مضطرب عقليا يدعى فهيم باشا (Fehim Pasha). كان رجاله يعذبون كلا من الرجال والنساء ويبتزونهم ويختطفونهم. وأخيرا، عندما تعرض الرعايا الألمان لهذه المعاملة، قام السفير الألماني بارون مارشال فون بيبرشتاين (Baron Marschall von Bieberstein) وزير الخارجية الألماني السابق الأطول قليلا من ست أقدام والعريض المنكبين الذي كان معروفا باسم «عملاق البسفور»، بمواجهة السلطان بأدلة على جرائم فهيم باشا، فنفاه السلطان إلى بورصة[55].

(*) مبنى الانشقاق Secession Building: قاعة عرض بناها في ڤيينا جوزيف ماريا أوبريخ Joseph Maria Olbrich في العام 1897 كبيان معماري لانشقاق ڤيينا بالمعنى الفني والمعماري عن المؤسسة الفنية القديمة. [المترجم].

كان نقص المال مشكلة أخرى. ومنذ العام 1879 حدث صراع رباعي على السيطرة على العائدات العثمانية بين السلطان والبنوك وحاملي السندات الأجانب وإدارة الدين العام التي أنشئت في العام 1881 لإدارة الديون العثمانية. أُجْبِر السلطان على تأجير جزء من عائدات الجمارك والضرائب على الملح والتبغ، أولا لظريفي، ثم مافروغورداتو وكاموندو، ثم لإدارة الدين العام. قدمت إدارة الدين العام التي قامت بعملها في بناية تركية مُحْدَثة ضخمة بالقرب من البازار، العونَ للحكومة في الحصول على قروض جديدة بشروط أفضل، كما عَرّفت الكثير من الأتراك على الإدارة الحديثة. غير أنها كانت معنية في الأساس «بفتح» الاقتصاد العثماني لمصالح المستثمرين الأوروبيين والسيطرة عليه. وكان الأجانب، وبالدرجة الأولى البريطانيون والفرنسيون، هم من يقومون على إدارتها، وكان من حق الممثل العثماني عثمان حمدي بيه أن يحضر اجتماعات مجلس الإدارة، لكن من دون أن يكون له حق التصويت. وبحلول العام 1912 كان يعمل بها أكثر من خمسة آلاف وخمسمائة موظف دائم، وهو عدد أكبر من عدد العاملين في وزارة المالية نفسها[56].

طوال عهد عبدالحميد ظلت نفقات الحكومة أعلى من إيراداتها. ويوميات لويس رامبرت حافلة بالإشارات إلى الخزانة «الخاوية» و«العيش يوما بيوم» والعجز عن دفع رواتب الجند. في رواية كانت شهيرة في السابق تقوم على حياة إدغر فنسينت بعنوان «الرجل الذي قتل» **L'Homme qui assassina**، كتب كلود فارير (Claude Farrere) أنه «بين البنك والدَّين يتدلى القرن الذهبي مشنوقا». هددت أسقف بناية الدين العام قباب القسطنطينية ومآذنها. وكان اليونانيون والسوريون والأرمن واليهود يحتشدون للقتال. وكانت الإمبراطورية دولة مدمرة. وفي العام 1907، ومن أجل تحديث الميناء، أجبر المستثمرون الأجانب الحكومة على حظر الممارسات التقييدية التي كانت تتمتع بها طائفة عمال الميناء. وبذلك قُطِعت حلقة اتصال حيوية بين الناس والقصر[57].

كان مظهر السلطان يرمز إلى ضعف إمبراطوريته. فبالنسبة إلى هرتزل بدا السلطان ضعيفا، بلحية مصبوغة، وأسنان صفراء طويلة، وأذنين بارزتين، وصوت شكاء. كان يشبه قائد مدينة محاصرة. وكانت قواته قريبة من التمرد،

ونصف السكان في حالة من الفتنة، ومبعوثو القوات المحاصِرة موجودين داخل أسوار المدينة.

كانت الثورات في الولايات سببا آخر لإزعاج يلدز. ففي كل يوم تقريبا على مدار العام 1896، كانت تأتي أخبار عن اضطرابات في جزيرة كريت وثورة في لبنان وغارة للأرمن من روسيا على شرق الأناضول. وبعد العام، أقضّت مضاجع القصر وسفارات أوروبا المسألة المقدونية، بمعنى كيف يمكن أن تُحكَم منطقة يقطنها ويتنافس عليها المسلمون واليونانيون والبلغاريون والصرب والألبان[58].

أضفى جو الحكم المطلق الضعيف وممارســاته على القسطنطينية هالة من الــشر. كانت المدن الأوروبية الكبرى الأخــرى، خاصة منذ الثورة الصناعية، يتهم كل منها كثيرا بأنها بابل جديدة، شريرة بسبب فسادها وفقرها وقبحها وزحامها. من ذلك على سبيل المثال ما كتبه شيلي من أن «جهنم مدينة تشبه لندن كثيرا». وأكسبها الضباب الدخاني والمرض أسماء مثل «الكيس الدهني الكبير» the great wen و«الدخــان» smoke و«الخــراب». وأطلق لــو كوربوزيه Le Corbusier على باريس اسم «السرطان»[59]. وفي المقابل، أنقذ القسطنطينية جمالها الذي لا خلاف عليه وغلبة الحدائق عليها وندرة المصانع فيها، من أمثال هذه الانتقادات. بيد أن الناس والحكومة هما اللذان لوّثا سمعتها.

كتــب لويس رامبرت: «لا يوجد مــكان آخر توافرت فيه لمفاســد الناس أرضية خصبــة للازدهــار» مثل القســطنطينية. وأبدى طالب مســلم ورع نشــأ في جبال كردســتان رد فعل مماثلا، هو بديع الزمان ســعيد نــورسي (bediuzzaman Said Nursi) الــذي قــال «كنت أتخيل أن دار الخلافة ســتكون مكانا جميــلا. وأتيت إلى القســطنطينية [في العام 1896] ورأيت أن الكراهية التي يكنها الناس بعضهم لبعض جعلتهم جميعا همجا في لباس حسن المظهر ... رأيت وفهمت أن الأمة الإسلامية كانت متخلفة جدا عن حضارة عصرنا». جاء أشــد النقد للمدينة من الشــاعر توفيق فكرت (Tevfik Fikret) الذي كان محرر المجلة الثقافية العظيمة «ثروة الفنون» Servet i Funun قبل أن يصبح أســتاذا للأدب التركي في كلية روبرت. قبل مائة وسبعين عاما، كان نديم (Nedim) قد شــبّه القسطنطينية بالشمس التي تدفئ العالم بأكمله. أما توفيق فكرت فقد وصفها بأنها مدينة يكسوها الضباب: هذا الحجاب يليق بكِ تماما

يــا عالم كل المظالم، يا مهد الروعة والعظمة ولحدهما». كانت ملكة الشرق الجذابة إلى الأبد في حقيقتها مشعوذة خَرِفة مسممة بالنفاق والحسد والجشع. كانت مدينة الجواسيس والشحاذين والخوف والكذب والظلم والخزي:

> احجبِي نفسكِ إذن أيتها المأساة، نعم احجبِي نفسكِ يا مدينة.
> احجبِي نفسكِ ونامِي إلى الأبد، أيا عاهرة العالم.
> إنه تلويح قاس إلى الاسم العثماني للمدينة ملاذ العالم[60].

أعجــب الشريف علي حيدر بجمال القســطنطينية: صوت حفيف الرياح وهي ترتطم بأشــجار الصنوبــر كما ترتطم الأمواج بشــاطئ البحر، وحياتــه الهادئة مع زوجته الثانية إيزوبيل دون وأطفالهما، والقراءة وعزف الموســيقى وركوب الخيل في الأرياف. غير أن كراهيته للنظام قلبت حبه للمدينة: «بدأت القسطنطينية تخنقني وقد سئمت المكان الذي تمارس فيه كل أنواع الوحشية العقلية والمادية»[61].

كان أحمــد وفيــق عثمانيا مخلصا. بعــد أن قضى أربع ســنوات ناجحة حاكما لبورصة في الأعوام 1879-1882، عاد إلى القسطنطينية. وبعد أن شغل منصب الصدر الأعظم مرة ثانية لثلاثة أيام اعتزل في بيته الواقع في روملي حصاري الذي مات فيه في العام 1891 عن ســبعين عاما، وكان أحد الباشــوات القلائــل الذين ماتوا فقراء. وأحمد الذي كان يرتدي بردا تقليديا وطربوشــا مربعا من عهد محمود الثاني، قال لولفريد بلنت في العــام 1884 إن عبدالحميد يجب أن يعزل: «إنه بائس ومجنون. لقد أجنه الخوف والغيرة... ولا يهتم إلا بالمكائد وأن يظهر أذكى من كل من يقابلهم وأرجح منهم رأيا...»، بيد أن الســلطان لم يكن مجنونا. فقد أدخل تحســينات على إمداد المياه إلى المدينة (الذي كان في العام 1900 أفضل منه في العام 1995)، وأعاد فتــح جامعتهــا، وضاعف عدد المدارس. حتى رفضه للتصنيــع جعل حياة رعاياه في رأي لوتي بيير أشــبه بالعصر الذهبي مقارنــة بحياة عمال المصانع في الغرب. ويقدّر المؤرخــون الاقتصاديون أن الأجور في القســطنطينية لم تكــن أدنى كثيرا عن المملكة المتحدة، بالنظر إلى الفارق في نفقات المعيشــة. وإذا كانت النخبة العثمانية إجمالا قد كرهت الســلطان، فإن الفقراء والأقليات (ما عدا الأرمن) قد أيدوا الحاكم الذي «كانت أعماله الخيرية مضرب المثل والذي اهتم برعاياه بقدر ما مكّنته ســلطته». كــما أنه تجنب الحروب والإفلاس. غير أن حكمه المطلق التقليدي لم يكن بديلا عن التحديث والتصنيع المنظمين اللذين أخذت بهما اليابان في عصره[62].

أحمد وفيق باشا. شغل أحمد وفيق باشا، الذي عمل وسيطا ثقافيا مهما بين القسطنطينية والغرب، منصب الصدر الأعظم مرتين. يرتدي الباشا الإسطمبولين، وهو اللباس القياسي للنخبة العثمانية من العقد الخامس من القرن التاسع عشر حتى أوائل القرن العشرين.

كانت القسطنطينية في السابق مدينة تستقبل المنفيين. وها هي تصبح مُورّدا لهم. وقعت أول مؤامرة لتنظيم «تركيا الفتاة» في الكلية الطبية العسكرية في العام 1889، وقُمعت بسهولة. وانتشرت سلسلة من الجمعيات الثورية السرية في الكليات العسكرية والإدارية والبيطرية والبحرية وحتى داخل الجيش نفسه. ونظرا إلى أنهم كانوا يستخدمون نظام «الخلايا»، فإن كثيرا من المتآمرين لم يكونوا معروفين بعضهم لبعض. وطالت العدوى مدرسة السلطان العشائرية نفسها التي ألغيت في العام 1907 بزعم وقوع تمرد بسبب سوء الطعام. بيد أن شرطة السلطان كانت فعالة جدا في العاصمة بدرجة مكّنتها من إجهاض كل المؤامرات. فرّ الليبراليون من أمثال أوديان

أفندي (Odian Efendi) وأحمد رضا (Ahmed Riza) وابن أخت السلطان الأمير صباح الدين (Sabaheddin) إلى باريس أو القاهرة. أما الطلاب الساخطون الذين كان عبدالحميد بالنسبة إليهم السلطان الأحمر وابتلاء الله والجلاد الدموي(*)، فكانوا يُنفون إلى ولايات بعيدة مثل إقليم طرابلس.

كانت أقوى الجمعيات السرية هي جمعية الاتحاد والترقي التي نشأت في سالونيك التي كانت شرطة السلطان أضعف ورقابته أوهن فيها. كان الناس ينتظرون صحف سالونيك بلهفة في محطة سيركسي Sirkeci على القرن الذهبي، ويدفعون ضعف السعر المسجل على غلافها، لأنها كانت أكثر تحررا بكثير من نظيراتها القسطنطينيات. أقسم أعضاء جمعية الاتحاد والترقي، الذين كان مصطفى كمال من بينهم، اليمين «بالنور المقدس للحرية والعدل» على التصدي للحكم المطلق. وزادت ثورتهم بسبب الاجتماع بين إدوارد السابع والقيصر لتوقيع التفاهم الإنجليزي الروسي في التاسع والعاشر من شهر يونيو 1908. وقد أثبت التصالح بين هاتين القوتين الإمبرياليتين، اللتين استفادت الإمبراطورية طويلا من التنافس بينهما، أن السلطان لم يعد يحمي الإمبراطورية. فضلا على أن الشرطة السرية للسلطان كانت تقتفي أثر المتآمرين. وفي الثالث من يوليو 1908، لجأ بعض الضباط إلى التلال في مقدونيا. وكانت المفاجأة للجميع هي أن الثورة انتشرت سريعا داخل القسطنطينية وخارجها. لقد كانت دعاية «تركيا الفتاة» فعالة، وكانت رواتب كثير من الجند مقطوعة منذ فترة طويلة، ما كان يعني أن السلطان لم يعد في مقدوره أن يعتمد عليهم[63]. وفي الرابع والعشرين من يوليو، وبعد نصيحة من مجلس الوزراء المجتمع في يلدز والشيخ أبو الهدى، ألغى السلطان الرقابة وأعلن العفو السياسي ودعا إلى انتخاب برلمان جديد في الخريف. في اليوم الأول لم يصدق الناس الأخبار وخافوا من أن يكون الأمر خدعة من الشرطة، لكن في اليوم التالي عمّت الفرحة القسطنطينية.

(*) كان من النعوت التي أطلقها المعارضون على عبدالحميد السلطان الأحمر Red Sultan أو السلطان الملعون بسبب الأعمال الوحشية التي اقترفها ضد الأقليات واستخدامه الشرطة السرية لإسكات المعارضة. [المترجم].

14

تركيا الفتاة

إننا نريد تركيا متقدمة وعصرية،
حينها ستكون القسطنطينية مصدر إشعاع
يأتي إليه المسلمون من دون أي تعصب
لتعلم أفكار عن العلوم والحضارة.

عبدالله جودت،
في 20 أغسطس 1908

«ذهب النظام العثماني القديم أدراج الرياح»

صارت القسطنطينية بعد ثورة تركيا الفتاة جديرة باسم باب السعادة. تحسرت بعض المدن الإقليمية على نهاية الحكم المطلق للسلطان، لكن في العاصمة التي تخللتها دعاية تركيا الفتاة لمدة طويلة، أخذ الناس يعانقون أحدهم الآخر في الشوارع. أما الشريف علي حيدر الذي انحشر داخل حشد منتش من الناس، فكتب أنه شهد «أحلى لحظات في حياتي، لا يقدّرها إلا أولئك الذين عاشوا سنوات من الظلم والعبودية». ولاحقا، تذكرت خالدة أديب ابنة أحد شماشرجية السلطان والقائدة النسوية والكاتبة المستقبلية،

متذكرة تدفق الناس كالطوفان عبر جسر غَلَطَة: «يشع منهم شيء استثنائي، يضحكون ويبكون من شدة الانفعال بزوال العجز والقبح تماما في لحظة واحدة». وجدت المدينة دورا جديدا، إذ غدت عاصمة إمبراطورية وفي الوقت نفسه مركزا لثورة[1].

أمكن للسلطان من خلال إعادة الدستور بسرعة كبيرة أن يؤدي دور الأب الذي تحرر من مستشاريه الأشرار. ففي السادس والعشرين من يوليو، احتشد ستون ألف شخص أمام مدخل يلدز، حاملين رايات كتبت عليها باللغتين الفرنسية والعثمانية «الحرية والمساواة والإخاء والعدالة» لابسين «أشرطة الحرية» الحمراء والبيضاء (ألوان العلم العثماني)، في محاكاة للأشرطة ثلاثية الألوان في باريس في العام 1789. وعندما ظهر السلطان في الشرفة تعالت الهتافات «يعيش باديشاهنا!» وهو بدوره قال لهم: «لقد كرّست كل جهدي منذ أن جلست على العرش لسعادة وطني وإنقاذه. فرغبتي الأولى هي سعادة رعيتي التي لا أميّز بينهم وبين أطفالي. والله على ما أقول شهيد»، فتعالت الهتافات أكثر. بعد سنوات، كتب رسام السلطان فوستو زونارو: «لم أسمع في حياتي كلها على الإطلاق مثل هذه الصيحات، ولم أرَ هذا الحشد الكبير من الناس الفرحين». وفي رمزية للاقتناع بأن الثورة فجر جديد للإمبراطورية، ظهرت بطاقات بريدية تظهر فيها الشمس تشرق فوق قباب القسطنطينية ومآذنها، أو بطاقات لعبدالحميد مبتسما فوق الكلمات الفرنسية والعثمانية «الحرية والمساواة والإخاء»[2].

وفي حكم الصدر الأعظم الجديد البارع والدؤوب كامل باشا (Kamil Pasha)، فقد قصر يلدز بعضا من أشكال الترف ومعظم سلطته. اختفى جواسيس السلطان كما يتلاشى الثلج أمام الشمس. وفُصِل الضباط المعاونون والبستانيون وفرقة أوبرا أرتورو استرافولو. وأُعدِم فهيم باشا من دون محاكمة. ووصلت مجموعة جديدة من اللاجئين من القسطنطينية إلى القاهرة، ضمت الصدور العظماء والوزراء السابقين مثل عزت باشا، ليحلوا محل أعضاء تركيا الفتاة الذين عاشوا في القاهرة قبل العام 1908. وعندما عاد زعماء تركيا الفتاة وضباطها إلى العاصمة مظفرين، بدا كأن سكان المدينة اصطفوا عن بكرة أبيهم على جسر غَلَطَة وأرصفة الميناء لتحيتهم.

بالنسبة إلى عاصمة مُنحت الحرية فجأة بعد ثلاثين عاما من الحكم المطلق، بدت القسطنطينية هادئة جدا. بيد أن السلطة الحقيقية لم تكن في يد الحكومة

الرسمية برئاسة كامل باشا، وإنما في أيدي جمعية الاتحاد والترقي بقيادة ثلاثة من الوطنيين سيطروا على الحكومة على مدى السنوات العشر التالية: أنور باشا وجمال باشا وطلعت باشا. كان الأول ضابطا شابا مثاليا رأى في نفسه أنه معبود الأمة والقادر على تحقيق أحلامها، وكان الثاني إداريا نشطا وتقدميا، أما الثالث - طلعت باشا - الموظف السابق بالبريد في سالونيك ضخم الجثة وصاحب الابتسامة الحلوة، فكان الأشرس بين الثلاثة. وعلى رغم أن أعضاء لجنة الاتحاد والترقي ظلوا في خلفية المشهد، فإنهم كانوا يقومون بزيارات أسبوعية إلى الصدر الأعظم والوزراء لإعطائهم آراءهم، أو بالأصح تعليماتهم. بدا أن القصر يقبل بالنظام الجديد من دون تحفظات. ومن دون أن ينتظر «الترجمة المعتادة»، قال السلطان «بضحكة عالية غريبة» للسفير النمساوي مارشيز بالفيسيني Marchese Pallavicini (الذي عُرِف بسبب نبوءاته المتكررة بالموت باسم «كاساندرا بيرا»)(*)، إنه غير راغب في سحب الدستور «ليس خلال خمس سنوات، ولا عشرٍ ولا حتى خمس عشرة سنة»[3].

وفي ذلك الخريف، احتُفل بالانتخابات بالطقوس المثيرة للحرية والإخاء والزهور. وُضعت أكشاك التصويت في أفنية المساجد والكنائس ومراكز الشرطة، وزُيِّنت بالأقحوان والمغنولية وزهور الغار. وفي الخامس والعشرين من نوفمبر، نُقلت صناديق الاقتراع إلى الباب العالي تحت أمطار غزيرة في عربات القصر كأنها غنائم معركة. تقدمت المواكب قوات راكبة وفرق من الطبالين، ترافقهم عربات محملة بطلاب المدارس بملابس زاهية يغنون أغاني وطنية، وتتبعهم عامة الناس سيرا على الأقدام وهم يغنون أيضا ويلوحون بالعلم العثماني الأحمر والرايات الخضراء الإسلامية[4].

احتفلت المدينة بالإخاء بين الأديان إلى جانب الانتخابات الحرة. ففي شهر يوليو حضر المسلمون والمسيحيون قداس راحة أرواح الموتى في الجبّانات الأرمنية في حي تقسيم وباليكلي لضحايا مذابح العامين 1895 و1896. وفي الفنار الذي ذهب إليه الأمير صباح الدين لطمأنة البطريرك إلى أن امتيازات اليونانيين لن تمس في عهد النظام الجديد، وصف الأمير الهيلينية في تركيا بأنها مقوم لا غنى عنه للنظام والتقدم. وفي ديسمبر، عبَرت آخر صناديق الاقتراع جسر

(*) تقول أسطورة يونانية إن أبولو أعطى كاساندرا Cassandra ابنة ملك طروادة مَلَكة التنبؤ لكي ترضى بحبه، وحين رفضت أنزل بها لعنته، إذ جعل النوم يغلبها في كهف وجعل الأفاعي تلعق أذنيها أو تهمس فيها بأخبار المستقبل، ما جعل أهلها يعتبرونها كاذبة ومجنونة ويسجنونها داخل هرم بأمر أبيها الملك. [المترجم].

غَلَطَــة، يرافقها الأكراد واللاز والجورجيون والشركس والعرب، لابســين أزياءهم الوطنية وأســلحتهم، في تضارب واضح مع الأزياء الرســمية - وليس الواجدان - للمســؤولين العثمانيين والملالي والكهنة والأحبار السائرين معهم جنبا إلى جنب. قبل الانتخابات، وقعت نزاعات بســبب عدم قدرة بعض الناخبين اليونانيين على تقديــم إثبات جنســيتهم العثمانية، ذلك لأنهم حصلوا على الجنســية اليونانية أو غيرهــا، جزئيا بغرض تفادي الضرائب. وزحف حشــد من اليونانيين الغاضبين من بيرا عبر جسر غَلَطَة إلى الباب العالي وطلبوا كامل باشــا الذي سلمهم تعهدا مكتوبا بأن شكواهم ســتبحث. وعلى رغم ذلك، صُوِّر الملالي والكهنة اليونانيون والأرمــن والأحبار جنبا إلى جنب يحيط بهم الجنــود العثمانيون تخليدا لذكرى التنظيــم الناجح للانتخابات. كان من بين النــواب الذين انتخبوا في العام 1908، مائة واثنان وأربعون تركيــا وســتون عربيــا وخمســـة وعشرون ألبانيا وثلاثة وعــشرون يونانيا واثنا عــشر أرمنيا (منهــم أربعة من الطَشــناقيين واثنان من الهَنشــاقيين) وخمســة يهود وأربعة بلغاريين وثلاثــة صرب وفلاخي واحد. كان لتركيا الفتــاة، وهو التعبير الدارج الذي أطلق على أتبــاع لجنة الاتحاد والترقي، نحو ســتين نائبا، وشــمل النواب الآخرون علماء معارضين للعلمانية، ومحافظين وليبراليين مؤيدين للامركزية[5].

وفي الســابع عشر من ديسمبر، افتُتح البرلمان، ليس في قصر إمبراطوري كما كانت الحــال في العــام 1877، وإنمــا في مبنى البرلمــان المجاور لآيا صوفيــا. غصت المنطقة المحيطة بالبرلمان بحشــود متحمسة. ومن فوق سطح آيا صوفيا أخذ الرجال والنساء المتلهفون إلى رؤية منظر المراسم أسفل، يطلقون الحمام والنوارس في الهواء. وتعالت الهتافات عند ظهور شيخ الإسلام المؤيد البارز للدستور، والنواب ذوي الشعبية. وفجأة تحولت الفرقة الموســيقية من عزف سلام الدستور الذي أُلِّف حديثا إلى عزف السلام الحميدي الذي بات مألوفا جدا بســبب مواكب الســلاملك في يلدز. وصل الســلطان متأخرا ســاعتين، يرافقه الرماحون من الحرس. سار السلطان محني الظهر والشاحب كالموتى، متثاقــلا إلى منصة مرتفعة. كتب النائب ألكســندر مافرويني (Alexander Mavroyenh) ابن طبيب الســلطان أنه «بدا مثل رجــل يطارده العدو، مجرد جثة، كان على رغم تحريك شــفتيه لا يســتطيع أن يُسْــمِع الحضور صوته». قرأ السكرتير

الأول كلمة السلطان بصوت جهوري، وجاء فيها أنه نظرا إلى أن مستوى التعليم جعل الانتخابات ممكنة أخيرا، فقد دعا إليها السلطان بإرادته الحرة. في تلك الليلة، أضيئت المساجد والقصور والوزارات والياليات والسفن احتفالا بالعصر الجديد[6].

غير أن السلطان لم يتحول إلى سلطة منهكة. فالنواب الذين دُعوا إلى العشاء في يلدز، في القاعة الأساسـية بالمابين الكبير، في الحادي والثلاثين من ديسـمبر، كانوا في غاية التواضع والاحترام داخل جدران القصر. فقبلوا يد السـلطان وكمه، كما جرت العادة، بدلا من انحناءة شـديدة وحسب كما أرادت لجنة الاتحاد والترقي. وطمأنه سكرتيره الأول إلى أن شعبه متضامن معه. سالت دموع السلطان فرحا، وقال إنه لم يشعر بهذه الفرحة من قبل[7].

في هذه الأثناء تعرضت حكومة تركيا الفتاة لفقد شعبيتها، جزئيا بسبب ما بات يعرف باسـم «حادثة غوشوف». كان السلطان الحذر دائما من الاتصالات بين رعيته والأجانب، يعيق حفلات العشاء الديبلوماسية. وفي الرابع عشر من سبتمبر، أقام وزير الخارجية توفيق باشـا الرجل المسن الودود المعروف برباطة جأشه التي لم تنل منها أي أزمة، عشـاء للديبلوماسيين في بيته الكائن بجوار السفارة الألمانية. غير أن السيد غوشـوف (Gueshov) الممثـل الديبلوماسي البلغاري لم يتلق دعوة للعشـاء، وهي إشـارة إلى أن الحكومة العثمانية لاتزال تنظـر إلى فردناند أمير بلغاريا بصفته حاكم ولاية عثمانية، وليس ملكا مستقلا. ردا على هذا الاستعراض للعظمة العثمانية، أعلن الأمير نفسـه قيصرا مسـتقلا لبلغاريا في الخامس من أكتوبـر. قلب جدول الأعمال الديبلوماسي كاملا رأسـا على عقب. وجدت النمسـا نفسـها مضطرة إلى إعلان ضم البوسـنة والهرسـك (اللتان كانتا لاتزالان اسميا ولاية عثمانية) قبل موعد كان متفقا عليـه بين وزير الخارجية النمسـاوي وزميلـه الروسي الـذي أراد في مقابل ذلك أن يحصل على الموافقة العثمانية على فتح المضايق أمام السفن الحربية الروسية. رُفض الطلب الروسي. وتدهورت العلاقات النمسـاوية - الروسية، وتسارعت الأحداث إلى العام 1914. فقدت الإمبراطورية العثمانية ولايتين تابعتين (وثالثة هي جزيرة كريت في السنة نفسها). وأطلق التجار الوطنيون في القسطنطينية مقاطعة للسلع والمراكب النمساوية. ولم تعد السفن النمساوية قادرة على إفراغ حمولاتها على أرصفة غَلَطَة. ولم تُرفع المقاطعة إلا بعد أن دفعت النمسا للحكومة العثمانية تعويضا كبيرا[8].

وفي الوقت الذي كانت القسطنطينية فيه مركزا لثورة «الحرية والمساواة والعدالة»، شهدت حركة تشبه الأصولية الحديثة. أخذ واعظ يدعى «علي الأعمى» يشجب الدستور في جامع الفاتح. وفي السابع من أكتوبر 1908، قاد حشدا رمضانيا كبيرا إلى يلدز لمقابلة السلطان الذي أطل عليهم من النافذة. قال له علي الأعمى: «نريد راعيا! لا توجد رعية بلا راع!» تمثلت مطالب الأصوليين في حكم الشريعة وحظر الحانات والمسارح والتصوير الفوتوغرافي ووضع حد لحرية النساء المسلمات في التجول في شوارع المدينة. كان هذا البرنامج متزمتا مثل برنامج المتعصبين من القاضيزاديين إبان القرن السابع عشر، في إشارة إلى أن الحياة الإسلامية للمدينة كان لها زخمها الخاص، بعيدا عن الثورات والدساتير. حُكِم على علي الأعمى بالسجن.

لم يكن الأصوليون وحدهم ساخطين، فقد طال السخط الكثير من القوات المتمركزة في المدينة، حتى القوات الثورية التي نُقلت من سالونيك إلى القسطنطينية لتعزيز النظام الجديد. ولم ينجذب إلى الأصولية المسلمون الملتزمون وحسب، بل انجذب أيضا المحسوبون على العائلة الحاكمة، الذين أغضبهم الانتقاص من امتيازاتهم. وأصبح الوقت الذي كان يقضى في السابق في العبادة، يقضى في التدريب العسكري. واستُبعِد الضباط الذين رقاهم السلطان من الصف ليحل محلهم خريجو المدرسة العسكرية الموالون للجنة الاتحاد والترقي. وتمرد الحرس الذين تعودوا على الحياة السهلة في يلدز عندما سمعوا أنهم سينقلون للخدمة في الحجاز. وواجه سكان القسطنطينية نفسها خسارة الامتيازات الضريبية التقليدية والإعفاء من التجنيد[9].

وفي نوفمبر، بدأت صحيفة أصولية باسم فولكان Volkan، ببرنامج يهدف إلى «نشر نور الوحدة المقدسة في عاصمة الخلافة». أبرزت هذه الجريدة تقوى السلطان وإحسانه، واتهمت اللجنة بنسيان «أن القسطنطينية ليست باريس». وتبدد الانسجام التي ظهر في صيف 1908. وفي التاسع من فبراير، وأمام ضغط اللجنة، استقال كامل باشا الذي أراد إبعاد الجيش عن السياسة والاقتراب من القصر. وفي الثالث من أبريل 1909، تأسست «جمعية محمد» وعقدت اجتماعات في آيا صوفيا معادية للجنة: «إلى الأمام! حتى لو استشهدنا فلن نتراجع!» ناصر هذه الجمعية الكثير من الصوفية وأئمة المساجد، بينما ظل كبار العلماء موالين للدستور[10].

وفي الســابع من أبريل، اغتيل محرر الجريــدة المعادية للجنة على جسر غَلَطَة، ذلك المكان المفضل للقتل الذي مكّن القاتل من الاختفاء بسهولة بين الحشود. وفي ليلة الثاني عشر والثالث عشر من أبريل، تمرد الجنود والضباط غير المكلّفين وأخذوا يصيحــون «نريد الشريعة» وتغلبوا على ضباطهم وزحفوا على مبنى البرلمان بجانب آيا صوفيا. تمثلت مطالبهم في تطبيــق الشريعة، وطرد الوزراء والضباط الاتحاديين، وإعادة النســاء المســلمات إلى البيوت. ومع أنهم اقتحموا مبنى البرلمان، فقد أسرع الســلطان إلى قبول برنامجهم. وأرســل ســكرتيره الأول لقراءة إعــلان على البرلمان الذي كان الجنــود والخوجات (معلمو المدارس الدينية) يحاصرونه. ووفقا لمذكرات السكرتير دار الحوار التالي:

«ارجعوا إلى ثكناتكم واستريحوا يا أبنائي، السلطان يعفو عنكم».

«قــل للرجــل العجــوز إن الصبية الصغار يرفســوننا ويســبون ديننا ويشتمون السلطان».

أصبح توفيق باشــا صدرا أعظم. لم يحرض الســلطان على التمرد، غير أنه بالتأكيد توقعه، وباليقين استغله لمصلحته. اســتعاد السلطان السيطرة على الوزارتين المهمتين الجيش والأســطول. وبينما واصل بعض أعضاء البرلمان الاجتماع في القسطنطينية، فرَّ غيرهم إلى نادي اليخوت بســان استيفانو بالقرب من المكان الذي عسكر فيه الجيش الروسي في العام 1878. صرف الجنود موظفي الجرائد الموالية للجنة مثل جريدة طنين Tanin وقتلوا وزير العدل وبعض ضباطهم. كشــفت هذه الأحداث عن جهل الثوار بمشــاعر الناس والجيش والنزعة المحافظة الموالية للعائلة الحاكمة في القسطنطينية، فقد كان الناس في القســطنطينية أكثر ولاء للسلطان من نظرائهم في سانت بطرسبرغ أو طهران، اللتين أيدتا ثورتين أخيرا (في العامين 1905 و1906 على التوالي)[11].

وبعد إراقة الدماء الأولى، عادت القوات إلى الانضباط. غير أن أنصار تركيا الفتاة في ســالونيك رفضوا القبول بســلطة الحكومة الجديدة. وظهرت في كتاباتهم نغمة معاديــة للعاصمة. اعتبر عبدالحميد أن امتلاك القســطنطينية أحد الأركان الأربعة للإمبراطورية، إلى جانب الإسلام وبيت آل عثمان والوصاية على المدينتين المقدستين. شجب أنصار تركيا الفتاة «الدسائس التي حيكت في البيئة البائسة لبيزنطة القديمة» وصمموا على «تطهير» العاصمة[12].

تقدمـت قوة تسـمى «جيـش المعركـة» Action Army إلى العاصمة من سالونيك بقيادة محمود شوكت باشا (Mahmud Shevket Pasha)، وهو جنرال من أنصار تركيـا الفتاة من أصل عربي كان معجبـا بالتكتيكات الألمانية والأدب الفرنسي (نُشرت ترجمته لرواية مانو ليسكو Manon Lescaut في القسطنطينية في العـام 1879). خلت شـوارع المدينـة من الناس، حتى جـسر غَلَطَة. لم يكن لدى حكومة السـلطان التي ربما توقعت أن تسـتأنف الحكم من دون مقاومة الرغبة في القتال، فقد كان السـلطان يحظـى بتأييد الناس، وليس النخبة. وأقنع العلماء أغلب المتمردين بألا يقاوموا، وأصدروا بيانا يقول إن الشريعة ليست مع الحكم المطلق، وإنما مع الدستور. ونظرا إلى أن السلطان تلقى رسائل من شوكت طمأنته إلى أنهم لا ينوون عزله، فقد رفض السلطان طلب بعض الضباط الموالين الإذن لهم بمقاومة جيش شوكت.

الخصيـان مـع ضباط «جيش المعركة»، قـصر يلدز، في 25 أبريـل 1909. كان «جيش المعركة» قد احتل المدينة لتوه وعزل السـلطان عبدالحميـد. كان بعض ضباط هذا الجيش أوروبيين عُيِّنوا للحفاظ على الأمن في مقدونيا

في موكب السلاملك الأخير لعبدالحميد في الثالث والعشرين من أبريل، بدا المتفرجون والقوات أكثر حماسا من أي وقت سابق، وبدا السلطان نفسه أكثر ابتساما ولطفا عن سابق عهده، وقد حمّر خدوده وصبغ لحيته من أجل المناسبة. كان من التجديدات الدالة على اليأس أن يحث إمام المسجد المسلمين على الولاء للخليفة. شعر بعض المتفرجين بأنه سينجو من العاصفة. غير أن نظرة ألقاها من مركبته أوضحت له أنه لا يوجد سفراء في الشرفة الديبلوماسية، إذ تحولت أوروبا إلى الطرف المنتصر[13].

وفي ليلة الثالث والعشرين والرابع والعشرين من أبريل وطوال يوم الرابع والعشرين من أبريل، احتلت قوات من سالونيك المدينة. قاوم الجنود في الثكنات في تقسيم والفاتح وفي الباب العالي لعدة ساعات، وتركوا الباب العالي بثقوب في جدرانه من طلقات المدافع. وفي ليلة الرابع والعشرين والخامس والعشرين من أبريل، استسلم حراس يلدز أو هربوا عبر البسفور. وقُطع الغاز والكهرباء، ما أغرق القصر في الظلام. اندفع الخدم خارجين بصُرات من الملابس والجواهر. وهرب أبناء السلطان إلى قصور أخواتهم المتزوجات. وأصيب الخصيان والسيدات بنوبات من الهلع. وأخيرا، بحسب كلمات ابنة السلطان العزباء عائشة، «لم يكن في هذا القصر العظيم غير النساء»[14].

وفي الخامس والعشرين من أبريل، فرض شوكت قانون الطوارئ. وفي السابع والعشرين من أبريل أصدر البرلمان في جلسة مغلقة قرارا بعزل السلطان. وأعد شيخ الإسلام الفتوى اللازمة لذلك. وفي ذلك اليوم وصل أربعة نواب «الألباني أسعد (Essad) واليهودي كاراسو (Karassu) والأرمني آرام (Aram) واللازي عارف حكمت (Arif Hikmet)» إلى يلدز لإخبار السلطان بأنه قد عزل بسبب القمع والمذابح وانتهاك الشريعة والمسؤولية عن التمرد الأخير. رد السلطان الذي غدا رجلا مكسورا بأنه أراد فقط أن يخدم الأمة، وذكّرهم بانتصاره في الحرب ضد اليونان في العام 1897، وأكد أنه لم يكن وراء التمرد الأخير. وطلب أن يقيم في تشيرغان، غير أن اللجنة قررت إرساله إلى سالونيك. وفي الثالثة إلا الربع من صباح يوم التاسع والعشرين من أبريل، غادر السلطان المدينة مع أسرته الصغيرة وبضعة خدم بالقطار من محطة سيركسي بجانب القرن الذهبي[15].

جُرِّدت مدينة قصر يلدز من محتوياتها. وشُنق رئيس الخصيان وبعض المتمردين على جسر غَلَطَة. وفي السابع والعشرين من أبريل، سيق ثلاثمائة من خدم القصر

المرتعدين المهلهلين من الخصيان والطباخين ومقدمي القهوة، خلال شوارع بيرا وعبر الجسر إلى السجن في القسطنطينية. ونُقلت مائتان وثلاث عشرة امرأة من الحريم من يلدز بالمركبات إلى قصر توبكابي المهجور. بعضهن أخذهن أقاربهن من جبال شركسيا(*) والأناضول الذين «انبهروا بالوجوه الجميلة لقريباتهن وحلو شمائلهن ونفيس زينتهن»، وجاء أقاربهن في حالات أخرى ليعلموا أن بناتهم أو أخواتهم لم يعدن على قيد الحياة، وبعضهن لم يأتِ أحد لتسلمهن(**).

وقع قصر يلدز فريسة للنهّابين. وأعطيت المكتبة التي اعتاد السلطان أن يتردد عليها يوميا إلى جامعة دار الفنون التي لاتزال موجودة فيها. وأخيرا، فُتح القصر للجمهور في شهر يوليو. وفي مزاد علني نظمته حكومة تركيا الفتاة في باريس في العام 1911 حققت جواهر السلطان سبعة ملايين فرنك. كان من بينها عقد يحوي مائة وأربعا وخمسين لؤلؤة، ومنظار مزيّن بالذهب والألماس، وعلبة سيجار ذهبية نقش عليها خط السكة الحديد برلين - بغداد بالياقوت الأزرق والأحمر والألماس[16].

وعلى رغم سقوط السلطان السابق، ظلت العائلة ساكنة في قلوب العثمانيين المسلمين وعقولهم. كان السلطان الجديد هو رشاد (Reshad) شقيق عبدالحميد، الدرويش المولوي وآخر سلطان يكتب الشعر باللغة الفارسية. كان تعاطفه المعروف مع الأفكار الليبرالية قد بث الأمل منذ فترة طويلة في نفوس أنصار تركيا الفتاة، وبث الخوف في قلب السلطان. أخذ السلطان الجديد الاسم محمد رشاد في إشارة إلى أنه، مثل سلفه محمد الفاتح، فتح القسطنطينية، من خلال الجيش الدستوري. ومثل الفاتح أيضا، صلى الجمعة الأولى في آيا صوفيا. أبهر المدينة ببساطته وسلوكه. وعاش في قصر دولمة بهجت مع عائلة صغيرة. وكما جاء في مذكرات أحد أفراد سكرتاريته، فقد «ساد الصمت المطلق تقريبا في هذا القصر الهائل... حتى إنه إذا وقع صحن وانكسر في غرفة الطعام يحدث تحطمه دويا في جميع أنحاء البناية كاملة مثل يوم القيامة». بدا رشاد البدين وحسن النية قانعا بأن يفعل ما تطلبه اللجنة أو الباب العالي. وأعيدت كتابة الدستور لتقليص سلطات القصر في أمور التشريع والسياسة الخارجية وإجراءات الانتخابات[17].

(*) شركسيا Circassia هي موطن الشعب الشركسي وهي منطقة في شمال القوقاز على طول الساحل الشمالي الشرقي للبحر الأسود. [المترجم].

(**) هذه هي النهاية الفعلية للحريم الإمبراطوري، وليس تحريم العبودية الذي حدث في العام 1851. [المترجم].

مع جلوس السلطان الجديد على العرش، استأنفت القسطنطينية دورها عاصمة للتحديث الذي لم يعلق كليا في عهد عبدالحميد. وظل البرلمان العثماني يعقد سنويا حتى العام 1918، يناقش القوانين والميزانيات وكفاءة الوزراء. ونُفذت محاولة مدروسة لتأسيس مجتمع رأسمالي إسلامي حديث. وبداية من العام 1909، حُظرت تجارة العبيد (نظريا)، على رغم أن مؤسسة العبودية ظلت حتى العام 1926 أو بعده. وألغيت الطوائف الحرفية في العام 1910، ما أثلج صدر غرفة التجارة بالمدينة التي اشتكت كثيرا من الممارسات التقييدية للطوائف. وفي العامين 1910 و1911 أنشئ حوض لبناء السفن وطاحونة حبوب جديدة ومصانع جديدة للأحذية والبيرة والأسمنت(18).

بدأت شركة الكهرباء العثمانية في إدخال الكهرباء إلى المدينة. وبدأت شركة الهاتف العثمانية القسطنطينية، التي تأسست في العام 1911، في تركيب الهواتف، على الرغم من أنه كان هناك القليل من أصحاب الهواتف المميّزين في عهد عبدالحميد. وكان الرقم إسطنبول 42 هو رقم هاتف الباب العالي، وبيرا 24 هو رقم قصر دوملة بهجت. وسرعان ما تحولت حدائق تقسيم - وفقا لجريدة مرصد الشرق - إلى منتجع حديث يحوي «كل المباهج»: مطعما وسينما مكشوفة ومسرح منوعات وملهى ليليا وحانة على أعلى مستوى يرتادها صفوة العاصمة. وفي أنحاء المدينة كافة كانت هناك مقاه مختلفة تجذب زبائن معينين: البحارة أو الحجاج أو اليونانيين أو الأتراك أو الفرس أو الألبان. كان الخصيان المميّزون بجواهرهم الوفيرة وأربطة أعناقهم الرائعة يرتادون مقهى قريبا من جسر غَلَطَة. وأنشأت عائلة أرمنية في العام 1892 فندق توكتليان Hotel Tokatliyan «الضخم والأوروبي بكل معنى الكلمة» في بناية كلاسيكية ضخمة مُعَمَّدة على شارع بيرا الكبير. وأصبحت مقاهي الفندق مركزا سياسيا مهما يرتاده السياسيون والضباط والصحافيون والجواسيس من كل الأمم و«السيدات من كل الجنسيات، ما عدا التركيات». وقيل إن النوادل كانوا يعرفون من نظرة خاطفة ما إذا كان الزبون يريد قهوة أم بيرة أم كونياك أم راكي(19).

في حكم تركيا الفتاة، تحررت المدينة أيضا من كلابها. ففي مايو 1910، جُمِعوا من الشوارع وُوضِعوا على جزيرة سفري أطه Sivriada في بحر مرمرة. في البداية، وقفوا على الشاطئ أملا في المراكب المارة، وبعد ذلك سُمِع عواء رهيب عبر بحر مرمرة لعدة ليالٍ، ظل الرجال العجائز يتذكرونه بعد خمسين عاما. وأخيرا، مزق

الباقون منهم على قيد الحياة بعضهم بعضا. ونامت القسطنطينية لعدة أشهر نوما عميقا. ثم سمع بعض النباح، وظهرت جراء من نسل الكلاب الناجية في ضواحي المدينة. وبحلول العام 1913، ظهرت الكلاب ثانية بكثرة في الشوارع، وارتاح الأتراك الذين ألقوا باللائمة في محن الإمبراطورية الأخيرة على طرد الكلاب[20]. واليوم وعلى الرغم من «عمليات الإخلاء» المتكررة لاتزال الكلاب في بعض المناطق تجعل النوم مستحيلا والأرصفة مغلقة أمام المارة.

طرب الشرق الأوسط وأوروبا كلاهما لثورة تركيا الفتاة. وجاء الأجانب اللامعون لرؤية العاصمة الجديدة: لوتي الموجود دائما وأندريه غيد Andre Gide (الذي اشمأز منها) ولو كوربوزيه (الذي فضل المدينة الإسلامية القديمة على نمط نيويورك في بيرا)، وملوك بلغاريا وصربيا والجبل الأسود، ووينستون تشرشل. وظهر طوفان من الكتب حول قصة العام: سقوط عبدالحميد، وتركيا في حالة ثورة، وتركيا الفتاة وفرنسا القديمة. ونظرا إلى أن هذه الكتب تسجل الأحداث، وآراء أنصار تركيا الفتاة، دون عنصر الإدراك المتأخر للأمور، فإن بعضها يعد مصادر تاريخية قيّمة. بيد أن زائرا أجنبيا لم يترك الأثر الكبير الذي تركه الصحافي الماركسي ذو الخلفية اليهودية الروسية ألكسندر إزرائيل هيلفاند (Alexander Israel Helphand) الذي أطلق على نفسه الاسم بارفوس (Parvus). منذ وصوله إلى القسطنطينية في العام 1910، ربط بارفوس - صديق لينين وتروتسكي والشخصية القيادية في ثورة العامين 1905 و1906 في روسيا - تركيا الفتاة بالدولية الثانية(*).

بدت المدينة جاهزة للاشتراكية. وفي غضون بضعة أيام من ثورة تركيا الفتاة، بدأ العمال في أحواض السفن والترام والخبازون وموظفو الجرائد، في الإضرابات طلبا لأجور أعلى، ونالوها. وفي مايو 1909، بعد بضعة أيام من سقوط عبدالحميد، وصلت من سالونيك مجموعة من الاشتراكيين يطلقون على أنفسهم اسم «المركز الاشتراكي»، لتعليم «الطبقات العاملة بالقسطنطينية». وفي العام 1910 أسس الصحافيون والمعلمون والطلاب الحزب الاشتراكي العثماني، بفروع في القسطنطينية

(*) الدولية الثانية (1889 - 1916) the Second International تنظيم اشتراكي دولي من الأحزاب الاشتراكية والعمالية تأسس في باريس في 14 يوليو 1889، بمشاركة وفود من عشرين دولة، ليكمل عمل الدولية الأولى المنحلة، مع استبعاد الاتحادات النقابية الفوضوية. [المترجم].

وباريس. وبدأ بارفوس في كتابة مقالات تدعو إلى ليبرالية اقتصادية وخلق طبقة برجوازية (مسلمة) وطنية، ليس في الصحف الأوروبية وحسب، بل في جريدة تركيا الفتاة أيضا المسماة ترك أوردو Turk Yurdu (موطن الأتراك) الذي أصبح المحرر الاقتصادي لها. جاء بارفوس إلى القسطنطينية فقيرا، غير أنه خلال عامين أصبح رجل أعمال ناجحا، يمد العاصمة والجيش بالحبوب[21]. في كلمته في شهر نوفمبر 1910 أمام المركز الاشتراكي، قال: «اليوم تفرق بين عمال الإمبراطورية العثمانية الأديان والنزعات القومية والكراهية العرقية»، وتمنى أن يتحدوا في وجه الرأسماليين المتحدين ضدهم. وبالفعل كان اليهود والأرمن والبلغاريون واليونانيون والمسلمون من داغستان والقرم أعضاء بارزين في الحزب الاشتراكي العثماني. وتشكلت النقابات الأولى في القسطنطينية في الأعوام 1910 - 1912 (من عمال البناء والموظفين التجاريين وعمال الميناء)، وعلى رغم أنها كانت خاضعة لهيمنة اليونانيين، فقد جذبت عمالا من القوميات المختلفة، وكانت تطبع البيانات بأربع لغات أو خمس. وكانت نقابة الطباعين تضم أقساما بلغارية ويونانية وأرمنية وتركية وفرنسية.

غير أن لجنة الاتحاد والترقي كانت أكثر انشغالا بتقوية الإمبراطورية منها بتبني الثورة الاشتراكية. وفي أواخر العام 1910 أُغلِق المركز الاشتراكي. وفي أوائل العام 1911 نفي الكثير من الاشتراكيين إلى الأناضول، وانضموا بعد سنتين إلى حسين حلمي (Huseyin Hilmi) الذي أسس صحيفة اشتراك Ishtirak في العام 1908[22].

كانت ثورة تركيا الفتاة أيضا البداية لتحرير المرأة. كان عبدالحميد محافظا جدا في هذه المسألة تحديدا. وأصدر في العام 1889، لمرة لم تكن الأولى، أوامر للنساء بلبس الشرشاف charchaf (تشبه عباءة الشادور chador الإيرانية الحديثة) بدلا من اليشمك yashmak أو الفراجة الأكثر كشفا. وحظر على النساء المسلمات أيضا أن يخرجن من بيوتهن في صحبة أي رجل، حتى لو كانوا آباءهن. غير أن النساء رفضن القمع. وفي ذلك كتب أحد الرحالة في العام 1895: «على رغم صرامة أوامر السلطان، لا يوجد أي مظهر لإطاعته، وفي الغالبية العظمى من الحالات تلبس النساء حجابا رقيقا أبيض يغطي الجبهة ويلتقي دون إحكام أسفل الذقن». كتبت شاعرة بكتاشية في نحو العام 1900:

ألم يخلقنا الله مثلكم؟

أليست اللبوءة لا تقل عن الأسد؟

كانت النساء متحمسات في دعم ثورة العام 1908، وكشفن وجوههن على الملأ كعلامة على الاحتفال في السابع عشر من ديسمبر 1908 عند افتتاح البرلمان، وفي الثلاثين من أبريل 1909 في أول موكب سلاملك للسلطان محمد رشاد[23]. وبدأ بعض أعضاء النخبة في التوقف عن تقسيم بيوتهم إلى حرملك وسلاملك والسماح لزوجاتهم باستقبال الزوار الذكور. وبدأوا يقولون في العلن ما كانوا يقولونه منذ وقت طويل في السر، من أن عزل النساء كان «لعنة بلدنا»، وأن تركيا لن تكون أمة حديثة إلا إذا خرجت النساء من وراء مشربيات الحريم وطيات اليشمك[24].

في «البيت التركي» Turkish Hearth بالمدينة، وهو ناد أسسه مفكرو تركيا الفتاة، كانت النساء تلقين المحاضرات على الرجال، والرجال على النساء، وفيه أيضا كانت خالدة أديب الكاتبة والنسوية التي أصبحت معلمة بارزة، تلقي المحاضرات كثيرا. كتب مفكر آخر بارز من مفكري تركيا الفتاة، هو موريس تكينالب (Murris Tekinalp) «اسمه الأصلي مويز كوهين (Moiz Cohen) يهودي من سالونيك»: «ثمة إجماع في الرأي العام على أن تحرير النساء سيحدث في وقت قصير نسبيا». وفُتحت أول مدرسة ثانوية حديثة للبنات في العام 1911. وبداية من العام 1913 كانت هناك عدة منظمات نسائية في القسطنطينية: المرأة العثمانية، وجمعيات للارتقاء بالنساء، وتوظيف النساء، والدفاع عن حقوق النساء[25](*).

كانت القسطنطينية مختبرا تختمر فيه العقاقير الجديدة للشرق الأوسط، ليست الاشتراكية والحركة النسوية فحسب، بل القومية الكردية والعربية أيضا. فتفاخُر ابن تركيا الفتاة رضا توفيق في البرلمان العثماني بأن المسلمين كانوا أقل قومية من المسيحيين وادعاء أنور باشا أن «الإسلام لا توجد فيه القومية» لم يكونا حقيقيين[26].

كان نحو ثلاثين ألف كردي يعيشون في العاصمة لم يكونوا جميعا من القوميين الأكراد. وحتى المُنظِّر العظيم للقومية التركية ضياء كوك ألب (Ziya Gokalp) الذي كان يدرِّس علم الاجتماع في جامعة دار الفنون ويحرر جريدة ترك أوردو، ذلك الرجل القصير البدين داكن اللون صاحب العينين اللتين وصفتهما خالدة أديب

(*) بدأ تعليم البنات في مصر قبل ثمانين عاما منه في تركيا بمدرسة المولدات التي أنشأها محمد علي في العام 1832 التي لاقت نفورا في البداية، وكانت المدرسة السيوفية، التي أنشأها الخديو إسماعيل في العام 1873 التي تغير اسمها لاحقا إلى المدرسة السنية، البداية الحقيقية للتعليم الثانوي للبنات، وفي العام 1902 أنشئ أول دبلوم للمعلمات. [المترجم].

بأنهما «عينان غريبتان تنظران فيما وراء الناس والأشياء المحيطة به وأبعد منها»، كان به دم كردي وتحدث اللغة الكردية قبل اللغة التركية. غير أنه مع ذلك أصبح تركيا حتى النخاع وطالب الأتراك بالعودة إلى جذورهم. وكان يفتخر بأنه يجد إلهاما في أتيلا(*) وجنكيز خان لا يقل عن ذلك الذي وجده في الإسكندر الأكبر ويوليوس قيصر، وكتب قصائد في مديح طوران(**) الوطن التركي الأسطوري في الشرق. (كتبت خالدة أديب أيضا رواية سياسية حاملة باسم «طوران الجديدة» Yeni Turan). بيد أن ثمة أكرادا آخرين أرادوا حكما ذاتيا أو أكثر من ذلك في الشرق. وفي العامين 1908 و1909، أسس أكراد بارزون في القسطنطينية مثل عائلة بدر خان المقربة من عبدالحميد وسيد عبدالقادر (Sayyid Abdulkadir) رئيس مجلس الدولة المستقبلي، كردستان Kurdistan وهي صحيفة ثنائية اللغة تركية - كردية، والجمعية الكردية للتقدم والعون المتبادل Kurdish Society for Progress and Mutual Aid وجمعية نشر التعليم الكردي Society for Propagation of Kurdish Education، ومدرسة كردية. وفي العام 1912 دافع النائب من أصل كردي لطفي فكري (Lutfi Fikri) عن إجراءات راديكالية، شملت علمانية الدولة والحقوق المتساوية للنساء واستخدام الأبجدية اللاتينية[27].

بعد العام 1908 أصبحت القسطنطينية أيضا مركزا للقومية العربية أهم من بيروت أو القاهرة. كانت التوترات العربية - التركية قد ازدادت بفعل استخدام عبدالحميد للعرب كجواسيس أو مسؤولين أو حرس. أدت التعليقات العدائية في جريدة إقدام Ikdam التركية بشأن «ولاء» العرب إلى هجوم منهم على مطبعة الجريدة. وفي رد سريع على ذلك الحادث، أنشئت جمعية الأخوة العربية - العثمانية في صالون التنوع Variete salon في بيرا في الثاني من سبتمبر 1908، بهدف «توحيد كل الجماعات العثمانية دون تفرقة في العرق أو الطائفة، وتعزيز تضامنهم بطريقة تمكنهم من خدمة الدولة العثمانية وإصلاحها». في مراسم الافتتاح، وبعد كلمات

(*) أتيلا Attila أو أتيلا الهوني Attila the Hun حاكم الهون من العام 434 حتى وفاته في العام 453، أسس الإمبراطورية الهونية التي امتدت من نهر الأورال إلى الراين ومن نهر الدانوب إلى بحر البلطيق، كانت عاصمتها في المجر الحالية. [المترجم].

(**) طوران هو الاسم الفارسي لآسيا الوسطى التي ترتبط بالقبائل التركية البدوية التي غزت محيطها على مدار العصور الوسطى وأسست دولا كثيرة. [المترجم].

باللغتين العربية والعثمانية، هتف الحضور بالشعار التالي: «من الآن فصاعدا، طريقنا هو العدالة والإخاء والمساواة والحرية. يعيش السلطان عبدالحميد خان باديشاه الحكومة والدستور والمشاورة!» كان هناك ناد أسفل شارع بيرا الكبير يفتح أبوابه كل مساء، ومع ذلك فقد تخوف البعض من وجود أهداف خفية وراء واجهة الولاء. وبدأ بعض العرب يطالبون بأن تقوم المدارس الحكومية في الولايات الناطقة بالعربية بالتدريس باللغة العربية، وليس بالعثمانية كما كانت الحال حتى ذلك الوقت[28].

وفي صيف العام 1909 حل محل هذه الجمعية «المنتدى الأدبي» الذي أسسه في القسطنطينية مسؤولون ونواب من دمشق والقدس. نظم المنتدى مسرحيات ومحاضرات في مقره، وسرعان ما ضمت عضويته الآلاف في أنحاء الهلال الخصيب كافة. كما أسست جمعيتان سريتان بأهداف قومية أكثر وضوحا، هما «القحطانية» في نحو العام 1909 «والعهد» ضمن صفوف الجيش ربما في العام 1914. ومن بين أربعمائة وثمانية وتسعين ضابطا عربيا في الجيش العثماني، كان ثلاثمائة وخمسة عشر منضمين إلى جمعية العهد بحلول العام 1914[29].

كان من أمارات نجاح سياسة عبدالحميد العربية أنه على النقيض من العام 1880، لم يكن العرب في أغلبيتهم يؤيدون أي برنامج أكثر راديكالية من تطبيق اللامركزية، أو ما عبّر عنه أحد الأحزاب بالقول «حكومة عثمانية، لا تركية ولا عربية، حكومة لكل العثمانيين فيها حقوق متساوية والتزامات متساوية». وكانوا لايزالون يعتبرون الخلافة أمانة مقدسة في أيدي العائلة العثمانية، والإمبراطورية خط الدفاع الأول للعرب ضد الغرب. كانت القسطنطينية نفسها حجة أخرى مؤيدة للعثمانية. كان من رأي جمعية العهد أن «القسطنطينية هي رأس الشرق، وأن الشرق لا تقوم له قائمة إن سلبتها منه أي دولة أجنبية. لذلك كانت هذه الجمعية مهتمة بشكل خاص بالدفاع عنها والحفاظ على أمنها». وفي محاولة لتقوية الروابط بين الإمبراطورية والعرب، قام محمود شوكت باشا في العام 1910 بترتيب أول زواج بين هاشمي وعثمانية، إذ تزوجت حفيدة مراد الرابع، رقية سلطان التي تربت في تشيرغان، من الشريف عبدالمجيد الابن الأكبر للشريف علي حيدر[30].

أجلّ الشريف علي حيدر كلا من محمود شوكت وطلعت اللذين كانا يزورانه باستمرار في ضيعته في تشامليجا على الجانب الآسيوي للبسفور. وقال لأصدقاء من العرب: «تركيا الفتاة تفتح صفحة جديدة في تاريخ أمتنا وسوف تتحسن الأمور مع الوقت. لا تحاولوا الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية في هذا الظرف العام الذي يشهد العالم فيه حالة من الثورة». وكان هدفه النهائي حكما ملكيا ثنائيا عربيا - تركيا يشبه إمبراطورية النمسا - المجر، مع وجود عاصمة وبرلمان آخرين في بغداد أو المدينة[31].

أما ابن عم علي حيدر ومنافسه الشريف حسين، وعلى رغم أنه كره «الغاصبين» جمعية الاتحاد والترقي وإحياء الدستور، فقد ظل هو الآخر مواليا للإمبراطورية العثمانية. وبعد أن عيّنه عبدالحميد شريفا وأميرا لمكة، ما أثار غضب علي حيدر (الذي كان غير مؤهل لها بلا شك بسبب زوجته الإيرلندية)، غادر القسطنطينية إلى مكة في نوفمبر 1908. اتبع الشريف حسين، المتزوج من زوجة تركية لها أقارب وممتلكات في العاصمة، سياسة موالية للعثمانيين، رغم نزاعات مع الوالي بسبب معارضة الشريف لإصلاحات عثمانية مثل مد خط سكة حديد الحجاز إلى مكة وإلغاء العبودية. وكان ابناه عبدالله وفيصل يزوران القسطنطينية لحضور الجلسات السنوية للبرلمان العثماني التي كانا يحضرانها بصفتهما نائبين عن مكة وجدة على التوالي. وساعد الشريف نفسه الإمبراطورية العثمانية في إعادة احتلال إقليم عسير جنوب الحجاز في 1911[32].

كانت القوة الأشد خطرا على الإمبراطورية العثمانية وعاصمتها من القومية الكردية أو العربية هي القومية التركية. بعد فترة طويلة من الأرمن واليونانيين والبلغاريين، استسلم الأتراك أخيرا لروح العصر. كان الولاء للعائلة الحاكمة والولاء الديني يتآكلان. ومنذ عهد عبدالحميد، كان المفكرون العثمانيون قد بدأوا في الكتابة في مديح «الخدمات التي قدمها الأتراك للعلوم والفنون» وفي إظهار اهتمام غير مسبوق بأتراك آسيا الوسطى والأناضول. وقال جودت باشا للسلطان إن «الأتراك هم القوة الحقيقية وراء الدولة العليّة»[33]. وبداية من العام 1908 كانت اللغة العثمانية، وليس رباعية العثمانية والفرنسية واليونانية والأرمنية، إلزامية على الأوراق الرسمية. وبدأ المفكرون في القسطنطينية يفكرون على هذا النحو: «نحن أتراك ونريد اللغة التركية»، وشرعوا في إبدال كلمات تركية محل الكلمات من

أصل عربي أو فارسي. واعتبروا أن الاسم «عثماني» لا يعبر عن الأتراك أكثر من تعبير الاسم العائلي «أموي» عن العرب الأوائل، فـ«لا يمكن أن تكون هناك أمة عثمانية ولا لغة عثمانية»[34].

كانوا يريدون بهذا النمو للنزعة القومية تفكيك تاريخ طويل من التشويه العرقي. لم تكن الطبقة الحاكمة العثمانية وحدها هي التي تستخدم كلمة تركي بمعنى «أخرق»، بل ادعى العرب أيضا تفوقا ثقافيا على الأتراك. ووصف روائي بيروتي Perote[*] الأتراك بأنهم «شعب أحمق». ووفقا لكتاب نشره ساكن أوروبي في المدينة في العام 1915، فإن «الأتراك ليست عندهم طموحات ثقافية ولا نزعة قومية، إنهم شعب لا شكل له»[35].

تنعكس الجاذبية المتنامية للقومية التركية في حياة الممثل الحديث البارز لعائلة الكوبرولي فؤاد كوبرولو Fuad Koprulu مؤسس التأريخ التركي الحديث. لم يذكر فؤاد أسلافه قط، ويتذكر ابنه أورخان كوبرولو (Orhan Koprulu) أباه وهو يقول «في بلدنا لا توجد طبقة نبلاء». غير أنه على الرغم من أن فرعه العائلي يتحدر من إحدى بنات، وليس أبناء، الصدر الأعظم الكوبرولي الأول، فإنهم يستخدمون الاسم كوبرولو زاده Kopruluzade. خدمت العائلة إبان القرن الثامن عشر في الجيش، وإبان القرن التاسع عشر في الإدارة، وكان كوبرولو زاده أحمد ضياء بيه (Kopruluzade Ahmed Ziya Bey) سفيرا للإمبراطورية في رومانيا في الأعوام من 1890 إلى 1892، وعمل ابنه إسماعيل فايز بيه (Ismail Faiz Bey) موظفا حكوميا وتزوج من لاجئة من بلغاريا. نتج عن هذا الزواج الأخير فؤاد كوبرولو الذي وُلِد في العام 1890 ونشأ في بيت العائلة المقابل لضريح ومكتبة الكوبرولي في ديوان يولو Divan Yolu. تركت عائلات أخرى من النخبة بيوتها في القسطنطينية وانتقلت إلى بيوت أو شقق حديثة في منطقتي شيشلي Shishli ونيشانتاش Nishantash الجديدتين الواقعتين وراء بيرا اللتين أصبحتا جاذبتين بسبب قربهما من القصرين الإمبراطوريين دولمة بهجت ويلدز. وعلى أي حال، ففي نحو العام 1900 بنت عائلة الكوبرولي كشكا في الحي التقليدي جنوب جامع السلطان أحمد. كان البيت الواقع بين البحر والأسوار البيزنطية القديمة، وإلى جوار الجامع الذي بُني في سنة الفتح العثماني وخط السكة الحديد إلى أوروبا، مكانا مثاليا لمؤرخ.

(*) هكذا وردت في الأصل. [المحرر].

تلقــى فؤاد كوبرولــو تعليمه في النظام التعليمي الحديــث الذي بدأ في العقد الخامــس من القرن التاســع عشر، وعلّم نفســه في البيت أيضــا. وسرعان ما أصبح ملما باللغة الفرنســية أفضل من معلميه، فضلا على اليونانية والعثمانية والفارسية والعربيــة. عاش فؤاد دائما مترفعا عن الحياة العادية، وكانت أســعد لحظات حياته هــي تلــك التي يفرد فيهــا الكتب في دائــرة حوله على الأرض ويحــاول أن يقرأها جميعا معا. وفي حالته كانت الكتب، وليســت المدينة أو ســكانها، هي التي تشكل حلقة الوصل مع الثقافة الفرنســية. وبفضل إلمامه بالأدبين العثماني والغربي كليهما، مثل الكثير من أعضاء نخبة القســطنطينية، كان فؤاد مشتركا في مجلة روفو دي دو موند Revue des Deux Mondes (مجلة العالمين النقدية). وأحب الرؤية العلمية ووضوح المفكرين الفرنســيين الحديثين، خاصة مؤسس علم الاجتماع الحديث إميل دوركيــم الذي قــال إنه لا وجود للأفراد، بل للمجتمع وحســب. كان فؤاد كوبرولو وضعيا يؤمن بقيمة العلم. وتمثل إنجازه الفكري الأساسي في حياته المهنية التي كتب فيها فيضا من المقالات وخمسة وسبعين كتابا، في تطبيقه للمناهج العلمية الحديثة على دراســة الثقافة والتاريــخ التركيين. ولم يكن يؤدي الصلــوات اليومية الخمس، ونادرا ما كان يذهب إلى المسجد[36].

تَمَثّل أوّل عمل منشور له في قصيدة في العائلة المالكة احتفالا بعيد ميلاد عبدالحميد الثالث والســتين في العام 1906، غير أنه بعد العام 1908 كان قوميا متحمسا. انضم إلى الجمعية التركية Turkish Association التي أُسست في العام 1908 «لدراسة إنجازات الشــعب التركي في كل مكان ونشــاطاته وظروفه القديمة والحالية». وبصحبة الشــاعر العظيم يحيى كمال (Yahya Kemal) وأصدقاء آخرين مثل طلعت باشــا، كان يذهب كل يــوم جمعة إلى جزيرة بيــوك أطه Buyukada لتناول العشــاء في بيت ضياء كوك ألب. كانت هذه الجزيرة التي شــكلت مصيفا لأهل القسطنطينية والتي لاتزال بيوتها الخشبية الشاهقة، بعمارتها التي تنتمي إلى الفن الجديد وعرباتها التي تجرها الخيول، تستدعي جو المدينة العثمانية المتأخرة وعبقها، كانت أغلبية سكانها من اليونانيين. ومع ذلك، فعلى أرضها شُــيّد صرح القومية التركية الحديثة. كان كوك ألب قوميا رومانســيا تهيمــن عليه أحلام طوران، وكان من المخلصين في محاولة إنقاذ الإمبراطورية العثمانية. ومــن خلال عدم تعريف الأمة بالعــرق، وإنما «الرابطة المشــتركة للثقافة والوجدان»،

أراد كوك ألب أن يضم إلى أمته المتخيلة أي أراض تركية يُقرأ فيها القرآن باللغة التركية و«تتفق على المُثل والعادات واللسان والاعتقاد»[37].

آمن كوك ألب وكوبرولو ومفكرون آخرون من أمثال عبدالله جودت (Abdullah Cevdet) بأنه لا محيص عن قبول الثقافة الغربية كليا، «بحلوها ومرها». أغفل هؤلاء الميراث العثماني القائم على التعددية القومية والفن والدين والشعر والأخلاق والعادات، واقتنعوا بأن «الحضارة تعني الحضارة الأوروبية». ولم تسلم من هجومهم حتى بعض جوانب الإسلام، من ذلك أنه في العام 1913 نشرت جريدة اسمها «البحث الحر» Free Search كان يحررها عبدالله جودت، مقالات تشن حربا على علماء الدين وتتعرض للنبي بالنقد.

كانت القومية جانبا من الثقافة الغربية قبله كوبرولو من دون تردد. ورأى أن الأتراك نسوا تاريخهم ولغتهم، وأنهم لو أصبح لديهم وعي وهدف قوميان، فإن الإمبراطورية العثمانية يمكن أن تنتعش كما فعلت ألمانيا وإيطاليا. كتب في مقالة شهيرة في العام 1913 في جريدة ترك أوردو:

> القوميون الأتراك ليسوا رجعيين ولا حالمين ولا انفصاليين، وإنما يؤمنون فحسب بأن الحفاظ على العثمانية والإسلام يعتمد على إيقاظ التركية وتنميتها. وفقط عندما يمتلك الأتراك وعيا قوميا بأنفسهم، ستتوافر للعثمانية والإسلام قوة الجذب الضرورية للحفاظ على الإمبراطورية. وفي هذه الحالة، فقط، ستتمكن المكوّنات المختلفة التي تؤلف الإمبراطورية من متابعة نموها القومي في تناغم كامل مع الإمبراطورية.

تجاهل كوبرولو التعددية القومية في التاريخ العثماني وجذور عائلته هو نفسه الألبانية، حين كتب: «إن القوة المركزية للإمبراطورية تركية كما كانت دائما ... فالإمبراطورية قبل كل شيء آخر سلطنة إسلامية تركية». لم يكن كوبرولو يكنّ حبا كبيرا للأقليات أو يتخذ أصدقاء كثيرين منهم. وكتب في العام 1912 أن الأتراك تمكنوا من احتكار التجارة مع الغرب منذ «هروب السكان المسيحيين خوفا من الخدمة العسكرية دفاعا عن الإمبراطورية»[38].

حتى إن بعض أعضاء تركيا الفتاة بدأوا في مناقشة إحداث ثورة في اللغة وتبني الأبجدية اللاتينية بدلا من الأبجدية العربية، ودفعوا بـ«أننا لسنا أقل من الفرنسيين

في كوننا لسنا عربا». وفي بعض الأحيان كان مصطفى كمال، الضابط الشاب الطموح الـذي خدم في حملة تركيا الفتاة للعـام 1909، يكتب اللغة التركية بحروف لاتينية لصديق في بيرا يدعى كورين (Corinne). وشجبت خالدة أديب الأبجدية العثمانية: «ما الذي تنتظره من وسـيط للتعليم يحتاج إلى سـت سـنوات تقريبا من الدراسة والممارسة قبل أن تتمكن من كتابته»[39].

كان مـن بـين نتائج ميلاد القوميـة التركية - في الخامـس والعشرين من مارس 1912 - إنشاء جمعية «البيت التركي» التي فتحت أبوابها للأتراك فقط دون المسلمين الأجانب. وسرعان ما تحوّلت هذه الجمعية إلى شـبكة واسـعة من النوادي ترحب باللاجئين الأتراك من البلقان وتعمل «من أجل التربية القومية للشـعب التركي الذي يشكل أهم مكوّن للإسلام، والارتقاء بمستواه الفكري والاجتماعي والاقتصادي، وكمال اللغة والعرق التركيين». نظمت الجمعية في ناديها ومكتبتها بالقسـطنطينية دروسـا مسائية ومحاضرات عامة - خاصة حول الأبطال في التاريخ والفن التركيين - وأمسيات أدبية وفنية، وكان ضياء كوك ألب وفؤاد كوبرولو يحضران معظم الأمسيات[40].

غـير أن نمو القوميـة التركية كان مجرد موضة ثقافية مقصـورة على دائرة صغيرة. ولم يقـم الألف وثمانمائة عضو بالبيت التركي بتحـركات جماهيرية. وهاجمت الصحف الإسـلامية اسـتخدام مصطلحات مثل «الحكومـة التركية» و«الجيـش التركي». وكتب سـليمان نظيف (Suleyman Nazif): «لا يوجد في عروقنا غير الدم العثماني». ووصف أحمد نعيم (Ahmed Naim) القومية بأنها «بدعة أجنبية قاتلة لجسـم الإسـلام مثل السرطان القاتل لجسـم الإنسان». ورفضوا أي ربط بين العثمانيين وآسيا الوسطى. وظل معظم المسـلمين في الإمبراطورية يسـمون أنفسـهم «عثمانلية» ويستخدمون الكلمة «تـركي» بمعنى «أخـرق». وفي العام 1915 قال أحد المارة في البـازار للصحافي الأمريكي جـون ريد John Reed: «يجب ألا تنادينا بالاسـم أتراك. فالتركي يعني المهرج الأخرق، أي الجلف كـما تقولون ... إننا عثمانلية عرق عريق ومهذب». وظلت القسـطنطينية مدينـة متعددة القوميات، ورغم انجذاب الحكومة إلى القومية التركية، فإنها مارسـت التعدديـة القومية في الأفعال والكلام. فجيش تركيا الفتاة القادم من سـالونيك رافقته فرق من الفدائيين البلغاريين واليونانيين والألبان، أرهبت أصحاب الدكاكين بالعاصمة. وعُيّن ديميتريـوس مافروغورداتـو أفنـدي (Demetrius Mavrogordato Efendi)، من الفرع

المصرفي للعائلة، وزيرا للتجارة والزراعة (بمعنى إعطاء حقيبة وزارية غير مهمة لمسيحي دلالة على حسن النية والارتياب في الوقت عينه)[41].

كما أعادت العائلة الحاكمة في العام 1912 تأكيد سلطتها على لجنة الاتحاد والترقي. كان أقوى أفراد العائلة ابنا لعبدالعزيز يدعى عبدالمجيد أفندي، وهو أمير مهيب الطلعة وبالغ اللطف، أقام في أثناء عهد عبدالحميد في بيت أعلى أوسكودار، وكان ممنوعا من زيارة القسطنطينية. قال هذا الأمير للوتي بيير إنه قضى ثمانية وعشرين عاما في قبر[42]. مثل فؤاد كوبرولو، كان عبدالمجيد نتاجا لزواج النخبة العثمانية من الثقافة الفرنسية. كان يتحدث العثمانية والعربية والفرنسية والألمانية، وسمى فرنسا وطنا ثانيا. قضى الأمير عزلته في تأليف الموسيقى الكلاسيكية وقراءة الأعمال الكاملة لفيكتور هوغو وأحدث أعداد مجلة روفو دي دو موند وتهذيب حديقته. ومثل الكثير من العثمانيين المتعلمين، من أمثال عثمان حمدي بيه وخليل باشا، كان الأمير عبدالمجيد يرسم لوحات بالأسلوب الباريسي الحديث، وتحديدا البيزاج peyzaj (المناظر الطبيعية) ومشاهد من التاريخ العثماني مثل وصية السلطان سليم الثالث إلى شاه زاده محمود أو عزل عبدالحميد الثاني.

بفضل جمعه بين الكوزموبوليتانية والوطنية، شجع عبدالمجيد أفندي أيضا إحياء الثقافة التركية. فكان بيته مبنيا بالأسلوب العثماني المُحْـدث بأفاريز عريضة وجدران زاهية الألوان ومدفئات مبطنة ببلاط كوتاهية، وصمم بنفسه بابا سلجوقيا مُحْدَثا. وبعد العام 1908، كانت تجتمع في بيته مجموعات من الكتاب والموسيقيين الأتراك، وتُمثَّل مسرحيات عبدالحق حامد (Abdulhak Hamid) في حديقته. وأصبح عبدالمجيد - صديق توفيق فكرت مؤلف «الضباب» - الذي وُصف بأنه «مايسيناس(*) الشعراء والفنانين الأتراك الفقراء»، راعيا نشطا لمدارس الموسيقى والرسم في القسطنطينية.

وفي العام 1911، توسل عبدالمجيد وأبناء عمومته، في الكثير من المقابلات مع السلطان، «باسم العائلة العثمانية»، أن يعيد الصدر الأعظم السابق كامل باشا. غير أن السلطان في هذا الموقف وجد مجالا للمناورة بسبب الكراهية الحزبية بين لجنة

(*) غايوس سلنيوس مايسيناس Gaius Cilnius Maecenas (من 15 أبريل 68 قبل الميلاد إلى العام 8 بعد الميلاد) صديق أوكتافيان (القيصر أغسطس) ومستشاره السياسي، كان راعيا لجيل جديد من الشعراء الأغسطسيين، منهم هوراس وفيرجيل. [المترجم].

الاتحاد والترقي ومنافسها الاتحاد الليبرالي المؤيد للامركزية. ووجد السلطان فرصة مواتية في انتصار انتخابي في القسطنطينية في ديسمبر 1911 لطاهر حيدر الدين (Tahir Hayreddin) ابن الصدر الأعظم في العام 1878، على مرشح لجنة الاتحاد والترقي. وفي الحادي والعشرين من يوليو 1912، شكّل السلطان حكومة جديدة برئاسة غازي أحمد مختار باشا بها ثلاثة من الصدور العظماء السابقين. وفصّل السكرتير الأول في القصر الموالي للجنة، وقدم وعدا للألبان بحكم ذاتي أوسع وأجبر ضباط الجيش على القسم بألا يتدخلوا في السياسة[43].

عند هذه النقطة كانت هناك كوارث جديدة تضرب الإمبراطورية والقسطنطينية. وقعت الإمبراطورية ضحية للتصاعد العام في العدوان والتنافس بين الدول الأوروبية قبل العام 1914. فبوحي من نموذج ألمانيا أو خوفا منه، بدأت هيئات الأركان العامة تغيّر خططها الحربية من الدفاع إلى الهجوم وترفع إنفاقها على التسليح بدرجات هائلة. وفي أكتوبر 1911، هاجمت إيطاليا إقليم طرابلس العثماني في شمال أفريقيا. وفي أبريل ويوليو 1912، حاصر الأسطول الإيطالي الدردنيل لإجبار الإمبراطورية العثمانية على توقيع اتفاق سلام. ردت الحكومة العثمانية بإغلاق المضايق. ونتيجة لذلك انهارت الصادرات الروسية التي كان ما بين ثلثها ونصفها يمر من خلال المضايق، وتسارعت عمليات السحب من البنوك الروسية. وباتت روسيا راغبة في امتلاك القسطنطينية والمضايق لأسباب اقتصادية، فضلا على الأسباب الإستراتيجية والدينية والإمبريالية[44].

كان من إنجازات عبدالحميد حفاظه على انقسام القوى البلقانية، غير أنهم بعد العام 1908 وحّدهم الذعر من إمكانية تعافي إمبراطورية عثمانية إصلاحية ودستورية تحظى بتعاطف أوروبا. حذرت صحيفة بلغارية قراءها بأن «يجهزوا بارودهم ويثبتوا أعينهم على القسطنطينية». ساعد الديبلوماسيون الروس ومراسل صحيفة التايمز في البلقان ج. د. بورتشير (J. D. Bourchier) الذي كان معروفا للبلغاريين باسم «بورتشيرنا» (our Bourchier) في تشكيل اتحاد بلقاني. وزار بورتشير القسطنطينية في سبتمبر 1911 لإجراء مصالحة بين البطريرك المسكوني والاكسرخس البلغاري. كان الحلف حتى ذلك الوقت يكرس جل طاقته لنشر تقارير الأعمال الوحشية البلغارية أو اليونانية في مقدونيا[45]، ثم تحوّل إلى الإمبراطورية العثمانية، وانضمت صربيا والجبل الأسود إليه.

اندلعت الحرب في السابع عشر من أكتوبر 1912. كان الجنرالات العثمانيون متلهفين جدا إلى حماية السكان المسلمين في مقدونيا ومتفائلين إلى درجة جعلتهم لا يلتزمون بخطة واقعية للحملة، كان نظام إمدادهم طويلا جدا، وكانت هيئة ضباطهم منقسمة بين مؤيد ومعارض للجنة الاتحاد والترقي. ونتيجة لذلك وقعت الكارثة، فضاعت الولايات التي ظلت عثمانية لخمسة قرون في خمسة أسابيع، وعلى صيحات «المسيح يُبعث!» دخل جيش يوناني سالونيك في التاسع عشر من نوفمبر، وبدأت عمليات «التهلين» في الحال، إذ أعيدت الكنائس التي أصبحت مساجد مع الفتح العثماني إلى تكريسها الأصلي، في تحذير للمصير الذي يدخره اليونانيون لآيا صوفيا. وأبحر الأتراك وعائلاتهم عن سالونيك، وأعيد عبدالحميد وأسرته إلى القسطنطينية ووضعوا في قصر بليرباي. وعومل السلطان السابق بالمعاملة نفسها التي عامل بها أبناء عمومته، إذ وضع على مرمى البصر من يلدز، لكن حُرمت عليه زيارته.

كان النظام العثماني القديم يتحلل. كان لإحدى المقاطعات الألبانية نائب منتخب في البرلمان العثماني، هو إسماعيل كمال بيه (Ismail Kemal)، كان مسؤولا سابقا في الباب العالي، تحوّل إلى القومية الألبانية. بعد أن بدأت الحرب مباشرة، أبحر إسماعيل، مثل الكثير من السياسيين القوميين الآخرين إبان العقد التالي، من القسطنطينية لتأسيس دولة جديدة. وفي الثامن والعشرين من نوفمبر 1912، أعلن في فالونا (Valona) (فالون Vlone) بيان استقلال ألبانيا. وأصبح المسؤول السابق بالباب العالي رئيس أول حكومة وطنية ألبانية. وكان ذلك بداية القطيعة بين القسطنطينية والعرق الذي أمدها بصدور عظماء وجنرالات، إضافة إلى الباعة المتجولين وعمال رصف الشوارع.

وبحلول الخامس عشر من نوفمبر، كان الجيش البلغاري قد فتح كل تراقيا، ما عدا إدرنة، ووصل إلى خطوط تشاتالجا Catalca lines، وهي امتدادات من الموانع الأرضية والتحصينات بُنيت في العامين 1877 و1878 على بعد اثنين وعشرين ميلا غرب المدينة. وعلى رغم إهمال عبدالحميد غير المبرر، ظلت هذه التحصينات مانعا هائلا. لم يكن القيصر فردناند البلغاري قد نسي طموحاته البيزنطية. وقيل إنه قال: «سوف نفرض الصلح في القسطنطينية»، وإنه جهز مركباته وملابسه الإمبراطورية

استعدادا لدخول المدينة من الباب الذهبي. انزعج وزير الخارجية الروسي من نجاح بلغاريا، وعاد إلى سياسة روسيا التقليدية: على البسفور لا يمكن أن يوجد غير الأتراك أو الروس[46].

عاد الجنود العثمانيون، الذين زحفوا مزهوين خلال المدينة في بداية الحرب، جوعى وملطخين بالدماء. وغصت القسطنطينية بعربات تجرها ثيران، تجلس عليها فوق قش عائلات مسلمة متعبة وهزيلة، فرت من الأعمال الوحشية للجيوش البلقانية المتقدمة. وأصبح جامع السلطان أحمد مخيم لاجئين، والفاتح مستشفى، وآيا صوفيا مشفى للكوليرا. وأنشئ متحف الأوقاف (Museum of Vakifs) (الذي تحوّل لاحقا إلى المتحف الحالي للفن التركي والإسلامي) لاستيعاب السجاد ولوحات الخط اليدوي وأعمال النقش الخشبي التي اضطروا إلى إخلائها من المساجد. وظهرت الجمال ثانية في شوارع بيرا، لأن الجيش صادر كل الخيول. وفي كل ليلة، كانت الحرائق تندلع، وهي الإشارة القديمة إلى السخط الحضري[47].

علقت السفارات حفلات الاستقبال، وتحولت السفارة الألمانية إلى مستشفى، وعلى الجانب الآخر من بحر مرمرة، في مودا، مزقت عائلة ويتال مفارشها لعمل ضمادات للجرحى العثمانيين. فيما ظلت صالات الرقص والمسارح في بيرا والمطاعم العصرية مثل توكتليان وماركيز (Marquise) مزدحمة بروادها. وكان الجنود المصابون يصعدون التل ويمرون بفندق بيرا بالاس وهم يترنحون على صوت موسيقى الفالس التي كانت تُعزف داخل الفندق للحفلة الراقصة المسائية اليومية. ووفقا لأوديت كوين (Odette Keun) التي كتبت رواية عن هذه السنوات، فإن البيريين أخذوا يقولون بين أكواب الشاي: «لم يعد الأتراك يعرفون كيف يحاربون».

تخلى الكثير من اليونانيين عن العثمانية، وعادوا إلى طموحهم القديم بتحقيق الفكرة الكبرى. كان الشاعر كوستيس بالاماس (Kostis Palamas) قد كتب من اليونان في العام 1910 قصيدته «ناي الملك» (The King's Flute) إجلالا لسحر القسطنطينية وأسطورة الإمبراطور البيزنطي الأخير المختفي في المرمر تحت الباب الذهبي في أسوار المدينة:

يقول الملك سأبعث من نومتي المرمرية
ومن قبري السري سأخرج
لأفتح الباب الذهبي المغلق بالطوب على مصراعيه
منتصرا على الخلفاء والقياصرة
أتعقبهم إلى ما بعد شجرة التفاح الأحمر
وأتربع على حدودي القديمة.

وتحت تأثير الهزائم العثمانية، تحوّل البطريرك المسكوني جوكيم الثالث الذي كان متعقلا تماما في السابق، إلى قومي لا يقل حماسا عن فؤاد كوبرولو. نسي البطريرك، الذي قبّل أناناسة السلطان ذات مرة، استخدام الفنار الناجح للإمبراطورية العثمانية على مدى ثلاثة قرون لتقوية سلطته الإكليروسية وهيمنة الثقافة اليونانية على المسيحية الشرقية، وقال مُتَهَلين فرنسي(*) إن الإمبراطورية العثمانية

> قوة أجنبية عن عرقي وديني وأمتي... إنني أمثل فكرة. وهو ما يعطيني في ضعفي المادي قوة جبارة. ستنتصر طهارة الفكرة عاجلا أم آجلا على وحشية الأمر الواقع... لا شيء يستطيع أن ينتصر على الفكرة. فهي حية، وخالدة. وهي التي أنقذتنا لأربعة قرون.

كان أغلب رعية البطريريك يشاطرونه هذه المشاعر(مع أن ليونيداس ظريفي (Leonidas Zarifi) أحد المصرفيين اليونانيين أعطى الطابق الأرضي ببيته في بيرا للهلال الأحمر). وكانت الأخبار إذا جاءت بانتصار تركي أغلق اليونانيون بيوتهم على أنفسهم. أما مع الأخبار الأولى للهزيمة، فقد خرجوا في شارع بيرا الكبير ضاحكين وواثقين.

كانت بيرا ممتلئة بالصحافيين وكذلك الإشاعات عن المذابح «التي تربى عليها كل بيري صادق» بتعبير أوديت كوين[48]. أصبحت هذه المخاوف أداة للسياسة العثمانية عندما هدد الصدر الأعظم كامل باشا السفراء والأجانب بارتكاب مذابح في المدينة إذا دخلها الجيش البلغاري. تجلى آخر تعبير عسكري لتفاهم أوروبا(**) الذي نظم القارة منذ هزيمة نابليون (باستثناء عهد ابن أخيه) في شوارع القسطنطينية في العامين 1912 و1913. ففي الثاني عشر من نوفمبر رست في البسفور - بإذن

(*) المتهلين - على وزن المستعرب والمستشرق - هو الشخص المعجب بالهلينيين – اليونانيين - وثقافتهم وأدبهم والدارس لها. [المترجم].

(**) راجع حاشية سابقة للمترجم حول تفاهم أوروبا. [المترجم].

عثماني - أربع عشرة بارجة أجنبية تحمل ألفين وسبعمائة بحار لطمأنة السكان المسيحيين. وفي السادس عشر من نوفمبر طلب وفد من البطريركية الأرمنية الحماية من السفارات. وفي الثامن عشر من نوفمبر نزل البحارة بالرشاشات إلى المدينة. تمركز الفرنسيون في غَلَطَة، والبريطانيون في بيرا، والنمساويون والألمان في تقسيم، والروس على طول أرصفة الميناء[49].

وفي السابع عشر من نوفمبر أخذت نوافذ البيوت تتخبط والأرض تهتز، عندما فتحت المدافع البلغارية والعثمانية النار على طول خطوط تشاتالجا. كانت عائلة ويتال في مودا تسمع أصوات المدافع المقعقعة على بعد ثمانين ميلا. كتبت ماري بوينتر (Mary Poynter)، وهي امرأة إنجليزية كانت تقيم في نيشانتاش في يومياتها:

> إنه يوم خريفي ساكن دافئ، مع رياح جنوبية رقيقة، والشمس تحتجب خلف غيوم خفيفة. جاء صوت المعركة من بعيد في هذه الأيام الرطبة وبدا كأنه قريب، لكنهم أخبرونا أنها تبعد عنا عشرين ميلا على الأقل... وفي وقت مبكر من هذا الصباح جاء صوت إطلاق نيران المدفعية مثل رعد بعيد، ثم جاء في هدير مشؤوم مكتوم مع تغير تيارات الهواء، ثم انفجارات شديدة جعلت الأرض تهتز.

اكتظت أسطح البيوت وشرفاتها في بيرا بالمتفرجين الذين هرب الدم من وجوه بعضهم من الخوف. وتعلموا سريعا أن يميّزوا بين الصوت الجاف الحاد للطلقات التي تطلق من السفن العثمانية في بحر مرمرة و«الارتطام المكتوم الغريب» - بتعبير هارولد نيكولسن (Harold Nicolson) السكرتير الثالث بالسفارة البريطانية - لأصوات المدافع البرية. وعلى رغم وجود الحرب خارج أسوار المدينة والخوف داخلها وقعت الاضطرابات الوحيدة في المدينة من جانب البحارة الأجانب الذين أرسلوا لمنع الاضطرابات، خاصة بسبب الشجارات بين الفرنسيين والألمان[50].

كان الموقع الجغرافي للقسطنطينية في نهاية شبه جزيرة، بعيدا عن المراكز السكانية الأخرى، ميزة في العام 1912، تماما كما كان في العام 1878، ما جعل الجيوش الروسية والبلغارية لا تكاد تقترب من الجائزة حتى تكون قد استنفدت قوتها وأطالت خطوط إمدادها أطول مما ينبغي. وعلى رغم انتشار الكوليرا والإسهال قاتلت القوات العثمانية جيدة الإمداد بالطعام والمدافع بحماسة متجددة دفاعا عن

«كرسي الخلافة». وفي الثامن عشر من نوفمبر، فشل البلغاريون في اقتحام تشاتالجا. وفي الثالث من ديسمبر، وُقِّعت هدنة، وأُطلِقت مفاوضات صلح في لندن[51].

عندما عاد أنور من إقليم طرابلس الذي كان يقود فيه المقاومة ضد الإيطاليين، أغضبــه خوف المدينــة وفتورها. كانت الكراهية بين مؤيــدي لجنة الاتحاد والترقي وأعدائهــا تبدو في قوة الكراهية بين أصحاب القوميات المختلفة. وبناء على نصيحة القــوى العظمى الأوروبية في مؤتمر لندن، قررت الحكومة أن تتنازل للبلغاريين عن إدرنة، ثانية أكبر مدينة في الإمبراطورية. تتبدى ثقة أنور في أنه يسيطر على «قلوب الأمــة كلها»، فيما كتبــه إلى صديق ألماني في الرابع عشر مــن يناير: «أنا لا أحب أن أتصرف كثوري، لكنني لا أعرف إلى أين ستؤول الأمور... ولكي أنقذ الوطن أو أموت بشرف، سأكون مستعدا لأن أقلب كل شيء»[52].

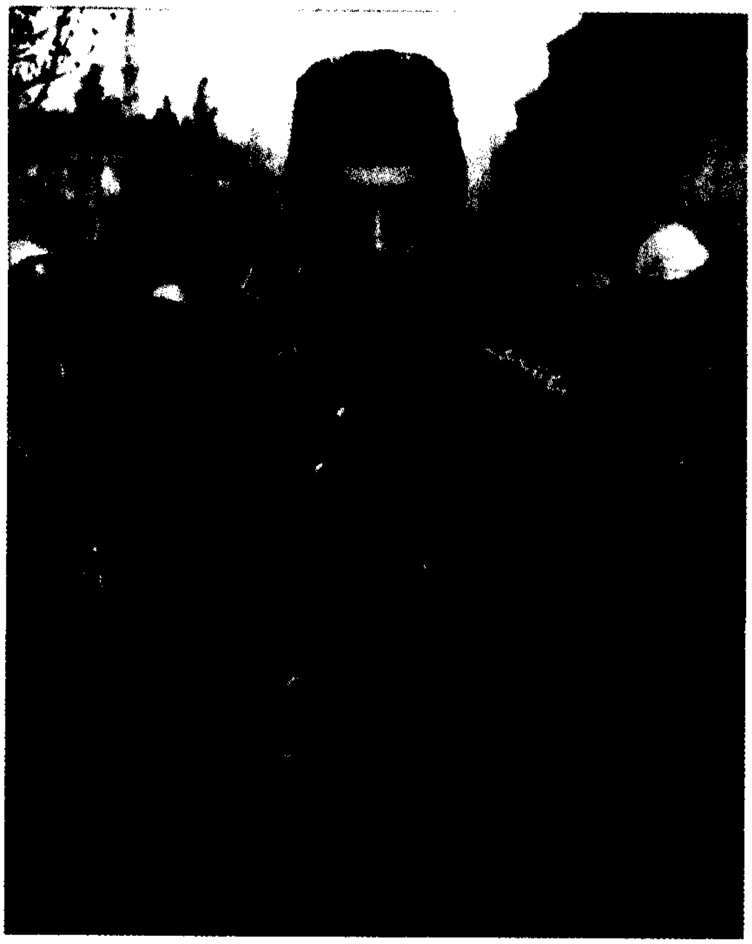

الرســام فوســتو زونارو، أنور بيه، 1909. يقف أنــور بطل ثورة تركيــا الفتاة محاطا بالجنود غير النظاميين المقدونيين الذين رافقوا جيشه

وفي تمـام الثالثة مسـاء يوم الثالث والعشرين من ينايـر 1913، قاد أنور يرافقه صامويل إزرائيل (Samuel Israel) رئيس القلم السـياسي بالشرطة وطلعت وجمال ونحو خمسـين أو ستين رجلا يلوحون برايات الحرية والأعلام الإسلامية، هجوما على الباب العالي. وقطعوا خط الهاتف ورتبوا لكي تتولى كتيبة موالية للجنة حراسة الباب العـالي. أعطتهم هذه الكتيبة التحية وهم يدخلون صائحين «الموت لكامل باشـا!». اندفعـوا إلى الطابق العلوي، إلى مكتب الصدر الأعظم، وقتلوا وزير الحربية وضابطا معاونـا يدعـى النقيب كيبريسـلي (Captain Kibrisli) وضابطـا معاونا آخر رميا بالرصاص. استقال الصدر الأعظم. وعيّن أنور قادة جددا للجيش وعيّن محمود شوكت باشـا صدرا أعظم. وبعد عشرين دقيقة دخل ضابط مبتسـم ليخبر أنور عن وجود حشـد في الخارج من خمسمائة شـخص: «لدينا ثورة صغيرة». خطب مجموعة من الهنود، الذين كان وجودهم إشـارة إلى استمرار تعلق العالم الإسلامي بالإمبراطورية، في الحشـد قائلين إن الهند مـع تركيا كالقلب والروح. لم يصدق السـلطان في بادئ الأمر، وأرسـل شـماشرجيه الأول من قصر دولمة بهجت للتحقق من الأخبار. وبرغبة مـن أنور، دخلت الإمبراطورية الحرب من جديد. وتباهى أنور بأنه كان يعمل سـتا وثلاثين سـاعة يوميا وأنه تمكن من ضمان الانتصار. وشكّل حكومة جديدة من دون علم الأجانب، وتمتع بقوة مكّنته من التصدي للجيش البلغاري كاملا[53].

وفي فبراير، عادت طلقات المدافع في تشـاتالجا تدوي في المدينة مجددا. غير أن الجيش العثماني لم يسـتطع أن ينقذ إدرنة. وشـهدت القسـطنطينية يوم حداد في السـادس والعشرين من مارس 1913 عندما سـقط غريمها القديم أمام البلغاريين، وعلى رغم ذلك نال أنور إعجاب الإمبراطورية عندما قاد الجيش الذي استرد إدرنة في الثاني والعشرين من يوليو، التي جاء استردادها نتيجة للتشتت الذي نتج عن هجوم بلغاريا على اليونان وصربيا، أكثر منه عن القوة العسكرية العثمانية.

زاد ضعف الإمبراطورية من شـدة انحياز القـوى العظمى المعادي للعثمانيين، الـذي كان ينمـو منذ العقد الأخير من القرن التاسـع عشر. قبل الحرب، وبسـبب توقـع الانتصار العثماني، أصـدرت القوى العظمى إعلانا ضـد إحداث أي تغييرات على الوضع الراهن في البلقان. غير أنهم بعد الهزائم العثمانية ساعدوا دول البلقان في تقاسـم الغنائم. وتقـررت الحماية الاقتصادية غير الرسـمية لبريطانيا في بلد ما

بين النهرين، ولفرنسا في سورية، ولروسيا في شمال الأناضول، ولألمانيا على طول خط سكة حديد برلين - بغداد. كتب السفير البريطاني: «كل القوى، ونحن من ضمنها، تحاول أن تنتزع كل ما تستطيع من تركيا. ومع أنهم جميعا كانوا يتشدقون برغبتهم في الحفاظ على سلامة الأراضي التركية، فإن أحدا منهم لا يمارس ذلك على أرض الواقع». تخلل الشعور بأن الإمبراطورية العثمانية كانت تكابد سكرات الموت، الخطابات الخاصة وكذلك التقارير الديبلوماسية. وقيل إن بعضا من أعضاء لجنة الاتحاد والترقي كانوا يؤيدون قيام جمهورية. ودعا الصدر الأعظم المطرود كامل باشا المعروف عن حق باسم «كامل الإنجليزي» إلى «درجة كافية» من السيطرة الأجنبية ... على الإدارة في تركيا[54].

وفي محاولة منها لتحديث القوات المسلحة وإبعادها عن السياسة في آن معا، استقدمت اللجنة ضباطا بريطانيين لإعادة تنظيم الأسطول، وضباطا ألمانيين لإعادة تنظيم الجيش، وضباطا فرنسيين لإعادة تنظيم الجندرمة. وحصلت شركة الذخيرة البريطانية فيكرز (Vickers) تحت مسمى «الشركة الإمبراطورية العثمانية لأحواض السفن والترسانات والإنشاءات البحرية»، على إيجار لمدة ثلاثين عاما لمعقل القوة البحرية العثمانية: الترسانة الواقعة على القرن الذهبي[55]. وصل الجنرال ليمان فون ساندرز (Liman von Sanders) في الرابع عشر من ديسمبر 1913 على رأس ستين ضابطا وأُعطي مكتبا في وزارة الحربية. كان الخوف من الألمان الموجودين في القسطنطينية السبب الأساس للتوتر بين ألمانيا وروسيا عشية الحرب العالمية الأولى. وقويت شوكة أنور الذي أصبح وزيرا للحربية وكان معروفا بأنه صديق ألمانيا. واغتيل آخر صدر أعظم مستقل - محمود شوكت باشا - بإطلاق النار عليه في الحادي عشر من يونيو 1913، بينما كان يقود سيارة عبر ساحة بايزيد، في واحدة من السيارات القليلة جدا في شوارع المدينة (ومنذ ذلك الحين، كانت السيارة التي يتنقل بها أنور خلال شوارع القسطنطينية تتبعها سيارة أخرى تحوي حراسا بتسليح ثقيل). واتهم في مقتله قريب للعائلة الإمبراطورية وأخو النائب الليبرالي الناجح في انتخابات العام 1912 وأُعدِما. كان الصدر الأعظم الجديد، وهو سعيد حليم باشا سليل محمد علي مؤسس العائلة الحاكمة المصرية، الرجل ذو الأذواق الفاخرة والزائر الدائم لحلقة الشرق، لعبة في أيدي اللجنة. تزوج أنور نجية سلطان (Naciye Sultan) ابنة أخت

السلطان الأثيرة لديه في فبراير 1914، لتكون واحدة من الزيجات القليلة في التاريخ بين ثائر وأميرة إمبراطورية. وعاشا حياة مترفة في يالي في كورو شيسمه[56].

زادت المشكلات مع اليونانيين أوجاع الإمبراطورية، إذ أدت إعادة توطين زهاء أربعمائة ألف لاجئ مسلم من الولايات المفقودة في البلقان إلى تصاعد التوترات. وربما حدثت محاولات حكومية لإرهاب اليونانيين ودفعهم إلى الهجرة. وفي أوائل العام 1914، هُدمت بعض البيوت بأوامر الحكومة في قرى يونانية بالقرب من العاصمة. وفي يونيو أعلن البطريرك إغلاق المدارس والكنائس اليونانية. تصرف البطريرك كأن الفنار كان في قوة الفاتيكان واستقلاله، وأرسل مذكرات إلى السفارات الأجنبية، وزار المفوضية اليونانية شخصيا، وطلب استثناء من الخدمة العسكرية لبعض موظفيه[57].

تدهورت العلاقات مع العرب أيضا. كان أحد القوميين العرب البارزين هو عزيز علي «المصري» (Aziz Ali al-Masri) خريج الكلية الحربية بالقسطنطينية، الذي يرجع تبنيه لفكرة القومية العربية إلى التنافس الشخصي مع أنور، أكثر منه إلى العرق أو اللغة، إذ كان شركسيا شارك في ثورة تركيا الفتاة. وفي التاسع من فبراير 1914، قُبض عليه في أثناء خروجه من فندق توكتليان بعد الغداء، للاشتباه في أنه يخطط للتمرد. وبعد محاكمة طويلة، أطلق سراحه بضغط بريطاني، وأبحر بعيدا إلى مصر، وكان بذلك زعيما آخر لثورة قومية مستقبلية غادر العاصمة(*). في هذه الأثناء كان الشريف عبدالله نائب مكة الذي أحب القسطنطينية بشدة، يخطط للاستقلال العربي، وفاتح اللورد كيتشنر في ذلك في أثناء توقفه في القاهرة خلال رحلاته بين مكة والقسطنطينية[58].

أعطى اندلاع الحرب في يوليو 1914 الإمبراطورية العثمانية فرصة لتقوية موقفها. كان من شأن الحياد أن يزيد ازدهارها الاقتصادي ووزنها الديبلوماسي. غير أن الحكومة الثلاثية (كما كان يطلق أحيانا على أنور وجمال وطلعت) رأت أن الإمبراطورية في حاجة إلى تحالف. لم يؤد الاقتراب المؤقت من جانب طلعت إلى روسيا وجمال إلى فرنسا على التوالي، إلى أي نتيجة. وفي الثاني من أغسطس، في يالي سعيد حليم باشا في إينيكوي، ومن

(*) بعد أن غادر عزيز المصري القسطنطينية، أسهم في تأسيس وتنظيم الجيش النظامي للثورة العربية الكبرى بقيادة الشريف حسين الذي عيّن وزيرا ورئيس أركان له، ثم اختلف مع الشريف حسين بسبب مصادقة الأخير لإنجلترا وفرنسا وشك الأول فيهما بسبب التسريبات عن انتوائهما تقسيم المنطقة العربية، وغادر إلى مصر وفيها شغل عدة مناصب عسكرية وتواصل مع الألمان في أثناء الحرب العالمية الثانية وساعد الضباط الأحرار في تخطيطهم لثورة 23 يوليو 1952. [المترجم].

دون إخطـار بقية الـوزارة، وقّع أنور وطلعت تحالفا سريا مع ألمانيا، كان أنور يتفاوض بشـأنه منذ الثامن عشر من يوليو. تعهـدت الإمبراطورية العثمانية بدخول الحرب إلى جانـب ألمانيا، بيد أنها بقيت محايدة، وإن ظل جيشـها معبـأ. وفي ذلك الصيف الذي يعد الأكثر حسـما في تاريخ الإمبراطوريـة، تنازعت السـفارتان البريطانية والألمانية في القسطنطينية التأثير في الحكومة العثمانية.

في العـام 1908 أشـيد ببريطانيا لكونها موطن الحريـة، وانتُقدت ألمانيا لكونها صديقة عبدالحميد. وبعد إعادة الدسـتور استولى حشد من الساخطين على حصان مركبة السفير البريطاني الجديد على جسر غَلَطَة، واضطروه إلى جرها إلى سفارته أعلى التل. دان السـفراء والترجمانات هذه النزعة الشـعبوية، وأكدوا أن اللجنة يديرها اليهود والماسـونيون وحكومـة رفضت عروض التحالف التـي قدمت للإمبراطورية العثمانية. كانت الحكومة البريطانية خائفة من تأثير أفعالها في رعاياها المسلمين في مصر والهند ومن النظام البرلماني الناجح في القسـطنطينية. وكانت ثورة تركيا الفتاة قـد أحدثت تأثـيرا بعيدا، من ذلـك أن أمير بخارى أُجبِر في العـام 1911 على منح دستور لشعبه بضغط من حركة «بخارى الفتاة» المتأثرة بنموذج القسطنطينية.

وفي أغسطس 1914، تراجعت شعبية الحكومة البريطانية أكثر بمصادرتها بارجتين عثمانيتـين كان ثمنهما قد دُفِع بالاكتتـاب العام في الإمبراطورية العثمانية وصنعتا في الأحواض البريطانية (غير أن المصادرة لم تحدث مبكرا بما يكفي لمنع أنور من استخدام السفن كطعم لإغراء ألمانيا المترددة للتحالف معه في الثاني من أغسطس). وفي العاشر من أغسـطس وصل إلى بحر مرمرة الطرادان الألمانيان غوبن (Goeben) وبريسـلو (Breslau) اللذان زارا القسـطنطينية كجزء من الأسـطول الدولي في نوفمبر 1912، بعد مطاردة السفن البريطانية لهما في البحر الأبيض المتوسط. وفي الخامس عشر من أغسطس، سُلِّم الطرادان رسميا إلى الإمبراطورية على اعتبار أنها «اشترتهما»، ومعهما قائدهما الذكي والعدواني أمير البحر فيلهيلم سوشـون (Wilhelm Souchon) الذي عُيِّن بدوره قائدا عاما للأسـطول العثماني. وظل طاقما الطرادين، ياوز سـلطان سليم وميديلي، كما أعيدت تسـميتهما، ألمانيين، لكنهم كانوا في المناسـبات العامة يلبسون الطرابيـش. وغدا الـرأي العام العثماني أكـثر تأييدا لألمانيا. وقُـصِرت مهام الضباط البريطانيين العاملين في الأسطول العثماني على البر[59].

كان السفير الألماني هانز فرير فون وانغينهايم (Freiherr von Wangenheim) عملاق الجثة التورينغني(*)، يحظى باحترام كبير في القسطنطينية. كان خلال صيف 1914، في أيام الأخبار الجيدة الآتية من ألمانيا، يشاهَد جالسا على مقعد خارج سفارته الصيفية في طرابيا يقرأ الرسائل الديبلوماسية. بينما غاب السفير البريطاني سير لويس ماليت (Sir Louis Mallet) الأعزب المولع بالحدائق الإيطالية، في إجازة في شهر أغسطس. وعلى رغم خبرته في «المسائل الشرقية»، كان السير عاجزا ومتشائما، إذ فشل في استخدام استثمارات التحالف في الإمبراطورية (التي كانت أكبر كثيرا من استثمارات ألمانيا) والسيطرة على البك العثماني والديون كسلاح. وفي النهاية، عرضت بريطانيا وفرنسا وروسيا على الإمبراطورية ضمان سلامة أراضيها واستقلالها في مقابل استمرار حيادها. غير أنه في السادس من سبتمبر أبرق ماليت إلى وزير الخارجية سير إدوارد غري (Sir Edward Grey) قائلا إن «ضمان سلامة أراضي تركيا واستقلالها يشبه ضمان الحياة لرجل مصمم على الانتحار». غير أن عجزه كان ناتجا جزئيا عن هيمنة نزعة معادية للعثمانيين في السفارة، من ذلك ما كتبه ترجمانه أندرو رايان (Andrew Ryan) من أن «الأتراك لو تجاوزوا الحرب الأوروبية من دون أن يتورطوا فيها، فقد يتسببون في الكثير من المشكلات في المستقبل».

زاد إظهار الحياد من قوة تأثير الإمبراطورية. وأعيد فتح المدارس والكنائس اليونانية في نهاية أغسطس. وفي الثامن من سبتمبر ألغت الحكومة الامتيازات التي سمحت للكثير من الأجانب بالزهو بثرواتهم وجرائمهم في القسطنطينية. وفي التاسع والعاشر من سبتمبر احتفلت مسيرات بالمشاعل وقرع الطبول بهذا الانتصار العثماني أمام بيت طلعت القريب من آيا صوفيا وبيت جمال في منطقة نيشانتاش الجديدة وأمام الباب العالي وقصر دولمة بهجت. وكتب حسين جاهيد بيه محرر صحيفة «طنين» التابعة لتركيا الفتاة: «لم نكن نملك بلدنا، بل الأجانب هم الذين كانوا يملكونه». وأقام الصدر الأعظم مأدبة لثلاثمائة شخص في فندق توكتليان. وأعلنت الحكومة في الأول من أكتوبر 1914 إغلاق مكاتب البريد الأجنبية[60].

كانت كفتا الحرب والسلام متوازنتين. وبينما كانت ألمانيا تواصل القتال في المارن(**)، كان الجنرال ليمان فون ساندرز يشعر بالإحباط بسبب قعوده على

(*) نسبة إلى ولاية تورينغن الألمانية. [المترجم].

(**) المارن (Marne) منطقة في شمال فرنسا وقعت فيها معركة المارن الأولى بين الخامس والثاني عشر من سبتمبر 1914 التي انتصر فيها الحلفاء على ألمانيا وأوقفوا تقدم الجيش الألماني في فرنسا ومطاردته لجيوش الحلفاء. [المترجم].

البسفور من دون عمل. وشعر الجنرال التابع للحكومة العثمانية وليس الألمانية كأنه أسد مكبل. كان السفير الروسي غيرز (Giers) يعرف الصراع بين المعارضين للحرب والمؤيدين لها داخل الحكومة العثمانية، إذ رشا موظفا في مكتب البريد العثماني وتمكن من قراءة البرقيات الشفرية للسفير النمساوي. وفي الرابع عشر من سبتمبر اضطر أنور أمام ضغط زملائه بقيادة سعيد حليم لأن يلغي الأوامر التي أعطاها لسوشون بقيادة سفنه إلى البحر الأسود ومهاجمة روسيا.

كشف الهجوم على الباب العالي عن استحكام سيطرة أنور العسكرية على العاصمة. فالطريق من طرابيا إلى القسطنطينية في ذلك الصيف لم يكن مغطى بعربات طالبي المتعة، وإنما بخيام الجيش. وفي أوائل سبتمبر بدأ الضباط والمهندسون الألمان في الوصول بالقطار لتقوية حصون الدردنيل وإصلاح الأسطول العثماني. أبرق ماليت إلى حكومته في السابع عشر من سبتمبر: «مادام الجيش معبأ ووزير الحربية هو القائد العام، فإن الوزارة لن تكون في موقف يمكنها من فرض إرادتها وستجد نفسها مضطرة للمماطلة إلى حد ما»[61]. لم تكن ثمة وسيلة لإيقاف أنور إلا ذهب التحالف أو انقلاب عسكري.

وفي السابع عشر من سبتمبر غادرت البعثة البحرية البريطانية، واستعرض السلطان الطرادين ياوز سلطان سليم وميديلي في بيوكادا. غير أن السلطان نفسه، مثل أغلبية رعيته، كان يريد السلام. كتب أندرو ريان (Andrew Ryan) الذي رآه في الحادي والعشرين من سبتمبر: «أدهشنا السيد العجوز الذي كان صامتا عادة، بما أظهره من حيوية وذكاء. لقد أكد لنا حياده وأنه لا يريد الحرب، وأن رحيل أمير البحر ليمبوس (Limpus) من دون أن يرجع إلى السلطان ليست غلطته وأنه يحب السفير». وفي السادس عشر من أكتوبر، وهو وقت متأخر فعلا، أبرق السفير البريطاني إلى حكومته: «لم أفقد الأمل في أنني إذا واصلت العمل بشيء من الصبر وإذا واصلنا تحقيق النجاحات (في الحرب)، فسنجذبهم إلى جانبنا من دون شك»[62].

على أي حال، كان الكثير من الألمان يخدمون في الجيش والأسطول العثمانيين، ما جعل الحفاظ على الحياد أمرا صعبا. وفي الثالث والعشرين من سبتمبر، تسلم سوشون قيادة الأسطول العثماني. وفي السادس والعشرين من سبتمبر أوقفت سفينة بريطانية زورق طوربيد عثمانيا على متنه بحارة ألمان (كانت أغلبية السفن العثمانية في ذلك

الوقـت عليها بحـارة ألمان) ومنعته من مغادرة الدردنيل ودخـول بحر إيجة. ردا على ذلك، قام الجنرال فيبر باشا (General Weber Pasha) القائد الألماني لحصون الدردنيل بإغلاق الدردنيل أمام كل السـفن. تزاحمت سفن الحبوب الروسية في بحر مرمرة، وفي النهايـة رجعت إلى بلادها. وفي الثاني عشر من أكتوبـر، وبطلب من أنور، وصل مليونا جنيـه تركي بالذهب الألماني في قطار خاص من برلين كقـرض «مريح»، كان في حقيقته رشوة للقسطنطينية. وفي اليوم التالي وضع أنور خطة للحرب. وفي السابع والعشرين من أكتوبر، دخلت البارجتان العثمانيتان الجديدتان بقيادة سوشـون إلى البحر الأسود. وفي التاسع والعشرين من أكتوبر، في نحو الساعة الثالثة وخمسين دقيقة صباحا، ومن دون إعلان الحرب، قصفتا أوديسـا وسيباسـتوبول. وعندما وصلت الأخبار إلى حلقة الشرق، قال جمال باشا: «إن كان هذا الخنزير سوشون قد فعلها، فإن الشيطان يكون قد ربح». بيد أن جمال في الحقيقة كان يؤيد القرار. وفي الثاني من نوفمبر أعلنت روسـيا الحرب على الإمبراطورية، ثم تبعتها بريطانيا وفرنسـا. اسـتقال أربعـة وزراء عثمانيون، وكان الصدر الأعظم قد هدد بالاستقالة، لكنه أقنع بالبقاء في منصبه[63].

اسـتعد آخر البريطانيين والفرنسيين في المدينة للرحيل. قال أحد المعارف الألمان لمؤرخ الإمبراطورية البيزنطية الذي عمل أربعين عاما محاميا في المدينة سـير إدوين بيرز (Sir Edwin Pears): «سير إدوين لقد كتبتَ عن انهيار الإمبراطورية اليونانية، وأعتقد أنك سـتعيش لتكتب عن انهيار الإمبراطوريـة التركية... إنني أحب الأتراك، لكنني أعتقد أنهم ينتحرون».

في المرات السـابقة الكثيرة التي كانت الحكومة العثمانيـة تعلن فيها الحرب على روسيا، كانت القسطنطينية تدخل في حالة من الحماس. غير أن الحرب في العام 1914، كانت حرب أنور، وليسـت حرب العائلة الحاكمة ولا الشـعب. فلم تحتشـد حشـود مبتهجـة أمام القصر فرحا بإعـلان الحرب، كما كانوا يفعلون في لندن وبرلين وسـانت بطرسـبرغ. وأشيع أن السلطان قال: «نعلن الحرب على روسيا! إن جثتها وحدها كافية لسـحقنا». وانتقد السلطان أنور ضمنيا عندما قال لاحقا لصحافي أمريكي في قصر دولمة بهجـت «لم يعد شـعبي كما كان. لقد دخل حروبا كثيرة، ونـزف كثيرا... أنا لم أرد هذه الحرب والله شهيد على ما أقول. وأنا على يقين من أن شعبي لم يردها أيضا». وفي قصر بليرباي، دمدم عبدالحميد: «ضحينا بأنفسنا من أجل زورقين»[64].

أُعلِن الجهاد في جامع الفاتح في التاسع من نوفمبر. وأصدر مفتي القسطنطينية مناشدة للمسلمين في روسيا والهند والجزائر للثورة ضد سادتهم الإمبرياليين: «أيها المسلمون، يا عباد الله الصادقين! إن من يشارك منكم في الجهاد ويرجع سالما سينعم بهناءة عظيمة، أما من يلقَ في الجهاد حتفه فإنه ينال شرف الشهادة»(*). لم يلبِ الدعوة إلا قليلون. واحتفل حشد يهتف «الموت لروسيا» بدخول الحرب من خلال نهب فندق توكتليان الذي كان مالكه من رعايا روسيا.

أصبحت القسطنطينية عاصمة في حالة حرب. وبحلول أوائل شهر ديسمبر كان الجسر والميناء مهجورين، مقارنة بنشاطهما الطبيعي[65]. وأخذت دوريات من الجيش تفتش عن الشباب الهاربين من التجنيد. وتضاعفت أسعار الخبز ثمانية وثلاثين ضعفا على مدى السنوات الأربع التالية، بمعدل أسرع كثيرا من ارتفاع الرواتب. واصطفت الطوابير أمام دكاكين الخبز تهتف: «إننا لا نهتم بالانتصارات. أعطونا خبزا!»، حتى الخبز القليل المتوافر كان طعمه كالقش. واستخدم الناس الزبيب المجفف لتحلية الشاي بسبب شح السكر. كان إمداد المياه يتعطل كثيرا، وأغلقت شركتا الغاز. وغدت عربات الترام تكتظ بالناس حتى شبّهت النساء السفر فيها بحشرة القبور.

ومن القسطنطينية، بدأ بارفوس يرتب نشاطات ثورية أوكرانية وجورجية ضد روسيا. وفي يناير 1915 قام السفير الألماني فون وانغينهايم في القسطنطينية بتجنيد «تاجر الثورة»، كما أطلق على باروس، لترتيب تحالف بين ألمانيا الإمبراطورية والثوار الروس، وهو التحالف الذي أوصل لينين إلى روسيا بمساعدة ألمانية في العام 1917[66]. غير أن المساهمة الأساسية من المدينة في المجهود الحربي لدول المحور لم تتمثل في إعلان الجهاد ولا في استخدام بارفوس، بل في إغلاق البسفور والدردنيل أمام السفن، إذ ساعد الاضطراب الناتج عنه في الاقتصاد الروسي في إشعال ثورة العام 1917. وأدت الرغبة في إعادة فتح الطريق لروسيا، وكذلك إخراج الإمبراطورية العثمانية من الحرب وإدخال دول اليونان وبلغاريا ورومانيا المحايدة فيها في صف الحلفاء، إلى القرار المتحمس من جانب مجلس الحرب البريطاني في الثالث عشر من يناير 1915 بإعداد حملة بحرية «تمثل هدفها في قصف شبه جزيرة غاليبولي والقسطنطينية والاستيلاء عليهما».

(*) في تجلٍ آخر أسبق زمنيا لاستخدام الدين أداة سياسية، لكن في الاتجاه المقابل، صدر من القسطنطينية في العام 1882 قرارا يعلن أحمد عرابي الذي كان يصد جيشا إنجليزيا عن احتلال مصر، عاصيا وخارجا على دولة الخلافة، ليكمل الأتراك بذلك دورهم في تكبيل العرب وإعاقة تطورهم حتى أسلموهم إلى محتلين جدد، وليسهموا في وأد ثورة «إصلاحية» عربية مبكرة كان من شأنها أن تغير تاريخ المنطقة وشعوبها. [المترجم].

لم تُثِر المدينة من قبل كل هذه المنافسة عليها التي أثارتها في سنواتها الأخيرة كعاصمة إمبراطورية. كان فردناند ملك بلغاريا والملك اليوناني قسطنطين الثاني عشر (يشير اختيار رقمه إلى أنه التالي للإمبراطور البيزنطي الأخير قسطنطين الحادي عشر ووريثه) يحلمان بدخولها فاتحين. وفي سانت بطرسبرغ أصدر نيقولاس الثاني في نوفمبر 1914 بيانا يدعو فيه إلى «تحقيق مهمة روسيا التاريخية على شواطئ البسفور»، وحصلت روسيا من حلفائها على وعد رسمي بالمدينة والمضايق في مارس 1915. وفي لندن أيد أمير البحر الأعلى وينستون تشرشل (الذي زار القسطنطينية في العام 1910 وكان يعرف زعماء تركيا الفتاة)، خطة الهجوم على الدردنيل بالكلمات: «فكروا في مكانة القسطنطينية بالنسبة إلى الشرق! إنها أكبر من مكانة لندن وباريس وبرلين مجتمعة بالنسبة إلى الغرب». وفي نشوة الحرب تراجع عن اعتقاده واعتقاد هيئة الأركان العامة البريطانية قبل العام 1914، بأن محاولة اقتحام الدردنيل بالأسطول وحده «لم تكن ممكنة». تجمع أسطول للتحالف من ثماني عشرة بارجة ومائتي سفينة أصغر، شملت غواصات، قبالة جزيرة ليمنوس اليونانية، على مسافة أربعين ميلا من الدردنيل. وعلى جوانب بعض السفن نقش الجنود شعارات من نوع «النزهة التركية» و«إلى القسطنطينية والحريم»[67].

بدأ القصف البحري من جانب الحلفاء لتحصينات الدردنيل في التاسع عشر من فبراير. وأُغرِقت ثلاث بوارج بريطانية، وتضرر الكثير من السفن الأخرى بسبب الألغام العائمة في الدردنيل. وفي الخامس والعشرين من أبريل أنزل الحلفاء قوات على شواطئ قريبة من غاليبولي. ولا تحتاج المجزرة التي تلت ذلك إلى إعادة سرد. إجمالا، شارك خمسمائة وتسعة وثلاثون ألف جندي في الحرب من قوات الحلفاء، وثلاثمائة وعشرة آلاف جندي من القوات العثمانية. وفي عدة مرات، كانت قوات الحلفاء قادرة على الاختراق إما برا أو بحرا. وانخفضت أسعار القمح في شيكاغو مع توقع قرب تصدير القمح الروسي عبر المضايق مرة ثانية. وعمَّ الرعب القسطنطينية عندما اخترقت غواصة بريطانية الدردنيل وبدأت تغرق السفن في البسفور، ومع نهاية العام كانت غواصات الحلفاء قد أوقفت المرور النهاري خلال بحر مرمرة كليا تقريبا. وفي بعض الأوقات خططت الحكومة العثمانية للانتقال إلى بورصة أو أبعد منها. وفي النهاية، انتصر العثمانيون بفضل التضاريس وعدم كفاءة الحلفاء وبراعة القائدين العثمانيين ليمان فون ساندرز ومصطفى كمال. بينما يرجع الضابط الألماني

هانز كانغيسر باشا (Hans Kannengiesser Pasha) الانتصار إلى العامل النفسي: «الإرادة الصلبة والتفاني الشـديد والولاء الثابت» من جانب القوات العثمانية «إلى سلطانهم وخليفتهم». وانسحبت آخر قوات الحلفاء في يناير 1916[68].

في أثناء القتال في غاليبولي اتخذ القرار بكارثة أشـد في القسـطنطينية. كانت لجنة الاتحاد والترقي تتمتع في بادئ الأمر بعلاقات طيبة نسبيا مع الأرمن. وبين العامين 1909 و1914 كانت الجمعية الوطنية الأرمنية ومؤتمرات حزب الهَنشـاق تعقد في العاصمة. وشغل الأرمني غابريل نورادوغيان (Gabriel Noradoungian)، المقرب من علي باشا، منصـب وزير الخارجيـة لفترة قصيرة في العامـين 1912 و1913 (غادر إلى باريس بعد ذلك مباشرة). غير أنه بداية من العام 1913 تسببت خطط للإصلاح في شرق الأناضول، في رفع حالة التوتر في العاصمة. وفي العام 1914 سـاعد بعض الأرمن القوات الروسـية في الأناضول ضد القوات العثمانية. ووقعت ثورة أرمنية في وان(*). وفي القسـطنطينية نفسـها أظهر بعض الأرمن الشماتة في الانتصارات الروسية الأولى. فاتخذت اللجنة قرارا باتباع سياسـة الإبادة. وفي الأناضول مات بين سـتمائة وثمانمائة ألف أرمني من الرجال والنسـاء والأطفال في أثناء عمليات الإبعاد وبسبب الأوبئة والمذابح (ماتت آلاف كثيرة من الأتراك والأكراد أيضا في المنطقة نفسـها في أثناء الحرب). وفي القسطنطينية نفسها، جـرى إبعاد ألفـين وأربعمائة واثنين وثلاثين أرمنيا ممن كانوا يشـكلون نخبة الجالية الأرمنية، كان من بينهم سـبعة أعضاء بمجلس الشـيوخ واثنا عشر نائبا، منهم كريكور زوخـارب (Krikor Zohrab) النائـب عن القسـطنطينية الـذي آوى طلعت في أثناء الثورة المضادة في شهر أبريل 1909. وقد شوهد عدد منهم في المدينة بعد الترحيل[69].

كان «التنظيم الخاص» الذي أدار عمليات الإبعاد والمذابح يعمل من القسطنطينية، وعملـه التدميري معروف ولا يحتاج إلى سرد. وفي الخامس والعشرين من يونيو 1915 ذكـر السـفير الألماني بناء على تقارير جاءته من القناصـل الألمان في الشرق أن عمليات الإبعاد بدأت من مناطق لم تكن مهددة بالاحتلال الروسي «تبيّن هذه الحقيقة والطريقة التـي ينفذ بها الترحيل بجـلاء أن الحكومة تعمل فعليا على تدمـير العرق الأرمني في تركيا». وفي السـابع من أغسـطس، كما جاء في يوميات الصحافي الأمريكي جورج شرينر (George Schreiner)، قالت خالدة أديب له وهما يحتسـيان الشاي في المدرسة التي كانت تديرها في حي تقليدي بالقسـطنطينية: «إنه شيء مؤسـف جدا! وأتمنى أن تجد

(*) وان (Van) مدينة تقع حاليا شرق تركيا في محافظة بالاسم نفسه على شاطئ بحيرة بالاسم نفسه أيضا. [المترجم].

الحكومة مخرجا من هذا الموقف. يؤخذ هؤلاء المساكين الآن إلى بلاد ما بين النهرين. وسمعت أنه وقعت مذابح لا أستطيع أن أصدقها!» لم ينتج القرار بقتل الأرمن عن مخاوف الحكومة العثمانية بعد هزائمها الأولى وحسب (فبعد الثورة العربية التي تلت ذلك بسنة واحدة لم تقع مذبحة بحق العرب). كتب السفير الأمريكي في يومياته أن وزير الداخلية طلعت أخبره بأن الحكومة كانت تريد «كسر شوكة» الأرمن لأنهم كانوا أغنياء ويريدون دولة مستقلة ويشجعون أعداء الإمبراطورية. وحذر السفير طلعت ثلاث مرات من أنهم يرتكبون خطأ كبيرا. وقال طلعت إنه غير نادم بالمرة. وفي الثلاثين من سبتمبر 1915 قال السفير النمساوي المؤقت «يبدو أن خطة إبادة العرق الأرمني قد نجحت بدرجة كبيرة. لقد أخبرني طلعت فرحا، أخيرا، أنه لم يعد هناك أرمن في أرضروم على سبيل المثال(*). تعيش تركيا اليوم حالة من الهوس بعد أن نفذت إبادة العرق الأرمني وهي محصنة من النقد»[70].

ذهب النظام العثماني القديم أدراج الرياح. خرجت آخر قافلة مشرفة بالحجاج إلى مكة بقيادة والد أنور من أوسكودار في العام 1915. وفي السنة التالية لم تكن الرحلة ممكنة. وبعد تردد دام أربعمائة عام قرر الشريف الانفصال عن الإمبراطورية العثمانية. وعلى رغم ارتباطاته العثمانية، أطلق الشريف حسين، بسبب إقصائه من جانب حكومة تركيا الفتاة وأمام إغراء العروض البريطانية بالذهب والاعتراف، الثورة العربية في مكة في العاشر من يونيو 1916. غير أنه حتى في إعلانه الخروج على الدولة العثمانية ظل عثمانيا، إذ اتهم لجنة الاتحاد والترقي بأنهم مرتدّون سمحوا للصحف العثمانية بنشر البدع ومنعوا السلطان من تعيين سكرتيره الأول. وعلى رغم ثورة الأمير ظلت أغلبية العرب، ومنهم أخوه الشريف ناصر الذي كان مقيما في القسطنطينية، موالين للعثمانيين. وساعدت قوات عربية في الدفاع عن العاصمة في غاليبولي في العام 1915. ردت الحكومة العثمانية بإعلان ابن عمه الشريف علي حيدر أميرا لمكة بدلا منه. وحدث آخر احتفال بالعروبة العثمانية أمام حشد كبير خارج الباب العالي في الثامن عشر من يونيو 1916. وصل علي حيدر مرتديا العمامة البيضاء التي تميّز الشريف وزيه الرسمي الأسود والذهبي وزينته العثمانية في مركبة السلطان الرسمية يرافقه حرس عربي وفرقة السلطان الموسيقية. ووقف الوزراء والأشراف والأمراء العثمانيون يشاهدون بينما كان فرمان تعيينه يتلى. غير أنه في رحلته إلى إمارته لم يتجاوز حدود المدينة المنورة وعاد إلى القسطنطينية في العام 1918[71].

(*) أرضروم (Erzrum) مدينة ومحافظة تقع شرق تركيا حاليا. [المترجم].

مكّنت الحرب الحكومة من اتباع سياسة التتريك والتحديث، فصدرت قوانين تلزم باستخدام اللغة التركية في المكاتب الخاصة فضلا عن الوثائق الرسمية. وبدأ غير المسلمين أخيرا في تعلم بضع كلمات من اللغة التركية. ظهر في كاريكاتير في مجلة ثروة الفنون، تركي يسأل أوروبيا عما يحزنه إلى هذه الدرجة:

«لأنني لكي أتقدم قليلا في تركيا بات عليّ أن أفهم قليلا من اللغة التركية».

«كيف وأنا التركي أجدني مضطرا إلى أن أتصرف كأوروبي لكي أتقدم في وطني».

كان التغيير متسارعا جدا. في العام 1916، أُبعد شيخ الإسلام من الوزارة، ونُزعت المحاكم الشرعية والمدارس من ولايته ونُقلت إلى وزارة العدل. وأعطى قانون الأسرة للعام 1917 المرأة الحق في طلب الطلاق. وبدأت النساء المسلمات العمل في المكاتب الحكومية، وفي بعض الحالات في الدكاكين. كان مفتش القسطنطينية ورئيس طائفة الحمّالين المعروف بقرة كمال (Kara Kemal) (أي كمال الأسود) ينظم إمداد المدينة بالغذاء في بادئ الأمر، ثم سيطر بعد ذلك على الحياة الاقتصادية للقسطنطينية كاملة. وشجع على تتريك الاقتصاد، إذ أنشأ جمعية التجار المسلمين وشركتين وطنيتين للخبازين والقماش في العامين 1916 و1917[72].

حوّل التحالف في زمن الحرب القسطنطينية إلى منطقة جذب للألمان. أُنشئت قاعدة بحرية ألمانية في إستينيه (Istinye) على الضفة اليسرى للبسفور. وأخذ البحارة الذين بدلوا اسم المكان إلى إستنياتال (Steniatal) يربون خنازير في مكان قريب لتوفير لحم الخنزير المشوي لغداء يوم الأحد. وعمل أفراد من عائلة كروب في مصانع الذخيرة(*)، وكان من بين الضباط الألمان المتمركزين في القسطنطينية فون بابن (Von Papen) وريبنتروب (Ribbentrop). كان رئيس هيئة الأركان بوزارة الحربية التي ترأسها أنور، الجنرال المتمكن هانز فون سيكت (Hans von Seeckt) الذي أعاد تنظيم الجيش الألماني بعد العام 1919. رسم عبدالمجيد - الأمير الفنان - صور لسيدة من الحريم تقرأ لغوته (Goethe) وأفراد من العائلة الإمبراطورية يعزفون مقطوعات لبيتهوفن، تقديرا للتحديث والتحالف في زمن الحرب في آن معا. ومع نهاية الحرب كان يوجد نحو تسعة آلاف جندي ألماني وألف جندي نمساوي في القسطنطينية وحولها. واعتبر بعض الضباط الألمان الإمبراطورية «مصرا ألمانية»(**). قال أحد الألمان إنه كان يحب الجلوس على

(*) كروب (Krupp) عائلة ألمانية بارزة عمرها أربعمائة سنة اشتهرت بإنتاج الحديد والذخيرة والأسلحة. [المترجم].

(**) في تشبيه لأهمية مصر بالنسبة إلى الإنجليز وسيطرتهم عليها. [المترجم].

شرفة فندق توكتليان لأنه كان موقعا مريحا للبصق على الأتراك في الشارع. بينما قال مرتن باشا (Merten Pasha) قائد حصون الدردنيل وهو يراقب الغروب على القرن الذهبي من غارتنبار (Gartenbar) في الجبّانة الصغيرة: «تأتي عليّ أوقات أفضل فيها أن أكون شحاذا في القسطنطينية عن أي شيء في أي مكان آخر»[73].

كان في التحالف مع ألمانيا دمار الإمبراطورية العثمانية. ومع تحول القسطنطينية أكثر فأكثر إلى مدينة تركية، حدث الشيء نفسه مع الإمبراطورية العثمانية، إذ سقطت بغداد أمام قوات التحالف في الحادي عشر من مارس 1917، والقدس في التاسع من ديسمبر، ودمشق في الأول من أكتوبر 1918. حققت قوات الحلفاء اختراقا على جبهة سالونيك. وبدأت طائرات الحلفاء تقصف القسطنطينية. وفجأة أدركت حكومة تركيا الفتاة أنها خسرت الحرب.

أصبحت القوات البحرية للحلفاء في البحر الأبيض المتوسط وقواتهم البرية على جبهة سالونيك سادة الموقف. كانت القسطنطينية لاتزال تثير العداء في لندن، وإن لم يكن بالشدة التي كانت الحال عليها في العام 1878. بأوامر من إمارة البحر، استبعد أمراء البحر البريطانيون في بحر إيجة زملاءهم الفرنسيين من مفاوضات الهدنة، على رغم السيطرة البحرية العامة لفرنسا على البحر الأبيض المتوسط. وفي الاجتماعات في باريس دارت أسوأ المناقشات في زمن الحرب بين كليمانصو (Clemenceau) ولويد جورج (Lloyd George). وفي الخامس والعشرين من أكتوبر 1918 كتب كليمانصو واحدا من خطاباته الكثيرة احتجاجا على لويد جورج، يشير فيه إلى الانتصارات التي قادها الفرنسيون على جبهة سالونيك وإلى الاستثمارات الفرنسية المالية والثقافية في الإمبراطورية العثمانية: «تمتلك فرنسا في القسطنطينية مصالح أكبر من غيرها بكثير»[74].

لم تتنازل الحكومة البريطانية. وفي الثلاثين من أكتوبر، على سفينة صاحبة الجلالة أغاممنون (Agmemnon) الراسية في مودروس (Mudros) على ساحل جزيرة ليمنوس، وقّع وزير البحرية العثماني رؤوف بيه (Rauf Bey) هدنة مع قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط البريطاني أمير البحر سير سمرسيت غوف كالثروب (Sir Somerset A. Gough-Calthorpe)، من دون حضور الفرنسيين. قضت الهدنة بتسريح الجيش العثماني وأعطت الحلفاء الحق في احتلال «أي نقاط إستراتيجية في حال ظهور أي موقف يهدد أمن الحلفاء». وطمأن كالثروب رؤوف بيه إلى أن الحلفاء سيحتلون نقاطا في القسطنطينية وحولها وحوض السفن وحصون البسفور، غير أنهم لن يقربوا المدينة

نفسها. وعندما طلب رؤوف بيه ضمانا مكتوبا، قال له كالثروب إنه لا يوجد متسع من الوقت للرجوع إلى لندن بشأن هذا الطلب. وثِق رؤوف بيه في وعد أمير البحر، وطمأن المدينة في مؤتمر صحافي لدى عودته إلى «أنه لا أحد من جنود الأعداء ستطأ قدمه أرض إسطنبول الحبيبة». وفي الأول من نوفمبر هرب أنور وطلعت وجمال على آخر غواصات ألمانية خرجت من البسفور.

وفي لندن، أقنع نائب الملكة السابق في الهند لورد كرزون (Lord Curzon) (الذي كانت لديه عقدة من القسطنطينية، مثل تشرشل ومؤيدي الإمبريالية الآخرين من أمثال كاترين الثانية وكونت إغناتيف) وزارة الحربية بأنه لا وجه للاستثناء، وأن احتلال القسطنطينية كان مرغوبا من «منظور العقلية الشرقية». ورُفِضت شروط الهدنة بالتصلب نفسه الذي رُفِضت به المشاركة الفرنسية في التفاوض عليها. كانت المدينة ضحية مجدها وموقعها الجغرافي. فلكونها منذ مدة طويلة رمزا للعظمة الإمبريالية والإسلامية، رأت الحكومة البريطانية، وكرزون تحديدا، أن احتلالها يزيد هيبة بريطانيا في الشرق الأدنى والهند. وجعل موقعها الجغرافي أيضا احتلالها مرغوبا - على خلاف عواصم الأعداء الأخرى برلين وفيينا وصوفيا - وممكنا(*).

وهكذا، فإن حرب القسطنطينية التي بدأت في السابع والعشرين من أكتوبر 1914 بطرادين ألمانيين غادرا البسفور لقصف روسيا، انتهت في الثالث عشر من نوفمبر 1918 بطابور طويل من بوارج الحلفاء (البريطانية بالدرجة الأولى ومعها بعض البوارج الفرنسية والإيطالية واليونانية) يدخل البسفور. كانت القسطنطينية على مدار السنوات المائة والخمسين السابقة، هدفا ثمينا للكثير من القوى[75]. وكانت بريطانيا، في أوج قوتها العالمية وثقتها بنفسها التي جددها الانتصار وبقواتها المتمركزة في جميع أنحاء الأقاليم العثمانية كافة، هي التي ربحت الجائزة.

(*) كما أن الأتراك لم ينفذوا مذبحة بحق العرب بعد ثورتهم كما فعلوا مع الأرمن - على حد تعبير المؤلف - وإن كانت المنطقة العربية أقل أهمية لتركيا بكثير من شرق الأناضول الذي أراده الأرمن ضمن دولتهم، فإن الحلفاء لم يحتلوا دول المحور الأوروبية ألمانيا والنمسا وبلغاريا والمجر مع نهاية الحرب، بينما احتلوا القسطنطينية. [المترجم].

15

موت عاصمة

تقـع إسـطنبول في ملتقى عالمـين كبيرين، وهي مفخـرة الأمة التركية، وكنـز التاريخ الـتركي، وأعز ما تملـك الأمة التركيـة، ولها مكانـة في قلب كل تركي. ومعاناة المدينة في أي أحداث مؤسفة تُدمي قلوب كل الأتراك.

مصطفى كمال أتاتورك

إسطنبول، في 1 يوليو 1927

«لا شك في أن الخلافة كانت تضيف إلى التألـق الظاهري للمدينة، لكن نهايتها كانت قد حُسِمَتْ»

كانت السـنوات الأخـيرة للقسـطنطينية، كعاصمـة، الأكثر عالمية في تاريخهـا. في الثالث عشر والرابع عشر من نوفمبر 1918، أنزلت سفن الحلفاء ثلاثة آلاف وسـتمائة وسـتة وعشرين جنديا في المدينة. احتجـت الحكومة العثمانية على خرق الهدنة، فـرد الممثل البريطاني بهدوء بأن القسطنطينية قد وقع الاختيار عليها لتكون مركز قيادة بريطانيًّا. فصعق المسـؤول العثماني حتى إنه لم يجد ردا.

كان قائد قوات الحلفاء هو الجنرال سير هنري ميتلند ويلسون (Sir Henry Maitland Wilson)، وكان ألفان وستمائة وستة عشر من قواته من البريطانيين. وعلى مدار الأسابيع التالية، بينما كانت القوات الألمانية والنمساوية تعاد إلى بلادها، كانت القسطنطينية تكتسب تنوعا في السلطات الخاضعة لسيطرة البريطانيين. اتُخذت مدرسة البنات الإنجليزية في 181 شارع بيرا الكبير مقرا لقيادة الحلفاء في المدينة، بينما اتُخذت الكلية الحربية العثمانية في منطقة حربية Harbiye مقرا منفصلا لجيش الحلفاء للبحر الأسود الذي كانت تخضع لسيطرته قوات في جنوب روسيا والقوقاز. وبداية من الحادي عشر من يناير 1919، تولت لجنة شرطية دولية يترأسها بريطاني «السيطرة التنفيذية» على شرطة المدينة. كما أسس الحلفاء أيضا قوة شُرطية منفصلة من الحلفاء (ثلثها بريطاني وثلثها فرنسي وثلثها إيطالي) ونظاما خاصا لمحاكمها العسكرية، تولت حراسة سجون المدينة ومستشفياتها وبنوكها وسفاراتها من الخارج. جلب احتلال الحلفاء أزياء إلى شوارع المدينة لم تكن معروفة حتى للقسطنطينية: الأزياء الرسمية للقوات الفرنسية من السنغال والهند الصينية، وللقوات البريطانية من الهند، وقوات الحليف المنتصر الآخر وهو اليابان[1].

وفي الثامن من فبراير 1919، تلقت سيطرة الحلفاء على المدينة ترسيمها من خلال مسرح الشارع، وفي الوقت عينه ردت الحكومة الفرنسية سريعا على الهيمنة البريطانية بأن أرسلت المارشال فرانشيت ديسبيري (Franchet d'Esperey) الذي نزل على رصيف الميناء في غَلَطَة من سالونيك لتولي قيادة قوة أخرى للحلفاء هي جيش الحلفاء للشرق. وفي محاكاة انتقامية لدخول محمد الفاتح المدينة في العام 1453، تقدم الفاتح المسيحي إلى السفارة الفرنسية على حصان أبيض قدمه له أحد اليونانيين. واصطفت على جانبي شارع بيرا الكبير أعلام الحلفاء وقواتهم ويونانيون وأرمن مهللون. وبعد زيارة له للفنار استقبل فيها على دوي دقات أجراس الكنائس، توجه ديسبيري إلى سكنه الجديد، وهو يالي أنور باشا في كورو شيسمه[2].

وعلى مدار السنوات الأربع التالية، تمتع ممثلو الحلفاء الثلاثة المعروفون باسم المندوبين السامين بسلطة أكبر من السلطان نفسه، كأن سلطتهم جاءت تصعيدا وتتويجا للتزايد الثابت في سلطة السفراء منذ القرن السابع عشر. كان احتلال الحلفاء الفترة البحرية والعالمية الأشد عنفوانا في تاريخ القسطنطينية. فتحوّل لون

البسفور إلى الأسود بسبب كثرة البوارج. كان القائد العام للبحر الأبيض المتوسط أمير البحر سير سمرسيت غوف كالثروث الذي أقام على متن سفينة صاحبة الجلالة أيرن ديوك HMS Iron Duke الراسية في جزر الأمراء، يشغل في الوقت نفسه منصب المندوب السامي البريطاني. وكانت فرنسا وإيطاليا واليونان ممثلة أيضا في بادئ الأمر بأمراء بحر. وأصبحت منطقة طوفان قاعدة بحرية بريطانية، واستردت شركة فيكرز آرمسترونغ Vickers-Armstrong (التي كان اليوناني القسطنطيني الغامض سير باسل زاخاروف (Sir Basil Zaharoff) أحد كبار مديريها) السيطرة على أحواض السفن والترسانة العثمانية.

وكما كانت الحال في برلين وفيينا بعد العام 1945، كانت المدينة مقسمة إلى مناطق. أقام الفرنسيون في القسطنطينية نفسها جنوب القرن الذهبي، والبريطانيون في غَلَطَة وبيرا، والإيطاليون في أوسكودار، وفرقة يونانية صغيرة في الفنار. وسُيرت دوريات في بعض الشوارع كانت تتكون من أربعة شرطيين: تركي وبريطاني وفرنسي وإيطالي. وفي القوة التي أسموها «الكونستانت» Constant، كان البريطانيون - وفقا لشهادة بعض الباقين منهم على قيد الحياة - الأكثر عددا والأسوأ سلوكا. فكان الجنود البريطانيون يترنحون سكارى خلال شوارع بيرا. أقام الضباط البريطانيون في فندق بيرا بالاس أو فندق غراند هوتيل دي لوندري Grand Hotel de Londres [فندق لندن الكبير]، أو تم إيواؤهم بأوامر رسمية في بيوت المسلمين التي كانت لاتزال حرما منيعا (قتلت سيدة تركية ساخطة الضيف الذي فُرض عليها قبل أن يهرب عبر البسفور). وعملت الاستخبارات العسكرية البريطانية التي كان لها الكثير من العملاء في المدينة من مقرها في خان هاغوبيان Hagopian Han في غَلَطَة الذي كان طوال النهار مقصدا لأناس يبلِّغون الأخبار لضابط المخابرات البريطاني ج. غ. بينيت (J. G. Bennett)، وكان في الليل مقصدا «للعملاء السريين جدا»[3].

كانت الرياضة - مثل الخمر - جزءا من حياة الجنود البريطانيين. فكان الجنود والبحارة يلعبون الرغبي بجانب مياه أوروبا الحلوة والكريكت في بايكوز. بعد عشرين عاما من تركه شرطة «الكونستانت»، تذكر نيفيل هيندرسن (Nevile Henderson) الذي خدم بين موظفي المندوبية السامية: «تمثل أحد أنجح الجهود للمندوبية السامية في تنظيم فريق للكريكت، مع أن ذلك كان يعني استدعاء أي رجل متاح».

بالنسبة إلى بعض الضباط البريطانيين، لم تكن مباهج القسطنطينية تقارَن بصيد الثعالب وأبناء آوى في تراقيا. وصف بيلي فوكس بت ("Billy" Fox-Pitt) النقيب ابن السادسة والعشرين من العمر في الحرس الويلزي، القسطنطينية بأنها «مدينة أشباح» و«أقذر وأكثر مدينة خربة... رأيتها على الإطلاق». بعد أن وصل مباشرة، أصبح السوّاط في إحدى مجموعتي الصيد البريطانيتين(*). كتب بيلي لأبيه: «أعتقد أن هذا المكان سيصبح مملا بعد أن تزول مشاعر الجِدة، لأن أماكن الصيد بعيدة، ولا يوجد شيء آخر تفعله عندما يسوء الطقس»[4].

كانت الإمبريالية والثأر ومعاداة الشيوعية الدوافع الأساسية للاحتلال. فقد أراد الحلفاء السيطرة على عاصمة الإمبراطورية العثمانية لكي يعجّلوا بنزع سلاحها وتقسيمها. وحتى مايو 1919، وبموجب شروط الهدنة، أخذت الذخائر تتدفق من الولايات لكي يخزنها الحلفاء في مخازن في العاصمة وفي المضايق. لقد أراد الحلفاء أن يثبتوا أن أرواح قواتهم التي أُزهقت في غاليبولي في العام 1915 لم تذهب سُدى وأن يعاقبوا الإمبراطورية العثمانية على الانضمام إلى دول المحور. وزعم كرزون ولويد جورج كلاهما - بلا بيّنة - أن دخول الإمبراطورية العثمانية الحرب أطالها بنحو سنتين. وكانت بريطانيا وفرنسا أيضا تريدان «بابا إلى الشرق»، ومركزا لإمداد القوات الروسية البيضاء في جنوب روسيا والقوقاز التي كانتا تساعدانها ضد البلاشفة[5](**).

وفي العام 1919، كان الحلفاء المنتشون بانتصارهم على وشك أن يفرضوا سلاما انتقاميا على دول المحور، ويعيدوا تشكيل أوروبا على أسس قومية. كانت هزيمة الإمبراطورية العثمانية هزيمة كاملة، حتى إن بعض رجال الدولة في جانب الحلفاء أرادوا أن ينزلوا بالإمبراطورية العثمانية شروطا أسوأ مما أرادوه لألمانيا، كان من بينها التخلي عن القسطنطينية. وكان رئيس الوزراء البريطاني لويد جورج من المؤمنين بالقومية الماتزينية(***) وأحد المؤيدين المتحمسين لليونان، فضلا عن

(*) السوّاط هو مساعد للصياد وظيفته جلد كلاب الصيد بسوطه، وقد وضع المؤلف اسم هذا الشخص Billy بين قوسين لأن معناه «هراوة»، إذ ربما يكون قد استمد اسمه من وظيفته أو يكون ثمة تطابق بالمصادفة بين اسمه وعمله. [المترجم].

(**) في أثناء الحرب الأهلية الروسية (1917 - 1923)، أيد الحلفاء البيض أو الحركة البيضاء White movement وجيشها أو قواتها البيضاء التي كانت معارضة للحمر وجيشهم الأحمر الذي كان يمثل الثوار البُلشفيين. [المترجم].

(***) نسبة إلى الزعيم القومي الإيطالي ماتزيني الذي سبقت الإشارة إليه في متن الكتاب. [المترجم].

كونه صديقا حميما لسير باسل زاخاروف. وبعد أن وعد في العام 1918 بأن تظل القسطنطينية عثمانية، أعلن في العام 1919 أن «القسطنطينية في أيدي الأتراك لم تكن فقط مرتعا لكل أنواع الرذائل الشرقية، بل كانت أيضا المصدر الذي ينتشر منه السم والفساد والمكائد إلى أوروبا نفسها طولا وعرضا... والقسطنطينية لم تكن تركية، وأغلبية سكانها ليسوا أتراكا». في حالة الفوضى التي تلت الحرب، كان جمع الإحصاءات أمرا بالغ الصعوبة. وعلى أي حال، ووفقا لتقديرات الضباط البريطانيين في الموقع، كان سكان المدينة في العام 1920 يتكونون من خمسمائة وستين ألف مسلم ومائتين وستة آلاف يوناني وثلاثة وثمانين ألف أرمني. ومن بين الأجانب البالغ عددهم مائة وخمسين ألفا، كان العدد الأكبر يونانيين يحملون الجنسية اليونانية وليس العثمانية. فعلى رغم كل شيء، كانت القسطنطينية ذات أغلبية مسلمة ناطقة بالتركية.

اتفق الوفد الأمريكي إلى مؤتمر السلام في باريس مع لويد جورج على أن «القسطنطينية والمضايق التي تقع عليها أبلت العالم بالكثير من المتاعب، وكبّدت البشرية خلال السنوات الخمسمائة الأخيرة دماء ومعاناة أكثر من أي بقعة وحيدة أخرى على وجه الأرض». وذهب لورد كرزون الرجل الذي كان السبب وراء احتلال الحلفاء للمدينة، أبعد من ذلك في ورقة وُزِّعت على الحكومة البريطانية في السابع من يناير 1919، تناسى فيها كل من التقدير التقليدي لوزارة الخارجية لإسهام الإمبراطورية العثمانية في توازن القوة الأوروبي والسجل الأخير لدول بلقانية مثل صربيا في العام 1914، وزعم في ورقته أنه «على مدى خمسة قرون تقريبا، كان الوجود التركي في أوروبا مصدرا للنزاع والمكائد والفساد في السياسة الأوروبية، وللظلم وسوء الحكم للرعايا من القوميات الخاضعة لها، وحافزا لطموحات مفرطة ومتغطرسة في العالم الإسلامي». وشجب «الكواليس الملوثة للقسطنطينية» (على رغم أن التجار والمجرمين المتمتعين بالحماية البريطانية كانوا من أكثر ملوثي المدينة نشاطا): «لقد تهيأت فرصة لم تتوافر على مدار القرون لاستئصال هذه البقعة الطاعون والتخلص منها إلى الأبد». على أن المدينة كانت «مهمة أوسع وأخطر» من أن تحكمها بريطانيا وحدها. كما أنها لم تكن ملائمة لأن تكون عاصمة لعصبة الأمم. وبناء على زعمه أن أربعين في المائة فقط من السكان كانوا أتراكا، دعا كرزون إلى احتلال المدينة والمضايق وإدارتها

عـن طريق مندوبية دولية. وكان مخططا أن تصبح المدينة «كوزموبوليس أي مدينة دولية للعالم الشرقي»، وأن ينسحب السلطان إلى بورصة أو قونية.

ظهرت فكرة القسطنطينية الدولة - المدينة لأول مرة في العقد الثالث من القرن التاسع عشر. لكن عصر الدولة - المدينة كان قد ولى واندثر (وحتى شنغهاي ارتدت إلى سـيطرة أشـد صرامة من جانب الحكومة بعد العام 1927 (*). وقبل كل شيء، ففـي العام 1919 كان الأتراك واليونانيون والأرمن أكثر من أي وقت مضى يريد كل منهم دولته الخاصة، وليس مدينة مشتركة.

أخذت كرزون عقدتهُ من «هذه البقعة الطاعون» إلى حالة من حالات المسيحية الجهادية، سـبق أن رفضها هو نفسـه عندما كان حاكما للهند. وقد أكسـبته مقالة عن الإمبراطور جوسـتينيان جائزة من جامعة أكسفورد، وكتب بعد أربعين عاما أن «كنيسـة جوسـتينيان البيزنطية العظيمة سـانت صوفيا التي ظلت لتسعمائة عام كنيسـة مسيحية ولنصف هذه الفترة أو أقل مسجدا إسلاميا من الطبيعي أن ترجع إلى تكريسها الأصلي»[6].

كانت السـنوات الأخيرة للمدينـة كعاصمة عثمانية الذروة في دورها كسـاحة حـرب. لم يكن كرزون الوحيد الـذي رأى أنه من «الطبيعـي» أن يرجع آيا صوفيا كنيسـة. فقد انتشرت «هوجة الاسـترداد» من اليونان إلى بريطانيا التي تشـكلت فيها «لجنة اسـترداد سـانت صوفيـا». وطالبت الكنيسـة الكاثوليكية هي الأخرى بآيا صوفيا. وقال المندوب الإيطالي إنه نظرا إلى أن المدينة أسسـها إمبراطور روماني وتحـوي بنايات جنوية، فلا بد أن تكون إيطالية. وعيّنت الحكومة العثمانية جنودا برشاشات في المسجد لمنع أي هجوم مسيحي مفاجئ[7].

كانت المسـألة أكبر مـن مجرد تعصب شـخصي، ذلك أن دور القسـطنطينية كعاصمة للإسلام كان السـبب وراء رغبة كرزون في إعادة تعميد مسجدها الأساسي وطرد الخليفة السـلطان. وزعم في حديثه مع زملائه في الوزارة أن «المسلمين الهنود لا يكنّون أي تقديس أو تبجيل خاص للقسـطنطينية». لكنهم في حقيقة الأمر كانوا

(*) عندمـا منعت الحكومة الصينية في العام 1833 تجارة الأفيون التـي فرضتها وتربحت منها شركة الهند الشرقية البريطانية وحكومة الهند البريطانية والتجار البريطانيون الخاصون، شـنت عليها بريطانيا الحرب التي عُرفت باسـم حـرب الأفيـون في الأعوام 1839-1842 (ومرة أخـرى في الأعوام 1856-1860)، وانتزعـت منها هونغ كونغ وفتحت خمسة موانئ قسرا أمام التجارة البريطانية، كان من بينها شنغهاي، وشَرّعت تجارة الأفيون. [المترجم].

منذ القرن الثامن عشر يبجلونها، وكانت الحركة الموالية للخلافة العثمانية التي كان من بين أهدافها تقديم العون لتركيا والإبقاء على القسطنطينية إسلامية، على وشك أن تكتسح الهند. وكتب كرزون نفسه سرا إلى وزير الدولة لشؤون الهند أن الحركة الإسلامية كانت «الخطر الحقيقي والكامن الوحيد لحكمنا في الهند من جانب السكان المسلمين»[8]. وكان من رأيه أن الهيبة البريطانية في الهند تتقوى من خلال إضعاف الوجود الإسلامي في القسطنطينية.

كانت السياسة الواقعية، فضلا عن العقلية الإمبريالية، هي التي توجّه السياسة البريطانية. وفي العام 1919، كان الكثير من الناس (وليس كرزون وحده) يرون أن اليونان كانت القوة الواقعة في شرق البحر الأبيض المتوسط الأنسب لحماية الطريق البريطاني إلى الهند. فقد كانت «قوية بما يكفي لتجنيبنا النفقات في زمن السلم، وضعيفة بما يكفي لكي تكون خانعة لنا تماما في زمن الحرب»، على نحو ما كتب أحد موظفي كرزون وهو هارولد نيكولسن (Harold Nicolson) (الذي عبّر عن كراهيته للعثمانيين التي كوّنها خلال عمله الدبلوماسي في القسطنطينية في العامين 1912 - 1913، في روايته «المياه الحلوة» Sweet Waters التي نُشرت في العام 1923).

ظن اليونانيون أن فكرتهم الكبرى على وشك التحقق بفضل انتصار الحلفاء. فوعد رئيس الوزراء اليوناني إليوثيريوس فنيزيلوس (Eleutherios Venizelos) بدولة يونانية «على قارتين تغسلها خمسة أبحر» (الأسود ومرمرة وإيجة والأبيض المتوسط والأيوني). وقال للملك ألكسندر الذي خلف أباه الملك قسطنطين بعد مغادرته القسرية بناء على مزاعم بتعاطفه مع الألمان: «سنأخذ المدينة». ومنذ اللحظة الأولى للهزيمة العثمانية، أسقط بعض يونانيي القسطنطينية قناعهم العثماني وتصرفوا كأنهم فاتحون. من أمثلة ذلك ابن المدينة اليوناني جورج ثيوتوكاس (George Theotokas) الذي يتذكر في روايته «ليونيس - يوناني من القسطنطينية» الاحتلال بصفته حفلة أبدية. ورُفع العلم اليوناني الأزرق والأبيض فوق البطريركية والبيوت اليونانية. ونُصبت لوحة ضخمة لفنيزيلوس في ميدان تقسيم[9].

انتُخب نائب بطريرك جديد عدواني ومتعصب «للتحررية الوحدوية» اليونانية في شهر أكتوبر 1918. وفي السادس عشر من مارس 1919، أنهى إعلان رسمي من المجلس البطريركي أي تعاون أو اتصال مع الحكومة العثمانية. وطولب اليونانيون

بـألا يصوتـوا في الانتخابات العثمانيـة، أو يعلّموا اللغة التركية في مدارسـهم، وأن يسـتقيلوا من مناصبهـم في الإدارة العثمانية. وعلى مدار السـنوات الثلاث التالية، بموافقة من الحلفاء، كانت البطريركية اليونانية والأرمنية تصدر جوازات سفر خاصة «لرعاياهما» بدلا من جوازات السفر العثمانية.

انهالت الالتماسـات والبرقيـات على لندن وباريس من القسـطنطينية تعلن توق اليونانيـين «الذيـن لم يجر تعويضهم» إلى طرد السـلطان وإبطال «اجـتراءات النظام الوطنـي»(*). وأكدوا أنه لا شيء يمكن أن يردم الهوة التي تفصل اليونانيين عن الأتراك الناتجة عن اضطهاد دام قرونا[10]. نسـوا التسويات والتفاهمات التي دامت قرونا هي الأخـرى. شـجب نائب البطريرك الذي أرسـل وفدا خاصا به إلى مؤتمر السـلام، «النيّر الثقيل على مدار أربعمائة وستة وستين عاما الذي قُتل تحت وطأته سبعة بطاركة (هم ثلاثة فقط في الحقيقة). وقال: «إن لم تُعطَ القسطنطينية لليونان، فإن المسألة الشرقية لـن تُحل نهائيا». وزعمـت الجمعية الأدبية اليونانية في مذكرتها إلى مؤتمر السـلام أن «الدونية» التركية في القسطنطينية كانت عددية وفكرية في الوقت عينه، لأن الكثير من الأتراك كانوا مسـؤولين وجنودا سـيغادرون عندما تعاد هلينة المدينة وهي «حقوق لا يمكن التنازل عنها»[11].

تجلى رفض الإمبراطورية العثمانية في شوارع عاصمتها. نبذ الكثير من المسيحيين العثمانيين الطربوش واشتروا قبعات، بل إن بعضهم كان ينزع الطرابيش عن رؤوس إخوتهم ويمزقهـا. تذكر الكاتب الهزلي التركي العظيم عزيز نيسـين (Aziz Nesin) كيـف رمى صاحب دكان يوناني على إحدى جزر الأمراء طربوشـه على الأرض وظل يقفز فوقه لدهسـه في الطين وهـو يهتـف Zito Venizelos! Zito Venizelos! [يعيـش فنيزيلوس! يعيـش فنيزيلوس!]، وعلّقت والدة نيسـين بالقول: «من كان يظـن ذلك، لقد كان رجلا طيبا». لكن بعض اليونانيين، منهم والدة نيسـين، تذكروا التسويات والتفاهمات العثمانية. ولم يرموا طرابيشهم، بل لفوها في ورق ووضعوها في أحد الأدراج، إذ ربما يحتاجون إليها في المستقبل[12].

(*) النظـام الوطنـي هو حكومة تركيا الفتاة التي هيمن عليها أنور. فيما يلي سيسـتخدم المترجم الصفة «الوطني» و«الوطنيـون» ترجمـة لمصطلحـي national وnationalists مـع الأتراك بدلا مـن «قومي» و«قوميـون» اللتين اسـتخدمهما في السـابق مع حركات اليونانيين والأرمـن والألبان والعرب وغيرهم، لأن نضـال الأتراك كان موجها في الوقت نفسه ضد احتلال أجنبي وحكومات وطنية متعاونة معه، أي أتراك ضد أتراك. [المترجم].

وبينما عمّت البهجة بين اليونانيين، أحس الأتراك بأنهم غرباء في مدينتهم. كتبت خالـدة أديـب: «إننا لم نعد أمة بناة الإمبراطورية الذيـن لم تصبهم عقدة العظمة، كما كنا حتى عهد قريب... بل أصبحنا شعبا يعاني عقدة العظمة لبناة إمبراطوريات آخرين». وفي الصراع على القسـطنطينية، اتُخِـذت معالمها وأنصابها العثمانية حجة لبقـاء المدينة في أيدي العثمانيين، ما يكشـف عن أحد الدوافـع وراء بنائها، وهي الرغبـة في إظهار الهويـة العثمانية للمدينة، إذ احتج حاكـم المدينة البريطاني أمام مجلس العموم على اقتراح كرزون بجعل القسـطنطينية مدينة حرة، لأنها «مملوءة منذ قرون بأنصابهم وبناياتهم التاريخية وقبور أسلافهم»[13].

لم تُـثِر حجةٌ سـخط اليونانيين كما فعلت هـذه الحجة. قال نائـب البطريرك للويـد جورج إن أنصاب المدينة تثبت أنها يونانية تماما، حتى بعد قرون «التخريب الطوراني». كما أنها لم تكن «مدينة مقدسـة للإسلام»، فالحجاج المسلمون يخرجون من القسـطنطينية ولا يقصدونها. كان اليونانيون معميين بالقومية، فلم ترَ أعينهم الأفـق العثماني للقباب والمآذن، والزوار المسـلمين إلى أيوب، والقصور التي تصطف حول البسـفور. ولم تكـن أعينهم ترى إلا دخول الجيش اليونـاني المظفر من الباب الذهبـي، وآيا صوفيا مجردا مـن المآذن، وخروج الكاهن ليسـتأنف القداس الذي قوطـع في العـام 1453. ووصل التـماس إلى 10 داونينغ سـتريت(*) يصف عودة سـانت صوفيا وجامع كاري وسانت إرين إلى المسـيحية بأنه «فعل أولي من أفعال العدالة»(**). وفي التماس آخر مختوم بأختام تسـع وتسعين أبرشية يونانية وسبع أبرشيات أرمنية من المدينة، كتب الأساقفة والكهنة(***):

> أما بالنسبة إلى قبور سلاطينهم، فإننا نطمئن العثمانلية على أننا سنحترمها أشـد ما يكون الاحترام عندما تعيد العدالـة العالية للأمم المتحضرة العظيمة مضافـة إلى أمنيتنا التي لا يمكن التنازل عنها، تنصيبنا في حقنا على هذا التراب الذي يحوي قبور أباطرتنا التي دُنِّسـت ويحـوي بقايا قبور بطاركتنا الذين لم يُغرَقوا أو يُشنَقوا[14].

(*) هو مقر الإقامة الرسمي لرئيس الوزراء البريطاني لأكثر من ثلاثة قرون حاليا. [المترجم].

(**) كان جامـع كاري Karie Cami في الأصـل كنيسـة خورا، وكان جامع هاغيا إيريـن Hagia Erene في الأصل كنيسة سانت إيرين، وقبل الجميع كان جامع آيا صوفيا في الأصل كنيسة سانت صوفيا أو هاغيا صوفيا. [المترجم].

(***) ربما من باب التسـوية «العثمانية»، حُوِّلت كل هذه الجوامع والمسـاجد المتنازع عليها وغيرها إلى متاحف ومؤسسات ثقافية لفض الاشتباك بين أتباع الدينين. [المترجم].

صاحب الصراع السياسي والديني تسابق مالي. فعمدت البنوك اليونانية إلى تضخيم قيمة الدراخما أمام الليرة العثمانية بغرض مساعدة اليونانيين في شراء الممتلكات في القسطنطينية. وبداية من مايو 1919، ردت الحكومة العثمانية بإعطاء أثمان باهظة للممتلكات المعروضة للبيع. وفي البورصة، حاول المضاربون اليونانيون أن يخفضوا قيمة الصناديق العثمانية وضغطوا على اليهود لدعمهم[15]. وإجمالا، بات مصير المدينة معلقا في حالة من التوازن.

كانت القسطنطينية بين العامين 1918 و1924 مشهدا للعبتين كبيرتين: لعبة الأمم بين الإمبراطورية العثمانية واليونانيين والغرب، ولعبة السلطة بين العائلة العثمانية ورعاياها المسلمين. كان البطل الأساسي، في بادئ الأمر، هو السلطان الجديد وحيد الدين محمد السادس الذي جلس على العرش بعد وفاة أخيه الأكبر رشاد في الثالث من يوليو 1918. بعد تنصيبه في أيوب، بدأ في استعادة السلطة من تركيا الفتاة. كانت الهزيمة العسكرية في العام 1918 قد أدت إلى الإطاحة بآل هابسبرغ وآل هوهنستولين(*) اللذين ألقيت عليهما المسؤولية عن دخول إمبراطورياتهما الحرب في العام 1914. لكن في الحالة العثمانية، كانت تركيا الفتاة، وليس العائلة العثمانية، المسؤولة عن الهزيمة العثمانية. ما جعل «رجل أوروبا المريض» يعمّر أطول من الإمبراطوريات الروسية والألمانية والنمساوية. وفي الثاني والعشرين من ديسمبر 1918، حل محمد السادس البرلمان(**).

على الرغم من أن محمد السادس كان فارسا جيدا في شبابه، فقد كان قبيحا ناحلا مهدول الكتفين، جلس على العرش في العام 1918 وهو عجوز قلق في حالة صحية متقلبة. وصف الفيلد مارشال المستقبلي ألكسندر (Field Marshal Alexander) المتمركز في القسطنطينية ضمن الحرس الإيرلندي السلطان بأنه «مريض بشدة وعجوز جدا وشخصية عادية جدا ومثيرة للشفقة». وفي العام 1920، حل أمير البحر دي روبيك (Admiral de Robeck) الذي قاد الهجوم البحري البريطاني على الدردنيل، محل كالثروث مندوبا ساميا في القسطنطينية. كتب إلى لورد كرزون

(*) آل هوهنتسولين Hohenzollern هو البيت الحاكم في ألمانيا حتى العام 1918، كان منهم أمراء وملوك لهوهنتسولين وبرادينبرغ Bradenburg وبروسيا والإمبراطورية الألمانية ورومانيا. [المترجم].

(**) كانت العائلة الحاكمة الروسية آل رومانوف Romanov قد أُسقطت قبل ذلك مع خلع آخر أباطرتهم نيقولاس الثاني في 15 مارس 1917 في أثناء الثورة الروسية، الذي قُتل هو وأسرته على أيدي البلاشفة في العام 1918. [المترجم].

من بارجة أيرون ديوك أن «السلطان على رغم حسن ملبسه وهندامه عموما، فإن مظهره منكمش نوعا ما». في بداية المقابلة، كان يخرج الكلمات «بتردد مؤلم جدا» وأظهر «عصبية حادة».

كان العرش العثماني يفقد درع العظمة الذي تميّز به. أقام السلطان في يلدز الذي صار ظلا باهتا لحالته في عهد أخيه الأكبر عبدالحميد. أما حفلات الاستقبال في الأعياد في قصر دولمة بهجت التي كانت في السابق مناسبات رائعة تدوم عدة ساعات، فجاءت في العام 1919، على نحو ما وصفها عضو مجلس الشيوخ ألكسندر مافرويني (اليوناني الذي لم يطع الأمر البطريركي بقطع الروابط مع الإمبراطورية العثمانية): «كان الحزن واضحا على وجوه الجميع، بداية بالسلطان المنكمش والمنهك. كما أن عدد الحضور كان أقل كثيرا من المعتاد»[16].

اتبع السلطان، الذي كان قصره في مدى نيران البوارج الراسية في البسفور، سياسة التعاون مع الحلفاء على أمل تهدئة غضبهم وتغيير دعمهم لليونانيين. وفي الرابع من مارس 1919، اختار للصدارة العظمى محمد فريد Damad Ferid زوج أخته مديحة. أما محمد فريد الليبرالي الثري المهذب عدو تركيا الفتاة، فقد وضع أمله - كما قال بنفسه - في الله ثم في بريطانيا العظمى. وصفه أصدقاؤه الإنجليز بأنه المكافئ العثماني للجنتلمان الإنجليزي. وفي العشرين من مارس 1919، وفي محاولة للإبقاء على الولايات العربية والأناضول للإمبراطورية، طالب بفرض الانتداب البريطاني عليها[17].

اعتمد القصر والباب العالي على حسن نية الحلفاء. لكن في مقاهي المدينة وأزقتها، كان أنصار تركيا الفتاة يخططون للمقاومة، على النحو الذي خطط له أنور في الأيام الأخيرة قبل مغادرته إلى برلين. كان زَعيمهم في القسطنطينية هو قرة كمال (Kara Kemal) وزير التموين السابق. أُطلِق الاسم قرة قول Karakol على منظمة المقاومة السرية التي أطلقها كمال والتي اعتمدت على نظام الخلايا الثورية، وجندت أفرادها بشكل أساسي من بين الأعضاء السابقين بجمعية الاتحاد والترقي. كان مقرها صالة شاي بالقرب من البازار في مقابل مسجد محمود باشا. وبدأت القرة قول في تهريب ضباط عثمانيين وأسلحة من القسطنطينية الخاضعة لسيطرة الحلفاء إلى الأناضول: المنطقة الأخيرة التي كانت بها جيوش عثمانية لم تُهزم[18].

كان من بين الضباط الذين تمنى القرة قول Karakol أن يرسلهم إلى الشرق بطل معارك غاليبولي مصطفى كمال باشـا. في الثالث عشر من نوفمبر، وبينما كانت سفن الحلفاء تبحر إلى البسفور، وصل مصطفى كمال بالقطار إلى محطة حيدر باشا عائدا من الجبهة السورية وتوجه إلى جناح بالطابق الأول بفندق بيرا بالاس. كان مصطفى كـمال المولود في سـالونيك في العام 1881، يعرف القسـطنطينية جيدا. ففيها تلقى تعليمه العسـكري بين العامين 1899 و1905 في الكليـة الحربية وكلية الأركان. قبل فترة قصيرة من سـقوط سـالونيك أمام اليونانيين في العام 1912، نقل مصطفى أمه وأخته إلى بيت في بيشيكتاش. وكان له أصدقاء كثر في المدينة، من بينهم صالح فنصة (Salih Fansa) وزوجته سـلمى (Selma) العربيان الحلبيـان اللذان أقام عندهما عندما زادت عليه فاتورة بيرا بالاس. وكان كمال أيضا ضابطا مرافقا مفضلا للسلطان.

مثـل معظم الأتـراك، لم يتحمل مصطفى كمال الاحتـلال. وعندما دعاه ضباط بريطانيـون على شراب في بيرا بالاس، قيل إن كـمال أجابهم: «نحن أصحاب البيت هنا وهم الضيوف، ومن الأليق أن يأتوا هم إلى طاولتي». وقامت دوريات بريطانية بتفتيش بيت والدته في بيشيكتاش، فأسرع بمغادرة بيت فنصة إلى بيت حديث ذي أربعة طوابق وشرفات في شيشلي[19].

أجرى كمال أربع مقابلات مع السلطان في يلدز بعد مواكب السلاملك في نوفمبر وديسـمبر 1918. وحتى مارس، ظل يسـعى إلى أن يصير وزيرا للحربية وظل يقاوم المتحمسين الذين يحثونه على الذهاب إلى الأناضول. وأخيرا اقتنع بمغادرة العاصمة نـزولا على رغبة القرة قول ويأسـا من الحصول على مقعـد في الوزارة. وفي الثلاثين من أبريل 1919، عُيِّن مفتشـا عاما للقوات في شمال الأناضول يتمتع بسلطة مطلقة لتهدئة المنطقة وضمان تنفيذ شروط الهدنة.

ربما لعبت البيولوجيا العائلية دورا في قراره بالرحيل. كان غريمه الكريه أنور باشـا قد تزوج من إحدى الأميرات، وقيل إن كمال نفسـه تقدم من خلال عائلة فنصة طالبا الزواج من يد ابنة السـلطان الساحرة والجذابة صبيحة سـلطان (Sabiha Sultan). لكنه رفض لعدة أسباب، من بينها أن صبيحة سلطان وابن عمها الأنيق عمر فاروق أفنـدي (Omer Faruk Efendi) ابـن عبدالمجيد أفنـدي كانت تجمعهما بالفعل علاقة حب، علاوة على أن الحالة الصحية لمصطفى كمال لم تكن مطمئنة وأنه اشتهر

بطموحه الجامح، مع الوضع في الاعتبار أن صهرا إمبراطوريا طموحا آخر - هو أنور باشا - قد أضر بالعائلة الإمبراطورية. لكن هناك من يعتقدون أن عرض الزواج كان مقدما من القصر، وأن كمال هو الذي رفض، وليس العكس[20].

قضى كمال آخر أيامه في القسطنطينية في الالتقاء بالمسؤولين في حلقة الشرق وتلقـي التعليمات من محمد فريد في بيته في نيشـانتاش. وفي الخامس عشر من مايـو، زار كمال السـلطان في يلدز زيـارة وداع، قال له السـلطان فيها الكلمات الغامضـة: «يا باشـا، يا باشـا ربما تتمكن مـن إنقاذ الأمة». وفي السـادس عشر من مايو، وبعد عشـاء وداع مع أمه وأخته في شيشـلي، غادر في ثمانية عشر من ضباطه إلى سامسـون Samsun على البحر الأسـود من رصيف ميناء غَلَطَة. كان ظاهريا خادما للسلطان يغادر لفرض أوامر سيده في المحافظات. لكنه في الواقع، مثل إسـماعيل كـمال في العـام 1912 والكثير من العرب في العـام 1919، غادر القسطنطينية لتأسيس أمة جديدة[21].

في الخامـس عشر من مايـو، وبتحريض من بريطانيا وفرنسـا، احتلت قوات يونانية محمولة على سفن بريطانية وفرنسية إزمير، المدينة ذات الأغلبية اليونانية التي كانت تحيطها محافظة ذات أغلبية مسـلمة. ورفع اليونانيون العلم اليوناني الأزرق والأبيض ورقصوا فرحا في شوارع القسطنطينية. وأغلق المسلمون دكاكينهم حدادا. كان احتلال إزمير الضربـة التي دفعت القومية التركية إلى العمل. تذكرت القائدة النسـوية والكاتبة العظيمة خالدة أديب الحدث لاحقا بالقول: «توقفت في الحـال عـن الوجود كفـرد، وأخذت أعمـل وأكتب وأعيش كوحـدة من ذلك الجنون القومي العظيم». نظم القرة قول سلسـلة من الاجتماعات الاحتجاجية في القسـطنطينية وقاضيكوي (وليس في بيرا المسيحية). وأُرسِل من أحد الاجتماعات ممثلون إلى يلدز يطالبون السلطان بأن يأخذ صف الشعب. لكن خدمه أخبروهم بأنه مريض جدا ولا يستطيع أن يقابل أحدا. وبدأت القطيعة بين العائلة العثمانية والقومية التركية تتشكل.

بلغـت الحملة الاحتجاجية ذروتها باجتماع في السـادس من يونيو في الأتميدان أمـام الجامع العظيم السـلطان أحمد. حضر هذا الاجتـماع، وفقا لأحد التقديرات مائتا ألف شـخص. حلقت طائرات الحلفاء فوق رؤوسهم. وأخذ المؤذنون ينشدون

مــن المآذن. وقفت خالدة أديب، معتبرة نفســها تجســيدا للأمة التركية، تخطب في بحــر من الأعلام الســوداء والطرابيش الحمراء والعمائم البيضــاء والعيون المتلألئة التي «تطلق رســالتها ورغبتها كما تُطلَق النار من المدافع». أكدت في خطبتها وجود القســطنطينية وأنصابها في قلوب الأتراك. لم تعد القســطنطينية بالنسبة إلى هؤلاء مدينة كوزموبوليتانية غريبة عنهم، بل كانت معقل الإسلام والأمة التركية:

> الإخوة والأبناء بنو وطني! من قمم المآذن الشــامخة في الســماء، ترقب سبعمائة عام من المجد هذه المأساة الجديدة للتاريخ العثماني. إنني أستحضر أرواح أسلافنا العظماء الذين عبّروا كثيرا في مواكبهم خلال هذا الميدان بعينه. وأرفع رأسي أمام الغضب المســتحق من تلــك القلوب الأبية وأقول: «أنا ابنة للإســلام تعيســة، وأم مقصرة لجيلنا الحالي الذي لا يقل بطولة عن أجداده، وإن كان حظــه تعســا. إنني أنحني أمام أرواح أســلافنا وأعلن باســم الأمة التركيــة الجديدة التي تتجلى أمامي هنا، أن الأمة التركية التي باتت منزوعة الســلاح لاتزال تمتلك قلوبكم الأبية، وثقتنا في الله وفي حقوقنا»... سأقســم الآن ورددوا معي: أن تبقى العاطفة السامية التي تتقد في قلوبنا حتى إعلان حقوق الشعب!»[22].

وبينما كانت القسطنطينية تتحدث، كانت الأناضول تفعل. بسط كمال سيطرته سريعــا على الأرض والقوات والإدارة العثمانية، والأهم من ذلك على أســلاك البرق. فصَله الســلطان في الثامن من يوليو من منصبه، لكنه واصل عمله باستخدام جهاز الديموقراطية التمثيلية. ففي مدينة ســيواس Sivas، وضــع مؤتمر من المندوبين في شهر سبتمبر النسخة الأولى من الميثاق الوطني. تجلى في الميثاق ما أسماه كاننغيسر باشــا «الولاء الثابت لدى الأتراك لسلطانهم وخليفتهم». أقسم الميثاق على الحفاظ على سلامة الأراضي ذات الأغلبية الناطقة بالتركية واستقلالها ووصف القسطنطينية بأنها «كرسي خلافة الإســلام وعاصمة الســلطنة ومقر الحكومــة العثمانية». وذكر مصــدر فرنسي أن الجيش كلــه كان يؤيد كمال والعائلة الحاكمة. وبداية من صيف العام 1919، بدأت الأســلحة والذخائر تنتقل من القســطنطينية، إذ أخذ الوطنيون يهاجمــون مخازن الحلفاء لإمداد قوات كمال بالســلاح. وثمة تقدير يذهب إلى أن ثلث ذخيرة كمال جاءه من العاصمة[23].

وبحلول أواخر العام 1919، كانت شـوارع القسـطنطينية قد بدأت تعكس نجاح الوطنيـين في الأناضـول. فانتهى دوس الطرابيـش، ورجع المسـيحيون يضعونها فوق رؤوسهم. مقت السلطان حركة تركيا الفتاة التي رأى أن أعضاءها هم الوطنيون الذين يعملون مع كمال، لكنهم في الحقيقة شكلوا أغلبية رجاله، وليس كلهم. ونفر السلطان من المؤتمرات والكلام عن السـيادة الشـعبية الذي حصّن كمال حركته به. ومع ذلك، ففـي بعض الأحيان آثر السـلطان أن يحتـوي الحركة الوطنيـة ويلجمها بدلا من أن يواجهها. وعلى رغم أن السـلطان فصل مصطفى كمال من الجيش، فقد ظل مصطفى يعلن ولاءه للسـلطان. وفي الأول من أكتوبر، عُيِّن علي رضا باشـا (Ali Riza Pasha) الأشد وطنية صدرا أعظم مكان محمد فريد.

ظل جزء كبير من حاشـية كمال مواليا للسـلطان، بينـما كان جزء من حكومة السلطان، خاصة المسؤولين في وزارة الحربية - وفقا لتقرير للمخابرات البريطانية في التاسـع من يناير 1920 - يقدم «كل مساعدة ممكنة للقوات الوطنية». ونزولا على رغبة مستشـاريه، وافق كمال على أن تعقد الجلسـة الأخيرة للبرلمان العثماني، ليس في أنقرة كما أراد، وإنما في القسـطنطينية في قصر منيرة سلطان (Munire Sultan) بجوار دولمة بهجت. وكما هو متوقع، كان السـلطان «مريضا» جدا ولا يستطيع أن يفتتحها بنفسه. وفي السابع عشر من فبراير 1920، تبنى البرلمان الميثاق الوطني[24].

وفي ذلك الشهر، قرر المجلس الأعلى للحلفاء في اجتماعه بباريس، على الرغم من معارضة كرزون ولويد جورج، أن القسـطنطينية لـن تصبح دولية ولا يونانية، ذلك أن الديـن والعائلـة العثمانية والجغرافيا تصر على أنهـا تركية. وفي الأعوام 1919 - 1924، اكتسحت الهند حركة الخلافة التي كانت انفجارا للعداء ضد بريطانيا والولاء للخلافة العثمانية الذي ظهر إلى السطح قبل ذلك في العامين 1877 و1878 والعامين 1912 و1913. بل إن قلق المسلمين الهنود على مستقبل القسطنطينية شاركهم فيه غاندي وبعض الهندوس. ونظم مؤتمر الخلافة في عموم الهند All-India Khilafat Conference اجتماعـات جماهيرية في دلهي وبومباي وكراتشي، وأرسـل وفدا إلى القسطنطينية. ووقعت ثورة موالية للخلافة في محافظة كيرالا الإسلامية[25](*).

(*) الاسـم كيرالا Kerala تحريف للاسـم الأصلي للولاية وهو «خير الله» التي يقال إن العرب الأوائل الذين ذهبوا إلى الهند استوطنوا فيها. [المترجم].

على خلاف إمبريالية كرزون العدوانية، ردد كل من نائب الملكة في الهند في دلهي ووزير الدولة لشؤون الهند في لندن، رأيا للورد ليتون Lord Lytton قاله في العام 1877، محذرين من «ضربة أخيرة قاتلة» للولاء الهندي، إذا طُرد الأتراك من القسطنطينية. ورأت هيئة الأركان العامة البريطانية فضلا على ذلك أن السلطان سيكون أكثر طواعية في القسطنطينية «تحت مدافعنا» منه في أي عاصمة داخلية[26]. وفي هذا العصر الذي تميّز بالاستفتاءات العامة ووعد الرئيس ويلسون بـ«عالم آمن تسوده الديموقراطية»، لم يؤخذ رأي سكان العاصمة العثمانية. غير أن بريطانيا لم ترد أن تقع القسطنطينية تحت سيطرة الوطنيين (الذين كان يشار إليهم دائما في المصادر البريطانية بالمصطلح الازدرائي «الكماليين») من خلال البرلمان العثماني. وفي فبراير من العام 1920 أرسلت إلى المضايق قطعا بحرية ضخمة من الأسطول الأطلسي وقوات من مصر وفلسطين. وفي السادس عشر من مارس احتلت القوات البريطانية الوزارات ومكتب البريد وبرج غَلَطَة. بل إن الجنود البريطانيين زحفوا حتى على مجلس النواب وبدأوا في اعتقال النواب الوطنيين. وقُتل ستة من عمال البريد الأتراك عندما احتُل مكتب البريد العام، وقُتل أيضا خمسة أتراك وثلاثة جنود للحلفاء. ولم يثمر احتجاج المتحدث باسم البرلمان العثماني إلى «أبي البرلمانات» في ويستمنستر بأن فعل قوات الحلفاء «خرق» «ومناف لكل مبادئ القانون الدولي».

بمساعدة من الطَشناقيين الأرمن (الذين كانوا ينفذون حملتهم الانتقامية الخاصة من أعضاء تركيا الفتاة والمتعاونين الأرمن)، قُبض على كثير من المسؤولين العثمانيين وخمسة وثمانين نائبا، بعضهم ببيجامات النوم. قُبض على الجنرال مرسينلي جمال باشا Mersinli Cemal Pasha (وزير الحربية السابق) «بين أحضان امرأة ليست زوجته. لم تعبأ السيدة تماما باقتحام الجنود الغرفة، وكان همها الوحيد أن تسرع إلى المرآة لوضع البودرة على أنفها». وأُرسل مائة وخمسون وطنيا إلى مالطا للسجن. بينما فر وطنيون آخرون إلى بوارج إيطالية أو فرنسية في البسفور، ومن هناك إلى الأناضول. فقد كانت القسطنطينية ساحة حرب بين الحلفاء بعضهم وبعض، إلى جانب الحرب بين البريطانيين والوطنيين. فبينما كانت فرنسا وإيطاليا تتظاهران بأنهما تتعاونان مع بريطانيا في القسطنطينية، كانتا تدعمان الوطنيين سرا، إذ صممتا على منع ظهور «مصر

أخرى» على البسفور، أو ما أسمته صحيفة فرنسية «جبل طارق القسطنطينية»(*). ولم تكن القوتان ترحبان بوجود يونان قوية بدعم من البريطانيين[27].

على مدار السنتين التاليتين كانت القوة البريطانية مرئية في أنحاء القسطنطينية كافة: عشرة آلاف جندي بريطاني، وثمانية آلاف جندي هندي، وثمانية آلاف جندي فرنسي، وألفا جندي إيطالي، تمركزوا في المدينة وفي المضايق. وأخذ ضابط بريطاني، هو الكولونيل شتلويرث (Colonel Shuttleworth)، يشرف على وزارة الحربية العثمانية. وبداية من خريف العام 1920، كان الجنرال تيم هارينغتون (Tim Harington) القائد العام لقوات الحلفاء وفي الوقت عينه رئيس اللجنة العسكرية لقوات الحلفاء المكلّفة بالسيطرة على المدينة. وكانت توجد أيضا تحت الرؤساء البريطانيين، مندوبيات مالية وقضائية ومندوبية لكردستان وللمضايق وست مندوبيات حدودية مختلفة وكيان يسمى «المندوبية الفرعية للعناصر الخاصة». كان أندرو رآيان (Andrew Ryan) الترجمان الأول بالمندوبية السامية البريطانية يقوم «بزيارات دائمة إلى الصدر الأعظم»، فيما كان الوصول إلى السلطان متعذرا. وضعت السلطات البريطانية أيديها على الشركات التي تدير البرق وخطوط الترام وأرصفة ميناء القسطنطينية لكي تحدد التعريفات التي تريدها. وأصبح الشريف علي حيدر الذي كان في السابق عضوا متحمسا في تركيا الفتاة، يستضيف الضباط البريطانيين في تشامليجا، ويسعى من خلال بريطانيا أو فرنسا إلى أن يصبح ملكا للعراق أو سورية: «طوال حياتي كنت مواليا للأتراك، لكني وأصدقائي مستعدون حاليا لأن نكون أصدقاء موالين لإنجلترا إن رغبت هي في ذلك»[28].

بدت الصلات بين القسطنطينية والأناضول مقطوعة. اخترق عميل هندي للمخابرات البريطانية يدعى مصطفى صاغط Mustafa Sagit القرة قول وحُل التنظيم(**). لكن في حقيقة الأمر، كان الاحتلال البريطاني، مثل معظم الأفعال البريطانية في الفترة 1918 - 1923، يقوي موقف مصطفى كمال. في خطاب له في السادس عشر من مارس، عبّر كمال عن التحول من الولاء للعائلة الحاكمة إلى القومية التركية: «اليوم دمر احتلال

(*) في إشارة إلى سيطرة بريطانيا على مصر بقناة السويس فيها، وسيطرتها أيضا على مضيق جبل طارق الذي سبقت الإشارة إليه في حاشية سابقة للمترجم. [المترجم].

(**) يقال إن العميل الهندي نفسه أرسل لاحقا إلى أنقرة لاغتيال مصطفى كمال.

إسطنبول تاريخ السبعة قرون وسيادة الإمبراطورية العثمانية. ولذلك تجد الأمة التركية نفسها اليوم مرغمة على الدفاع عن حقوقها وعن استقلالها وعن مستقبلها كاملا». وعلى الجانب الآخر، قال السلطان لأحد مؤيدي كمال، هو رؤوف بيه: «هل هناك أمة يا رؤوف بيه، إنهم قطيع من الغنم يحتاج إلى راع. وأنا ذلك الراعي».

وبتشجيع من البريطانيين، انقلب السلطان على الوطنيين. وأعاد محمد فريد إلى السلطة صدرا أعظم في الخامس من أبريل. وفي الحادي عشر من أبريل، أصدر شيخ الإسلام المائة والثامن والعشرون عبدالله بايفندي (Abdullah Beyefendi) من عائلة دوري زاده الشهيرة، فتوى من القسطنطينية ضد مصطفى كمال، اتُّهِم فيها بالخيانة وتدمير القانون والنظام وتشكيل جيش خاص وفرض ضرائب على غير إرادة السلطان، وإذا لم تُقمَع حركته، وجب قتله. وفي الوقت نفسه، أدين كمال ووطنيون بارزون آخرون، منهم عصمت بيه وعدنان بيه وزوجته خالدة أديب، وحُكِم عليهم بالإعدام. هددت هذه الفتاوى مستقبل الوطنيين. كانت تركيا في حالة حرب مستمرة منذ العام 1911، باستثناء فترة العامين 1913 و1914، وقد ضجر معظم الناس من الصراع ويئسوا من النصر[29].

لم يكتفِ السلطان بالفتوى، بل دعمها بالأفعال. فأرسل قوة مسلحة بريطانية تحمل اسم «جيش الخلافة» ضد أنقرة. تكوّنت القوة في الأساس من الشركس والمتعصبين الدينيين (لأنه لم يكن ممكنا الثقة بولاء قوات السلطان الرسمية في القسطنطينية في حرب ضد الوطنيين)، استولت بالكاد على إسكي شهر Eskishehir، لكنها هُزِمت بحلول شهر يوليو 1920. وسرعان ما وصلت القوات الوطنية إلى ضواحي القسطنطينية. وأخذت الطلقات تطلق من تلال بايكوز عبر البسفور إلى حديقة السفارة البريطانية الصيفية في إينيكوي، والأكثر من ذلك وهو ما أثار غضب المندوب السامي، أنها وصلت إلى بارجة صاحبة الجلالة أيرن ديوك نفسها. شنّت القوات والبوارج والطائرات المائية البريطانية هجوما مضادا في يوليو بمساعدة فوج يوناني. وحدثت آخر مهمة للفرسان بالجيش البريطاني، من جانب فرقة الخيالة 20، دفاعا عن القسطنطينية. وأخيرا، دُفِع الوطنيون بعيدا عن المدينة إلى بلدة إزميد Izmit الواقعة على بعد سبعين كيلومترا إلى شرق المدينة. وعُزّزت دفاعات القسطنطينية بوضع سياج من الأسلاك الشائكة من إزميد إلى البحر الأسود[30].

وبغرض توجيه «ضربة قاضية» للوطنيين، سمح الحلفاء لليونانيين بالتقدم على نطاق واسع عبر الأناضول وتراقيا. وفي الثامن من يوليو، استولى الجيش اليوناني على بورصة. وفي السادس والعشرين من يوليو، دخل الملك ألكسندر دخول المنتصرين إلى إدرنة. وعلى مدى السنتين التاليتين، وبينما كان الجيشان اليوناني والتركي يتقاتلان على الأناضول، استخدمت اليونان القسطنطينية، بإذن من الحلفاء، كقاعدة عسكرية وبحرية لإنزال الذخيرة على أرصفة غَلَطَة وتجنيد الجنود في شوارع المدينة للقتال في صفوف الجيش اليوناني. وعلى أي حال، فإن يونانيي العاصمة لم يُظهِروا حماسا للخدمة، فلم يُجنَّد بين مارس 1921 ومارس 1922 غير ألفين وثمانمائة وخمسين رجلا من يونانيي القسطنطينية، إذ فضَّل أغلبيتهم التحريض على العمل. وفي ديسمبر 1921، انتُخِب القومي الفنيزيلوسي(*) المتعصب ميليتيوس Meletios بطريركا، في مخالفة صريحة للقانون لأنه لم يكن من الرعايا العثمانيين[31].

وفي العاشر من أغسطس 1920، وقَّع محمد فريد معاهدة سيفر التأديبية(**). قضت شروط هذه المعاهدة بأن تظل المضايق أرضا عثمانية، لكن توضع تحت سيطرة لجنة دولية، وأن يقسم شرق الأناضول بين دولة أرمنيا المستقلة ومنطقة كردستان ذات الحكم الذاتي، وأعطت اليونان إزمير وشرق تراقيا. وحدد الفاتحون حتى حجم حرس السلطان. وكان إحياء الامتيازات الإهانة الكبرى. وصف السلطان المعاهدة بأنها «حكم إعدام لتركيا» ولم يصادق عليها.

بدت القطيعة بين أنقرة والقسطنطينية كاملة. كان لأنقرة عملاء في أنحاء المدينة كافة، وحتى داخل بيت محمد فريد. ونشر رجال السلطان بين الناس في المقاهي والمساجد أن نفير السلطان لحمل السلاح ضد الوطنيين كان ناتجا عن ضغط بريطاني. لكن يتضح من الروايات البريطانية أن عداء السلطان للكماليين كان أشد من عداء البريطانيين أنفسهم لهم، حتى إنه هدد بالتنازل عن العرش إن لم يتخذ البريطانيون إجراءات ضد «مستشفى المجانين» في أنقرة. ومع أن كثيرا من الزعماء الوطنيين مثل رؤوف ورفعت Refet وكاظم قرة بكير Kazim Karabekir

---

(*) نسبة إلى رئيس الوزراء اليوناني إليوثيريوس فنيزيلوس Eleutherios Venizelos. [المترجم].

(**) وقعت هذه المعاهدة في مدينة سيفر الفرنسية التي افتتن سلاطين العثمانيين بخزفها - وحملت اسمها - وأنشأ عبدالحميد مصنعا لإنتاج البورسلين نفسه في يلدز، بل إنها وُقِّعت في مصنع البورسلين نفسه. [المترجم].

ومصطفى كمال نفســه خدموا الســلطان مؤخرا كوزراء وجنرالات، فإنه وصفهم في حديث مع خليفة دي روبيك المندوب السامي البريطاني الجديد سير هوراس رمبولد (Horace Rumbold) بأنهم «لا توجد لهم أي أرضية حقيقية في البلاد ولا يربطهم بها دم أو أي شيء آخر».

بدا أن الإمبراطورية العثمانية لم تعد مستســاغة، عندما قدح السلطان- متناسيا تقاليــد إمبراطوريتــه متعــددة القوميات- الوطنيــين بأنهم لا يوجــد بينهم «تركي حقيقي» واحد. حتى الســلطان نفســه – على رغم أن دمه الشركسي يزيد على دمه التركي- طالته عدوى القومية العرقية، موضة العصر، عندما وصف كمال بأنه:

> ثائــر مقدوني من أصل مجهول. قد يكون دمه أي شيء: بلغاريا أو يونانيا أو صربيا. إن هيئته صربية! لقد انكشــف عجزه هــو وحكومته أمام الأتراك. ولا يحظى بالقبول بين الأتــراك الحقيقيين، حتى عن طريق الدعاية. فالأتراك الحقيقيون موالون للأصــل، لكنهم خاضعون إما لإرهاب الصور الخاطئة وإما خداعها، مثل قصة وقوعه في الأسر.

كان السلطان يشعر بأنه في حالة من «العجز والعزلة الكاملين»[32].

بعد العام 1920، كانت الحكومة العثمانية عاجزة تماما. حتى إن آخر الفرمانات العثمانية الصادرة في العامين 1921 و1922 جاءت شبيهة في بساطتها أحادية اللون بســابقاتها في فجر الإمبراطورية الواثــق. اعتمدت الحكومة على القروض من البنك العثماني إلى أن وضع الســلطان في شــهر يناير 1921 وزارة الماليــة إضافة إلى وزارة الحربية تحت ســيطرة الحلفاء. وقد أراد بذلك، في مقابل الذهب العثماني المصادر حتى تاريخه، الاســتمرار في دفع رواتــب الموظفين وإيقاف تدفقهم على أنقرة التي وعــد فيها مصطفى كمال برواتب أعلى وأمان من الأجانب. تمثلت القلة التي أيدت سياسة الســلطان في العلماء والليبراليين مثل رضا توفيق وعلي كمال، الصحافي الذي تعلــم في بريطانيــا وأصبح وزيرا للداخليــة. وجميع هؤلاء مقتــوا الوطنيين الذين اعتبروهم من بقايا لجنة الاتحاد والترقي[33].

كانت أغلبية مســلمي القســطنطينية يؤيدون الوطنيين. وفي ذلك كتبت ديميترا فــاكا (Demetra Vaka) اليونانية المقيمة في القســطنطينية: «لا تتنفس العاصمة كلهــا ولا تفكر أو تتحدث عن شيء غــير حرب مصطفى كمال ضد اليونان. يتحدث

الأتراك عنها كأنها كانت أم المعارك». وفي إحدى حفلات الشاي المختلطة من الرجال والنساء التي كانت قد أصبحت موضة، سمعت ديميترا كاتبا يقول: «القلب والروح كلاهما مع الحركة في الأناضول». عاد الملك قسطنطين إلى العرش بعد موت ابنه ألكسندر في نوفمبر 1920. وعلى رغم أن اشتهاره بتأييد ألمانيا قد حرم اليونان منذ ذلك الحين فصاعدا من دعم الحلفاء، فإن الدكاكين اليونانية في بيرا كانت تعلق صورته ومعها التعليق «إنه آت»، وردد اليونانيون قولا عن مدينتهم نصه: «بناها قسطنطين، وفقدها قسطنطين، وسيستعيدها قسطنطين». وفي ليالي رمضان بالمدينة، كانت تعلق صور مصطفى كمال أحيانا في نوافذ الدكاكين، بينما تعرض المساجد بالنور العبارة: «يأتي النصر بالصبر» أو «صبرا» فقط. وكانت صحف أنقرة المعادية للسلطان والحلفاء المحظورة نظريا في العاصمة، تقرأ في كل ناد ومقهى[34].

وبدأت الحكومة العثمانية نفسها تقترب من الوطنيين في مجال الشؤون الخارجية بعد أن عزل السلطان محمد فريد. ومن الحادي والعشرين من أكتوبر 1920 حتى الرابع من نوفمبر 1922، كان الصدر الأعظم هو توفيق باشا البالغ من العمر سبعة وسبعين عاما الذي شغل منصب وزير الخارجية لعبدالحميد. تراسل توفيق مع كمال وأذعن لممثل الوطنيين في أثناء المفاوضات على تنقيح معاهدة سيفر في لندن في العام 1921. ووعد مصطفى كمال نفسه في خطابات وبرقيات إلى توفيق باشا بالإبقاء على السلطنة: «عندما تُنقَذ الخلافة». وعرض كمال على السلطان أنه إذا اعترف بالمجلس الوطني الكبير في أنقرة وحلت بعثة من أنقرة محل حكومته في القسطنطينية، فإن أنقرة يمكن أن تدفع مخصصاته الملكية. معنى ذلك أن كمال حاول رشوته لكي يصبح دمية في أيدي الوطنيين[35].

أثبتت أحداث الأشهر من مارس إلى يوليو 1920 أن السلطان دمية في أيدي البريطانيين. فعندما أرسلت الحكومة البريطانية كلا من القوات اليونانية وجيش الخلافة ليقاتلا الوطنيين، كان السلطان بطريقة غير مباشرة حليفا لليونانيين ضد رعاياه. أخذت أعداد متزايدة من الناس تغادر القسطنطينية للانضمام إلى الوطنيين في الأناضول. وبعد يومين من احتلال الحلفاء للبرلمان، ذهبت خالدة أديب وزوجها عدنان أديوار (Adnan Adivar)، بمساعدة القرة قول، متنكرين في هيئة خوجة وزوجته (للتخفي عن أعين عملاء الشرطة البريطانية)، إلى تكية الدراويش الأوزبكيين الخشبية

الصغيرة فوق تل أوسكودار. وكانت كلمة السر هي «السيد المسيح أرسلنا». ثم ساروا بعد ذلك على أقدامهم - أو في حالة خالدة أديب أخذت مركبة - ومروا على نقاط التفتيش البريطانية، وهم يحاولون تفادي قطاع الطرق اليونانيين على طول الطريق، حتى وصلوا إلى أرض تخضع لسيطرة الوطنيين فيما وراء إزميد.

كانت الاختلافات شاسعة بين القسطنطينية وأنقرة في العقد الثالث من القرن العشرين. كانت «قِبلة الحركة الوطنية» آنذاك مجرد بلدة أناضولية فقيرة تضم عشرين ألف نسمة. لاحقا، تذكرت خالدة أديب التي أصبحت نائب عريف في الجيش الوطني: «عشنا مثل أعضاء طائفة دينية حديثة التأسيس في النقاء الكامل لانطلاقتها». وبينما كانت القسطنطينية تحوي أكثر من ثلاثة آلاف سيارة، منها الرولز رويس والمرسيدس بينز، كانت أنقرة تحوي سيارة وحيدة يملكها عصمت باشا نائب مصطفى كمال[36].

حتى وريث العرش حاول أن يغادر القسطنطينية. ففي يونيو 1919، ذكرت مصادر بريطانية أن عبدالمجيد أفندي سيكون «على رأس الحزب الوطني». وكانت زياراته المسائية إلى مساجد العاصمة تثير قلق السلطان. كان عبدالمجيد يمقت محمد فريد. من ذلك أنه في الثاني عشر من يونيو 1919 كتب إلى السلطان ببصيرة غير معتادة أن «الوزارة تدفع الشعب العثماني كاملا إلى حضيض اليأس في الوقت الذي ينظر فيه العالم الإسلامي إلى الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية بوصفها ضرورة من منظور الإسلام». لقد خشي عبدالمجيد من «العواقب الوخيمة» على البيت الإمبراطوري ووصف السلطان بأنه «خراب البلاد والخلافة والسلطنة». وكان يصوم يوما في الأسبوع تعاطفا مع الشعب في محنته. كما تراسل مع مصطفى كمال[37].

في شهر أغسطس 1920، وفقا لمصادر بريطانية، «بُذِلت جهود كثيرة لإقناع أفراد العائلة الإمبراطورية بالذهاب إلى أنغورة[*]، لكن باستثناء ولي العهد، لم يبدِ أحد من الأمراء رغبة في الذهاب». وخلال شهر سبتمبر وضع السلطان الأمير قيد الإقامة الإجبارية لمنع مغادرته إلى أنقرة. كتب عبدالمجيد إلى أحد معلميه القدامى، وهو كانون وايتهوس (Canon Whitehouse) يقول: «أنا أعيش في حالة من الرعب في منتصف العمر. لا أحد يدخل بيتي أو يخرج منه». وفي أوائل أكتوبر أُطلِق سراحه[38].

(*) أنغورة Angora : هو الاسم التاريخي لأنقرة. [المترجم].

فكـر ابن عبدالمجيد عمر فاروق الجندي المحترف الذي تعلم في فيينا وبرلين في المغادرة إلى أنقرة في شهر سبتمبر 1920. لكنه انزعج، مثل كثيرين في القسطنطينية، من علاقات أنقرة الوثيقة مع الحكومة السوفييتية وشبهة الزندقة. أثرت البيولوجيا العائليـة مجـددا في التاريخ العثماني، إذ تزوج عمر من صبيحة سـلطان في يلدز في التاسع والعشرين من أبريل، وهو زواج بين أبناء العم لا سابقة له في تاريخ العائلة. وربما أراد أن يبقى بجانبها إلى أن تضع طفلهما الأول: ابنتهما نظلي شاه التي ولدت في الثـاني من فبرايـر 1921. وفي السـابع والعشرين من أبريـل 1921، مدفوعا بما أسماه في رسالة تركها للسلطان «شعورا بالوطنية لا يقاوم»، نزل على شاطئ إينبولو Inebolu على البحر الأسـود. كان اسـتقبال الناس له أفضل من استقبال مصطفى كمال له. ربما كان اسـتقبال كمال له سـيكون أفضل لو جاءه الأمير في العام 1920 عندمـا كان الوطنيون في حالة من اليأس. لكن في العام 1921، عندما بدأوا يهزمون اليونانيـين، رفض مصطفى كمال خدمات الأمير[39]. لكـن ذلك لم يكن نهاية اتصال العائلة العثمانية بالقومية التركية.

وبينـما كان الوطنيون يغادرون القسـطنطينية للانضـمام إلى صفوف الجيش، كانت المدينة تسـتقبل موجات من اللاجئين والأيتام: الأتراك والأكراد والأرمن. كان عـدد اللاجئين كبيرا إلى درجة أنهم ملأوا الكليات العسـكرية والقصور والمسـاجد. وقامت منظمة خيرية خاصة بتمويل أمريكي تسـمى «الإغاثة للشرق الأدنى» بتوفير الطعام لأكثر من مائة وستين ألف شخص في اليوم في القسطنطينية[40].

عـلى أن المدينـة نجت من بعض الأهـوال. ففي العـام 1919، قُتل كثيرون في القاهرة والإسكندرية في أثناء ثورة معادية للبريطانيين، وبدأ الاحتلال اليوناني لإزمير بمذبحة للأتراك، وقصفت القوات الفرنسـية دمشـق بالقنابل في العام 1920. فيما خلت القسـطنطينية بأعجوبة من إراقة الدماء، إلا في شـهر مارس 1920. تكشـف المذكرات التركية عن كرامة جريحة أكثر مما تكشـف عن معاناة مادية، إذ اشـتكى الأتراك من «السخريات التي لا تطاق» من جانب اليونانيين والأرمن، ومن التصرفات «الذميمـة عموما» على العبّارات وفي عربات الترام. فكانوا يُتهَمون مثلا بجرائم من نـوع الركـوب درجة أولى بتذاكر درجة ثانية، أو أن يعطـي كومسرية الترام الأرمن المقاعد للآخرين بينما يطردون المسلمين[41].

خلت القسـطنطينية من العنف، وبينـما كان الوطنيون يحاربون في الأناضول، كانـت بـيرا تعيش في كرنفال دائـم، إذا ما غضضنا الطرف عن الفقر والسـخط في شـوارعها الجانبيـة. كان مع الجنـود والبحارة الأجانب مال لإنفاقـه. فكان ضباط الحلفـاء يزدحمون حول بار فندق بيرا بالاس. وفي الأول من ديسـمبر 1918، كتبت إحدى الصحف: «لم يحدث قط في تاريخ المخبولين في بلدنا، وهم كثر هنا، أن أصبح الغنج بهذا الانتشار، على نحو ما حدث منذ وصول الإنجليز. فبين الساعة السادسة والثامنة مسـاء، يمكنك أن تراهم يفعلون ذلـك في صالونات بيرا بالاس التي يحدث الغنج فيها على الملأ». وبالنسـبة إلى هارولد آرمسـترونغ (Harold Armstrong) نائب الملحق العسـكري البريطاني، كانت «الحياة مرحة وشريرة ومبهجة. فالمقاهي كانـت مملوءة بالـشرب والرقـص. ولا وجود لعراقيـل الروابط الأسريـة»(*). في مسرحيته، «الجبّانـة الصغيرة» Petit Champ des Morts، كتب ضياء مفتي زاده بيـه (Muftizade Zia Bey)، ابن واحد من آخـر وزراء الخارجية العثمانيين، كان هنـاك «كثير من الإغراء والتحرش من الذكـور والإناث، حتى إن الرجل الذي يحترم نفسه لم يكن يذهب ثانية إلى هذا المكان». وانتشرت دعارة الأطفال[42].

في العام 1920، تعزز الجو الكرنفالي في بيرا باحتلال سـلمي جاء من الشـمال. قدمت الثورة الروسـية المكـوّن الثالث - بعد الصراع بين الوطنيـين والحلفاء وبين الوطنيين والسـلطان - في الفصل الختامي للقسـطنطينية كعاصمة. في شهر نوفمبر 1920، أُجـبِر الجنرال رانغـل (General Wrangel) القائد الأخـير والألمع للقوات «البيضاء» على الفرار من القرم(**). في هذه المرة، شـهدت المدينة التي اسـتقبلت كثيرا من اللاجئين من المناطق المختلفة، من إسـبانيا وبولندا وآسيا الوسطى(***)، وصول طابور من مائة وسـت وعشرين سـفينة تحمل مائة وخمسـة وأربعين ألفا وسـتمائة وثلاثة وتسـعين روسيا (وخيول الاسـتيلاد الإمبراطورية الروسية). لم يأتِ هؤلاء على النحو الذي تمناه كثير من الروس سـابقا: لتعليق «درع روسـيا إلى الأبد

(*) بمعنى أن الجنود والضباط الإنجليز والأجانب ليست لهم في المدينة أسر وزوجات يقيّدن حريتهم. [المترجم].

(**) لجوء الروس إلى القسطنطينية ليس لتحسن علاقتهم مع الأتراك، بل لأن «البيض» اللاجئين كانوا الطرف الذي دعمه الحلفاء في الحرب الأهلية الروسية. [المترجم].

(***) اللاجئون من إسبانيا هم بقايا الأندلسيين اليهود أولا ثم المسلمين، واللاجئون من بولندا وآسيا الوسطى كانوا من الفارين من التوسع الروسي. [المترجم].

على باب تساريغراد»، بل جاءوا لاجئين قطعوا الرحلة إلى المدينة في حالة لا توصف من القذارة. وصل بعضهم جوعى وعطشى جدا، حتى إنهم أنزلوا خواتم زواجهم على الحبال إلى مراكب أصحاب الدكاكين اليونانيين والأرمن في مقابل الخبز والماء[43].

نام القادمون الجدد في إسطبلات قصر دولمة بهجت، أو غرف المومسات التي أخليت في فنادق ميناء غَلَطَة. جثمت سيدات مسنات عملن وصيفات للإمبراطورة الأرملة، حليقات الرؤوس لإزالة الآفات، يصلين أمام أيقونات لأسرهن في قبو بغَلَطَة. كان عدد الجنود الروس بالقسطنطينية كبيرا حتى بدوا كأنهم جيش احتلال آخر، وأحيانا كان يدفعهم الفقر واليأس إلى التهديد بالاستيلاء على المدينة (بعد بضعة أشهر، ساعد جنود بقيادة ضباط روس في اللواء القوزاقي في تنصيب رضا خان كأول حاكم بهلوي لإيران). وأخيرا، جرى إيواء جنود رانغل في معسكرات الجيش الفرنسي في ليمنوس وتشاتالجا[*] والدردنيل (في مقابل حصول الأسطول الفرنسي على السفن الروسية). أسس المجلس الروسي، وهو حكومة منفى متعددة الأحزاب بإدارتها وأرشيفاتها ودائرة مخابراتها الخاصة، في السفارة الروسية في شارع بيرا الكبير. وفي كل يوم أحد، بعد الخروج من الكنيسة، كان فناء السفارة يزدحم بالروس الذين يتبادلون أخبار وطنهم وأماكن وجود أقاربهم، وكذلك الأماكن التي يمكن أن يحصلوا فيها على أفضل سعر لجواهرهم[44].

في خلال بضعة أشهر، أقام كثير من الروس علاقات مع أعدائهم القدامى الأتراك أفضل من علاقاتهم مع إخوتهم المسيحيين الذين كانوا حتى وقت قريب متلهفين إلى «تحريرهم»[**]. لاحقا تذكر بارون سيرجي تورنو (Baron Sergei Tornow) الكولونيل الشاب في فوج بريوبراجنسكي Preobrazhensky Guards أن الأتراك عاملوه هو وأصدقاءه «بمنتهى الشفقة ... أفضل كثيرا من اليونانيين». أما بالنسبة إلى الأمير ألكسندر فولكونسكي (Volkonsky)، فقد كان «اليونانيون جميعا غشاشين لأقصى حد. وكان لدينا دائما الانطباع بأن الأتراك هم أفضل مَنْ في المدينة». غصّت شوارع القسطنطينية بضباط روس عليهم سيماء الجوع واللجوء، يقودون سيارات أجرة أو يبيعون جرائد أو أربطة أحذية أو عرائس خشبية. استمد ممر الزهور Flower Passage الحالي الذي كان يسمى في السابق ممر بيرا، اسمه من بائعات الورد الروسيات اللاتي لجأن إليه بعيدا

(*) ورد اسم المدينة في الجزء الأول من الكتاب «تشالجا» والأسم الصحيح هو تشاتالجا Catalca، فوجب التنويه. [المحرر].

(**) أي تحرير الروس لإخوتهم اليونانيين والأرمن من أسر العثمانيين. [المترجم].

عن انتباه جنود الحلفاء بالشـارع الكبير[45]. وعمل أسـتاذ رياضيات جامعي صرافا في مطعم روسي. وعمل الفيلسوف غوردجيف (Gurdjieff) بائع كافيار[46]. وعاد نيقولاي تشاريكوف (Nikolai Tcharykov) الذي كان سفيرا لروسيا في الأعوام 1909-1912 إلى المدينة لاجئا، وعاش حياة بسيطة في بيبك التي كان يتسوق فيها بنفسه، وكانت زوجته تعطي دروسا في اللغتين الفرنسية والإنجليزية.

سرعـان ما هيمن الـروس على صناعة الترفيـه بالمدينة. وغدا صـوت أغنية بحارة الفولغا Volga Boat-Song يدوي في قاعات الموسيقى ببيرا. وصمم الرسام العظيم بافل تشليتشيف (Pavel Tchelitchev) إنتاج عروض الباليه لملهى استريلنا Strelna المملوك لبوريـس كنيازيـف (Boris Kniazeff) وفرقة باليه فيكتور زيمـين (Viktor Zimin). وفتح أمريكي أسـود يدعـى توماس (Thomas) كان يدير صالة جـاز في بيتروغراد قبل الثورة الروسية، صالة جاز جديدة بالقرب من الجبّانة الصغيرة، وهي الصالة التي أدخلت رقصة الشارلستون Charleston ورقصة الفوكستروت fox-trot إلى القسطنطينية. ونظرا إلى أنهم في القسطنطينية كانوا يطلقون اسم العرب على «السود» الذين كانت أغلبيتهم تأتي من مصر، فقد عُرِفت هذه الموسيقى باسم الجاز العربي(*).

فتح الروس مطاعم بأسـماء مثل لو غراند سـيركل دي موسـكوفيت Le Grand Cercle Moscovite [حلقـة موسـكو الكـبرى] وبيتروغراد باتسـيري Petrograd Patisserie [فطائـر بيتروغراد] وذا بلاك روز The Black Rose [الوردة السـوداء]. لم تسـتطع المطاعم التركية أن تنافسـها لأن الروس كانوا يقدمـون جِدة لا تقاوم في النادلات اللاتي كان بعضهن من عائلات نبيلة (كانت النادلات في مطعم موسـكوفيت يعرفن باسـم «الدوقات») نال سموهن وأناقتهن إعجاب الروائي الفرنسي بول موراند (Paul Morand) الـذي قالت له أنا فالنتينوفنا (Anna Valentinovna): «انظر إلى القسـطنطينية: إن الفقر منتشر إلى حد لا يصدق، والإسراف جنوني أكثر من أي وقت مضى، والناس يشربون ويحتالـون ويغيظ بعضهم بعضا ويموتون ويصنعون صفقات بخداع وغش يذهلان بيرا نفسـها». جُنَّ الرجال العثمانيون بالنادلات الروسيات اللاتي كن يلبسن سترات قوقازية بيضاء وأحذية سوداء برقبة وأوشحة خفيفة على شعورهنَّ

(*) كان جيمس بالدوين James Baldwin يسـمى «العربي» عندما كان يقيم في إسـطنبول في العقد السـابع من القرن العشرين.

ومكياجـا ثقيلا. تصـف الروايتـان التركيتان «الحمـى الروسـية» Russian Fever و«النادلـة» Cakesbop Girl رجالا خربوا بيوتهم على البـارات والكوكايين والبنات الروسيات. ثمة كاريكاتير في صحيفة قسطنطينية يصور تركيا يسأل امرأة روسية:

«هل تتحدثين الفرنسية يا آنسة؟»

«لا لكنني أعرف كيف أقول الحب بكل اللغات».

وجلب الروس إلى القسطنطينية أيضا الاستحمام المختلط في البحر.

وإذا كانت القسـطنطينية قد بعثت في اليونانيين والأتراك الطموح الإمبراطوري إلى أقصـاه، فقـد دفعت الروس إلى حضيض الفسـوق. ونظـرا إلى أن الروس كانوا يحتاجون المال لشراء تأشـيرات إلى أوروبا الغربية، فإنهم كانوا مستعدين لفعل أي شيء. مـن ذلك أنه في 1923، قُدمت عريضة من زوجات أو أرامل اثنين وثلاثين من البهوات والباشـوات إلى حاكم القسـطنطينية طالبن فيها بالطرد الفوري لـ«فاعلات الرذيلة والفسـق الأشـد خطرا ودمارا من مرض الزهري والكحـول». لقد أحدثت النساء الروسيات في عامين دمارا أشد مما فعلته الجيوش الروسية في قرون:

> يندر اليوم بين الشـباب من عمر الثامنة عـشرة إلى الثلاثين من لم يدمـر صحته بعادة تعاطي السـموم القاتلة مثـل المورفين والكوكايين والأثـير والكحـول، وهذا كله بسـبب التأثير المشـؤوم لهؤلاء النسـاء الروسـيات. ففي منطقة بايوغلـو الصغيرة التي تقع بـين تنل Tunel وتقسـيم، يتجاوز عدد البارات والمقاهي والمراقص والمطاعم الروسـية التي يمارسـن فيها حرفتهـن الذميمة بعيدا عن أي تنظيم أو سـيطرة صحية، الخمسـة والعشرين وكـرا. وفي هذه الأماكن التـي يُهدَر فيها الطهر، يضيّع المئات من شـباب الأتراك صحتهـم وثروتهم وشرفهم في دوامة مـن النكبات في كل ليلـة. وحيث إن هـؤلاء البنات الشريرات يخترقن كل الأوسـاط الاجتماعية كالديدان، فإن بعض البنات التركيات أيضا يُجبَرن على الاتصال بهن في التجمعات العامة.

تتكشـف تفضيلات الزواج لدى الروس والبريطانيـين في تذييل لخطاب طويل يناقش الحالة السـيئة للعلاقات الإنجليزية - الفرنسية في القسطنطينية، أرسله سير هوراس رمبولد إلى أمير البحر دي روبيك في الأول من ديسمبر 1921:

ملحوظة: الأميرة الصغيرة أولغا ميشيلاز (Olga Micheladze) على وشك الزواج من أحد أفراد عائلة ستانفورد، وهو شاب هادئ ولطيف في قوة شرطة الحلفاء، عنده المال[47].

وفي قسـطنطينية ما بعد الحرب، بدأت بعض النسـاء المسـلمات أيضا يحررن أنفسـهن. وبداية من العام 1919، كن أول النسـاء المسـلمات من النخبة في العالم يظهرن في الشـوارع سـافرات بانتظام، وإن ظللن يلبسن أوشحة للشعر. إن «عددا لا بـأس به منـا يحاولن أن يتخلصن من هذه العادات القديمة» كما قالت الآنسـة توفيـق (Mlle Tevfik) إلى صديقة بريطانية. كان ذلك في منطقة محافظة نسـبيا مثل بايزيد يمكن أن يعرض السيدة للرجم، لكنه كان مقبولا في كل الأماكن الأخرى. وبدأت النسـاء المسلمات يعملن في الأماكن العامة ككناسات للشوارع وفي الدكاكين أو في مكتب البريد أو يشـاركن في الاجتماعات السياسـية. وكانت النساء الأكثر ثراء يقمـن حفلات راقصة مختلطة، ويذهبن إلى فندقـي توكتليان وبيرا بالاس، بل حتى يغازلن ضباط الحلفاء. وفي ذلك كتب زائر فرنسي أنه لا شيء يميّز السـيدة المسلمة الأنيقة عن المسـيحية غير غياب القبعة. وفي الحفـلات الراقصة التي كان المندوب السـامي الأمريكي يقيمها، شوهد أربعة أمراء وثلاث أميرات إمبراطوريات «يتحدثن بحرية مع الغرباء»[48].

يتجلى الوهـم الكوزموبوليتاني للقسـطنطينية المحتلة التي شـبّهها ثيوتوكاس بـ«باليـه من المجانين»، في هـذه المقتطفات من محادثة سـجلها الكاتب الأمريكي جون دوس باسيس (John Dos Passes):

«آه يا سيد لقد مررنا بأيام عصيبة»

«أعاد الله علينا أيام عبدالحميد الجيدة!»

«يجب أن يُجمَع كل البلوش Bolos [البلاشـفة] من المدينة ويُسـحبوا إلى البحر الأسـود في مراكب مخرمة ويُتركوا هناك».

«هراء! اليونانيون هم السبب والبريطانيون والفرنسيون والبلغاريون وعصبة الأمم والأتراك. أقترح أن يجعلوها مدينة محايدة ويعطوها لسويسرا. إنه الحل الوحيد».

«لا وجود لشيء اسمه تركيا. أنا أؤكد لك يا سيد. إنها مجرد لصوصية».

«ستنجز اليونان وعدها التاريخي».

«لماذا تريد تعلم اللغة التركية؟»

«مصطفى كمال! إنه انتهى».

أما على السفينة المتجهة إلى الأناضول خارج المياه التي لا توجد فيها دوريات للحلفاء، فثمة عالم مختلف. ستة أطباء عسكريون أتراك جاءوا للانضمام إلى الوطنيين وقد كشفوا عن حقيقتهم.

«يا لكم من منافقين أيها الأوروبيون... إن طردنا الحلفاء من القسطنطينية، فلا مانع لديكم. إنها مدينة البؤس والانحطاط. سنجعل من أنغورة عاصمتنا ... وكل الأتراك في أنغورة مع مصطفى كمال[49].

مثل كرزون ولويد جورج، صار كثير من الأتراك يعتبرون القسطنطينية تجسيدا للشر، وقد أسهم تعاون السلطان مع الاحتلال في تكثيف روح الخيانة والفساد فيها. ومن أنقرة التطهرية، انتقد المجلس الوطني الكبير الأتراك في العاصمة بسبب اختلاطهم بالأجانب وتبني عاداتهم. أدخل يعقوب قدري، محرر الجريدة القسطنطينية «إقدام» الذي تردد كثيرا على أنقرة، القومية التركية في الرواية التركية. يشجب قدري في روايته «نور بابا» (1921)، ممارسات الدراويش في تكية الطريقة البكتاشية الشهيرة في تشامليجا. وفي روايته «قصر للإيجار» Kiralik Konak (1922) ، استخدم انهيار القصر رمزا لتحلل الإمبراطورية.

في رواية قدري «سدوم وعمورة» Sodom ve Gomore (1928) التي تعد واحدة من أطول رسائل الكراهية في الأدب، لا يقتصر هدف الكراهية على العدو المحتل، بل يتعداه إلى بيرا نفسها. يجمع يعقوب قدري بين المعصومية الثورية واهتمام بروستي Proustian بالالتباس الاجتماعي والجنسي، يعكس عنوانه رواية مارسيل بروست «سدوم وعمورة» Sodome et Gomorrhe التي نُشرت في باريس قبل سبعة أعوام. يبرز قدري التباين بين نقاء القسطنطينية التي تحافظ الفتيات فيها على أجسامهن باعتبارها هبة مقدسة من الله وصحف الوطنيين المملوءة بالأخبار عن الانتصارات في الأناضول من ناحية، وقرف بيرا التي «صبت فيها الحضارة الغربية كل غثها» من ناحية أخرى. ويشجب الأتراك الذين يفعلون فعل العبيد المبتسمين عندما يُدخِلون العدو إلى بيوتهم ويسمحون له بأخذ أخواتهم وزوجاتهم وحبيباتهم.

تُسجِّل المآسي الصغيرة للاحتلال بكثير من الحقد. في مطعم روسي، يأمر ضابط بريطاني سكران، البطل نجدت بأن ينزع طربوشه، الرمز الأعلى للهوية التركية. على هامش النسخة المحفوظة من الرواية في مكتبة إسطنبول بالقرب من آيا صوفيا، يُكثِر قارئ مجهول من كتابة كلمة «الحقيقة»، وقد كتب هذه الكلمة مثلا بجوار سرد الحادثة التالية. تركب امرأة مشرقية الترام بصحبة ضابط بريطاني، وبإشارة من الضابط بالعصا المعلقة في خصره، يخاف اثنان من الركاب فيتركان مقعديهما للضابط ورفيقته، وبينما تسير المرأة إلى المقعد تدوس على يد جندي عثماني مقطوع الرجلين يزحف على الأرض بصعوبة بالغة. وعندما يحتج الكسيح، تنهره السيدة «اخرس يا كلب»، وتصيح ساخطة بأنه لا يجب السماح لأمثال هؤلاء بركوب الترام. ويجبران الجندي الكسيح على النزول.

يتعلم نجدت كراهية عشيقته ليلى التي ترقص متجردة على الملأ وتربطها علاقة بضابط بريطاني، ويكره بيرا ويشتاق إلى الأناضول والعدالة. سيأتي المحرّرون حتما ويضعون حدا لهذه القذارة والفساد، لكن متى؟ وأخيرا تأتي أخبار من الأناضول تملأه بـ«نشوة النصر وبهجته الإلهية». وتتمثل آخر ذكرى له مع ليلى في المذاق عديم الطعم لأحمر شفاهها في قبلة الوداع[50].

كان هذا النصر هو الانتصار التركي النهائي على اليونانيين. وعندما اشتدت ضراوة القتال في أواخر يوليو 1922، طلب الجيش اليوناني الإذن بدخول القسطنطينية. لكن الحلفاء رفضوا وعززوا مواقعهم على طول خطوط تشاتالجا. وهكذا، فمهما كانت أهوال احتلال الحلفاء، فإنهم أنقذوا القسطنطينية من احتلال اليونانيين لها. وفي التاسع من سبتمبر، وصل مصطفى كمال إلى إزمير. أشعلت النيران في «باريس المشرق»، وفر مائتا ألف يوناني بالسفن، وأُسِر قائد الجيش اليوناني تريكوبي (Trikoupi) سليل عائلة مافروكورداتو.

في شوارع القسطنطينية، تبادل الأتراك نظرات النصر والبهجة. واكتظ آيا صوفيا، رمز الانتصار العثماني، بالمصلين، إلى درجة أنهم اضطروا إلى فتح صالات مقتنياته للمصلين. كانت شوارع القسطنطينية عند وصول أخبار الانتصارات اليونانية تمتلئ بشاحنات محملة عن آخرها بجنود يونانيين يغنون أغاني وطنية ويلوحون بالأعلام اليونانية الزرقاء والبيضاء. غير أنه هذه المرة جابت السيارات المدينة مملوءة بالزهور وصور مصطفى كمال وأغاني الأتراك الذين غنوا له «ألف يعيش»:

يعيش، يعيش، ألف يعيش
مصطفى كمال باشا!

كتب الشريف علي حيدر في يومياته للتاسع من سبتمبر: «اتصل بي ولي العهد وبعد ذلك أرسل رسولا يقول إن سميرنا قد سقطت في أيدي الجيش التركي. ابتهجت لذلك وذهبت قبيل المساء لأهنئه شخصيا». بيد أنه لا الوزارات، ولا القصر، رفعت العلم العثماني[51].

وعلى مدار السنتين التاليتين، سارت الأحداث في القسطنطينية بسرعة الفيلم القصير. ففي أوائل سبتمبر واجه نحو سبعة آلاف وستمائة جندي للحلفاء يحتلون المدينة والمضايق، زهاء خمسين ألفا من الوطنيين. كانت قوات الوطنيين في روح معنوية مرتفعة بفضل انتصاراتهم، وكانوا مستعدين للمعركة. جرى تعزيز القوات البريطانية بحاملة طائرات وقوات من القاهرة وفلسطين (كان من بينها الكتيبة الثانية مشاة خفيفة الأسكتلندية 2nd Highland Light Infantry المعروفة باسم «آخر إصدار من جهنم» Hell's Last Issue، ومن بريطانيا جاءتهم أفواج من رماة القنابل وحرس المشاة المسمى كولدستريم Coldstream والحرس الإيرلندي والويلزي. وتمركز لواء من الحرس على كل جانب من البسفور[52].

اجتمع التفاخر وحب القتال، وليس الرغبة في الاحتفاظ بالمدينة، لدى لويد جورج وبيركنهيد (Birkenhead) وتشرشل وزير المستعمرات، ما جعلهم متلهفين للحرب دفاعا عن القسطنطينية، حتى إن لويد جورج اقترح تسليح عشرين ألفا من سكانها اليونانيين. ووصلت الأوامر إلى هارينغتون بأن «يحتفظ بغاليبولي بأي ثمن» وأن يبعد القوات التركية عن المنطقة المحايدة المعلنة تحت الحماية البريطانية حول تشاناك Chanak على الجانب الآسيوي للدردنيل.

وبداية من الثالث والعشرين من سبتمبر أخذت القوات التركية تعبر الخنادق وأسيجة الأسلاك الشائكة إلى المنطقة المحايدة، وكانوا يظهرون للجنود البريطانيين وهم يدخنون ويسخرون منهم ويسقون خيولهم. وفي التاسع والعشرين والثلاثين من سبتمبر استعدت الحكومة البريطانية للحرب. حالت جهود بطولية من جانب القادة العسكريين الميدانيين البريطانيين والأتراك (كان هارينغتون قد رفض إعطاء إنذار نهائي) ومن جانب كرزون في لندن، دون اللجوء إلى السلاح. توقع هارينغتون

مرتين أن يسمع أن العمليات قد بدأت، فقد كان يعرف «حالات من الجنود كانوا يبكون لأن التحمل قد فاق الحدود. ولا أظن أنه سبق لأي قوات قط أن طولبت بأن تتحمل كل هذا الاستفزاز».

يُظهِر واحد من أوائل الأفلام للقسطنطينية، صُوِّر في نوفمبر 1922، ضفاف القرن الذهبي والبسفور ومياههما تعج بالسفن من كل صنف: بوارج حربية وسفن بخارية وزوارق شراعية ومراكب كياك. وعلى الرغم من ذلك فقد أرسلت إمارة البحر أوامر بتدمير كل السفن لمنع القوات الوطنية من العبور إلى الجانب الأوروبي. ذكر رمبولد أن طاعة الأوامر كانت تعني انفجار الغضب وتدمير الحياة الاقتصادية للمدينة. فكما كانت الحال مع هارينغتون، تعلم رمبولد وضباط البحرية البريطانيون فن عدم إطاعة الأوامر.

ومن القسطنطينية كتب أمير البحر بروك (Admiral Brock) إلى إمارة البحر في السادس والعشرين من سبتمبر أن السكان المسيحيين في المدينة كانوا في حالة من العصبية الشديدة. وأمر هارينغتون بإخلاء النساء والأطفال البريطانيين[53].

ساعد توازن القوة أيضا في الحفاظ على السلام. فالمدينة التي كانت يوما «مشتهى العالم» و«ملكة المدن» كانت في طريقها إلى أن يطويها النسيان، فقد أدى انتصار الشيوعيين في روسيا، من خلال تقليص حجم التجارة والقوة الروسيتين، إلى تقليل الأهمية السياسية والاقتصادية للقسطنطينية، كما أدى اختزال الإمبراطورية العثمانية إلى دولة قومية، وفوق ذلك نجاحات الجيش التركي، إلى القضاء على مصدر الجذب المزدوج للمدينة، وهو جمالها وضعفها. كان الجمهور البريطاني، الذي أبدى لهفة شديدة للحرب من أجل القسطنطينية في العامين 1878 و1915، قد سئم الحرب في العام 1922. ولم تتمكن الحكومة البريطانية من إقناع دول الكومونولث البريطاني ولا حليفيها فرنسا وإيطاليا ولا الدول المجاورة: صربيا ورومانيا وبلغاريا، بالدفاع عن القسطنطينية والمضايق. وفي الثالث من أكتوبر انطلق التفاوض في مودانيا Mudanya على بحر مرمرة بين هارينغتون والجنرال التركي عصمت إينونو Ismet Inonu، تولت فيه خالدة أديب المتمكنة من اللغة الإنجليزية دور المترجم. وفي الحادي عشر من أكتوبر وقّع هارينغتون وعصمت باشا اتفاقا يقضي بالسماح بانتشار القوات التركية في تراقيا وبقاء قوات الحلفاء في القسطنطينية والمضايق حتى توقيع معاهدة السلام.

قضت أزمة تشاناك على حياة لويد جورج السياسية (كما أنهت غاليبولي حياة تشرشل السياسة تقريبا). رد حزب المحافظين على طلب الحرب من بونار لو (Bonar Law) بالقول: «إننا لا نستطيع وحدنا أن نكون شرطي العالم» وسحب الحزب ثقته من لويد. وفي العشرين من أكتوبر استقال لويد من رئاسة الوزراء. ولم يعد إلى المنصب ثانية[54].

وفي التاسع عشر من أكتوبر نزل رفعت باشا، أحد أهم جنرالات مصطفى كمال، على الشاطئ بالقرب بيشيكتاش، وعبَر إلى القسطنطينية. ركب رفعت السيارة باسما ووسيما كأنه قادم من حفلة راقصة، وليس من حملة عسكرية، وسط هتافات الحشود المتحمسة. ذُبحت الخراف وأقيمت الصلوات على طول طريقه المظفر إلى جامع الفاتح، وهناك قال رفعت: إن الفاتح أعطى المدينة للأتراك وأن الأتراك لن يسمحوا لأحد بأن يأخذها منهم. كان رفعت نظريا حاكم تراقيا، لا أكثر، وكان يرافقه مائة وستة وعشرون من الجندرمة، وبالرغم من ذلك فقد كانت المدينة مؤيدة للوطنيين إلى الحد الذي مكّنه، من دون إراقة دماء، من السيطرة على قوات السلطان والشرطة والبلدية والجمارك والجوازات. وفقدت مندوبيات الحلفاء كل سلطتها تقريبا[55].

كان انتصار الوطنيين إشارة إلى فقدان القسطنطينية خاصيتها المميّزة كمدينة عالمية، وهي الحماية من جانب دولة قوية. وفي الثلاثين من أكتوبر، شجب اقتراح إلى المجلس الوطني الكبير بأنقرة «الحماقة» و«الجهل» و«الفسوق» و«الخيانة» من جانب القصر والباب العالي على مر القرون. وفي الأول من نوفمبر ألقى مصطفى كمال واحدا من خطاباته الحاسمة: «بالقوة اغتصب آل عثمان السلطة وسلطنة الأمة التركية، وأبقوا على هذا الاغتصاب لستة قرون. والآن ثارت الأمة التركية ووضعت حدا لهؤلاء الغاصبين، وأخذت السيادة والسلطنة في أيديها». وفي ذلك اليوم، أخبر رفعت محمد السادس بأنه خليفة، لكنه لم يعد سلطانا، وقبل محمد بالتغيير[56].

بعد ذلك جاء الدور على الباب العالي. ففي الرابع من نوفمبر، ثبّت رفعت باشا موظفي محافظة القسطنطينية في مناصبهم في تجاهل للباب العالي. وعلى الرغم من أن محمد السادس طلب من الوزراء أن يواصلوا العمل، فإنهم قرروا الاستقالة. وعندما وصل عزت باشا وزير الخارجية إلى الباب العالي عند العصر، وجد أربع وزارات شاغرة

فعلا وأنه «لم يبق غير أثر ضئيل. في هذه الظروف لم يكن ثمة شيء يمكن فعله غير التقاعد من الوزارة». وقيل للموظفين إن الحكومة الوطنية ستنظر أمر دفع رواتبهم، مع العلم بأن كثيرين منهم كانوا قد ذهبوا إلى أنقرة. وفي الرابع من نوفمبر قال آخر صدر أعظم، هو توفيق باشا، لسير هوراس رمبولد إن كيانا وحشيا ومشوه التكوين مثل المجلس الوطني الكبير ليس مؤهلا لتقرير مستقبل السلطنة أو الخلافة، فهي أمور تتعلق بالعالم الإسلامي كاملا. وفي اليوم نفسه، حاول توفيق أيضا أن يستقيل. بيد أن محمد السادس نظرا إلى أنه لم يعد السلطان، قال له إن قبول الاستقالة من عدمه ليس من اختصاصه. لايزال ختم توفيق باشا الخاص بمنصبه موجودا ضمن مقتنيات أحفاده[57].

استنكرت سلطات الحلفاء ما أسمته «ثورة» رفعت. وصف «بيلي» فوكس بت الموقف بأنه «حساس». كتب بيلي في السابع من نوفمبر: «إن الأمور تبدو خطرة هنا ... من وجهة النظر العسكرية يبدو الموقف غير موات بالمرة لأن المكان مملوء بالأتراك وكلهم مسلحون، لكننا لدينا الأسطول الذي يستطيع أن يجعل القسطنطينية لحما مفروما». احتشدت الجماهير أمام المندوبية السامية البريطانية وأخذوا يهتفون: «يسقط الإنجليز». واضطرت الشرطة العسكرية البريطانية إلى استخدام القوة لإنقاذ ضابط مخابرات بريطاني وعميله التركي من الجندرمة التركية. فتحول ولاء الجندرمة الذين كانوا «ودودين جدا» حتى ذلك الحادث، إلى الوطنيين. وفي استعراض للقوة، سُيّر ثلاثة آلاف بحار بريطاني في موكب خلال شوارع بيرا، إذ كان الحلفاء مصممين على البقاء للاحتفاظ بنقطة للمساومة في مفاوضات السلام التالية[58].

وأخيرا، تبنى الجانبان نظام «السيطرة الثنائية»، بأن تبقى قوات الحلفاء والقوات التركية في المدينة. لم «تعترف» الحكومة التركية بالاحتلال، غير أنها «قبلت» باستمرار الاحتلال والمراقبة. احتفظ الحلفاء بالسلطة القضائية على رعايا الحلفاء اليونانيين الهيلينيين (أي اليونانيين الذين يحملون جوازات سفر المملكة اليونانية) واللاجئين الروس، واحتفظت بقوة الشرطة وموظفي المخابرات والجوازات التابعين لها في المدينة. وتعاون الجانبان كلاهما في مراقبة الصحافة. وصف هارينغتون رفعت باشا بأنه أحيانا يكون «لائقا جدا» وأحيانا «لا يطاق»[59].

بفضل فطنة مصطفى كمال السياسية في المقام الأول، تجنبت القسطنطينية إراقة دماء المتعاونين مع الاحتلال من نوع حمّامات الدماء التي شهدتها فرنسا في

العام 1944. وبالرغم من ذلك، ففي السابع من نوفمبر قُبض على الصحافي المعادي للوطنيين علي كمال (Ali Kemal) في دكان حلاقة في بيرا وأُكعِم فمه وأُخِذ إلى إزميد في زورق (مع خفض الأنوار لتجنب الدوريات البحرية البريطانية)، واستجوبه حاكمها، وأخيرا رُجِم حتى الموت على أيدي حشد من الوطنيين. وقرر كثيرون من مؤيدي حكومة القسطنطينية الرحيل، فأقام مائة وخمسون من «الأتراك المتنازلين» في مخيم في حديقة السفارة البريطانية وفي السفارة نفسها إلى أن أخذتهم مراكب بريطانية إلى اليونان(*). وغادر شيخ الإسلام إلى الهند، ومات سلفه دوري زاده الذي أصدر الفتوى ضد كمال في الحجاز في العام 1923[60].

كانت الأقليات أكثر من العثمانيين تأثرا بالتطورات. بدأ اليونانيون يدفعون ثمن سلوكهم منذ العام 1912. فأُغلِقت البورصة. وبدأت السلطات الوطنية تطبق القانون التركي على الشركات الأجنبية والمسيحيين المحليين. وقالوا لليونانيين إن من لا يعتبر نفسه عثمانيا يجب أن يرحل. وسرعان ما بدأت المراكب، على الرغم من مناشدات البطريرك، تكتظ في رحلتها إلى سالونيك باليونانيين الذين باعوا ممتلكاتهم بأثمان بخسة. وفي العام 1922 عُقد آخر اجتماع للجمعية الأدبية اليونانية التي استولت الحكومة التركية على بنايتها في العام 1925، والتي هُدمت بعد أربعين عاما، وتحولت حاليا إلى موقف سيارات. توجد مكتبتها وأرشيفها حاليا ضمن مقتنيات الجمعية التاريخية التركية في أنقرة. إجمالا، رحل زهاء مائة وخمسين ألف يوناني عن القسطنطينية في الأعوام من 1922-1924. كان اليونانيون قد تلقوا إشارة قاسية حول مستقبلهم من قول رفعت لنيفيل هندرسون (Nevile Henderson) في أواخر نوفمبر بأن «اليونانيين إن لم يُطردوا فعلا فسوف يجدون أنه من الأفضل لهم أن يرحلوا، لأنهم في المستقبل لن يجدوا في تركيا الجديدة بابا للرزق». فالأتراك سيسيطرون على التجارة، وكان قد شرع فعلا في العمل من أجل هذا الهدف». وأسس الاتحاد التجاري التركي الوطني في العام 1923[61].

وبينما كان اليونانيون و«الأتراك المتنازلون» يهربون، أعلن محمد السادس في بادئ الأمر نيته البقاء في منصبه. وكان يحميه حرس من رماة القنابل الإنجليز كانوا يتمركزون

(*) الأتراك المتنازلون compromised Turks أي الأتراك الذين تنازلوا وتفهموا الوضع الراهن للاحتلال الغربي وتقبلوه. [المترجم].

في الثكنات التي بناها عبدالحميد بجوار يلدز. بيد أنه كان في الحقيقة ظل ملك. عندما ذهب سير هوراس رمبولد إلى يلدز في السادس من نوفمبر استقبله لدى وصوله شماشرجي عجوز، بعد أن تخلى الآخرون جميعا عن السلطان. كان السلطان الذي ظل يتحدث لأكثر من ثلاث ساعات من دون انقطاع، لايزال يعتقد أنه يمكن أن يكون هناك «رد فعل» إذا ما أبدى الحلفاء استعدادهم «لإيقاف ذلك» أو فرضوا «سيطرة صارمة». غير أنه، مثل الكثير من المتمتعين بالحماية، كان يخلط بين القوة والرغبة في ممارستها. كان الحلفاء أقوياء فعلا، بيد أنهم لم تعد لديهم الرغبة في القتال من أجل السلطان العثماني في العام 1922، تماما كما لم تكن لديهم الرغبة في القتال من أجل أتباعهم الفاشلين الآخرين - الروس البيض - في العام 1920. رتب رمبولد إخراج أموال السلطان إلى الخارج[62].

وفي العاشر من نوفمبر، لم يُعزَف السلام الإمبراطوري في موكب السلاملك، لأن الفرقة الموسيقية تركت عملها. وبعد ستة أيام، أرسل السلطان رسالة إلى هارينغتون (كانت القوات الفرنسية قد رفضت أن تساعده):

> في 16 نوفمبر 1922
>
> السيد
>
> نظرا إلى الخطر الذي يتهدد حياتي في إسطنبول، فإنني أطلب اللجوء إلى الحكومة البريطانية، وأطلب نقلي بأسرع ما يمكن من إسطنبول إلى مكان آخر.
>
> محمد وحيد الدين، خليفة المسلمين

وفي تمام الثامنة صباحا يوم الحادي عشر من نوفمبر، غادر محمد السادس من الباب الأورخاني في سور القصر المقابل للثكنات التي يشغلها حرس رماة القنابل. كان الطقس باردا وعاصفا، ولم يكن المطر قد توقف منذ ثمانية أيام، ولم يكن في الشوارع غير قلة من الناس. كان برفقته ابنه أرطغرل (Ertugrul) مرتديا بدلة إنجليزية جديدة ورئيس الشماشرجية وقائد فرقته الموسيقية وستة خدم. بدا السلطان أقل حيوية من حاشيته. أخذه ضباط الحرس في سيارة إسعاف مُحي الصليب من عليها (حتى لا يتهم البريطانيون بالاحتماء بالصليب الأحمر)، تتبعه سيارة إسعاف أخرى تحمل الموظفين والحقائب. في وقت لاحق من ذلك اليوم، كتب «بيلي» فوكس بت ضابط النقل بلواء الحرس الذي كان يقود سيارة الإسعاف الثانية لأمه رسالة تكشف تفاصيلها أنه كان مدركا أنه يشهد نهاية إمبراطورية:

> كان الطريــق مروعا، إذ ظل المطر ينهمر غزيـرا طوال الليل وكان لايزال ينهمــر، ظننت لمرة أو مرتين أننا ســنقلب. وبعد أن تبعنا ســيارة الســلطان لمســافة قصيرة، أخذنا طريقا مختلفا لنصل إلى رصيف الميناء (طوفان)، حيث أُمرنا بأن نضعهم على زورق يأخذهم إلى سفينة مالايا Malaya التي تأخذهم بدورهــا إلى مالطا. وصلت ســيارتنا أولا، وهناك وجدنــا القائد الأعلى الجنرال أندرســون في الانتظار، أنزلنا الرجل العجوز إلى الزورق واضطررنا إلى أن ننتظر نحو عشر دقائق إلى أن جاءت ســيارة الإسعاف الأخرى [التي كان فيها ثقب] في النهاية، وخرج منها السلطان العجوز وشكر الجميع وصافح الجنرال بحرارة. انحنينا له وانصرفنا، وأُخِذ السلطان في الحال إلى الزورق وانطلقوا. ركب القائد الأعــلى الزورق معه حتى بلغوا الســفينة. ومضى كل شيء بنجاح، ولا أظن أن الكماليين يعرفون أي شيء عن الأمر.

لم يبدِ الســلطان تأثرا كبيرا، وظل يتحدث بعنفوان طوال الوقت في الســيارة وقال لنا ألا نظن أنه خائف وإنه أراد فقط أن ينقذ كرامته. لا أعرف كيف تحمل ذلك!(*).

ارتاحت الحكومة الوطنية، مثل المدينة، برحيل الســلطان الذي نعتته الصحافة بالخائــن والجبان والمجرم. تُظهــر صورة تركية حضور وزيــر المخصصات الملكية - الــذي لم يرد ذكــره في المصادر البريطانية - وضابط تركي وإكليــل زهور، بينما يرفع السلطان الأخير قدمه عن التراب التركي إلى الزورق البريطاني. وفي تمام الساعة الثامنة وخمــس وأربعين دقيقة صباحا أبحرت ســفينة صاحبة الجلالــة مالايا إلى القاعدة البحرية البريطانية في مالطا. ومات الســلطان في ســان ريمــو San Remo في العام 1926 بالقرب من مدينة جنوة التي كانت قبل ستة قرون أول حليف غربي لعائلته. مات مثقلا بالديون حتى إن دائنيه استولوا على تابوته وأخروا دفنه لأسبوعين[63].

تسبب محمد السادس، بسياساته المعادية للوطنيين، في تدمير الرابطة العاطفية بين العائلة والأمة. وعلى الرغم من التشــويه الذي مارســته الصحافة، ظلت العائلة العثمانية حاضرة في عمق القومية التركية والإحســاس بالهوية لدى الأتراك، حتى إن مصطفى كمال في هذه المرحلة لم يكن قويا بما يكفي للاســتغناء عنها. كتب المُنظِّر الأيديولوجي للقوميــة التركية ضياء كوك ألب: «هذه العائلة المحترمة عائلة مباركة خدمت الأمة التركية ورفعت شــأنها لألف عام، وفعلت الشيء نفســه مع الإســلام

(*) ربما خشي السلطان من أن يقدم إلى المحاكمة إذا بقي في المدينة.

والأمة التركية لستة قرون». قرر كمال أن ينصب ولي العهد خليفة. تردد عبدالمجيد في البداية - وفقا لتقارير المخابرات البريطانية - في قبول اللقب، قائلا - والحق معه - إن هذا اللقب يحمله «أقوى ملك بين المسلمين»، ولم يرد أن يكون «مجرد دمية». ووافق عندما وعده رفعت بأن السلطنة ستعاد في النهاية وألمح إلى «العواقب غير المحمودة» إذا رفض. وفي التاسع عشر من نوفمبر انتخب المجلس الوطني الكبير عبدالمجيد «الأكثر ورعا وتعليما وأخلاقا في هذه العائلة»، خليفة[64].

وفي التاسع والعشرين من نوفمبر، تلقى الخليفة الجديد المرتدي سترة طويلة ورباط عنق أبيض، بيعة العلماء والنواب وكبار المسؤولين، وهو واقف أمام العرش الذهبي (بدلا من أن يكون جالسا عليه) في توبكابي. ومن باب التأكيد على أنه لم يكن سلطانا، فإنه لم «يُطوّق بسيف عثمان» في جامع أيوب. وعلى أي حال، عندما توجه صاحب الجلالة الإمبراطورية الخليفة عبدالمجيد الثاني بالسيارة إلى جامع الفاتح في موكب رسمي، ورفعت بجانبه، رافقهم حرس من الخيالة، وتبعهم موكب من السيارات والمركبات. دوى التصفيق على طول الطريق من جانب الحشود المصطفة على الجانبين، بل إن كثيرين منهم تسلقوا الأشجار وأسطح المنازل ليحصلوا على رؤية أفضل. وتحوّل لون المدينة إلى القرمزي بلون الأعلام التركية. وفي المسجد، رفعوا أكف الدعاء لكي يحفظ الله الشعب التركي من الفناء، وكانت المرة الأولى التي يُتلى فيها الدعاء باللغة التركية، وليس بالعربية. وبعد الانتصار في جهاد مقدس، صدرت دعوة أخرى لجهاد آخر ضد الجهل وللارتقاء بالتجارة والزراعة. وفي رحلة العودة، قُرئت الفاتحة على ضريحي سليم الأول ومحمود الثاني[65].

ظل الخليفة الجديد، الذي كان لايزال يطلق على نفسه خادم الحرمين الشريفين، يذهب إلى المساجد المختلفة بالقسطنطينية في موكب رسمي كل يوم جمعة، أحيانا في قارب كياك وأحيانا راكبا حصانا أبيض يدعى «قونية» قدمه إليه رفعت. بعد سنوات، تذكر ضابط تركي:

> كان السلطان يبهر عيني عندما كان يحضر إلى الصلاة في بايزيد. كنت أراقب وجهه العجوز الوسيم الرفيع ولحيته البيضاء الكثيفة، ويضيف الطربوش الأحمر تألقا إلى الأسود الجنائزي لملابسه. كانت الفرقة الموسيقية تعزف بصوت عال ويسير الجنود في مشيتهم العسكرية

> وينحي السلطان من مركبته، أولا إلى هذا الجانب ثم إلى الآخر، وتملأ الهتافات الصاخبة الهواء. وكان السلطان العجوز يبتسم ابتسامة عريضة تعبيرا عن الشكر ويضع يده بأناقة على طربوشه القرمزي.

بيد أن كثيرين كانوا قد سئموا إظهار العظمة والورع. حتى داخل العائلة العثمانية كان الإسلام يفقد تمكّنه. من ذلك أنه في الخامس عشر من رمضان [الأول من مايو] 1923، حزن الشريف علي حيدر عندما لاحظ في آخر مراسم تبجيل لأثر النبي «الانخفاض الكبير في التوقير الذي كان يظهر دائما في مناسبات من هذا النوع. لم يعد كثيرون يكنون هذا التوقير اللازم لدينهم، وهو ما نزل عليّ كالصاعقة». وبعد أحد مواكب السلاملك تساءلت امرأة من بين الجمهور: «ماذا كان نفع الخلافة لنا في أثناء الحرب؟ أعلنا الجهاد، لكن ما الذي نلناه من وراء ذلك»؟[66].

لاشك في أن الخلافة كانت تضيف إلى التألق الظاهري للمدينة، بيد أن نهايتها كانت قد حُسمت. كان بقاؤها تنازلا للرأي العام، وليس سياسة مقصودة. وفي شهر يناير 1925 قال مصطفى كمال لمجموعة من الصحافيين إنه يخطط لإلغائها، بعد أن «يهيئوا» الرأي العام لذلك. وفي السابع والعشرين من فبراير استقبل الخليفة رمبولد في قصر دولمة بهجت، بعد أن حذره عدنان بيه ممثل مصطفى كمال وزوج خالدة أديب، بأن يتجنب الخوض في كل الأمور السياسية. قال الخليفة: «الموظفون جميعا يعدون عليّ الأنفاس، على خلاف ما كان يفعله موظفو البلاط في زمن السلطان السابق». فعبدالمجيد «الرجل الذكي ومتعدد المواهب المهتم جدا بالسياسة» كان «مجرد دمية تخضع أفعالها لمراقبة لصيقة من الحكومة الوطنية ... حتى المراسم الرثة التي كان هو مركزها كانت تترك في المراقب إحساسا بالألم»[67].

بعد مفاوضات مطولة، وُقّعت معاهدة لوزان بين تركيا والحلفاء في الرابع والعشرين من يوليو 1923. وعلى الرغم من أن المعاهدة في وقتها اعتبرت انتصارا تركيا، فإنها في حقيقة الأمر ضمنت نزع سلاح الدردنيل (وهو انتقاص من السيادة ما كان العثمانيون ليقبلوا به)، وعلى خلاف رغبة الأتراك أبقت على الجالية اليونانية والبطريركية المسكونية في القسطنطينية. وبعد توقيع معاهدة السلام فقط وافقت قوات الحلفاء في القسطنطينية على رد التحية العسكرية التي كانوا قد انتزعوها من القوات التركية منذ العام 1918.

تجاوزت العلاقات بين الحلفاء والوطنيين في القسطنطينية توتر السيطرة الثنائية. وفي مارس 1923 فاز فنر بخشه Fenerbahce، وهو أحد أقدم فرق كرة القدم التركية، على فريق مكوّن من الحرس الإيرلندي ورماة القنابل. وفي الثالث من يونيو، عيد ميلاد الملك، سارت الفرقة الأولى من الحرس البريطاني في مواكب رافعين العلم في ميدان تقسيم. ومن الرابع والعشرين من أغسطس إلى الثاني من أكتوبر أخلت قوات الحلفاء المدينة بهدوء. حدثت مراسم الجلاء النهائية في الثاني من أكتوبر في الميدان الواقع بين القصر ومسجد دولمة بهجت. استُقبل الجنرالات في موكب عسكري ووقف الحرس سلام سلاح وتمت تحية العلمين البريطاني والعثماني. وقفت حشود من الأتراك فرحة برحيل الحلفاء، وأعجبوا بمشية قوات الحلفاء، خاصة حرس الشرف البريطاني المكون من مائة رجل طولهم جميعا ست أقدام، فهتفوا لهم. وعزفت فرقة الحرس البريطاني الأغاني الوطنية التركية وكذلك السلام الوطني البريطاني. وفي السادس من أكتوبر دخلت المدينة الفرقة الأولى مشاة من الجيش التركي. وتوقفت مكاتب البريد الأجنبية والمحاكم القنصلية عن العمل. واستولى الهلال الأحمر على مستشفى البحارة البريطاني. وحل الدبلوماسيون السوفييت محل الروس البيض في السفارة الروسية. كان رانغل قد غادر المدينة مع أغلب قواته إلى يوغسلافيا، على الرغم من أن بعض الضباط الفرنسيين - استباقا إلى مشاهد العام 1945 - حاولوا إجبار الجنود الروس البيض على العودة إلى الاتحاد السوفييتي(*). أما الرجال المسيحيون الذين لم يلبسوا الطربوش يوما، فقد اضطروا إلى وضعه فوق رؤوسهم، لأن ارتداءهم القبعات الأوروبية كان يعرضهم إلى خطر خلعها بالقوة. إذ فرض لفترة قصيرة نظام خشن للتأكيد للأوروبيين أنهم لم يعودوا السادة، وبدأ فندق بيرا بالاس يقدم الخمر في أكواب الشاي[68].

دام احتلال الحلفاء للقسطنطينية أربع سنوات وأحد عشر شهرا، أي أطول بسبعة أشهر من الحرب العالمية الأولى نفسها. كانت القسطنطينية العاصمة الأوروبية الكبرى الوحيدة التي عانت الاحتلال من العدو بين الحروب النابليونية

(*) ظل هؤلاء الروس، فضلا عن القوزاق الذين هربوا بعد انتصار البلاشفة في روسيا، خارج بلادهم حتى الحرب العالمية الثانية التي شكلوا فيها فرقا خاضت الحرب إلى جانب دول المحور، وبعد انتهاء الحرب قضى مؤتمر يالطا بتسليمهم إلى الاتحاد السوفييتي، بعد أن هرب منهم من هرب إلى الغابات وانتحل جنسيات غير الروسية. [المترجم].

والحرب العالمية الثانية. وعلى الرغم من أن ذلك كان محل استياء شديد في حينه، فإنه جنب المدينة بعض الأهوال التي شهدتها عواصم حليفتيها ألمانيا والنمسا اللتين لم تتعرضا للاحتلال. فقد شهدت برلين محاولات لانقلابات عسكرية شيوعية ويمينية، وحربا أهلية، وتضخما هائلا. وفي فيينا، أغلقت الجامعة لعدم وجود الوقود لتدفئتها، ودفع الجوع الناس إلى الريف بحثا عن الطعام، وتعرض ضباط الجيش إلى الهجوم في الشوارع. أما القسطنطينية، فقد تجنبت أمثال هذه الشدائد، فضلا على أن جنود الحلفاء كان لديهم مال ينفقونه في شوارعها[69].

وفي المقابل تمثلت النتيجة الأساسية للاحتلال في تدمير الإمبراطورية العثمانية وتسويات التعايش بين الجاليات، فقد شجعت بريطانيا السلطان على مهاجمة الوطنيين وقبول معاهدة سيفر والهرب على بارجة بريطانية، وهي الأحداث الثلاثة التي لولاها لاتخذت الحركة الوطنية مسارا مختلفا. كما غرس تحالف الأقليات المعلن مع المحتلين في نفوس كثير من الأتراك تصميما على التخلص منهم، فضلا عن الشعور بالاشمئزاز من «الحضارة الغربية».

لقد صَنَعَ تاريخَ القسطنطينية أفرادٌ مثل كاترين الثانية ومحمود الثاني وعبدالحميد وأنور وكرزون، وكذلك قوى غير شخصية ممثلة في السلطة العائلية والجغرافيا والقومية والدين. بيد أنه لم يؤثر أحد في المدينة منذ محمد الفاتح نفسه مثلما أثر فيها مصطفى كمال. فبعد أن أجلى الحلفاء، تحوّل إلى إذلال المدينة والتخلص من العثمانيين. ففي الثالث عشر من أكتوبر، صادق المجلس الوطني الكبير على تعديل للدستور نصه: «أنقرة هي مقر حكومة الدولة التركية». وفي الثالث والعشرين من أكتوبر، حُرِم رفعت، وهو الوطني الوحيد الذي كان يتودد إلى الخليفة، من القيادة العسكرية للمدينة. ولم تكن ثمة وسيلة للرد على ذلك، لأن مصطفى كمال كان يسيطر على الجيش والمجلس الوطني الكبير. وفي ليلة التاسع والعشرين والثلاثين من أكتوبر، استيقظ سكان القسطنطينية على صوت مائة مدفع وواحد تطلق النار تحية لإعلان الجمهورية. وأصبحت المدينة التي ظلت عاصمة إمبراطورية لألف وخمسمائة وثلاثة وتسعين عاما، أي أطول من أي مدينة أخرى في العالم، المدينة الثانية في الجمهورية[70].

كشف تنزيل مكانة القسطنطينية أن مصطفى كمال يشارك يعقوب قدري وتوفيق فكرت العداوة للمدينة. ومن أجل «تطهير» المدينة من «القذارة»، قال كمال:

«سيغرق البحر الأسود بأمواجه البسفور ليغسل كل شيء ... ستصنع الجمهورية كل ما في وسعها لكي تخلق إنسانا من بيزنطة التي فقدت حالتها الطبيعية وجمالها الأصلي وقيمتها الفائقة بسبب التعود على القذارة والنفاق والأكاذيب والفسوق. ستعود ثانية إلى حالتها الطبيعية ونقائها».

كان النفور متبادلا. كتب صديق كمال الصحافي فالح رفقي أطاي (Falih Rifki Atay): «لم تكن إسطنبول عموما تكن مشاعر طيبة نحو أنقرة». كانت صحافة إسطنبول توجه للإدارة الوطنية انتقادات يومية. وقد أراد كثير من العلمانيين، والمتدينين بالطبع، الإبقاء على الخلافة كمانع ضد استبداد كمال، وكذلك كمصدر للمكانة الدولية. وقالوا إن الفرق الحقيقي يكمن بين الديموقراطية والاستبداد، وليس بين الملكية والجمهورية. وفي الحادي عشر من نوفمبر كتبت صحيفة طنين أن إلغاء الخلافة عمل «يتنافى كليا مع العقل والولاء والشعور الوطني». وأرسل المفكر التحديثي الكبير لطفي فكري (Lutfi Fikri) رئيس نقابة المحامين بالقسطنطينية رسالة مفتوحة إلى الخليفة في العاشر من نوفمبر، يطالبه فيها باستعادة سلطته الدنيوية (سجنته «محكمة الاستقلال» لاحقا). وخاف آخرون من الكلام. كانت عملية تأليه كمال تسير على قدم وساق، غير أنها لم تكن عامة. وفي العام 1924، عندما سافر من خلال البسفور، لم يزر القسطنطينية، ربما لأن الشرطة لم تكن تستطيع أن تؤمن سلامته[71].

كانت المدينة تفقد سريعا أغلب العناصر التي جعلتها متفردة: أهميتها الإستراتيجية، والسلطنة، والباب العالي، ومكانة العاصمة، وأخيرا الخلافة. كانت العائلة العثمانية ضحية لتعدديتها القومية. في العامين 1918و1919، وبينما كان وجود تركيا نفسها مهددا بالضياع، كان السلطان حريصا على الاحتفاظ بالولايات العربية، وكان يرسل بعثات مصالحة متعددة الأعراق، شملت ممثلين للبطريركية، إلى إدرنة وبورصة، وكان يشنق قتلة الأرمن. وبينما قمع مصطفى كمال القوميين الأكراد في الشرق، شهدت القسطنطينية ازدهارا لنشاط الأكراد تقوده نواد مثل جمعية نهضة كردستان والرابطة الاجتماعية الكردية والصحف الكردية. وخدم في حكومة السلطان أكراد مثل سيد عبدالقادر رئيس مجلس الدولة الذي كان يحظى بتأييد الحمّالين الأكراد بالمدينة، والعقيد الكردي خالد بيه رئيس شرطة القسطنطينية. أعلن عبدالقادر احترامه العميق للخلافة وأنه لا يريد شيئا للأكراد أكثر من الحكم الذاتي الذي وعدت به معاهدة سيفر

التـي اعتبرهـا في مصلحة تركيا والأكراد معـا. ووفقا لتقرير للمخابـرات البريطانية في التاسع من يناير 1920، فإن السلطان وافق على ذلك المطلب[72].

حكم المجلس الوطني الكبير الأمة التركية، بينما كانت الخلافة العثمانية تحظى باعتراف العالم الإسـلامي كله (ما عـدا المغرب). وفي الرابـع والعشرين من نوفمبر 1923، كتب أغا خان (Aga Khan) وأمير علي (Ameer Ali) من الهند إلى المجلس الوطني الكبير، معبرين عن قلقهما بشأن مستقبل الخلافة، ما أعطى كمال الذريعة لشجبها كسبب للتدخل الخارجي في شؤون تركيا[73].

وفي شـتاء 1923-1924، خُفضت ميزانية الخليفة، وحُرِم من قارب الكياك الرسمي والحـرس الخاص به. وحدث آخر موكب سـلاملك في التاسـع والعشرين من فبراير في المسـجد الواقـع خارج قصر دولمة بهجـت بالقرب من المكان الـذي ركب منه محمد السـادس الزورق عند الرحيل. وفي الثالث من مارس ألغيت الخلافة بقرار من المجلس الوطني الكبير في أنقرة. أحاطت القوات قصر دولمة بهجت. كان عبدالمجيد يقرأ القرآن (أو وفقـا لبعض الروايات كان يقـرأ كتاب «مقالات مونتين») حتـى وقت متأخر من الليل، عندما جاءه عدنان بيه وحاكم الشرطة لإخباره بأنه يجب أن يرحل عن المدينة في الفجر. فانفجرت أسرته وخدمه في البكاء. وقُدمت إليه حرية الحياة في الغرب تعويضا. يقـال إن ابنة الخليفة المحبوبـة در الشـهوار (Durushehvar)، الباقية الوحيدة إلى اليوم(*) (1995) من أبطال هذا المشـهد السـوداوي، قالت باكية: «لا أريد ذلك النوع من الحرية»[74].

لم يحظَ إلغاء الخلافة بتأييد شـعبي. ووفقا لنائب المندوب السـامي البريطاني كان هناك «كثير من القلق في عقول الناس، وكان الموقف العام في القسطنطينية، وعلى حد علمي في الأماكن الأخرى، تسـوده اللامبالاة الظاهرة أو الاستسـلام المقهور الناتج عن التعب والخوف من الأقلية المنتصرة»[75]. أخذ الخليفة أسرته الصغيرة (سـتة أشخاص) وثلاثة موظفين وخادمين. وخوفا من المظاهرات ألزمت الحكومة الخليفة بالمغادرة من خارج المدينة. وفي الخامسة والنصف صباحا ودع الخليفة حشدا صغيرا على باب القصر، وأُخذ مع أسرته في ثلاث سيارات تتبعه شاحنة بالأمتعة على طول البسفور، ثم عبر جسر غَلَطَة، مرورا بجامع بايزيد، وخلال باب إدرنة، وعلى طول الأسـوار القديمة لايديكولي،

(*) توفيت في لندن، في السابع من فبراير 2006، عن عمر يناهز الثانية والتسعين. [المحرر].

ثم إلى تشاتالجا. سجل سكرتير الخليفة صالح كرامت (Salih Keramet) ابن الشاعرة نيجار هانم في يومياته أن السيارات غرزت عدة مرات في الطين على طول الطريق وأن الجندرمة اضطروا إلى وضع أحجار تحت عجلاتها لتمكينها من السير. وفي الساعة الحادية عشرة، وصل المبعدون متعبين وجوعى وحزانى إلى محطة القطار بتشاتالجا. حاول الخليفة أن يبتسم عندما أعطته الشرطة والجندرمة آخر تحية رسمية.

ظلوا طوال النهار في محطة القطار. كانت الشرطة تبعد الموالين والفضوليين. حاول مدير المحطة أن يستضيفهم في جناح عائلته الخاص. كان الرجل يهوديا، واليهود هم الأقلية الوحيدة التي احتفظت برابطة ولاء للعائلة العثمانية. وعندما شكره الخليفة رد عليه مدير المحطة بكلمات أجرت الدمع في أعين كل الحاضرين:

إن العائلة العثمانية هي منقذ اليهود الأتراك. وعندما طُرد أسلافنا من إسبانيا وبحثوا عن بلد يؤويهم، كان العثمانيون هم من أعطونا الملجأ وأنقذونا من الفناء. ومن خلال كرمهم، أعطونا حرية العقيدة واللغة وحماية نسائنا وممتلكاتنا وحياتنا. ولذلك يوجب علينا ضميرنا أن نخدمكم قدر استطاعتنا في أصعب أوقاتكم.

وفي منتصف الليل، وصل قطار الشرق السريع. وبينما كانت الأسرة تتحرك لركوب القطار، أمام المسافرين الآخرين الذين وقفوا يتفرجون، أعطى حاكم إسطنبول الخليفة ظرفا يحتوي على جوازات سفر وتأشيرات إلى سويسرا وألفي جنيه إسترليني. وبينما كان القطار يجري مسرعا خلال البلقان، عبر المكان الذي دُفن فيه قلب سليمان القانوني(*) في المجر، رثا الخليفة حاله: «جاء أسلافي إلى هنا بخيول ورايات. وها أنا الآن آتي إليه منفيا»[76].

كانت رحلة هذا القطار آخر الرحلات التي دفنت إمبراطوريات أوروبا، آخذة آل رومانوف إلى مثواهم في سيبيريا، وآل هوهنستولين وآل هابسبرغ إلى المنفى في هولندا وسويسرا على التوالي. بيد أن عائلة إمبراطورية لم يدم حكمها أطول من آل عثمان، ولم تخلّف أسى في عاصمتها كما خلّف آل عثمان.

(*) ورد في موضع سابق من الكتاب أن السلطان سليمان القانوني مات في العام 1566 في أثناء حصار قلعة سكتوار الهابسبرغية، وخوفا من أن تعم الفوضى بين الجند عند انتشار خبر موت السلطان، خاصة بسبب سوء الحظ في المعارك، كان لا بد من التكتم على خبر موته، ولكي يعاد جثمان السلطان إلى عاصمته التي تبعد سفرا طويلا، اضطر الصدر الأعظم محمد صوكولو باشا إلى أن يحنط الجثة. ويقال إن المكان الذي دُفنت فيه أحشاء السلطان وقلبه أمام القلعة المحاصرة تحوّل إلى مستوطنة ومزار للناس لأكثر من قرن، ثم أبيدت بعد استيلاء الهابسبرغيين عليها في العام 1693. [المترجم].

خاتمة

يتمثل الإرث الأساسي الذي تقدمه القسطنطينية للعالم في دورها ونموذجها كعاصمة عالمية كبرى تجاهلت الحدود الصارمة، قومية كانت أو ثقافية أو اجتماعية أو دينية. ففي القسطنطينية، كانت الهويات المتعددة أمرا طبيعيا، فكانت بابا في الحائط الفاصل بين الإسلام والمسيحية. كان «كرسي الخلافة» جزءا من «نظام أوروبا»، إذ كان من الممكن في القسطنطينية أن يكون الشخص في الوقت عينه عثمانيا ويونانيا، وأوروبيا ومسلما، وأن تُعامل القومية معاملة الوظيفة وليس معاملة العاطفة. لقد كانت مدينة تعرَّف فيها أناس من أمثال محمد الفاتح ومحمد صوكولو باشا وبوسبيك وإبراهيم متفرقة وموراجيا دوسون ومحمود الثاني والمصلحون العثمانيون العظماء إبان القرن التاسع عشر، على الثقافات الأخرى، من دون أن تشوِّههم عقدة العظمة أو عقدة الدونية، أو الاستشراق أو الاستغراب. ووقعت

«مجددا، عادت إسطنبول الإسلامية والعلمانية، الآسيوية والأوروبية، والحديثة والتقليدية، في آنٍ معا كما كانت في ماضيها العثماني: تقاطع طرق العالم»

الحمـلات الصليبية الوحيدة في القسـطنطينية بين الطوائف المسـيحية، وليس بين المسيحية والإسلام.

لم تدافـع القوى الأوروبية عن المدينة مرات كثيرة من خلال الديبلوماسـية وحسب، بل عملت أيضا على تقوية دفاعاتها المادية في خمس مناسبات منفصلة: فرنسـا في العامين 1770 و1807 وبريطانيا في العامين 1877-1878 ضد روسـيا، وألمانيـا في العام 1915 ضـد بريطانيا وفرنسـا، وبريطانيا وفرنسـا وإيطاليا في العـام 1922 ضد اليونان. وحتى العام 1918، قاومت القسـطنطينية الإمبريالية الأوروبية. وإذا كانت المدينة قد خضعت للاحتلال بين العامين 1918 و1925 في أوج قـوة الهيمنة الغربية، فإن ذلك كان بسـبب دخول الإمبراطورية الحرب في نوفمبر 1914 على غير إرادة العائلة الحاكمة والسكان وأغلب الوزارة.

في ذلك الوقت، كانت كل جماعة عرقية في المدينة قد شرعت في تبني قومية حديثة خاصة بها. وفشل المشروع العثماني العظيم. وبعد رحيل العائلة في العام 1924، تحوّلت القسـطنطينية من أكثر مدينة عالمية في أوروبا إلى أكثرها قومية. لقـد عمّ الأسى على العائلة العثمانية في وقت نفيها في العام 1924 أكثر كثيرا من العائلات المخلوعة الأخرى، لكن الحنين إليها فيما بعد كان أقل من هذه العائلات. فعلى مدار خمس سـنوات ونصف السنة، لم يسـمع سير هيو ناتشبول هيوسن (Sir Hugh Knatchbull Hugesson) الـذي عمـل سـفيرا لبريطانيا في أثناء الحرب العالمية الثانية، تعبيرا واحدا عن الأسى على الإمبراطورية، وهي الشـهادة التـي أكدتها المصادر الأخـرى جميعا. فعلى خلاف فيينا، أدارت القسـطنطينية ظهرها للماضي، حتى اسـمها نفسـه تغير، إذ أُلغي اسم القسـطنطينية بسبب تداعياتـه العثمانية والعالمية. وبداية من العام 1926، لم يعد مكتب البريد يقبل غير الاسم إسطنبول الذي بدا تركيًا أكثر، وكان معظم الأتراك يستخدمونه. تبعت إسـطنبول وتركيـا مصطفى كمال - منقذهما من الدمـار - في حمى من النزعة القومية. تذكر وريثه الرئيس عصمت إينونو هذه الفترة بالقول: «كنا كمن شبَّ فيهم حريق»[1].

نجحـت إصلاحات مصطفى كمال لأنه كان يبني عـلى مائة عام من التحديث العثماني، حتى إن معظم الإجراءات التي اتخذها سبق أن نوقشت منذ العام 1908

مــن جانب تركيا الفتاة وحلقة ضياء كوك ألب(*)، كانت قد وضعت موضع التنفيذ من جانب نخبة المدينة مثل قصر مظاهر الإسلام على المجال الخاص، وسفور النساء وغيرها. وفي مارس 1924، أُلغي منصب شـيخ الإســلام والأوقــاف، وبعد أن فقدت عائلات العلــماء دخلها الوراثي، اتجه كثـيرون منهم إلى العمل بالتجــارة. وأُغلِقت المدارس الدينية، وأُلغيت المحاكم الشريعة، وتبنت الجمهورية التركية نظاما قانونيا يســتند إلى النظام السويسري. وبعد عام، حُظِرت طرق الدراويش، وهُدم الكثير من تكاياهــم. وفي ذلك قال كمال: «لا يمكن أن تكون جمهوريــة تركيا أرضا للدراويش والمريدين وشيوخ الطرق وأتباعها. فالطريق المستقيم حقا هو طريق الحضارة».

حتى جوانب معينة من الإســلام الرســمي، مثل الحج، جــرى تقييدها. وفي يوم جمعــة في العام 1926، لاحظ روبرت بيارون (Robert Byron) أنه لم يكن يصلي في آيا صوفيا غير مائة وخمســين شخصا. لقد أوصلت النزعة القومية والد الكاتب عزيز نيسين، على رغم ولائه للسلطنة العثمانية، إلى أن يترك عائلته في إسطنبول ويقاتل في صفــوف الوطنيين، وعاد بعد العام 1924. قال الرجل لأسرته سرا، خوفا من الشرطة، إن كمال يهودي ومدمن خمور وماحق للإســلام. وسمع هارولد آرمسترونغ في 1925 أحــد الخوجات في جامع أيوب الذي صــار مهجورا تقريبا، يلقي خطبة عنيفة: «لقد قتلــت الحكومة الدين، إنهم مدنّســون dinsiz لا دين لهــم، أخذوا أموال الأوقاف، وجوعوا موظفي المســاجد، وطاردوا الطرق الدينية، حتى إن الناس يريدون أن يأتوا للصلاة، لكنهم يخافون»[2].

وإذا كان المســلمون التقليديون قد شــعروا بالاضطهاد، فــإن رفاق كمال لم يكونــوا بمنجاة مــن مثله. وبداية مــن العام 1925، تحوّلت صحافة إســطنبول التــي كانت نقدية جدا، في ظل قانون صيانة النظــام، إلى صحف كمالية. وقُمِع الحزب الاشتراكي والحزب الاشتراكي التركي للعمال والفلاحين. واغتيل حسين حلمي (Huseyin Hilmi) الزعيم الاشتراكي والعميل البريطاني المزعوم في ظروف غامضة، ومثله عدد من الزعماء الدينيين، بعد استيلاء الوطنيين على المدينة مباشرة. وبعد العــام 1927، حُظِرت مظاهرات الاشــتراكيين في عيد العــمال التي كانت تحدث

(*) أي اللقاء الأسبوعي الذي كان يجمع النخبة التحديثية المسلمة بالمدينة، من أمثال المفكر فؤاد كوبرولو والشاعر يحيى كمال وطلعت باشا، في بيت ضياء كوك ألب على جزيرة بيوك أطه. [المترجم].

سنويا منذ العام 1912. وأعيد استخدام جوازات السفر الداخلية(*). وعُرِضت صورة مصطفى كمال في كل مكان، كما لاتزال تُعرَض إلى اليوم. صدمت تركيا زائرا قال إنها «أكثر الدكتاتوريات المعاصرة مكرا».

بهدف تحدي استبداد كمال، خطط رفاقه السابقون لإنشاء حزب جديد، أو بعث لجنة الاتحاد والترقي، فانتقم منهم كمال بسلسلة من المحاكمات الصورية أمام محكمة الاستقلال غير الخاضعة للقانون. فبُرئ كاظم قرة بكير ورفعت، وسُجن رؤوف لفترة قصيرة، ونُفيت خالدة أديب وزوجها، وأطلق قرة كمال النار على نفسه، وشُنق وزير المالية السابق جاويد (Cavid)[3].

في المنفى، شجبت خالدة أديب في مذكراتها «عهد الإرهاب» الكمالي، على الرغم من أنها أيدت الكثير من الإجراءات التي اتخذها. وكتبت أيضا رواية رائعة عن القسطنطينية الحميدية(**) بعنوان «المهرج وابنته»، كشفت عن كثرة ترددها على مكتب أبيها في يلدز عندما كانت فتاة صغيرة، امتدحت فيها حياة الأحياء التقليدية وحيوية التكايا، والصوت «العذب» للمنشد الديني ربيعة Rabia مقارنة بالمغنين الغربيين الذين تخرج أصواتهم مثل «مجموعة من الصرخات والصيحات في مستشفى مجانين». يحظى ثناؤها على الموسيقى التقليدية في تركيا بتأكيد خاص، لأنه بين العامين 1926 و1944 قُيِّدت هذه الموسيقى رسميا واستبعدت من منهج جامعة إسطنبول.

تعرض الحجاب أيضا للتقييد، وإن لم يُحظر صراحة. كان الضغط قويا جدا من جانب الدولة حتى إنه في خلال بضع سنوات كان من الصعب رؤية نساء محجبات في إسطنبول. وفي العام 1925، حُظِر الطربوش، رمز الإمبراطورية والإسلام العثمانيين، وإلى الآن لايزال ارتداؤه يمثل مخالفة جنائية. لقد رأى كمال أن القبعة ستجعل الأتراك «متحضرين» في العقلية وطريقة الحياة وتمكّن تركيا من بلوغ «مكانتها المستحقة بين الأمم». بين عشية وضحاها، فقدت إسطنبول طرابيشها الحمراء المميّزة، وحل محلها آلاف من القبعات السوداء والبنية. علقت خالدة أديب على ذلك بالقول: «كانت النتيجة الأساسية لـ«قانون القبعة» هي أنه أثرى مصانع القبعات الأوروبية على حساب الأتراك الفقراء»[4].

(*) جواز السفر الداخلي وثيقة كانت - ولاتزال في حالات قليلة - تستخدم في بعض الدول للرقابة على التنقلات الداخلية للمواطنين وأماكن إقامتهم والسيطرة عليها. [المترجم].

(**) نسبة إلى السلطان عبدالحميد. [المترجم].

رفض كمال الكثير من الدعوات لزيارة إسـطنبول، واسـتاء من نقدها لحكومته في الأعوام 1922-1925 كما اسـتاء من سلوكها في أثناء الاحتلال. وأخيرا، عاد إليها في العام 1927 لتسـتقبله المدينة بحشـود مهللة هاذية. ولدى دخوله قصر دولمة بهجت، أعلن أنه منذ ذلك لم يعد مسـكنا لظلال الإله، بل «قـصر الأمة». (على أن هذا القصر الذي مـات فيه كمال في العام 1938 وتسـجى فيه في غرفة العـرش لم يُفتح للجمهور إلا في العام 1981). وبعد عام في متنزه قصر توبكابي، كشـف كمال عن التغيير الأشـد ثورية بين كل إجراءاته، وهو استخدام الأبجدية اللاتينية محل الأبجدية العثمانية. أما الدوافع التي رُفِعت مبررا لذلك، فكانت نشر معرفة القراءة والكتابة، ومجددا تقريب تركيا من أوروبا الغربية. قال كمال لمجموعة من المسـؤولين وزوجاتهم: «لا بد أن نحرر أنفسـنا مـن هذه العلامات الغامضة التي كبلت عقولنا قرونـا بقيود من الرذيلة الحديدية ... ستكشف أمتنا بأبجديتها وعقليتها أن مكانها بين العالم المتحضر»[5](*).

وفي قصر دولمة بهجت، في الحادي عشر من أغسـطس، أعطى كمال المسـؤولين درسا لمدة سـاعتين في الأبجدية اللاتينية. ونظرا إلى أن معظمهم كانوا ملمين باللغة الفرنسـية - بفضل عمليات التحديث العثمانيـة - فقد حدث تغيير الأبجدية بيسر نسـبيا. كان تغيير الأبجدية أحد الإصلاحات التـي رفضها قطاع من النخبة في بادئ الأمر. كان فؤاد كوبرولو الذي سجنه البريطانيون لفترة قصيرة في العام 1920، يدرِّس التاريـخ والأدب التركيـين في جامعة إسـطنبول. كتب فؤاد عن هـذا الإصلاح: «إن الحضارة لا يمكن اسـتيعابها بمجرد تغيير الأبجديـة». وكذلك دافع الدارس اليهودي الـتركي العظيم أفـرام غالانتي (Avram Galante) أيضا عـن الأبجدية القديمة، إذ عرف من تردده على السفارة اليابانية أن أبجدية أكثر تعقيدا لم تمنع اليابان عن أن تكون النموذج الأنجح للتحديث في البلدان غير الغربية. وعلى أي حال، فقد تلاشت المعارضة، كما كانت الحال دائما في عهد مصطفى كمال. ولاحقا، أصبح فؤاد كوبرولو

(*) كـما هي الحال في معظم تجديدات مصطفى كمال وإجراءاته، كان التفكير في تغيير أبجدية الكتابة من العربية إلى اللاتينية سـابقا عليه. فقد سـبقت الإشارة إلى أن الأميرة خديجة سـلطان في أواخر القرن الثامن عشر استخدمتها في مكاتباتها مع الرسـام والمصمم أنتوين إنغناس ميلينغ، وأن أعضاء تركيا الفتاة ناقشـوا الفكرة وحبذوها. ومع أن أصحاب التوجه الإسلامي سواء العرب أو الأتراك يشجبون هذا التحوّل لربطهم بين اللغة العربية والإسلام، فإن الأتراك لم يكونوا يوما من متحدثي العربية، ولذلك كانت الأبجدية العربية بالنسبة إليهم أجنبية مثلها مثل اللاتينية. وقد أريد بهذا التحول تسهيل كتابة اللغة التركية وربط تركيا بالثقافة الغربية، والأهم من ذلك - في رأي صاحب القرار مصطفى كمال- إحداث قطيعة مع الماضي العثماني. [المترجم].

واحدا من دائرة كمال، زاره أكثر من مائة مرة في أنقرة، حيث كانت جلسات كمال الليلية في معظمها للشرب والنقاش[6].

ثمة طريد آخر من اللغة التركية بعد 1932، سُمي «الامتيازات اللغوية»[*] التي تمتعت بها الكلمات العربية والفارسية. عُوملت اللغة التركية معاملة المصطلحات العلمية، وليس اللغة الحية. فأُحلت كلمات منفرة ومبهمة مأخوذة من اللغة التركية القديمة أو اللغة الفرنسية أو من خيال الكماليين، محل المفردات العثمانية الثرية والمتنوعة (استُخدمت في خطابات كمال المبكرة لنشرها). وبذلك استعيض عن كلمة «مكتب» mekteb التي تعني «مدرسة» من الجذر العربي «كتب» بكلمة okul المأخوذة من الكلمة الفرنسية ecole. لقد قُطِع الأتراك عن ماضيهم. وبات الأدب والوثائق العثمانية طلاسم، كما أمر كمال بترجمة روائع الكتابات الغربية من دون العثمانية إلى اللغة التركية الحديثة. وغدت نقوش الخط اليدوي التي تعد الزينة الأساسية في معالم إسطنبول، طلاسم بالنسبة إلى أهلها، وإن كانت طريقة نقشها عادة تعلي من شأن الجمال على المقروئية.

تمثل أحد العوامل التي ساعدت في إنجاح برنامج كمال في ولاء النخبة للدولة والتزامها بالإصلاح. لكن على الرغم من هذا الولاء العام، كان هناك بضعة لاجئين بعد العام 1924[**]. عاش الخليفة السابق عبدالمجيد في نيس وباريس، يؤدي صلاة الجمعة ويحضر الحفلات الموسيقية الكلاسيكية مرتديا طربوشا صنعه له شخص أرمني غادر إسطنبول هو الآخر. ومثل المنفيين الآخرين، رأى عبدالمجيد أن سرعة إصلاحات كمال تركت فراغا في روح الشعب، وقال: «ليست الدساتير هي ما يشكّل الأرواح، بل الأرواح هي التي تشكّل الدساتير». وقال أيضا: «من العمى أن تُنفذ تغييرات جذرية فجأة»[7]. ومات آخر الخلفاء في باريس في العام 1944. وانتقل ابنه عمر فاروق أفندي إلى القاهرة. وعلى الحائط الأساسي من مكتبه، علق البرقية المؤطرة من مصطفى كمال

(*) على غرار الامتيازات التجارية الأوروبية. [المترجم].

(**) فيما سبق من هذه الخاتمة، ناقش المؤلف القضاء على الميراث المادي والثقافي العثماني ممثلا في مظاهر الإسلام والأبجدية والتعددية العرقية واللغوية وغير ذلك مما ميّز المدينة الكوزموبوليتانية ويمكن أن يسمى «الشتات المادي» للمدينة العثمانية، وفيما يلي يتعقب المؤلف «الشتات الإنساني» للمدينة ممثلا في العائلات العثمانية على اختلاف عرقياتها وأديانها التي طُردت من عالمها الأثير المألوف، إما طردا ماديا بالنفي أو طردا نفسيا بالقضاء على عالمها، يتتبعها المؤلف إلى أماكن شتاتها في تاريخ إنساني رائع يترك في النفس الكثير من الأسى والانقباض، حتى موتها الذي به ماتت القسطنطينية العثمانية كفكرة بعد موتها كواقع مادي ملموس. [المترجم].

التي دمرت حياته: «ليرجع صاحب الجلالة الإمبراطورية من حيث جاء»[8]. وفي النهاية، بعد أن طلق صبيحة سلطان وتزوج امرأة أخرى من أبناء عمومته، لم يكن يريد إلا أن يعود ليموت في تركيا، لكنه مات في مصر في العام 1969.

أُعطي أفراد العائلة الآخرون أسبوعا لكي يحزموا أمتعتهم ويرحلوا إلى المنفى. لم يُستثن منهم أحد. فجأة، اجتُثّ آل عثمان من المدينة التي كانت كل عالمهم، وتفرق أناس كانت النزهة على البسفور تمثل لهم حدثا كبيرا، في الولايات المتحدة وفرنسا والهند، فضلا عن الأراضي العثمانية السابقة مثل ألبانيا ولبنان ومصر. كتبت ابنة عبدالحميد عائشة سلطان التي عاشت في فرنسا في مذكراتها: «كنا مجموعة من البشر بلا وطن، بلا بيت، بلا مأوى. كان تاريخ عائلتنا في المنفى سلسلة من حلقات الموت المأساوي». أما أخوها محمد عبدالقادر، فقد كسب قوته من العزف في أوركسترا في صوفيا، وبلغ منه الفقر أن دُفن في قبور الفقراء. وانتحر أخ آخر لها في باريس، هو عبدالرحيم الذي كان جنديا مميّزا في الحرب العالمية الأولى، ولم يترك مالا يكفي للإنفاق على جنازته. وماتت أختها زكية سلطان معدمة في فندق في مدينة باو Pau الفرنسية[9]. وفي العامين 1951 و1975 على التوالي فقط، سُمح للأميرات والأمراء العثمانيين بالعودة إلى إسطنبول. ويقوم كبير العائلة الحالي بزيارة إسطنبول من حين إلى آخر من مقر إقامته في نيويورك.

لم تنشأ في إسطنبول حركة ملكية(*) ولا وُجد فيها حي مثل فوبور سانت جيرمين في باريس القرن التاسع عشر(**). ووفقا لأحد التقديرات، خدم الجمهورية التركية ثلاثة وتسعون في المائة من ضباط الجيش العثماني وخمسة وثمانون في المائة من البيروقراطيين. وحتى آخر صدر أعظم - توفيق باشا الذي مات عن ست وتسعين سنة في العام 1938 - دفنته الجمهورية بكامل رتبه العسكرية. وفي موقع كوناك عائلة الباشا القريب من ميدان تقسيم الذي أهداه له عبدالحميد، بنى حفيد الباشا فندق بارك هوتل Park Hotel الذي حل محل بيرا بالاس كأحدث فندق في المدينة. وظل آخر خصيان القصر يشاهَدون وهم يرشفون القهوة في مقهى كافي ليبون Cafe Lebon في

(*) الحركة الملكية حركة تطالب بإعادة الأسرة الحاكمة على غرار ما حدث في الكثير من البلدان الغربية، مثل اليعاقبة الذين طالبوا بإعادة الحكم البريطاني إلى سلالة جيمس الثاني أو حركة الاستعادة restoration التي أعادت أسرة البوربون إلى الحكم في فرنسا بعد فاصلين من الجمهورية ثم الإمبراطورية. [المترجم].

(**) الحي الذي سكنت فيه طبقة كبار النبلاء الفرنسية. [المترجم].

شارع بيرا الكبير، أو يمشون مشيتهم المتهادية الخاصة وهم يتجولون بالزوار في قصر توبكابي الذي فُتح متحفا في العام 1926.

عاد معظم «الأتراك المتنازلين» إلى إسطنبول بعد موت أتاتورك في العام 1938. عمل سكرتير الخليفة صالح كرامت - على سبيل المثال - بالتدريس في كلية روبرت. لكنه لم يكن يتحدث عن الماضي حتى إن الكثير من زملائه لم يعرفوا أنه عمل مع آخر الخلفاء. يوجد مثال للمسيرة المعتادة لحياة هؤلاء المنفيين في حياة أدهم ديروانا (Edhem Dirvana) حفيد صدر أعظم عمل مع عبدالمجيد وسليل ملك هانم (Melek Hanim) مؤلفة العمل الممتع لكنه غير موثوق «ثلاثون عاما في الحريم». وُلد أدهم في العام 1865، وتعلم في غَلَطَة سراي والكلية الإدارية، وعمل في يلدز سكرتيرا ومترجم روايات بوليسية لعبدالحميد. وأخيرا، هرب إلى أوروبا. خدم أدهم حكومات تركيا الفتاة حاكما إقليميا، وخدم وحيد الدين وزيرا للتجارة والبريد. وفي الأعوام 1918-1922، وبدلا من أن ينضم إلى كمال، فضل البقاء في القسطنطينية في يالي عائلة كيبريسلي Kibrisli الذي يعود إلى أواخر القرن الثامن عشر، القريب من مياه آسيا الحلوة. لم يعجبه أن يغادر السلطان الأخير المدينة على بارجة بريطانية، لكنه نفسه غادر البلاد لفترة قصيرة في العامين 1923-1925 لتجنب اعتقال محتمل. ومع ذلك، فقد أيد هذا المنتَج للقصر العثماني كل جوانب الثورة الكمالية. ومثل صالح كرامت، لم يشاهَد وهو يصلي أو يصوم، وفي شيخوخته ترجم كتاب ديكارت «مقالة في المنهج» Discours de la methode إلى اللغة التركية. ومات عن ست وتسعين سنة في العام 1958 في ياليه الذي لايزال ملكا للعائلة إلى اليوم[10].

كانت السنوات الأولى للجمهورية نهاية لبعض الجماعات، إذ كان مصطفى كمال منقذا ومدمرا في الوقت عينه. عند أعلى نقطة من النزعة القومية بعد العام 1920، جرى فرض التجانس على معظم المدن العالمية. فغدت فيينا وسانت بطرسبرغ محليتين، وصارت براغ تشيكية كليا، وتريستي Trieste إيطالية كليا، وسالونيك يونانية تماما. وأُحرقت إزمير، وفقدت دلهي مسلميها. صمدت إسطنبول أطول من الجميع، لكنها استسلمت في النهاية.

بعد العام 1923، أنكرت الجمهورية التركية على الأكراد الحرية والهوية. وعلى الرغم من أن الوطنيين في البداية كانوا يؤيدون الحكم الذاتي الكردي، فقد حُظِرت

لغتهم من العام 1923 إلى العام 1991 وأصبح الأكراد يعرفون باسم «أتراك الجبل». وفي ذلك أشار لورد كرزون إلى أنه لأول مرة في التاريخ تقرر حكومة تركية أن الأكراد أتراك. في أثناء الاحتلال، اتجه الكثير من الأكراد إلى القوى الأجنبية. فاشتهرت عائلة بدر خان التي ساعد بعض أفرادها روسيا في أثناء الحرب، بأنها موالية للبريطانيين، وربما تلقت أموالا من المندوبية السامية اليونانية. وذكرت المخابرات البريطانية أن «الحزب الكردي في القسطنطينية وقع تحت سيطرة السلطات اليونانية بسبب نقص الأموال في أيدي الزعماء الأكراد». وفي العام 1925، سُحقت ثورة سعيد ملا (Said Mullah) المؤيدة للخلافة العثمانية والأمة الكردية[11].

ولاحقا، عبّرت الحكومة التركية عن تمنيها - بحسب كلمات وزير الخارجية في العام 1927 توفيق رشدي بيه - أن يهلك الأكراد «الهالكين حتما»، مثلما هلك «الهنود الحمر». وقال للمندوب السامي البريطاني في بغداد إن «الحكومة التركية كانت تنوي طرد أكراد الأناضول كما طردت اليونانيين والأرمن». وتحدث رشدي، وكذلك مصطفى كمال، عن «العقلية الكردية الناقصة وعن استحالة إقناعهم بقبول السياسات الواقعية والعقلانية لتركيا الحديثة». وفيما بعد نُشرت قوات كبيرة في الشرق، وأبعد الكثير من الأكراد إلى الغرب، وخرج معظم المنطقة عن السيطرة الحكومية. وفقدت إسطنبول دورها كمركز كردي[12]. وغادرت عائلة بدر خان إلى القاهرة وأوروبا، وكان منهم الدكتور كرمان بدر خان (Karaman Bedir Han) المولود في القسطنطينية في العام 1895، الذي توفي في العام 1978 في باريس التي درّس فيها اللغة الكردية في السربون، وأسس وموّل معهد الدراسات الكردية الذي لايزال إلى اليوم مركزا للثقافة الكردية هناك[13].

حتى العام 1940، ظل عدد سكان إسطنبول مستقرا عند زهاء ثمانمائة ألف نسمة. وحلت محلها القاهرة التي ارتفع عدد سكانها من ثلاثمائة وأربعة وسبعين ألفا في العام 1882 إلى مليون وثلاثمائة واثني عشر ألفا في العام 1937، بصفتها أكبر مدينة في الشرق الأوسط وبؤرة العالم العربي. وعلى رغم تعلق العرب الشديد بإسطنبول، فقد عاد معظمهم إلى أوطانهم، إذ وجدوا، مثلما وجد اليونانيون والبلغاريون إبان القرن التاسع عشر، أن المدينة لم تكن كافية. عمل المفكر السوري البارز ساطع الحصري مديرا لأول كلية لإعداد المعلمين في القسطنطينية في الأعوام 1909-1912، ثم مديرا للمدرسة

المختلطة الحديثة في نيشانتاش التي كانت تسمى «يني مكتب» Yeni Mekteb [المدرسة الجديدة]. تزوج ساطع ابنة وزير البحرية، وظل مثل الكثير من العرب مواليا للإمبراطورية العثمانية حتى العام 1918. كانت زوجته تفضل البقاء في القسطنطينية، لكنه شعر بأنه لم يكن أمامه اختيار بعد أن فقدت الإمبراطورية ولاياتها العربية. وعندما غادر في العام 1919، كتبت إحدى صحف المدينة: «اقتُطِعت منا سورية».

من خلال التدخل البريطاني، عُيِّن عربي آخر من عرب القسطنطينية ونائب سابق في البرلمان العثماني، هو الشريف فيصل، ملكا للعراق. وفي بغداد، أعاد المدير العام للتعليم الحكومي الجديد، ساطع الحصري، تنظيم التعليم العراقي. وظلت الروابط الوحيدة بينه وبين إسطنبول، التي لم يزرها ثانية إلا نادرا، هي زوجته (التي ظل يتحدث معها باللغة التركية)، فضلا عن عادة استخدام الخدم. ومات الحصري في بغداد في العام 1969[14].

وكذلك غادر الشريف علي حيدر من الفرع الأعلى للعائلة الهاشمية إسطنبول في الرابع من مارس 1926. كتب حيدر:

> من بين كل الذين ادعوا صداقتي، لم يأتِ غير خمسة لتوديعي. كان ألمي من ذلك أكبر من دهشتي، لأني كنت أعرف الطباع المتقلبة لهؤلاء الناس، لكن الأمر كان موجعا لي بعد أن قضيت من حياتي ستين عاما في القسطنطينية ... عندما أبحرنا لم أتحمل أن أنظر بعيني لآخر مرة إلى القسطنطينية الحبيبة، بل تركزت عيناي على تلال سكوتاري Scutari وفكرت في عائلتي في تشامليجا، ودعوت لروح أبي وأمي اللذين دُفنا في جبّانة بعيدة بسفح التل. لم أستطع حتى أن أزور قبرهما لأودعهما بسبب لباسي القومي(*). لقد تغير كل شيء، وما الذي يجبر آل بيت محمد على تحمل ما لا يطيقون؟ كان الله في عوننا!

استقر الشريف حيدر بزوجتيه التركية والأيرلندية في بيروت التي مات فيها في العام 1935. وأُغلِق بيت عائلته في تشامليجا وبيع أثاثه. وعادت أخواته إلى مكة، وذهب أخوه إلى لحج في حضرموت، وانتقل ابنه محمد وابنته نعمت إلى بغداد[15].

التقى العالم الجديد للقومية العربية بالعالم العربي العثمانلي القديم، عندما زار الوصي على عرش العراق عبدالإله ابن أخي الملك فيصل، المدينة على بارجة

(*) حُظرت كل الملابس الدينية. وفي هذه المدينة التي تباهت من قبل بتنوع أزياء ساكنيها وملابسهم، كان من الوارد اعتبار اللباس العربي لباسا إسلاميا مستفزا.

بريطانيــة مع بعــض وزرائه في العام 1945. كان نوري باشــا رئيــس وزراء العراق في الســابق طالبا في الكلية الحربية بالقســطنطينية، لكنه حارب ضد العثمانيين في الحــرب العالمية الأولى: «أسرع [نوري] من أحد جانبي الســفينة إلى الجانب الآخر ليرى الأماكن التي تذكرها من أيام صباه... عندما مرت السفينة على المدينة القديمة وأطلقت المدافع النار تحية للوفد الملكي، وقف ممســكا بســياج الســفينة ورأيت الدمــوع في عينيه». أخذ الوصي على العرش وفريقه الذين كانوا يســتخدمون اللغة العثمانيــة كلغة بلاط سرية عندما كانوا يريدون ألا يفهم أحد حديثهم في قصورهم العربية، يقلّبون الذكريات بالحديث عن جدة نوري التي ظلت حبيسة تاريخها على ضفاف البسفور في أحد ياليات إمرغان: «حتى الآن في شيخوختها، تتمتع بإشراق في طلعتها وحيوية في عقلها يفوقان نظيريهما عند الكثير من معاصريها في العمر نفسه في البلدان المسيحية المحيطة»[16].

وعلى أي حال، وكما حدث مع أغلب ســكان فيينا التشــيكيين الذين شكّلوا ما يناهز عشرين في المائة من ســكانها وظلوا فيها بعد العام 1918 وأصبحوا نمساويين، بقي الكثير من العرب (والشركس والألبان وأبناء آســيا الوســطى) في القسطنطينية وتحولوا إلى أتراك، وأثبت الإســلام والمدينــة بذلك أنهما أقوى من القومية. عاد ابن الشريف علي حيدر الأكبر عبدالمجيد إلى تركيا في العام 1951 سفيرا للأردن (حدثت مصالحة بين فرعي العائلة الهاشــمية في العام 1931). جمعت زوجته رقية سلطان الدورين المتعارضين للأميرة العثمانية وزوجة الســفير العــربي مع الوقار والذكاء. لم تعلق قط على تركيا الجديدة، وإن كانت لم تتوقف عن عزف السلامات الإمبراطورية العثمانيــة القديمة على البيانو. وهــذان الزوجان اللذان جمعهما حب الموســيقى الغربية، إذ قيل إن رقية ســلطان كانت أفضل عازفــة بيانو في العائلة الإمبراطورية وكان عبدالمجيد يعزف الكمان، واللذان لم يُرزقا ذرية، اعتزلا في شــقة وثيرة بالقرب مــن قصر دولمة بهجــت. مات الشريــف عبدالمجيد في إســطنبول في العام 1967، قبل أربع ســنوات من وفاة زوجته. أصبح أخواه الشريف محيي الدين الموســيقار الشهير والشريف فيصل رجل الأعمال، تركيين أيضا، وعاشا في إسطنبول. ومع الفرض الإلزامي لأســماء العائلات في العام 1935، غير محيي وفيصل اسميهما من الشريف إلى طرغــان Targan الــذي يعني «الشريف» في اللغــة التركية. نسي فيصل طرغان

صاحب الروح الحديثة والديموقراطيـة، جذوره العربية، وأصبح ممثل شركة جنرال موتورز في تركيا. لا أحد من سـلالة الشريف علي حيدر يسـكن في بيت العائلة في تشـامليجا، البيـت الذي أصبح اليوم (1995) ظلا لنفسـه. نـال الزمن من أجنحة البيت المختلفة (السلاملك والحرملك والمكتبة والمطبخ) وأصبح في حالة من الخراب، وحوصرت حديقته بعمارات سكنية ومدن أكواخ.

تزوجت أختهما الصغرى الشريفة مصبح (Sherifa Musba) من رجل إنجليزي يدعى فريب (Fripp) وانتقلت إلى لندن، وكتبت كتابا عن ذكريات القسـطنطينية العثمانيـة بعنوان «أرابيسـك» Arabesque (1944). أما الباقـي الوحيد على قيد الحياة مـن أبناء الشريف علي حيدر، فهي ابنته الشريفة سـفينة Sherifa Sfyne التي تعد من القلائل الذين يسـتطيعون أن يتذكروا شـيئا من قسطنطينية ما قبل العـام 1914. تزوجت سـفينة من رجل مصري، وترملت حاليـا، وتعيش وحيدة في شقة بالإسكندرية. وكما هي الحال مع بقية أفراد العائلة، لاتزال سفينة تحصل على أمـوال من أوقاف العائلة في مكة، على الرغـم من أن عائلة الأشراف فقدوا الحجاز لمصلحة آل سعود في العام 1925. عندما تُسأل سفينة عن الماضي تقول: «لقد نسيت يا عزيزي، أنا الآن سـيدة مسـنة. لا أسـتطيع أن أتذكر كل الماضي. أنا حاليا لا أرى أحدا. أجلس هنا وأقرأ، ولا أفعل أي شيء آخر. كان الناس في الماضي يعيشـون معا. أما الآن فإن أحدا لا يرى أحدا، كأنهم أكلوا أعينهم. لقد دمر [كمال] البلد»[17].

كان من دواعي أسـفها، أن إسطنبول - كما هي الحال في الإسكندرية - فقدت يونانييها. فالحكومة التي أرادت أن تطرد البطريركية نفسها، وطردت أحد البطاركة في العام 1925، أفقدت اليونانيين الشـعور بالأمان. وبداية من العام 1934، تسبب القانـون الذي قصر مهنـا مثل طب الأسـنان والمحاماة والصيدلـة على المواطنين الأتراك، في مزيد من النزوح الجماعي لليونانيين حاملي الجنسـية اليونانية. تباهت أعداد كبيرة من يونانيي إسـطنبول بإحساسهم بالتفوق الكوزموبوليتاني في شوارع أثينا. ونظروا إلى اليونانيين الهيلينيين على أنهم ليسـوا أفضل من الألبان، وإلى أثينا نفسـها على أنها مدينة بدائية وفاترة، وشـعر الكثيرون منهـم بالغربة في اليونان أكثر مما شـعروا بها في الإمبراطورية العثمانية، وشكّل بعضهم لاحقا قاعدة الحزب الشيوعي اليوناني[18].

كانت القسطنطينية تزداد فقرا ومحلية povincial. ذكر ضابط بريطاني في العام 1923 أن أعدادا كبيرة من الأتراك كانوا قريبين من المجاعة: «توقفت كل الأعمال التجارية في الميناء تقريبا، ما ترك مائة ألف كردي ولازي بلا عمل». وبين العامين 1925 و1935، انتقلت السفارات مرغمة إلى أنقرة، وحاليا تخلو بنايات السفارات القديمة وقصورها من الناس، بعد أن نُزِّلت مكانتها إلى قنصليات عامة. وأُهملت البنية التحتية للمدينة لتوفير الأموال للعاصمة الجديدة أنقرة. فوجد المسافرون إسطنبول «مدينة تُحتضر» فيها «قذارة لا تحتمل»[19].

دفعت قلة المال في إسطنبول، الناس إلى مغادرتها، إذ كانت جاذبيتها هي التي أتت بهم في الأصل. ففي العام 1920، كان في إسطنبول مائة وخمسون ألف روسي «أبيض»، صاروا ثلاثين ألفا في العام 1922، ثم ألفا وأربعمائة في العام 1930. وقبل العام 1914، رحبت المدينة باللاجئين اليهود من المذابح الروسية، بينما في العام 1941 تصرفت بقسوة مثل البلدان المحايدة الأخرى. من ذلك أنه في ديسمبر 1941، رست في القرن الذهبي السفينة ستورما Struma مكتظة باللاجئين اليهود السبعمائة والتسعة والستين الآتين من بلغاريا ورومانيا. لكن لم يسمح لأحد منهم بالنزول على البر، وذلك جزئيا بناء على طلب مَن وزارة المستعمرات البريطانية لمنع المسافرين الذين كانوا في طريقهم إلى فلسطين الخاضعة للحماية البريطانية التي وضعت حدودا للهجرة اليهودية. وفي الرابع والعشرين من فبراير 1942، قطرت سفن تركية السفينة ستورما خارج البسفور إلى البحر الأسود خارج المياه التركية. وهناك تفجرت ستورما إما من تلقاء نفسها وإما بفعل فاعل، ما أودى بحياة كل من كانوا على متنها[20](*).

وفي العام 1942، في ارتباط مشؤوم مع صعود القوة النازية في أوروبا، فُرضت ضريبة ثروة عقابية على الشركات الأرمنية واليهودية واليونانية. فبغرض زيادة عدد

(*) ثمة رواية، ربما يهودية، تقول إن السفينة كانت قديمة ومتهالكة تحولت من البخار إلى الديزل بمحرك مستعمل وإنها تعطلت مرات كثيرة في عرض البحر قبل أن تصل إسطنبول، والأهم من ذلك أن غواصة سوفييتية هي التي أغرقتها بطوربيد. لم ينجُ من ركابها غير ابن التاسعة عشرة من العمر ديفيد ستوليار Divid Stoliar الذي توفي في العام 2006 بعد أن ذهب إلى فلسطين التي كانوا يقصدونها والتي حمّل اليهود فيها سير هارولد ماكمايكل المندوب السامي البريطاني لفلسطين المسؤولية عن موتهم، ولصقوا في شوارع فلسطين ملصقات عليها صورته مكتوبا تحتها «مطلوب لأنه قاتل». [المترجم].

الشركات التركية، أُرغمت هذه الشركات على أن تدفع للدولة مائتين واثنين وثلاثين في المائة، ومائة وأربعة وثمانين في المائة، ومائة وتسعة وخمسين في المائة من رأسمالها على التوالي. فأُبيدت الشركات القديمة بين عشية وضحاها، إذ لم يبق لأصحابها إلا أعين يبكون بها. كانت شركة الطباعة فراتيلي هايم Fratelli Haim المملوكة لإخوة يهود إيطاليين توظّف أتراكا ويونانيين وأرمنيين ويهودا. وهي الشركة التي استخدمها أفرام غالانتي لكي ينشر على نفقته الخاصة الكثير من أعماله الموسوعية التي تحتفل بالصداقة التركية - اليهودية على مر القرون. ونتيجة لضريبة الثروة، بيعت الشركة إلى بنك سمربنك Sumerbank. لم يحتج غالانتي الذي كان نائبا حينذاك على مصير ناشره[21]. لقد فقدت إسطنبول دورها كجاذب للناس والأفكار. صحيح أن قليلا من اللاجئين من الدول الشيوعية البلقانية استقروا فيها بعد العام 1945، لكن اللاجئين الألبان توجهوا إلى نيويورك، بدلا من عاصمتهم السابقة.

ومع ذلك، فقد بقي في إسطنبول في العام 1950 أكثر من مائة ألف يوناني. وفي أوائل سنوات منظمة حلف شمال الأطلسي (الناتو)، تحسنت العلاقات نسبيا بين اليونانيين والأتراك. لكن أخيرا، تحقق تحذير رُفع في العام 1922 بأن «اليونانيين إن لم يُطردوا فعلا، فسيجدون أن من الأفضل لهم أن يرحلوا، لأنهم في المستقبل لن يجدوا في تركيا الجديدة بابا للرزق». كانت أعمال الشغب في الأيام الثلاثة من الخامس إلى السابع من سبتمبر 1955، بداية النهاية. وكانت الذريعة مشكلات بين اليونانيين والأتراك في قبرص وعنوانا في صحيفة يعلن عن هجوم بقنابل على مسقط رأس أتاتورك في سالونيك. اندفع الطلاب والحمّالون ورجال من الضواحي على دكاكين المسيحيين وبيوتهم وحطموها ونهبوها. كتب مسؤول أمريكي: «شهدت نهب الكثير من الدكاكين بعيني، بينما وقفت الشرطة تتفرج على الغوغاء أو تشجعهم». دُمرت إحدى وسبعون كنيسة ودَيران. وفي اليوم التالي، استيقظ الناس على مشهد شارع بيرا الكبير السابق الذي تغير اسمه إلى استقلال كاديسي Istiklal Caddesi (شارع الاستقلال) مفروشا على اتساعه بالزجاج المهشم وبرزَمْ القماش. لم يستطع الترام أن يعمل لأن خطوطه كانت مسدودة. كتب إيان فليمنغ (Ian Fleming) الذي كان في إسطنبول حينذاك لتغطية مؤتمر للشرطة الدولية عُقد في كشك الشاليه في يلدز: «كانت الكراهية تتدفق عبر الشوارع كالحمم»[22]. ثمة ثلاثة عوامل تبيّن

أن أعمال الشـغب كانت من تدبـير الحكومة: غياب الوزراء عن إسـطنبول (التي يقـضي معظمهم الصيف فيها عـادة)، قلة الأضرار إلى ألحقت بهدف عالمي شـهير مثـل البطريركية، وحقيقة أنـه لم تقع غير حالة وفاة واحدة (راهب يوناني مسـن في باليكلي). اسـتخدمت الحكومة أعمال الشـغب ذريعة لفـرض الأحكام العرفية واعتقال الشيوعيين.

وصـل الحزب الديموقراطي إلى السـلطة منذ العـام 1950. كان من بين أعضائه البارزين فؤاد كوبرولو الذي ترك دراساته التاريخية ليصبح نائبا عن إسطنبول ووزيرا للخارجية. وفؤاد الذي اشـتهر الصدور العظماء من عائلته بجهودهم لإقامة علاقات متحضرة مع الأقليات، حاول أن يلقي باللائمة عن أعمال الشغب على الشيوعيين على رغم أنه اعترف لاحقا بأن عدنان مندريس (Adnan Menderes) رئيس الوزراء كان المسؤول عنها. وعندما غادرت أعداد كبيرة من يونانيي إسطنبول، زعم فؤاد كوبرولو أن مغادرتهم كانت دليلا على رغبتهم في توسيع أعمالهم التجارية في الخارج[23].

حُوكـم مندريـس وأُعدم في العـام 1960، جزئيا بسـبب التحريض على أعمال الشغب. لكن خلفاءه في المنصب واصلوا سياساته. وبين العامين 1964 و1970، طُرد معظم اليونانيين الباقين أو شـجعوا على المغادرة. ولايزال بعض اليونانيين يعيشون في إسـطنبول، حصرتهم الشـيخوخة أو التفاؤل أو حب المدينة. كان آخر يوناني غير إكليروسي عاش في الفنار، الموظف السـابق في البنك العثماني تيودور شاريتونيديس (Theodore Charitonides) الأعـزب الذي عاش مع أخته. في أواخر أيامه، كانت ملابسـه وسـجاد بيته قد أصبحت خرقا بالية، ولا أحد يأتي لزيارتهم يوم السـبت كعـادة الفناريين. مات تيودور في إسـطنبول في العـام 1972. أما آخر من عاش في المدينـة من الفناريين بالدم وسـليل عائلة مافروكورداتو، فكان ألكسـندر فيغليري (Alexander Veglery) ابـن غريغوري فيغليري بيـه (Gregory Veglery Bey) آخر أمير لساموس، وآن كاراثيودوري (Anne Karatheodory)، ومات في إينيكوي في العـام 1985[24]. يعيش أبناء عائلتـي مافروكورداتو ومافروغورداتو حاليا في أثينا وإدنبرة ولندن وباريس وأي مكان آخر غير إسطنبول. وفي اليونان وأمريكا الشمالية، تحاول نوادي القسطنطينية أن تحافظ على ذاكرة المدينة اليونانية حية. وفي كل عام يقام قداس في كاتدرائية أثينا في يوم الأحد الأقرب إلى تاريخ التاسـع والعشرين من

مايـو، وهو تاريخ دخول الفاتح المدينة. وبعد القـداس، يهتف قليل من اليونانيين المسـنين «أثاناتوس، أثاناتوس» Athanatos, athanatos [خالد! خالد!] أمام تمثال برونزي لقسطنطين الحادي عشر: «الإمبراطور الخالد»(*).

أغلبية الألفي يوناني الباقين في إسطنبول اليوم فوق عمر الخامسة والستين. ومع أن مدارسهم وكنائسهم تتمتع بحالة جيدة بفضل العقارات الكثيرة التي لاتزال البطريركية تملكها، فإن أحدا لا يرتادها، إلا قليلون. تُوّج البطريرك المسـكوني الحالي بارثلميو الأول في الفنار في العام 1991، لكن وفرة الكهنة الأرثوذكس المدربين والحاصلين على التأهيل الضروري ممثلا في الجنسية التركية، في تناقص. وفي العام 1970، أُغلقت الكلية اللاهوتية الواقعة على جزيرة هيبيلي: إحدى جزر الأمراء. يشـبه شعور بعض اليونانيين المرتبطين بالبطريركيـة، المؤسسـة الأقدم في أوروبا بعد الفاتيكان، شـعور الكثير من المسـؤولين العثمانيين في نهاية الإمبراطورية: «إذا كنا سنموت، فدعونا على الأقل نمت بشرف».

تناقصـت الجالية الأرمنية هي الأخرى، وإن لم يكن بنفس السرعة. إذ لايزال في إسـطنبول نحو خمسين ألف أرمني وثمانٍ وثلاثين كنيسـة وثلاث وعشرين مدرسة أرمنيـة. عـلى أن المدينة قد خلت من عائلات داديان وباليـان ودوزيان. غادر آخر أفـراد عائلة داديان، وهي أنا داديـان (Anna Dadian)، إلى مصر في العام 1922، وتزوجـت من عم أمين عـام الأمم المتحدة الحالي بطرس بطـرس غالي. وعمل أحد أفراد عائلة داديان في ترام إسـطنبول، واعتنى آخـر بخيول أتاتورك. ترددت أصداء الشريفة سفينة في كلام أحد الأرمن الإسطنبوليين: «إنهم يرحلون ويرحلون ويرحلون بلا انقطاع. إنهم جميعا خائفون. فلم يعد الناس قادرين على تقبل العيش معا جنبا إلى جنب»[25](**). يزيد عدد المسـيحيين في الجبّانات اليوم عن عددهم في شوارع إسـطنبول. وإبان أواخر القرن العشرين، تبدو فكـرة أن اليونانيين والأرمن كانوا في

(*) قسـطنطين الحادي عشر أو الإمبراطور الخالد هو الإمبراطور المرمري الذي سـيبعث لاستعادة مملكته ومدينته ويدخل القسطنيطينية مظفرا من الباب الذهبي. [المترجم].

(**) مـع أن القومية والدولة القومية كانت قادمة لا محالة، رغم أنـف العثمانيين و«مللهم» وكوزموبوليتانيتهم، إذ اتضح بفضل الإدراك التاريخي المتأخر للأحداث أنها أحد التعبيرات «الحتمية» عن قانون التقدم الإنسـاني وقرينة الحداثـة، على رغم مـا أحدثته من حروب دموية وتقطيع للأواصر بين البشر وسَـجنهم في شرانق ضيقة، وعلى رغم الإقـرار بذلـك فإن غير المسـلمين في الدولة العثمانية غـير القومية كانوا على مدار تاريخها معـول الهدم الأول لهذا النمـوذج التعددي، وإن تبـاكى عليه بعضهم لاحقا. وهنا يجب التأكيد أن هذه القوميات في الكيانات السياسـية ما قبل الحديثة - كما أكد الدارسـون - تجاورت من دون أن تتماس أو تختلط، وعاشـت جنبا إلى جنب من دون ←

السابق موضع ثقة المسؤولين العثمانيين، بل كانوا كثيرا ما يفضلونهم على المسلمين، فكرة منفرة لأحفاد اليونانيين والأرمن، وكذلك لبعض الأتراك الحديثين. لم يعانِ أحد من سقوط الإمبراطورية العثمانية أكثر من اليونانيين والأرمن. ولم تشهد مدينة أوروبية تحولات في سكانها أشد من إسطنبول.

وبالمثل تبخر العالم المشرقي الكاثوليكي أيضا. كانت عائلة تيستا التي تعد من أولى العائلات الكاثوليكية المشرقية المسجلة في بيرا، آخر من رحل عن المدينة. عاش آخر أفرادهم في إسطنبول، وهو إيبوليت بيه (Ipolit Bey)، حياة الفراغ في شقة بشارع جانبي من شارع الاستقلال، أمام كافي ليبون. تزوج من إحدى بنات العائلة اليونانية الغنية فيتاليس Vitalis، لكنه أصبح تركيا في جنسيته ووجدانه. مات إيبوليت في إسطنبول في العام 1960. ويشعر ابنه فريدريك أيضا بأنه تركي، لكنه غادر إسطنبول لسببين: إذ لم يرد أن ينزلق إلى العقلية المشرقية المتنازلة، فضلا عن أنه لم يكن مقبولا بالكامل في العالم الجديد للقومية التركية. شارك في تأسيس الحزب الديموقراطي مع جلال بيار (Celal Bayar) وفؤاد كوبرولو في العام 1947. لكنه شعر بأنه لا مستقبل له في الحياة العامة التركية، على رغم اللغات الكثيرة التي كان يتحدثها (التركية واليونانية والإنجليزية والفرنسية والألمانية). عندما كان اسمه، وهو الأقدم في إسطنبول، يذكر في المحادثة، كان وقعه غير التركي يجعل الناس يتساءلون: «كيف يوجد مثل هذا الاسم؟» وفي العام 1950، غادر إسطنبول. كان أول ما وقع عليه بصره من الغرب هو اللافتة Bevete Coca-Cola [اشرب كوكا كولا] في ميناء نابولي. وكما هي الحال مع الكثير من أحفاد عائلات إسطنبول القديمة، بما في ذلك العثمانيون أنفسهم، يعيش إيبوليت حاليا في باريس. ولايزال يعتقد أنه «بعد إسطنبول لا يوجد شيء» ويحكي رسالة بيرا: «لا تكفي ثقافة واحدة لتغذية أي فكر». وكانت السفارة التركية بيته الثاني[26].

← أن تتعايش، وليس أدل على ذلك من أن اليونانيين والبلغاريين وغيرهم بعد نحو خمسة قرون من العيش في القسطنطينية العثمانية لم يكونوا يعرفون كلمة تركية واحدة، بل وكانت هذه القوميات متعادية كما ثبت على طول الكتاب الحالي. ولاتزال هذه الحال «التجاور دون التعايش» قائمة حاليا في «القسطنطينيات» الجديدة مثل لندن التي وصف الكتاب الشوفينيون أحياء «الإنجليز» من أصول باكستانية فيها بالاسم «لندنستان» Londonstan كناية عن انعزالها عن لندن «الإنجليزية» ووصفوا أوروبا بجالياتها المسلمة الممانعة لتبني مظاهر الثقافة الغربية باسم «أورابيا» Eurabia بمعنى «بلاد العرب الأوروبية» (Europe + Arabia)، ومثل باريس التي أرقتها مظاهر التنوع والتعدد فاستنت قانونا لمنع الملابس الدينية في الفضاء العام. [المترجم].

اضطر رحيل أفراد آخرين من عائلته عن إسطنبول، إلى دول أوروبية مختلفة، هذه العائلة الدبلوماسية لأن يعملوا للمرة الأولى في الجيوش. فمات أحدهم من الفرع الألماني في الحرب العالمية الأولى، وثلاثة في الحرب العالمية الثانية. ومات أحدهم من الفرع الفرنسي في معسكر الاعتقال بماوتهاوزن(*). وحاليا، انقرض الفرعان النمساوي والألماني للعائلة، بينما يزدهر إخوتهم في فرنسا وهولندا. وعاد أحد أفراد عائلة تيستا إلى إسطنبول قنصلا عاما فرنسيا في العقد الثامن من القرن العشرين، لكن كفرنسي كانت إسطنبول بالنسبة إليه مدينة أجنبية.

في التاسع عشر من مايو 1971، كتبت أنجيل لورلي (Angele Loreley) زوجة مالك آخر صحيفة يومية باللغة الفرنسية في إسطنبول، هي لو جورنال دو أورينت Journal d'Orient [صحيفة الشرق]: «يطلب بعض قرائنا مقالات عن الأمراض والطب للدكتور عزت دي ترانتو (Dr Izzet de Taranto) [من عائلة شهيرة من اليهود السيفارديم]. ولا يعرفون أن الدكتور عزت مات في الولايات المتحدة ... وكذلك مات السيد أليساندري (Alessandri) والسيد غاليزي (Galizzi) والسيد دخاني (Duhani)(**). ولايزال بارون دي فيردور (Baron de Verdor) وليفيو أميدي ميسير (Livio Amedee Missir) يرسلان مقالاتهما عندما يكون لديهما ما يكتبانه». وفي تلك السنة نفسها، غادرت أنجيل عندما لم يعد لها قراء، وأُغلقت صحيفة الشرق[27]. لم يبق غير الكلمات الفرنسية على جانبي ما كان يعرف سابقا باسم شارع بيرا الكبير، بقيت كنقوش تائهة: Cite de Pera [سيت دو بيرا أي ممر بيرا] وPassage Oriental [باساج أورينتال أي الممر الشرقي] وS. Michdjian [س ميشجيان] وArchitecte [أرشتيكت أي المصمم أو المعماري]. ولم يُبق عليها من دون تغيير غير كونها

(*) معسكر ماوتهاوزن Mauthausen concentration camp معسكر اعتقال ألماني في قرية بهذا الاسم في النمسا العليا توسع لاحقا ليشمل قرية غوسين Gusen، كان أكبر مُجمّعات العمل القسري في أوروبا الألمانية التي كانت تعمل كسجون ومواقع للعمل القسري في الوقت نفسه، وفيها مات الآلاف تحت ظروف عمل قاسية على أقل الطعام وعرايا تماما في أغلب الأوقات. [المترجم].

(**) حتى موته في العام 1965، ظل يكتب تواريخ جذلة عن غروب العاصمة العثمانية، غاضا الطرف عن الأهوال الكامنة تحتها. عاش كراهب في شقة بشارع جانبي من شارع بيرا الكبير، وعادت زوجته إلى باريس، وانتحر ابنه.

منقوشة بالحجارة.

خارج مدينة إسطنبول، ثُمِّنت عاليا المهارات الكوزموبوليتانية للباقين على قيد الحياة من العاصمة العالمية القديمة. فكان أربعة من رؤساء الوزراء لإمارة شرق الأردن (منهم ابن أبو الهدى مستشار عبدالحميد)، وثلاثة من رؤساء الوزراء للعراق، ورئيسان لسورية، ورئيس وزراء لألبانيا، وأول وزير خارجية لليبيا، من بين السياسيين الوطنيين الكثيرين فيما بعد العام 1918 الذين تعلموا في القسطنطينية[28]. وفي العام 1919، غادر الحبر الأعظم حاييم نعوم Haim Nahum إسطنبول متوجها إلى باريس، مكروها من الصهاينة لأنه كان من الموالين للأتراك، ومن الحكومة العثمانية لدعمه تركيا الفتاة. وفي العام 1924، عيّنه الملك فؤاد ابن الخديو إسماعيل الذي كان يعرف القسطنطينية جيدا، حبرا أعظم لمصر. كان الملك يستدعيه كثيرا إلى قصر عابدين ليتباحثا - باللغة التركية - حول المسائل الجارية. وكانا يبدآن دائما بالسؤال «كيف كان هذا الشيء أو ذاك ينفذ في الإمبراطورية العثمانية؟» مات الحبر في القاهرة في العام 1960، وهو يستمع إلى الإذاعة التركية على ضفاف النيل، بعد أن ضيّع بصره في ترجمة مجموعة الفرمانات العثمانية المتعلقة بمصر إلى اللغة الفرنسية. لقد دمرت القومية عالم الحبر الأثير إلى نفسه[29].

ثمة ميراث آخر للقسطنطينية هو ملكة المملكة العربية السعودية. ففي زيارة له إلى إسطنبول في العام 1919، قابل الملك السعودي المستقبلي فيصل ابنة عمه عفت الثنيان، من أحد فروع عائلة آل سعود الذين استقروا في القسطنطينية إبان القرن التاسع عشر. بعد زواجهما، جلبت عفت حرية العاصمة العثمانية إلى قصور آل سعود. وُصِفت في العام 1931 بأنها «مولودة ومتعلمة في القسطنطينية، وقوية الإرادة ومصممة على أن تصنع رجلا من الأمير الذي قيل إنه يخضع لتأثيرها وإنه وافق على أن ينبذ زوجاته الأخريات من أجلها». وإلى اليوم، تعد القرينة السعودية الوحيدة التي حصلت على لقب ملكة[30]. وفي عهد زوجها، أصبح أخو الملكة عفت غير الشقيق الشاب الألباني كمال أدهم (Kemal Adham) المولود في القسطنطينية والمتمكن من

اللغتين التركية والفرنسية، رئيس رئاسة المخابرات العامة للملك وأحد أقرب مستشاريه[31]. وأدهم في الوقت الحاضر مطلوب من جانب الشرطة الدولية لارتباطه بانهيار البنك الدولي للاعتماد والتجارة(*).

وإلى جانب نسيجها الإنساني، فقدت إسطنبول أيضا الكثير من نسيجها المادي وميراثها الفني. بدأت العملية في أواخر القرن التاسع عشر. وبحلول العام 1900، وفي ظروف لم يكشف عنها حتى الآن، انتقلت «شاهنامة» هوتون(**)، وهي الأعظم على الإطلاق بين كل المخطوطات المصورة، أهداها شاه فارس إبان القرن السادس عشر إلى السلطان العثماني، من قصر توبكابي، وانضمت إلى مجموعة بارون إدموند دي روتشيلد (Baron Edmond de Rothschild). زعم الدبلوماسي والتاجر الشرير ف. ر مارتن (F. R. Martin)، الترجمان بالمفوضية السويدية الذي ساعد في تنظيم أول معرض إسلامي كبير في ميونخ في العام 1910، أن المخطوطات التي كان يدرسها في توبكابي تحتاج إلى إعادة تجليد، وأخذ أغلفة الكتب العثمانية القديمة لنفسه. وربما نتيجة لفساد موظفي المساجد، توجد حاليا بالمتاحف في واشنطن وبوسطن ولشبونة وبرلين ألواح، وفي بعض الحالات، جدران كاملة من مساجد إسطنبول الأخرى. وحاليا، يوجد في اللوفر لوح إزنيق من ضريح سليم الثاني الواقع بجوار آيا صوفيا[32].

وكذلك فُقدت الأرشيفات أيضا. ففي العام 1931، باعت وزارة المالية للحكومة البلغارية الأوراق القديمة بالكيلوغرام لاستخدامها كمخلفات. ولما وقعت أجزاء من حمولة الشاحنات التي كانت تنقل الورق إلى محطة القطار، وُجد فرمان لأحد السلاطين أو دفتر محاسبة لإحدى الأميرات مرميا في الشارع. وفي النهاية، ردت بلغاريا الصفقة. والأرشيفات الباقية ضخمة جدا ومكتوبة بلغة لا يعرفها إلا القليلون، ولايزال التاريخ العثماني في حاجة إلى مزيد من الاستكشاف. فالإمبراطورية العثمانية التي كانت معروفة جيدا للعالم الخارجي في السابق، أصبحت اليوم تسمى «العملاق المنسي»[33].

(*) توفي كمال أدهم في القاهرة في أكتوبر 1999. [المحرر].

(**) الشاهنامة أو كتاب الملوك قصة ملحمية ألفها الشاعر الفارسي الفردوسي بين العامين 977 و1010 تقريبا، تتكون من نحو خمسين ألف بيت تحكي الماضي الأسطوري والحقيقي لبلاد فارس من بداية الخلق إلى الفتح الإسلامي وبعده، تعد الملحمة القومية لإيران (فارس) وأفغانستان (خراسان) وطاجيكستان وكل الناطقين بالفارسية. توجد منها نسخ كثيرة من أشهرها شاهنامة هوتون Houghton Shahnameh وشاهنامة المغول العظماء Great Mogol Shahnameh، توجد الأولى حاليا في متحف متروبوليتان للفنون. [المترجم].

بقيت القصور العظيمة وكل المساجد تقريبا. ولم يتغير الأفق أو القباب والمآذن. لكن لم يبق غير نحو خمسة عشر ياليا وكوناكا. حتى في وقت مبكر، هو العام 1921، كتب عبدالمجيد إلى لوتي بيير أن القسطنطينية تكاد تختفي: «ففي مكان الياليات الجميلة التي تختفي، تُبنى مصانع كريهة بالأسمنت المسلح». تبيّن الصور الجوية لهذه الفترة أن القسطنطينية كانت تضم الكثير العمارات المكوّنة من سبعة أو ثمانية طوابق. وأدت توسعة الشوارع إلى هدم معظم البيوت القديمة الباقية في الفنار في العام 1926[34]. حتى جبّانة أوسكودار العظيمة مزقتها شبكة من الطرق. واختفى الكثير من الجبّانات الأخرى مثل الجبّانة الصغيرة تماما بشواهد قبورها. وعُزلت المساجد والأسبلة العثمانية الباقية أو صارت غريبة في محيط من الخرسانة، هي الشقق والبيوت التي بُنيت منذ العام 1940.

وتحولت «المياه الحلوة» لكل من أوروبا وآسيا إلى مجرور مثقل بالقذارة لدرجة تحول دون نزول المخلفات إلى القاع وتبقيها على السطح. أما التلال المحيطة، مثل التلال المجاورة لكوناك عائلة الأشراف في تشامليجا، فأصبحت الفيلات والشقق تغطيها. فالبسفور يدمره جماله، إذ تقترب منه الفيلات وناطحات السحاب كل عام أكثر فأكثر للحصول على منظر أفضل له. ولم يعد «ماسة بين زمردين» وإنما بالنسبة إلى جزء من امتداده أصبح مجرورا بين منطقتين سكنيتين. ويعبر البسفورَ جسران لطريقين سريعين، لكن بسبب عدد السكان الكبير، تستخدم بضع عبّارات سطح المياه. وقد شُوهِدت آخر مراكب الكياك في العقد السادس من القرن العشرين، إذ صارت الغلبة للسيارات(*).

كان فندق إسطنبول هيلتون Istanbul Hilton الذي نزل فيه إيان فليمنغ في أثناء أعمال الشغب في العام 1955، أولى العمارات الحديثة التي جعلت الأفق شمال القرن الذهبي وحشيا. وتتمثل واحدة من أسوأ الجرائم المعمارية على مدى السنوات الخمس الأخيرة في بناء فندق من الزجاج والخرسانة يتمدد بوقاحة فيما كان ذات يوم بستان صنوبر أعلى قصر دولمة بهجت، إذ يهدد وزنه أساسات القصر. ويحجب فندق عملاق آخر تل يلدز.

(*) لاحظ أن الكتاب نشر في العام 1995، أي مر على نشره الأول ما يقرب من عشرين عاما حاليا، وقد تغيرت هذه الصورة «القذرة» لإسطنبول كثيرا بشهادة الأصدقاء الذين زاروها أخيرا. [المترجم].

يتمثل أحد الأسباب وراء سرعة معدلات البناء في إسطنبول في تدفق الأناضوليين، وهو ما يجعل البعض ينظرون إلى غزوهم لإسطنبول بوصفه انتقاما من جانب الولايات على الإهمال والاستغلال على مدى خمسمائة عام(*). فهم يتدفقون على المدينة منذ العقد الخامس من القرن العشرين بحثا عن العمل. تمثل إسطنبول بالنسبة إليهم إلدورادو الأمل والوعد(**). أحدث هؤلاء الغزاة انفجارا اقتصاديا وسكانيا لا نظير له منذ عهد الفاتح. وغدت المدينة التي كانت تفتقر إلى المصانع الكبيرة في السابق، تحوي الآن نصف القطاع الصناعي التركي تقريبا. ويصل دخل سكانها إلى عشرة آلاف دولار سنويا، أي خمسة أضعاف المتوسط القومي. وأصبحت مدينة الألف قرية. وتسمى أحياء كثيرة فيها مثل «ليتل غازي عنتاب» little Gaziantep [غازي عنتاب الصغيرة] أو «نيو كايسري» new Kayseri [قيصرية الجديدة] على أسماء مدن وبلدات في شرق الأناضول.

يشهد عدد السكان استقرارا في معظم المدن الكبرى الأوروبية، إذ انخفض عدد سكان لندن منذ العام 1945 من ثمانية ملايين إلى ستة ملايين. أما إسطنبول، فإنها مثل القاهرة أو مكسيكو سيتي، تتوسع على نحو خارج على السيطرة. فكان سكانها في العام 1970 ثلاثة ملايين، وفي العام 1985 خمسة ملايين ونصف المليون، وحاليا يزيدون على عشرة ملايين ونصف المليون. وستصبح قريبا، كما كانت في أوج الإمبراطوريتين البيزنطية والعثمانية، أكبر مدينة في أوروبا. وإذا لم تحدث إعادة توطين للصناعة في المحافظات، أو تُفرض ضريبة دخول(***)، فإن المدينة لن تتمكن من البقاء. فقد ثبت أن العدو الأكبر لإسطنبول ليس اليونان ولا روسيا ولا الحلفاء، وإنما سكانها أنفسهم.

لقد صار السكان الذين كانت عائلاتهم تعيش في إسطنبول على مدى أجيال ويتحدثون بلهجة إسطنبول التقليدية يشعرون بأنهم أقلية مطاردة. فبعد أن

(*) إذا كان الإهمال والاستغلال قد طالا الأناضول الملاصقة للقسطنطينية بأغلبيتها التركية، فبم يوصف التخلف الذي صارت إليه مراكز حضارية كبرى كانت في مستوى القسطنطينية أو أرقى منها قبل الغزو العثماني؟ إنها قرون العزلة والأقلمة والتريف التي أشار إليها المترجم في مقدمته التي حوّلت القاهرة ودمشق وحلب وبغداد من عواصم دول إلى أرياف وأقاليم تابعة لعاصمة إمبريالية. [المترجم].

(**) إلدورادو El Dorado أو «الرجل الذهبي» وهو زعيم شعب موسكا الهندي بكولومبيا الحالية الذي كان يغطي نفسه بمسحوق الذهب، تحوّل اسم الأسطورة إلى «مدينة الذهب المفقودة» التي سحرت المستكشفين من أيام المستعمرين الإسبان الأوائل. [المترجم].

(***) ضريبة الدخول (وليس الدخل) entrance tax ضريبة على انتقال السلع والبضائع بين المحافظات، ربما تفرض أيضا على تغيير محل إقامة الأفراد. [المترجم].

روعتهم نتائج الدولة القومية التي تاقوا إليها، أصبحوا يقولون تعليقات من نوع: «لقد أصبحنا غرباء في مدينتنا... إسطنبول لم تعد إسطنبول... لقد صرنا أقلية بين الأناضوليين». يشعر البعض بالحنين إلى احتكاك القوميات في المدينة العثمانية وينتعشون على صوت اللغة اليونانية حين ينطقها في إسطنبول سياح من أثينا.

تتحسن بعض جوانب الحياة المادية. إذ تُزرع الأشجار والزهور في أنحاء المدينة كافة، لكن السيارات والمصانع واستمرار استخدام الفحم كوقود يجعل التلوث أسوأ عاما بعد آخر. وفي معظم المناطق، يحتاج الناس إلى مرشحات هواء في الشتاء. ويقال إن أكثر من مليون ساكن ليس لديهم ماء جارٍ. وعلى رغم الاحتجاجات الشعبية، يتواصل سوء التخطيط. يقول المثل التركي «إن من يحمل جرة العسل، حتما سيلعق أصابعه»، وقد كانت المدينة جرة العسل، وظل الفساد يلعقها من كل جانب. تشجب الصحف اليوم الفساد في المدينة بحماسة قصيدة توفيق فكرت «الضباب» التي كُتبت في عهد عبدالحميد: «تبتلع النتانة إسطنبول يوما بعد آخر. وكلما زاد كلام الناس، اشتدت النتانة التي نشتمُّها وأغرقت إسطنبول. ويدفع النهب والظلم الناس إلى الارتماء في أحضان حزب الرفاه»[35].

تتمزق إسطنبول بين هويتين. فمن ناحية، يتجسد دورها كساحة حرب في صعود حزب الرفاه الأصولي وانتصاراته الناتجة عن اشمئزاز الناس من الأحزاب الأخرى، فضلا عن الإعجاب ببرنامجه في الانتخابات البلدية للعام 1995 والانتخابات القومية للعام 1996. لايزال الحزب لا يمثل معظم سكان المدينة. ومع ذلك فقد ظهر الحجاب مجددا. وحتى العمامة، على رغم حظرها قانونا، بدأت تشاهَد في الشارع للمرة الأولى منذ خمسين عاما. وأُعيد فتح التكايا. وعاد القرآن يُتلى مجددا في مقصورة البردة الشريفة في قصر توبكابي. ويزداد صوت الأذان علوا، مجازيا وحرفيا، من خلال مكبرات الصوت المتزايدة فوق المآذن. وهناك حركة تطالب بإعادة استخدام آيا صوفيا كمسجد (حوَّله أتاتورك إلى متحف في العام 1935). وبالفعل يستخدم جزء خلفي من آيا صوفيا حاليا للصلاة، وينادى بأذان الصلاة من فوق مآذنه. وفي مقابل المراسم السوداوية الحزينة في أثينا، تقام حاليا في إسطنبول مسيرات حاشدة وطقوس دينية وتمثيل لدخول الفاتح على حصان أبيض احتفالا بفتح المدينة، ويُعطى ذلك اليوم عطلة وطنية. في خطاب له في نوفمبر 1995، تنبأ زعيم حزب الرفاه - وهو ما تحقق فعلا - بانتصار حزبه في إسطنبول، وتباهى قائلا: «إن من يأخذ إسطنبول، يأخذ العالم».

ثمة تحدٍ آخر يواجه إسطنبول، وهو عدد الأكراد بين سكانها، الذين يقدّرون حاليا بما بين عشرين وثلاثين في المائة، وهم حتى الآن مدمجون في المدينة جيدا. وعلى رغم التفاوت في الثروة، فإن العنف أقل منه في معظم المدن المماثلة الأخرى. لكن الحرب المتواصلة في الشرق بين الجيش التركي والإرهابيين الأكراد وسياسة الطرد الجماعي التي تشبه سياسة مصطفى كمال في العقد الثالث من القرن العشرين، تجعلان هذا الانسجام غير مؤهل للاستمرار. لقد حققت الجمهورية التركية مكاسب مادية وتعليمية رائعة، إذ رفعت معرفة القراءة والكتابة من خمسة إلى ثمانين في المائة في سبعين عاما. لكن بعض أشكال حقوق الإنسان (حرية التعبير والحق في عدم التعذيب والسجن) أقل استتبابا منها في بعض السنوات الأخيرة للإمبراطورية العثمانية.

لكن على الرغم من أمثال هذه التوترات، تبدأ إسطنبول مجددا في استئناف دورها كملتقى. فللمرة الأولى منذ العقد الثالث من القرن العشرين، أصبحت المدينة جزءا من الاقتصاد العالمي، وتتمتع بعملة قابلة للصرف. وفي العام 1995، فُتحت بورصة إسطنبول، مجهزة بأحدث التقنيات، في إستينيه على البسفور. ويتقبل معظم الإسطنبوليين حاليا الثقافة العالمية الحديثة بحماس، مثلما تقبلت نخبة المدينة بالقرن التاسع عشر الثقافة الفرنسية. ولا يميّز مناطق إسطنبول الحديثة عن المدن الأوروبية الأخرى غير القباب والمآذن المتناثرة. أما الملابس والموسيقى والنوادي الليلية في معظم أجزاء المدينة، فلا تختلف عن باريس أو نيويورك.

لقد عجّل انهيار الإمبراطورية السوفييتية باستعادة إسطنبول لدورها كمدينة عالمية. فغدا البازار والخانات المحيطة به تصنع بناطيل الجينز الزرقاء والسترات الجلدية وتبيعها أكثر من السجاد والأكلمة kelims، ما جعله شارع أكسفورد(*) بالنسبة إلى أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى. لكن الروس عائدون، ليس كحجاج أو محتلين أو لاجئين، بل كتجار. ومجددا، عادت إسطنبول الإسلامية والعلمانية، الآسيوية والأوروبية، والحديثة والتقليدية، في آن معا، كما كانت في ماضيها العثماني: تقاطع طرق العالم.

(*) يعد شارع أكسفورد Oxford Street بلندن أكثر الشوارع في أوروبا ازدحاما بحركة التسوق ويضم مئات المحلات والمتاجر. [المترجم].

قائمة بالكلمات التركية

الأغا aga:	حرفيا معلم أو سيد، كلمة تستخدم كثيرا لرئيس منظمة أو قبيلة.
الأقجة akce:	عملة فضية، كانت وحدة الحساب الأساسية في الإمبراطورية.
الأميرا amira:	تحريف للكلمة العربية «أمير»، تنطبق عموما على وجهاء الأرمن الأثرياء.
الأواني avanie:	جزية تفرض تعسفيا على التجار الغربيين.
الأيازما ayazma:	عين الماء.
البايلو Bailo:	ممثل البندقية في القسطنطينية.
البراءة berat:	براءة تحمل طغراء السلطان.
البيه bey:	سيد يقابل الجنتلمان.
الجارية cariye:	عبدة أو محظية.
الشاووش cavus:	رسول أو حاجب أو مرافق بزي رسمي، يستخدمه السلطان كثيرا كسفير.
الجلاب celeb:	تاجر ماشية.
الجلبي celebi:	سيد متعلم.
الدرويش dervish:	عضو في فرقة صوفية، يكرّس نفسه للوصول إلى مستوى من الروحانية أعلى من غير الأعضاء.
الدفشرمة devshirmr:	أطفال كانوا يُجمعون من التجمعات المسيحية الريفية عندما يكونون مطلوبين للخدمة في القصر أو الإدارة أو الجيش.
الديوان divan:	المجلس الذي يترأسه الصدر الأعظم الذي يحكم الإمبراطورية.

الدونمه donme:	حرفيا «المهتدي»، وهي كلمة كانت تستخدم تحديدا لليهود الذين اعتنقوا الإسلام اتباعا لشباتاي تسفي إبان أواخر القرن السابع عشر.
الأفندي efendi:	المعلم أو السيد.
الفتوى fatva:	رد مكتوب على مسألة تتعلق بالفقه الإسلامي.
الفراجة ferace:	عباءة تلبسها النساء المسلمات خارج البيت.
الفرمان firman:	مرسوم من السلطان، يحمل الطغراء عادة.
الكافر gavur:	غير المسلم، وضمنا العنيد والمتعصب والقاسي.
الغازي gazi:	القائد المسلم المنتصر.
الغوزدي gozde:	حرفيا «في العين»، وهي كلمة كانت تستخدم للسيدة من الحريم التي تلفت انتباه السلطان.
الحديث hadith:	السنة المدونة بأفعال النبي وكلامه التي تستخدم للمساعدة في تفسير القرآن.
الحج hajj:	الحج إلى المدينتين المقدستين مكة والمدينة المنورة، المفروض على كل مسلم مرة واحدة على الأقل.
الحمّال hamal:	العتّال.
الحمّام hamam:	حمّام عام.
الخط الهمايوني hatt-i bumayun أو الخط الشريف hatt-i sheriff:	صيغة كانت تكتب في أعلى الفرمان بيد السلطان، تشير إلى أنه صادق على محتوياته.

الخوجة hoca:	المعلم.
الهوسبودار hospodar:	كلمة كانت تستخدم عادة لحاكم ولاشيا أو مولدافيا.
الخطبة hutbe:	خطبة تلقى في المسجد يوم الجمعة، تسبق الصلاة، يُذكَر فيها السلطان الحاكم.
إقبال ikbal:	الجارية المحظية لدى السلطان التي يمارس الجنس معها.
الإمام imam:	الشخص الذي يؤم الصلاة.
العمارة imaret:	مطبخ عام يوزع الطعام على المحتاجين.
الجهاد jihad:	الحرب للتوسع أو للدفاع عن الإسلام، وهو الشكل الوحيد للحرب المسموح به - نظريا - للمسلمين.
الجريد jirid:	رمي الرمح من فوق ظهر الفرس.
الكعبة Ka'aba:	بناء مكعب في وسط المسجد الحرام بمكة.
القاضي kadi:	قاضٍ كبير يطبق كلا من القانون الإسلامي والقانون الإداري العثماني.
قاضي عسكر kadiasker:	أعلى منصب في النظام القضائي العثماني. كان قاضي عسكر الروملي يطبق القانون العثماني في الولايات الأوروبية التابعة للإمبراطورية، ويطبقها قاضي عسكر الأناضول في آسيا.
القاضيزاديون [أتباع قاضي زاده] kadizadeliler:	أتباع الشيخ قاضي زادة المتعصبين (بعد العام 1630).
القائمام kaimakam:	نائب الصدر الأعظم، مختص أكثر بالعاصمة.

القلفة kalfa:	كاتب كبير أو رئيس عمال في طائفة حرفية.
القانون kanun:	مجموعة القوانين واللوائح التي تتعامل بالدرجة الأولى مع الأمور الإدارية والجنائية، كان يصدرها السلاطين ويراد بها تطبيق الشريعة.
القبطان باشا kaptan pasha:	القائد الأعلى للأساطيل العثمانية.
الكياك kayik:	قارب.
الكراء kira:	لقب كان يستخدم للوكيلات اليهوديات للسلطانة الوالدة خارج القصر.
القزلباش kizilbash:	حرفيا «أحمر الرأس»، اسم للشيعة أعداء الدولة العثمانية في الأناضول أو الفرس، وهو مأخوذ من قبعاتهم الحمراء.
الكوناك konak:	القصر غير البحري.
القول kul:	عبد للسلطان تعلم خدمة الدولة.
القرش kurush:	وحدة عملة صغيرة.
المحلة mahalle:	حي في بلدة أو مدينة.
المحمل mahmal:	محفة مزيّنة بسخاء، كانت تُرسل سنويا على ظهر فرس من القسطنطينية والقاهرة إلى مكة.
المدرسة medrese:	معاهد في المدينة تركز على تعليم القرآن والحديث والفقه الإسلامي.
المولوية mevlevi:	طريقة دراويش مكرسة تحديدا للموسيقى والرقص.
المولد Mevlud:	الاحتفال بمولد النبي.
الملة millet:	جماعة تعترف الحكومة العثمانية بتنظيمها القائم على الحكم الذاتي.

المؤذن muezzin:	الرجل الذي يؤذن للصلاة من المئذنة.
المفتي Mufti:	أعلى مسؤول ديني، تشمل مهامه إصدار فتاوى مكتوبة.
المحرم Muharrem:	الشهر الأول بالسنة الهجرية.
المشاورة musavere:	الاستشارة، وبالتالي بالاشتقاق جمعية استشارية.
المتفرق muteferrik:	قوات من أبناء الوجهاء يرتبطون بالسلطان، كانوا يُتخذَون في أغلب الأحيان حرس تشريفات راكب.
النخيل nahil:	حرفيا «سعفة الزفاف»، حليّة من الأسلاك تزيّن بالفاكهة والزهور ترمز إلى الخصوبة.
النظام الجديد nizam-I cedid:	حرفيا «المرسوم الجديد»، وهي كلمة تنطبق على إصلاحات سليم الثالث، خصوصا الوحدات العسكرية الجديدة التي أنشأها بعد العام 1793.
الأوضة oda:	الغرفة أو المكتب أو الحجرة، كلمة تستخدم غالبا للإشارة إلى وحدة عسكرية.
الأورطة orta:	حرفيا «منتصف» أو «مركز»، كلمة تستخدم غالبا للإشارة إلى وحدة عسكرية.
الباشا pasha:	لقب كان يمنح لكبار الوجهاء العثمانيين مشتق من كلمة باديشاه.
البييق peik:	حرس للقصر كان أعضاؤه يلبسون خوذا مُذهّبة.

الرئيس أفندي eis effendi أو رئيس الكُتاب reis-ul kutab:	كبير الكتاب بالديوان الإمبراطوري الذي تولى لاحقا المسؤولية عن الشؤون الخارجية.
السنجق باي sancakbey:	حاكم سنجق أو محافظة.
السلاملك selamlik:	حرفيا الأجنحة الخاصة بالذكور في السكن، وتستخدم أيضا للإشارة إلى الموكب الرسمي المرتبط بذهاب السلطان إلى صلاة الجمعة.
السر عسكر seraskier:	القائد العام للجيش العثماني طوال الحملة، ولاحقا وزير الحربية.
الشيخ seyh:	كلمة تشريفية تنطبق عموما على العلماء ورؤساء الدراويش.
شيخ الإسلام seyhulislam:	كبير العلماء بالمدينة، يعرف كذلك باسم المفتي.
الشريعة sheriat:	القانون الإلهي للإسلام.
الشيعي Shi'i:	أتباع مذهب في الإسلام يختلف عن المسلمين السنة في اعتقادهم بأن السلطة الدينية والسياسية من حق سلالة صهر النبي علي وأولاده.
الصوفا sofa:	قاعة أو جزء من قاعة مرتفع قليلا.
الصوفتا softa:	كلمة عامية للطلاب والمتسربين من المدارس، كانوا غالبا من النشطين في الاضطرابات المدنية.
الصولاق solak:	حرس من الرماحين كانوا يلبسون خوذات مريّشة، شكّلوا الأوض من الستين إلى الثالثة والستين من الانكشارية، كانوا دائما يرافقون السلطان إلى الحرب.

الصوفي sufi:	الشـخص الذي يبحث عن مستوى أعلى مـن الروحانية من خـلال العضوية في طرق الدروَشة.
السورغون surgun:	إبعاد السكان أو إعادة توطينهم قسريا لمصلحة السياسة الإمبراطورية.
التندور tandir:	مجمرة تستخدم لتدفئة البيوت.
التنظيمات tanzimat:	إصلاحات وفقا للنظم الغربية طبقت في الأعوام 1839-1876.
التكية tekke:	مأوى للدراويش.
التمينة temenna:	التحية، عموما بوضع أصابع اليد اليمنى على الشفتين ثم الجبهة.
الطغراء Tughra:	علامة تستخدم كتوقيع للسلطان.
العلماء ulema:	خريجو المـدارس الكبرى بالمدينة الذين يصبحون أساتذة أو محاضرين أو علماء دين أو محامين.
الأسطى usta:	معلم الحرفة.
الوقف wakif:	مؤسسة، وعموما عقارات مخصصة على الدوام لأغراض دينية أو خيرية.
الوالي vali:	حاكم الولاية.
الوالدة vallide:	أم السلطان.
الولاية vilayet:	الولاية.
الفويفود voivode:	لقب من أصل سـلافي، ينطبق على أمراء ولاشيا ومولدافيا.
الوينوق voynuk:	الميليشيات المسـيحية التي احتفظ بها العثمانيون في البلقان.
اليالي yali:	مسكن على البحر.
اليشمك yashmak:	حجاب أو عباءة.

الزيبق zeibek:	قبيلة تركية في محيط إزمير، تميّزت بأغطية الرأس والسراويل القصيرة والأجسام النحيفة.
الذكر zikir:	تلاوة الابتهالات ذكرا لله.

الملاحق

الملحق الأول

أعداد السكان المقدرة للقسطنطينية والنسب المئوية وفقا للانتماء الديني للسنوات المتاحة

		المسلمون	الأرثوذكس	الأرمن	اليهود	الآخرون
1477	100,000	59	23	5	9	4
1557	550,000		—	—		
1689	600,000	58	34		8	
1794	426,000					
1885	873,565	44	18	17	5	16
1897	1,059,234	58	22	15,5	4,5	
1914	1,020.000	49	22	25	4	
1920	999,000	56	20	8,5	4	12,5
1927	694,292	65	11	7	7	
1950	1,035,202	80	10	5	5	
1965	1,541,695	91	3	3	3	
1980	4,741,890	97	1	1	1	
1995	10,12000,000	99,99	0,0001	0,005	0,002	

يشمل العمود «الآخرون» الكاثوليك (نسبة صغيرة دائما) والأجانب الذين كان عدد كبير منهم بعد العام 1830 من اليونانيين حاملي جوازات سفر دولة اليونان المستقلة.

الملحق الثاني

مقارنة بين سكان القسطنطينية والمدن الكبرى الأخرى

	1500	1600	1700	1800	1900	1990
القسطنطينية	100,000	500,000	600,000	400,000	1,000,000	7,309,190
القاهرة(*)	150,000	200,000	200,000	263,000	678,433	8,630,000
لندن	50,000	200,000	575,000	1,117,000	6,586,000	6,393,000
باريس	200,000	400,000	500,000	547,000	2,714,000	9,318,821
فيينا	30,000	50,000	100,000	247,000	1,666,269	1,539,848

المصادر للملحقين الأول والثاني:

Kemal Karpat, The Population and the Social and Economic Transformation of Istanbul', in **Istanbul a la jonction des cultures balkaniques, mediterraneennes, slaves et orientales aux XVIe - XIXe siecles**, Bucharest, 1977, 595 - 436, and 'Ottoman Population Records and Census of 1881 / 2 - 1893 ', **International Journal of Middle East Studies, IX,** 2, 1978, 237 - 74; Halil Inalcik, 'Istanbul', in **Encyclopedia of Islam**, 2nd edn.; B. R. Mitchell, **European Historical Statistics 1750 - 1975**, 2nd rev. edn. 1981; **The Statesman's Yearbook**, 1994 - 5; Roy Porter, **London: a Social History**, 1994; PRO 3715190/

(*) عـادة ما يُتخذ عدد السـكان، خاصة في الدراسـات التاريخيـة، دليلا عن النمو الحـضري والازدهار الاقتصادي والحضـاري، وبما يؤكد ما ذهب إليه المترجم في تقديمه للكتاب حول التريبف والتخلف اللذين ألمّا بالحواضر العربية بسـبب قرون الحكم التركي، فإن عدد سكان القاهرة الذي بدأ في العام 1500 أكبر من المدن الأخرى جميعا، باستثناء باريـس، تراجـع مقارنـة بهم، حتى وصل إلى أدنى مسـتوى له في العام 1800 - مع حضيـض الحكم العثماني - وهو 263,000 نسـمة، مقارنة بـ400,000 في القسـطنطينية وأكثر من مليون ومائة ألف في لندن وأكثر من نصف مليون في باريس. وبما يؤكد التراجع الحضاري الناتج عن الحكم العثماني أيضا في هذا الجدول، أن عدد سكان القاهرة تعافى بوضـوح في العـام 1900، بعد أقل من قرن من عودة القاهرة إلى مكانة العاصمة، مع أنها ظلت عاصمة لدولة تابعة اسميا للإمبراطورية العثمانية وفعليا لمحتل جديد. [المترجم].

الملحق الثالث

السلاطين بعد العام 1453

السلطان	فترة الحكم	
محمد الثاني	حكم	1444 - 1481
بايزيد الثاني		1481 - 1512
سليم الأول		1512 - 1520
سليمان الأول، القانوني		1520 - 1566
سليم الثاني		1566 - 1574
مراد الثالث		1574 - 1595
محمد الثالث		1595 - 1603
أحمد الأول		1603 - 1617
مصطفى الأول		1617 - 1618 و1622 - 1623
عثمان الثاني		1618 - 1622
مراد الرابع		1623 - 1640
إبراهيم		1640 - 1648
محمد الرابع		1648 - 1687
سليمان الثاني		1687 - 1691
أحمد الثاني		1691 - 1695
مصطفى الثاني		1695 - 1703
أحمد الثالث		1703 - 1730
محمود الأول		1730 - 1754
عثمان الثالث		1754 - 1757

مصطفى الثالث		1774 - 1757
عبدالحميد الأول		1788 - 1774
سليم الثالث		1807 - 1788
مصطفى الرابع		1808 - 1807
محمود الثاني		1839 - 1808
عبدالمجيد الأول		1861 - 1839
عبدالعزيز		1876 - 1861
مراد الخامس		1876
عبدالحميد الثاني		1909 - 1876
محمد الخامس		1918 - 1909
محمد السادس وحيد الدين		1922 - 1918

الخليفة عبدالمجيد (الثاني)		1924 - 1922

مفتاح الملاحق من الرابع إلى السابع

سليم الثاني	**السلطان بتاريخي عهده**
نوربانو	**السلطانة الوالدة بتاريخي حصولها على اللقب**
==	**علاقة بمحظية**
**	**علاقة بمحظية تبعها زواج**

المصادر للأنساب الواردة في الملاحق من الرابع إلى السابع:

Yilmaz Oztuna, **Devletler ve Hanedanlar. Turkiyt 1074 - 1990**, cilt 2, Ankara, 1990, Leslie Peirce, **The Imperial Harem**, Oxford, 1995; Milhail Dimitri Sturdza, **Grandes Famillis de Grèce, a'Albanie et de Constantinople,** 1985.

مع العلم بأن كل الأنســاب تم تبسيطها لتشمل فقط الشخصيات المذكورة في الكتاب.

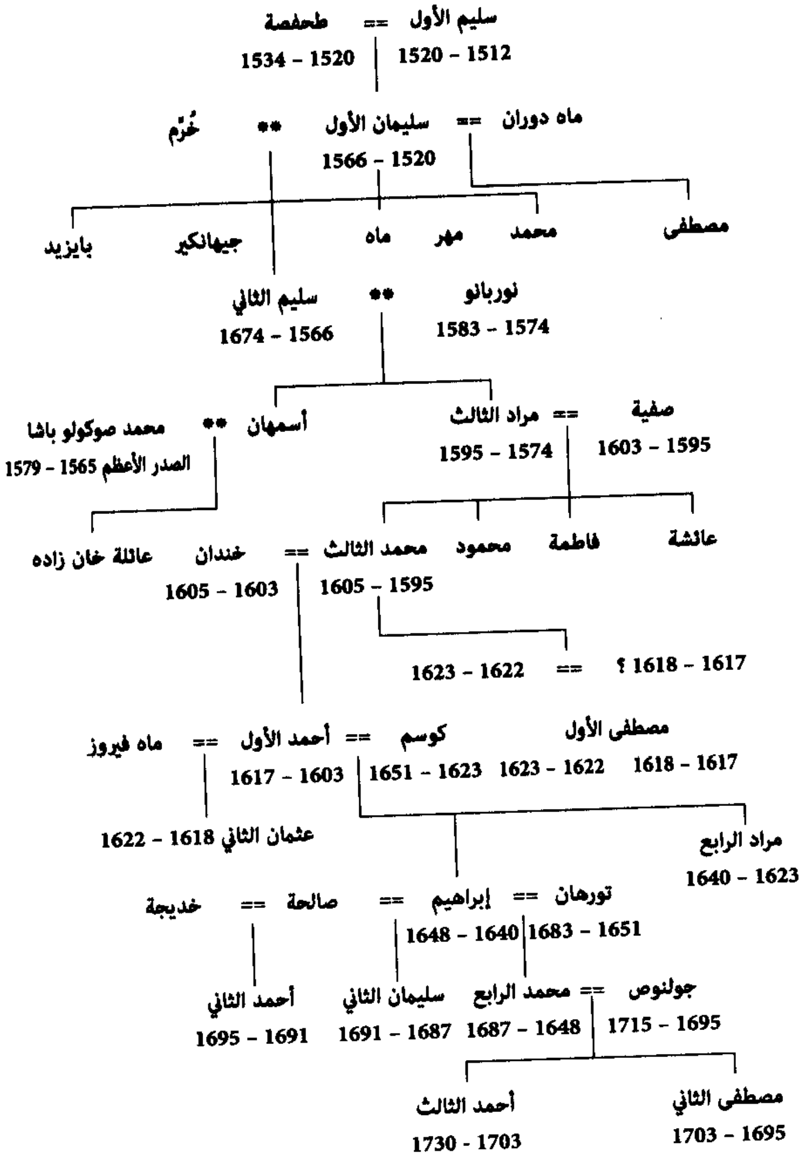

الملحق الرابع

العائلة العثمانية 1500 - 1700

الملحق الخامس

آخر السلاطين

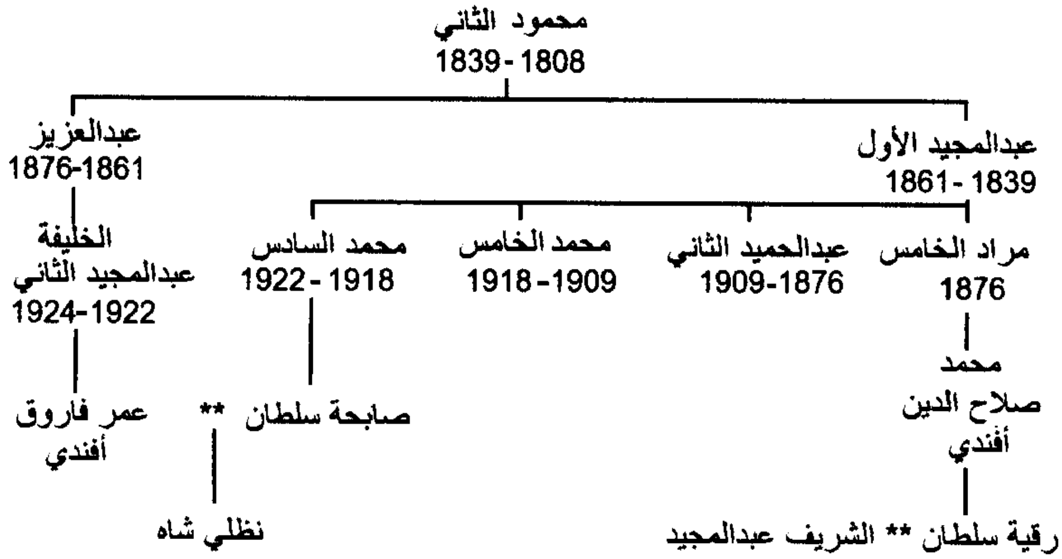

الملحق السادس

الصدور العظماء من عائلة الكوبرولي

(1710 - 1656)

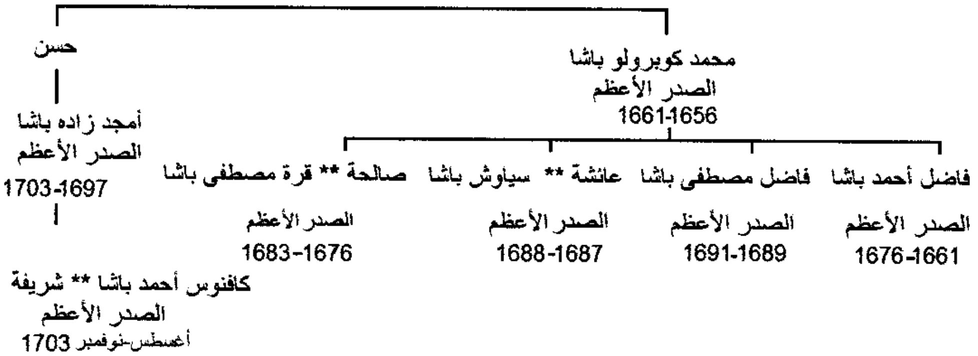

الملحق السابع

عائلتا مافركورداتو وكاراثيديوري

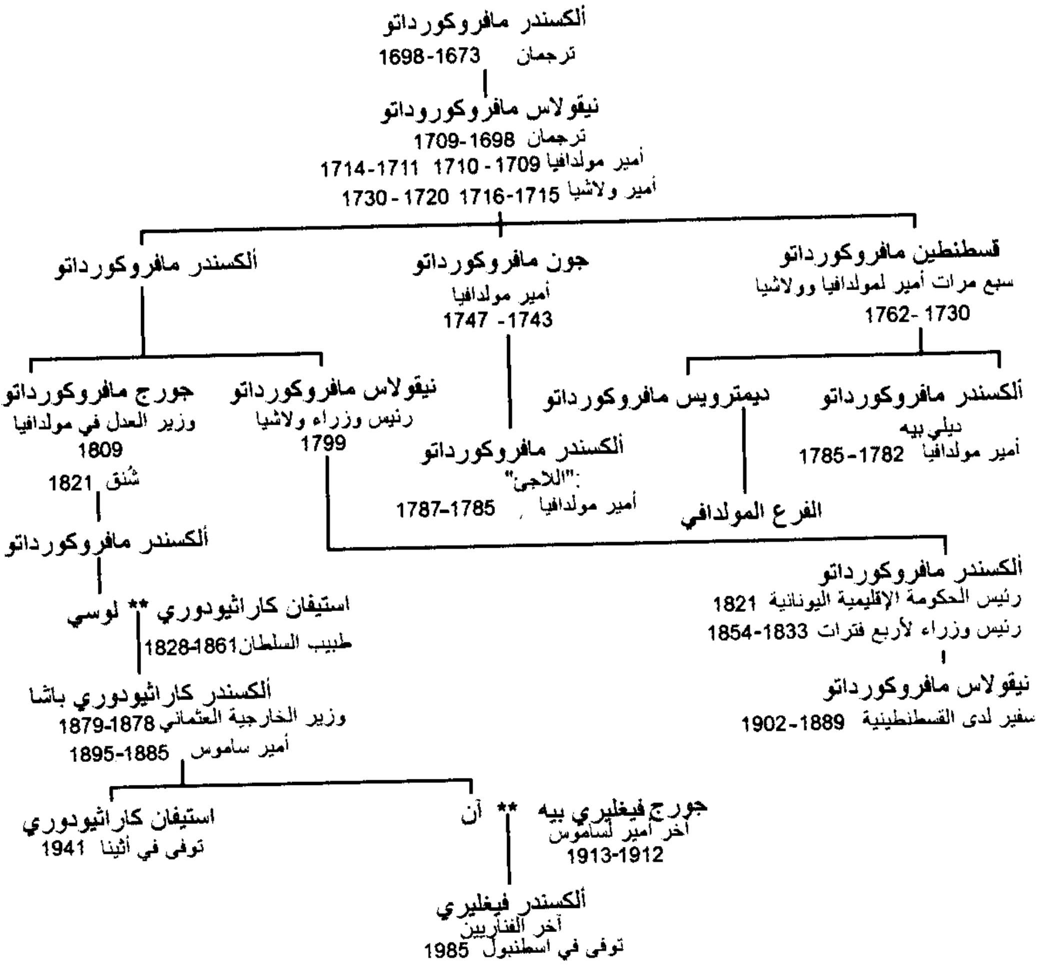

الملحق الثامن
الفنانون الغربيون الأساسيون الذين عملوا في القسطنطينية

الاسم بالعربي	الاسم باللاتيني	التاريخ
جينتلي بليني	Gentile Bellini	1481 - 1479
بيتر كوك فان أيلست	Pieter Coecke Van Aelst	1533
ميلكوير لورك	Melchior Lorichs	1560 - 1555
جين بابتسيت فانمور	Jean - Baptiste Vanmour	1737 - 1699
جين إتيان ليوتار	Jean - Etienne Liotard	1742 - 1738
أنتوين دي فافراي	Antoine de Favray	1771 - 1762
لويس فرانسوا كازاس	Louis - Francois Cassas	1786 - 1784
لويجي ماير نحو	Luigi Mayer	1793 - 1785
أنتوين إغناس ميلينغ نحو	Antoine - Ignace Melling	1802 - 1785
ميتشل فرانسوا بيرو	Michel - Frangois Preaux	1827 - 1796
لويس دوبر	Louis Dupre	1824 - 1820
ديفيد ويكي	David Wilkie	1841 - 1840
أميديو كونت برزيوسي نحو	Amedeo Count Preziosi	1876 - 1842
إدوارد لير	Edward Lear	1849
قسطنطين غايز	Constantin Guys	1854
ستانيسلاس شليبوفسكي	Stanislas Chlebowski	1976 1864
إيفان إيفازوفسكي	Ivan C. Aivazovsky	1890 - 1874 ،1845
فوستو زونارو	Fausto Zonaro	1910 - 1893

الهوامش

الفصل التاسع

تكشيرة الانكشارية

(1) Philip Mansel, Pillars of Monarchy, 1984, 85,88.

(2) Godfrey Goodwin, the Janissaries, 1994, 70, 72; Lybyer, 109; Enis Batur (ed.), Eccomium to Istanbul, Istanbul, 1991, 107.

(3) Hammer, VI, 265-4, XV, 215-16; BM Add. MSS 36301, f. 263, Pisani to Lord Strangford, 1821.

(4) Kafadar, 'Yeniceri-Esnaf Relations', 57, 42, 116.

(5) Hammer, VI, 299-302.

(6) Kafadar, 'Ycniccri-Esnaf Relations', 47, 81, 86, 24; A. Djevad Bey, Etatmilitain ottoman depuis lafondation de FEmpire jusqu'a nosjours, Constantinople-Paris, 1882, 76; Galland, II, 137, diary entry for 6 August 1673.

(7) Mantran, Istanbul, 105; Shaw, Between Old and New, 120.

(8) Kafadar, 'Yeniceri-Esnaf Relations', 67; Djevad, 43; Hammer, IV, 338. Janissaries also forced the Sultan to return to Istanbul in 1592.

(9) Hammer, X, 112, IX, 171, 177, 181; Thomas, Naima, 94-5.

(10) Bobovi, 42; Hammer, IX, 219, 280.

(11) Tott, I, 17-21; Revd E. J. Davis, Osmanli Proverbs and Quaint Sayings, 1898, 66; Bosscha Erdbrink, 65; Louis Bonneville de Marsangy, Le Chevalier de Vergennes: son ambassade a Constantinople, 2 vols., 1894, I, 266-8 and n., Vergennes to Rouillc 30 September 1755.

(12) Bonncville de Marsangy, I, 313, Vergennes to Rouille 3 February 1756; cf. Pingaud, 132, Choiseul-Gouffìcr to Chevalier de Gruyere 2 June 1787.

(13) Roy Porter, London, 80; Daniel Panzac, La Peste dans I'Empire Ottoman 1700 - 1850, Leuwen, 1985, 117, 283, 341, 59, 41; Alfred C. Wood, A History of the Levant Company, 1935, 246; William Turner, Journal of a Tour of the Levant, 3 vols., 1820, 1, 76; Resad Ekrem Kocu, 'The Records of the Gardener Corps of the Imperial Guards', in Batur (ed.), 108.

(14) Panzac, Peste, 312; Busbecq, 185; Ali Nami Bey, Verite, justice, bonte, Constantinople, 1918, 63.

(15) Hammer, XVI, 46; Mouradgea d'Ohsson, III, 306-9; Paul Wittek, 'Les Archives de Turquie', Byzantion, 1938, 697.

(16) Findlay, Reform, 115; Jamgocyan, Finances de FEmpire Ottoman, 110; Pingaud, 228, Choiscul-Gouffier to Noailles 15,21 May 1789; Shaw, Between Old and New, 75-8.

(17) Beydilli, 260-8, 289. Mouradgea later persuaded the Empire to recognize the French Republic and served as Swedish minister in Constantinople in 1795-9, when he left on the insistence of the Russian ambassador, who considered him a Jacobn. He died near Paris in 1807.

(18) F. Miller, Mustafa Pacha Bairaktar, Bucharest, 197 5, 89, 86; Wilkinson, 219, 234; A. P. Caussin dc Perceval (tr.), Précis historique de la destruction du corps de janissaires par le Sultan Mahmoud en 1826, 1833, 14, 223-5, 230-1; Shaw, Between Old and New, 92,135.

(19) F. Miller, 105-6; Shaw, Between Old and New, 182, 194.

(20) NLS MSS 5572, Listen to Grenvilk 25 November 1794; Navarian, 145.

(21) Nisbet, 156, Lady Elgin to Mrs Nisbet 11 December 1801; Sturdza, 582; Dedem de Gelder, 32.

(22) Cornelis Boschma and Jacques Perot, Antoine-Ignate Melting (1763-1831), artiste voyageur, Paris, 1991, 18, 20, 22, 30.

(23) Shaw, Between Old and New, 358; Edouard Driault, La Politique orientale de Napoleon, 1904, 95, 102; H. Deherain, La Vie de Pierre Ruffin, 2 vols., 1929-30, II, 84-5, Sebastiani to Talleyrand 3 March 1807.

(24) Shaw, Between Old and New, 89, 371; Mahmud Raif Efendi, Tableau des nouveaux réglemens de l'Empire Ottoman, Constantinople, 1798,7; Deherain, II, 87, Ruffin to his daughter 10 june 1807.

(25) Shaw, Between Old and New, 382 - 92.

(26) F. Miller, 286, 289.

(27) Serge Tatistcheff, Alexandrt leret Napoleon, 1891,412, Caulaincourt to Napoleon 24 June 1808; Shaw, History of the Ottoman Empire, II, 3-5.

(28) Hobhouse, 999,1001; Cyrus Hamlin, Among the Turks, 1878, 114; Temple, II, 36.

(29) White, III, 269n.; Pars Tuglaci, The Role of the Balian Family in Ottoman Architecture, Istanbul, 1990, 17, 21, 26.

(30) NLS MSS 5630, Listen to Casdereagh 25 February 1815; 5628, Listen to Castlereagh 24 December 1814.

(31) Walsh, I, 342; NLS MSS 5709, ff. 45-6, Lady Liston, Journal 30 October 1812; F. Ismail, The Diplomatic Relations of the Ottoman Empire and the Great European Powers from 1800 to 1821', unpublished D.Phil. thesis, London, 1975, 36; P. Coquelle, 'Andreossy, ambassadeur a Constantinople', Revue d'Histoire Diplomatique, XX, 1906, 250.

(32) W. Turner, I, 69, III, 385, 393; BM Add. MSS 56301, f. zo5v, Pisani to Strangford 5 December 1821.

(33) Walsh, II, 503-4; Andrew Wheatcroft, The Ottomans, 1993, 125.

(34) Howard A. Reed, The Destruction of the Janissaries by Mahmud II in June 1826', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1951,112, 171.

(35) MacFarlane, Constantinople, II, 380; H. Reed, 200, 203.

(36) Caussin de Perceval, 44-6; H. Reed, 284, 295, 213, 238.

(37) Stanley Lane - Poole. The Life of Sir Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe, 2 vols., 1888,1,412, letter of 22 June 1826.

(38) Caussin de Perceval, 103.

(39) Caussin de Perceval, 3, 201.

(40) White, I, no; Lane-Poole, Stratford Canning, 1,420, Stratford to George Canning 20 June 1826.

(41) Allan Cuningham, Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution, 1993, 293-4; Lane-Poole, Stratford Canning, 1,434; Temple, II, 188.

الفصل العاشر

محمود الثاني

(1) G. Frangos. The Philike Etairia, unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1971,33, 67, 103, 150, 274; Philip Sherrard, "Church, State and the Greek War of Independence", in Clogg (ed), Movement, 182,186, 189.

(2) A. Otetea, 'L'He taire d'il y a cent cinaquante ans', Balkan Studies, VI, 2, 1965, 261.

(3) BM Add. MSS 36299, f. 59, Chabert to Strangford 31 March 1821, Walsh, I, 300, 305, 329; Frangos, 203.

(4) BM Add. MSS 36301, ff. IOV, 26V, 32, 42, Pisani to Strangford 22 April, 4, 6, 12 May 1821; Walsh, 1, 315-16, 336, 349, 361.

(5) BM Add. MSS 36301, f. 87, Pisani to Strangford 23 July 1821.

(6) BM Add. MSS 36301, f. 85, Pisani to Strangford 5 July 1 821.

(7) BM Add. MSS 36301, ff. 190, 1 94V, Pisani to Strangford 13,18 November 1821.

(8) Florin Marinescu, Georgeta Penelea-Filitti, Anna Tabaki (eds.), Documents grécoroumains: le Fonds Mourouzi d'Athénes, Athens-Bucarest, 1991, 47; BM Add. MSS 36301, ff. 5, 59, Pisani to Strangford 16 April, 6 May 1 821; Walsh, I, 392; Soutzo, 24.

(9) Walsh, I, 389-92; Sturdza, 325; C M. Woodhouse, 'Kapodistrias and the Philiki Etaria', in Clogg (ed.), Struggle, 116.

(10) Barbara Jelavich, History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries, Cambridge, 1983, 208; Historic Archive of Alexander Mavrocordato, Athens, 1963, II, 370, Mavrocordato to M. de Reincck 9/21 July 1823; Edouard Driault and Michel L'Heritier, Histoire diplomatique de la Gréce de 1821 a nos jours, 5 vols., 1925-6, 1, 218, letter of Mavrocrodato 30 June 1823.

(11) Herbert Huscher, 'Alexander Mavrocordato, Friend of the Shelleys', Bulletin of the Keats - Shelley Memorial Association, XVI, 1965, 29-37; Frederick L. Jones (ed.), The Letters of Percy Bysshe Shelley, 2 vols., Oxford, 1 964, II, 6 1 7, Shelley to Clare Claremont 2 April 1 821.

(12) Avigdor Levy, The Military Policy of Sultan Mahmud II 1808-1839', unpublished Ph.D. thesis, Harvard, 1968, 244, 248, 371, 378; MacFarlane, Constantinople, II, 165.

(13) Tuglaci, Balian, 41-3, 53-61.

(14) MacFarlane, Constantinople, I, 499, 501; White, III, 46.

(15) Herbert Weinstock, Donizetti, 1964, 308-10; MacFarlane, Constantinople, I, 517; National Palaces, 1, 43-4.

(16) Colonel Calosso, Mémoires d'un vieux soldat, Turin-Nice, 1857, 142, 156-7, 170, 184; Temple, II, 1 34; MacFarlanc, Constantinople, II, 174-83.

(17) Patricia L. Baker "The Fez in Turkey: a Symbol of Modernisation?', Costume, 1986, 72-85; Bernard Lewis, The Emergence of Modern Turkey, 1960, 100; Pars Tuglaci, The Role of the Dadian Family in Ottoman Social, Economic and Political Life, Istanbul, 1993, 187.

(18) MacFarlane, Turkey and its Destiny, 2 vols., 1850, II, 622-3; Aziz Nesin, Istanbul Boy, 3 vols., Austin, Texas, 1977-90, II, 12; Elias Kazan, A life, 1988, 14.

(19) Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters, I, 311; Calosso, 225; Vernon John Puryear, France and the Levant from the Bourbon Restoration to the Peace of Kutabya, Berkeley, 1941, 63, despatch of Gordon 26 July 1 829, 76.

(20) M. S. Anderson, The Eastern Question, 1982, 71; R. W. Scton- Watson, Britain in Europe 1789-1014, 1937, 137, 177, 195; Allan Cunningham, Eastern Questions in the Nineteenth Century, 1993, H, 21 1.

(21) M. S. Anderson, Eastern Question, 90-1; Frank E. Bailey, British Policy and the Turkish Reform Movement, Harvard, 1932, 132, Canning to Palmerston 7 March 1832; Lane-Poole, Stratford Canning, I, 505 , Canning to Lady Canning 24 March 1832.

(22) Temple, II, 91; Walsh, II 275; John Auldjo, Journal of a Visit to Constantinople and Some of the Greek Islands in the Spring and Summer of 1833, 1835, 98, J.W.Mc Carthy and Constantin Caratheodory, Relation off icielle de la maladie et la mort du Sultan Mahmoud II, 1841, 12-13.

(23) Cunningham, Eastern Questions, II, 40; Walsh, I, 343; Temple, II, 441n.

(24) Alderson, Table xliv, n. 3; M. Cagatay Uluçay, Padishahlarin Kadinlari ve Kizlari, Ankara, 1992, 107-8. There are no references to her death in the despatches of the French ambassador, the Marquis de Rivière.

(25) Lane-Poole, Stratford Canning, II, 505, Canning to Lady Canning 24 March 1832.

(26) Temple, II, 60, 195, 214; Istanbul a la jonction des cultures balkaniques, méditerranéennes, slaves et orientales aux XVI-XIXe siècles, Bucarest, 1977,95, 103.

(27) Berkes, Secularism, 128; Findlay, Ottoman civil Officialdom, 26.

(28) Nathalie Clayer and Alcxandre Popovic (eds.), Presse turque et presse de Turquie, Istanbul-Paris, 1992, 844 Berkes, Secularism, 126-7; Walsh, II, 281-3.

(29) Walsh, n, 288; Cunningham, Angb-Ottoman Encounters, 312; BM Add. MSS 36301, f. 52, 114, Pisani to Strangford 24 May, 7 August 1821; Chassiotis, 433.

(30) Sturdza, 220; Pardoc, I, 74-82.

(31) Barsoumian, The Armenian Amira Class', 126,'129,157.

(32) Tuglaci, Dadian, passim-, Cyrus Hamlin, My Life and Times, 1897, 259; Anna Boutros-Ghali and Archag Alboyadjian (eds.), Les Dadian, Cairo, 1965, 78-9.

(33) Issawi, 160; Allom and Walsh, II, 62.

(34) White, I,126; Berkes, Secularism, 113-14.

(35) Alexandre Mavroyennis, Contribution a l'histoire du Proche-Oritnt, 2 vols., Istanbul, 1950, II, 125n.; Roderic H. Davison, The French Language as a Vehicle for Ottoman Reform in the Nineteenth Century', 126-40; J. J. Sheehan, German History 1780 - 1866, Oxford, 1989, 583.

(36) White, 1,151; Panzac, La Peste, 476, 482.

(37) White, I, 234; Allom and Walsh, I, 69, II, 34; Tuglaci, Women of Istanbul, 25-6; Prince de Joinvillc, Vieux Souvenirs, 1970 edn., 130-1.

(38) Pardoe, I, 315, 317.

(39) Walsh, II, 2; Philip Argenti, The Massacres of Chios, 1932, 25, 108, Strangford to Londonderry 25 June 1822, Baron von Militz to Graf von Bernstorff 25 June 1822.

(40) Tulay Artan, The Palaces of the Sultanas', Istanbul: Selections I, i, 1993, 1992, 94-7; Pardoc, I, 315; Temple, II, 89; Walsh, H, 313, 379.

(41) Pardoe, I, 304, 306, 330, 312; White, I, 184n., III, 2; Adolphus Slade, Turkey and the Crimean War, 1867, 88.

(42) Maréchal de Moltkc, Lettres... sur l'Orient, 1877 edn., 318, letter of 1 September 1839; Maréchal Duc de Raguse, Voyages, 5 vols., 1837-8, II, 64; Pardoe, II, 312; cf. MacFarlane, Constantinople, 1, 53, II, 165,169.

(43) Pardoe, II, 236; Walsh, II, 192; Ubicini, 1, 107-8.

(44) Pardoe, I, 30; A. Boric, P. Pinon and Stcphane Yerasimos, L'Occidcntalisation d'Istanbul au XIXe siècle, Ecole d'Architecture, Paris, 1989, 3-4.

(45) PRO FO 78/225,152v, 15 5,157V, Ponsonby to Palmerston 19 December 1833; Philip E. Moseley, Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question in 1838-1839, Harvard, 1934,10,96,99.

(46) M. S. Anderson, Eastern Question, 83; Edouard Driault, L'Egypte et l'Europe: la crise de 1839-1841, 2 vols., Cairo, 1930-1,I,113,151, Cochelet to Soult 5 July, 15 July 1839; White, III, 100; McCarthy and Caratheodory, 21-3.

الفصل الحادي عشر

مدينة الأعاجيب

(1) Théophile Gautier, Constantinople, 228.

(2) Edmund Hornby, An Autobiography, 1929, 84; Charles de Mouy, Lettres du Bosphore, 1879,179; Mrs Brassey, Sunshine and Storm in the East, or Cruises to Cyprus and Constantinople, 1880, 79, diary entry for 28 October 1874.

(3) Patricia Herlihy, Odessa: a History 1794-1914, 1986, 107; Zeyneb Celik, The Remaking of Istanbul 1989, 84; Levant Herald, 2 October 1869; F. Trench Townsend, A Cruise in Greek Waters, 1870, 220.

(4) Celik, 93; de Amicis, 23-30; Ferriman, 264-6; Samuel S. Cox, Diversions of a Diplomat in Turkey, New York, 1887, 183; MacFarlane, Turkey and its Destiny, II, 326.

(5) De Mouy, 30; F. Marion Crawford, Constantinople, 1895, 15; Inalcik and Quataert, 922; Claude Farrere, L'Homme qui assassina, 1928, 17.

(6) Crawford, 17; Lady Homby, 63, diary entry for 26 October 1855.

(7) Ferriman, 265; Celik, 88-9.

(8) Toledano, 53, 146; Melek Hanoum, 46-7. In the i88os, shopping for the Khedive of Egypt, Dr Comanos Pasha was shown eighty-five slaves in three hours in a private house: Dr Comanos Pasha, Mémoires, c. 1920, 52.

(9) Wanda, 32; Boutros-Ghali and Alboyadjian, 7.

(10) Galante, Histoire des Juifs, I, 65, 159, 223, II, 133; A. dc Lamartine, Histoire de la Turquie, 6 vols., 1854,I,19; S. G. W. Benjamin, The Turks and the Greeks, New York, 1867, 76; Sir Henry F. Woods, Spun- Yarn from the Strands of a Sailor's Life, 2 vols., 1924, II, 22 5.

(11) Bayram Kodoman, Les Ambassades de Moustapha Rechid Pacha à Paris, Ankara, 1992, passim; Roderick Davison, Reform in the Ottoman Empire 1856-1876, Princeton, 1963, 89; Charles Mismer, Souvenirs du monde mussulman, 1892, 110.

(12) Davison, 3-4; Lane-Poole, Stratford Canning II, 90-1; Vartan Artinian, The Armenian Constitutional System in the Ottoman Empire 1839-1863, Istanbul, 1990, 52; Steven T. Rosenthal, The Politics of Dependency: Urban Reform in Istanbul, Westport, 1980,36,63.

(13) Edouard Driault, Mohammed Ali et l'Europe: la crise de 1840-41, 5 vols., Cairo-Rome, 1930-4, III, 40, letter of 17 July 1840; 227, 7 September 1840; I, 193, letter of 27 July 1839; Levant Herald, 8 October 1869; Thouvenel, 125, Thouvenel to Benedetti, i July 1857.

(14) Cunningham, Eastern Questions, 135, and Nassau W. Senior, A Journal kept in Turkey and Greece, 1859, 35; Tito Lacchini, I Fossati, architetti del Sultano di Turchia, Rome, 1943, 88-94.

(15) Bailey, 282, 286, memorandum of Baron von Sturmcr, March 1841.

(16) Rosenthal, 104-5, 107-8, 113, 115, Stratford Canning to Palmerston 31 August 1848.

(17) Sir Telford Waugh, Turkey Yesterday, Today and Tomorrow, 1930, 25; Davison, 71; Lane-Poole, Stratford Canning, II, 334, Lord to Lady Stratford dc Reddiffe 24 December 1853; Cunningham, Anglo-Ottoman Encounters, I47n.; Ri W. Seton-Watson, Britain in Europe 1789-1914, Cambridge, 1937, 318,363; Woods, II, 97

(18) John Shelton Curtiss, Russia's Crimean War, Durham, N.C., 1979, 47, 117, 62.

(19) Norman Rich, Why the Crimean War? A Cautionary Tale, 1985, 35; Curtiss, 93-4.

(20) Curtiss, 116; Rich, 39.

(21) Rich, 43, 48, 55, 75; Curtiss, 46.

(22) Rich, 82-3; Curtiss, 183-4; Lane-Poole, Stratford Canning, II, 302, Charles Alison to Lady Stratford 28 September 1853; Seton-Watson, Britain in Europe, 312.

(23) Slade, Turkey and the Crimean War, 187; W. H. Russell, The British Expedition to the Crimea, rev. edn. 1858, 52.

(24) Rosenthal, 11o, 115; Senior, 13 2, diary entry for 19 October 1857.

(25) Hon. and Revd Sydney Godolphin Osbome, Scutari and its Hospitals, 1855, 49, 50; Sir Edward Cook, The Life of Florence Nightingale, 2 vols., 1914,1, 220.

(26) Lady Hornby, 204-213, 8 February 1856.

(27) Rich, 193; Rogers, Topkapi Costumes, 161; B. Miller, Sublime Porte, 100-2.

(28) National Palaces, I, Istanbul, 1987, passim-, Mustafa Cezar, The Architectural Decoration of Dolmabahce and Bcylerbeyi Palaces', National Palaces, II, Istanbul, 1992, 1-20; Gautier, 262; Turhan Baytop, The Tulip in Istanbul during the Ottoman Period', in Roding and Theunissen (eds.), 52.

(29) Celik Gulersoy, Dolmabahce Palace and its Environs, Istanbul, 1990, 54; Lady Hornby, 407-11, letter of 23 July 1856.

(30) Felix Ribeyre, Voyage de Sa Majeste I'lmperatrice en Corse et en Orient, 1870, 153n.; Levant Herald, 16 October 1869.

(31) National Palaces, II, 1992, 137.

(32) Braude and Lewis, I, 30; Avigdor Levy, 'The Ottoman Ulama and the Military Reforms of Sultan Mahmud II, Asian and African Studies, VII, 1971, 18.

(33) W. M. Thackeray, Notes of a Journey from Cornhill to Grand Cairo, 2nd edn., 1846, 44; W. H. Russell, A Diary in the East during the Tour of the Prince and Princess of Wales, 1869, 480-1; Trench Townsend, 217; Woods, II, 224.

(34) Thierry Zarcone, Mystiques, philosophes et franc-macons en Islam, 1993, 31, 117, 317.

(35) Orhan Kologlu, 'La Formation des Intellectuels', in Clayer and Popovic (eds.), 127; Gibb, V, 20, 22.

(36) Hamlin, My Life and Times, 477; M. Destrilhes, Confidences sur la Turquie, 1855, 67; Layard, II, 47-5'; Catalogue de la Bibliotheque de feu Ahmed Vefyk Pacha, Constantinople, 1893.

(37) Serif Mardin, 'Super Westernisation in Urban Life in the Last Quarter of the Nineteenth Century', in Peter Benedict et al. (eds.), Turkey: Geographical and Social Perspectives, Leiden, 1974, 406,417; Layard, II, 86.

(38) BM Add. MSS 38979, f. 241, letter of 25 May 1850; 39103, f. 311, 3 August 1862; 38987, f. 49, 15 January 1861; 39024, f. 306; 38985, f. 44, 18 August 1856; Senior, 136, diary entry for 23 October 1857.

(39) Jules Blancard, Etudes sur la Grèce contemporaine, Montpellier, 1886, 12, 35, 37.

(40) H. Exertoglu, The Greek Bankers in Constantinople 1856-1881', unpublished Ph.D. thesis, London, 1985, 81,1'9,133.

(41) Exertoglu, 141, 147,159; Rosenthal, 79; Sturdza, 223.

(42) Exertoglu, 150, 153, 161, 237-40; Haydar Kazgan, Galata Bankerleri, Istanbul, 1991,133; Sturdza, 152.

(43) Charles Brun, 'Les Grecs dc Constantinople', Revue Moderne, LII, 10 June 1869, 432.

(44) C. Th. Dimaras, Histoire de la htttratitn néo-hellénique, Athens, 1963, 311; Thouvenel, 344; Jelavich, History of the Balkans, 262.

(45) Levy, Sephardim, 96; cf. P. Baudin, Les Israélites de Constantinople, Constantinople, 1872, repr. 1989: 'On imaginerait difficilcment un tableau de misères plus frappant, plus déchirant'; Abraham Galante, Nouveau Receuil de nouveaux documents concernant l'histoire des Juifs des Turquie, 1949, 46; Shaw, Jews, 160-2.

(46) Walsh, II, 436-7; William Miller, Travel and Politics in the Near East, 1897, 426; Slade, Turkey and the Crimean War, 63n.

(47) Duncan M. Perry, Stefan Stamhulov and the Emergence of Modern Bulgaria 1870-1895, Durham and London, 1993, 6; Mercia MacDcrmott, A History of Bulgaria 1393-1885, 1962, 140, 147-9.

(48) Cunningham, Eastern Questions, 38-9; PRO FO 78/225,157v, 172, Ponsonby to Palmerston 19 December 1833; Davison, Reform, 59; Braude and Lewis, 1,323.

(49) Sturdza, 448, 465; MacDermott, 151-5; B. H. Summer, 'Ignatyev at Constantinople', Slavonic Review, 1933,571.

(50) Hamlin, My Life and Times, 439; Levant Herald, 1 July 1869; George Washbum, Fifty Years in Constantinople, Boston and New York, 1909, 72, 96, 114, 293. Of 435 graduates with honour between 1869 and 1903,195 were Bulgarian, 144 Armenian and 76 Greeks.

(51) Kemal H. Karpat, 'The Population and the Social and Economic Transformation of Istanbul: the Ottoman Microcosm', International Journal of Middle East Studies, 1983, 86; M. S. Anderson, Eastern Question, 113; Berkes, Secularism, 316; Davison, Reform, 231.

(52) Correspondence d'Adam Mickiemcz cd. Ladislas Mickiewicz, n.d., 363, Adam Mickiewicz to Madame Klustine 25 October 1855; National Palaces, I, 88.

(53) W. Miller, 429; Gulersoy, Grand Bazaar, 35; Rosenthal, 10; Exertoglu, 74.

(54) The Whittalls of Turkey 1809-1973, n.d., passim; A. Gallenga, Two Years of the Eastern Question, 2 vols., 1877, 1, 260-4. 5 5.

(55) Celik, 62-3; Rosenthal, 39.

(56) Rosenthal, 41, 59, 70, 95, 151; White, I, 195, II, 94; Raouf d'Orbey, Les Amours dangereuses, Constantinople, 187 4, passim.

(57) Said N-Duhani, Quand Beyoglu s'appelait Péra, Istanbul, 1956, 12; Celik, 133-4; Marcelle Tinayre, Notes d'une voyageuse en Turquie, 1909, 293.

(58) Celik, 136.

(59) Celik, 37-8, 158; Rosenthal, 17,173-4; dc Amicis, 20.

(60) Walsh, I, 248-51; Celik, 93; Mark Twain, The Innocents Abroad, Hartford, Conn., 1869, 372; Mavroyennis Pacha, Chiens errants de Constantinople, et chiens et chats de bonne maison, 1900, 8, 14.

(61) Albeit Smith, A Month at Constantinople, 1850, 69, 89; de Amicis, 108.

الفصل الثاني عشر

الطريق إلى تساريغراد

(1) P. Oberling, The Istanbul Tunnel', Archivum Ottomanicum, IV, 1972, 238-40; Celik, 97.

(2) Suha Umur, 'Abdulmecit, 'Opera and the Dolmabahce Palace Theatre', National Palaces, 1,50-1; W. H. Russell, Diary in the East, 506, 479.

(3) Hrant Papazian, D. Tchouhadjian: vie et oeuvres, Istanbul, 1977, 9, 12; Pars Tuglaci, Turkish Bands of Past and Present, Istanbul, 1986, 124-5.

(4) Gawrych, 298-300; Davison, 298.

(5) Mardin, Genesis, 13, 26.

(6) Istanbul Ansiklopedisi, art. 'Galata Borsasi'; Davison, Reform, 247-8; Berkes, Secularism, 180,184; Margaret Stevens Hoell, The Ticaret Odasi: Origins, Functions and Activities of the Chamber of Commerce of Istanbul 1885-1899', unpublished MA thesis, Ohio State University, 1973,1-5,50.

(7) Zarcone, 204, 209, 281; Constantin Svolopoulos, 'L'Initiation de Mourad V a la franc-maconnerie par Cl. Scalieri; aux origines du mouvement libéral en Turquie', Balkan Studies, 1980, XXI, 2, 1964, 451.

(8) Artan, 'Architecture', 119; Haidar, 20-2,33-4, 52-3,60, 87.

(9) Ferriman, 4-5; [Sir Charles Eliot], Turkey in Europe, 1900, 142-5.

(10) Gerard Groc and I. Caglar, La Presse francaise de Turquie de 1795 a nos jours, Istanbul, 1985, 203, 228.

(11) Guity Neshat, The Origins of Modem Reform in Iran 1870-1880, Urbana, 1982, 3 3-7; Mider, 76; Clayer and Popovic (cds.), 201.

(12) Godfrey Hodgson, A New Grand Tour, 1995,165,199, 214; Robert Pynsent (ed.), Decadence and Innovation: Austro-Hungarian Life and Art at the End of the Century, 1989, 54.

(13) Ernest Roth, A Tale of Three Cities, 1971, 118-19; see e.g. Levant Herald, 6 July, 25 October 1869.

(14) Artiman, 103; James Etmekjian, The French Influence on the Western Armenian Renaissance 1843-1915, New York, 1964, 109.

(15) Vartan, 71; Engin Cizgen, Photography in the Ottoman Empire 1830-1919, Istanbul, 1987, 96, 98.

(16) Butros Ghali, 25,32; Tuglaci, Dadian, 114.

(17) Prince Mek-B. Dadian, 'La Société arménienne contemporaine', Revue des Deux Mondes, 15 June 1867, 906, 914, 921; Findlay, Bureaucratic Reform, 214.

(18) Sarkis Atamian, The Armenian Community, New York, 195 5, 84.

(19) Senior, 139, 24 October 1857; Vartan, 87; Etmekjian, 111.

(20) G. A. Mavrocordatos, De la Reforme et de la finance des Romains en Orient, Athens, 1856, 13; A. Synvet, Les Grecs de l'Empire Ottoman: étude statistique et etbnique, 2nd edn., c. 1878, 10; Brun, 434.

(21) MacDermott, 209; David Kushner, The Rise of Turkish Nationalism, 1977, 11, 12.

(22) B. H. Sumner, Russia and the Balkans 1870-1880, 1937, 110; Barbara Jelavich, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 1870-1887, Bloomington, 1973, 12-13,152; Sir Henry G. Elliot, Some Revolutions and other Diplomatic Experiences, 1927, 205; M. S. Anderson, Eastern Question, 166.

(23) Count Ignatyev, 'Memoirs', Slavonic Review, X, June 1931, 394-7; Michael Boro Petrovich, The Emergence of Russian Panslavism 1856-1870, New York, 1956, 263.

(24) Roger Owen, The Middle East in the World Economy 1800-1914, 1981, 105; Exertoglu, 255; Kazgan, 86, 89.

(25) Lewis, Emergnce of Modem Turkey, 469; Celik Gulersoy, The Ceragan Palaces, Istanbul, 1992, 66-76.

(26) Henry O. Dwight, Turkish Life in War Time, 1881, I, diary entry for 15 April 1876; Gallenga, I, 140; Davison, 325, 329. For the numbers massacred see Richard Millman, Britain and the Eastern Question 1875-1878, Oxford, 1979, 153-4, 162. Many Bulgarians assumed dead had left their villages in search of work - as they did every summer.

(27) Dwight, 7, diary entry for 12 May 1876; Davison, 330.

(28) Davison, 332-7; Dwight, 21, diary entry for 31 May 1876; Cléanthe Scalieri, Appel à la justice des Grandes Puissances, Athens, 1881, 9; Robert Devereux, 'Suleyman Pasha's "the Feeling of the Revolution", Middle Eastern Studies, XV, i, 1979, 7-8.

(29) Devercux, ibid., 19; Gulersoy, Ceragan Palaces, 101-11.

(30) Davison, 352-3, 355; Berkes, Secularism, 242; Pierre Loti, Azyade: Stamboul 1876-1877, 1892 edn., 64.

(31) Davison, 382-3; Robert Devereux, The First Ottoman Constitutional Period, Baltimore, 1963, 80-3, 134; Millman, 226.

(32) Fesch, 277; Gallenga, II, 307,310-12.

(33) Dwight, 84, 103-6, diary entries for 23 April, 22, 29 June 1876; David MacKenzie, 'Russia's Balkan Policies under Alexander II', in Ragsdalc (ed.), 235.

(34) Dorothy Anderson, The Balkan Volunteers, 1968, 193-4, 196; Dwight, 226-7, 231, diary entries for 25 January, 6 February 1878; MacKenzie in Ragsdale (cd.), 239.

(35) Farooqi, 95, 173, 198; Ram Lakh an Shukla, Britain, India and the Turkish Empire 1811-1882, New Delhi, 1973, 49, quoting letters of Lord Lytton to Lord Salisbury January-May 1877.

(36) D. Anderson, 119-22, 187, 205; Millman, 311; Gordon Waterfield, Layard of Nineveh, 1963, 396, 505; Robert Blake, Disraeli, 1966, 595, 639.

(37) Waterfield, 402; Devereux, First Ottoman Constitutional Period, 240.

(38) Surnner, 361, 366, 375, 391, 397.

(39) Dwight, 258-9, diary entry for 27 February 1878; BM Add. MSS 39018, f. 71, Vefyk to Layard January 1878; 39023, f. 258, 39024, f. 306, letters of February 1878; Tuglaci, Dadian, 122.

(40) Dwight, 66, 137, 263, diary entries for 21 January 1877, 25 July, 8 August, 7 November 1877; Salahi R. Sonyel, Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire, Ankara, 1993, 262, 282, 284; Devereux, First Ottoman Constitutional Period, 224.

(41) La Turquie, 2 March, 7 April 1878; Sumner, 416-17; Waterfield, 420; A. O. Sarkisian, History of the Armenian Question to 1885, Urbana, 1938, 85, 88n.

(42) Sturdza, 465.

(43) La Turquie, 7 April 1878; Exertoglu, 210, 226-7, 283; Elia Institute for the Study of the Greek Diaspora, Athens, MSS: Mémorandum du Syllogue Grec de Constantinople, 1878, f. 14.

(44) Gulersoy, Ceragan Palaces, 131,135,141-8.

(45) Waterfield, 414, 416; Dwight, 338, diary entry for 18 August 1878; Sumner, 57.

(46) Dwight, 418, diary entry for 30 May 1878; W. Miller, 432; BM Add. MSS 48944, Vincent Papers, f. 191, diary of Edgar Vincent 12 November 1880.

الفصل الثالث عشر

يلدز

(1) Tuglaci, Balian, 546-7657, gives a well-illustrated, but at times fantastic, account of Yildiz; Ayse Osmanoglu, Avec mon Père le Sultan Abdulhamid de son palais à son prison, 1991, 80-2; Tahsin Pasha, Yildiz Hatiralari, i990 edn., 212.

(2) Mrs Max Muller, Letters from Constantinople, 1897, 53; Anna Bowman Dodds, In the Palaces of the Sultan, 1904,75; Woods, 11,230; Prince Nicholas of Greece, My Fifty Years, 1929, 201; interview with Mrs Yalter, 13 April 1989.

(3) Tahsin Pasha, 30, 61, 66-8.

(4) Descriptions of dinner at Yildiz can be found in: Dowager Marchioness of Dufferin and Ava, My Russian and Turkish Journals,

1917, 303, diary entry for 17 October 1883; Muller, 88-90; Paul Cambon, Correspondance, 3 vols., I, 352, letter of 27 December 1891; Dodds, 93.

(5) Tuglaci, Balian, 639-46; Lloyd C. Griscom, Diplomatically Speaking, 1940, 168; Osmanoglu, 64.

(6) Dodds, 91,104; Dufferin, 303, diary entry for 17 October 1881.

(7) Henri de Blowitz, Une Course a Constantinople, 1884, 254- 5.

(8) Dufferin, 221, diary entry of 30 August 1882, cf. Tahsin Pasha, 6-8; BM Add. MSS 39024, f. 296, Longworth to Layard 15 December 1880; Cambon, I, 386, letter of 15 February 1895.

(9) Philip Graves, Briton and Turk, 1941, 50; Waugh, 99.

(10) Tahsin Pasha, 19-22; Blancard, II, 440-3, letter of 19 November 1892; Sturdza, 260; despatch of Layard 30 July 1879, quoted in Sonyel, 258; Theodore Herzl, Diaries, 1958, 141, entry for 17 June 1896.

(11) Louis Rambert, Notes et impressions de Turquie, 1926, 331, diary entry for 22 November 1904; Herzl, 158, entry for 22 June 1896; Graves, 5 in.

(12) Shukla, 155; Selim Deringil, 'The Invention of Tradition as Public Image in the Late Ottoman Empire, 1808 to 1908', Comparative Studies in Society and History, XXXV, 1 January 1993, 15; Serif Mardin, Religion and Social Change in Modern Turkey, Albany, New York, 1989, 125-9; Selim Deringil, 'Legitimacy Structures in the Ottoman State: the Reign of Abdulhamid II 1876-1909', International Journal oj Middle East Studies, XXIII, 1991, 353.

(13) Tuglaci, Balian, 498; Wilfrid Scawen Blunt, Gordon at Khartoum, 1911, 318, diary entry for 24 October 1884.

(14) Wilfrid Blunt, My Diaries, 2 vols. 1919-20,1, 102, entry for 28 April 1892; Mrs Will Gordon, A Woman in the Balkans, 1916, 228-9, 231-2; 'Tercuman', Grecs et Turcs d'aujourd' hui, 1898,16-18.

(15) Deringil, The Invention of Tradition', 12.

(16) Osmanoglu, 54; Herzl, 152, 18 June 1896; Deringil, The Invention of Tradition', 10.

(17) Blunt, My Diaries, I, 102, 28 April 1893.

(18) Nikki R. Keddie, Sayyid Jamal ad-din 'al-Afghani', Los Angeles, 1972, 371, 375, 381,385,406,408.

(19) Engin D. Akarli, 'Abdul Hamid's Attempts to integrate Arabs into the Ottoman System', in David Kushner (cd.), Palestine in the Late Ottoman Period, Jerusalem, 1986, 80; Jan Schmidt, Through the Legation Window 1871-1926, Istanbul, 1992, 91; Deringil, 'Legitimacy Structures', 351.

(20) Charles Didier, Séjour chez le Grand Schérif de la Mekke, 1857,157, 247, 261; George Stitt, A Prince of Arabia: the Emir Shereef Ali Haidar, 1948, 37; Senior, 5 5-7, 6 October 1857; Toledano, 120,130.

(21) Blunt, Gordon at Khartoum, 305,19 October 1884, 3 31, November 1884; PROFo 78/3081, Layard to Salisbury 'secret', 9 February 1880; cf. for confirmation of British-Hashemite links' William Ochsenwald, Religion, Society and the State in Arabia, Ohio, 1984, 201-2; Shukla, 170-1.

(22) Stitt, 57-9.93-4,105.

(23) King Abdullah of Jordan, Memoirs, 1930, 46, 40; Shirin Devrim, A Turkish Tapestry the shakirs of Istanbul' 1994, 88.

(24) Waugh, 90-1; Cox, Diversions of a Diplomat, 15 2; Rambert, 34, diary entry for 24 October 1896.

(25) Said N-Duhani, Quand Beyoglu s'appelait Péra, 61.

(26) Gulersoy, The Caique, 219-26.

(27) Gulersoy, Ceragan Palaces, 134-62; Aldcrson, 29n.

(28) Celik, 146; Vera Freni and Carla Varnier, Raimondo d'Aronco: l'opera completa, Padova, 1983, 123.

(29) Halil Halid, Diary of a Turk, 1903, 134-5; Blunt, Gordon at Khartoum, 304, 18 October 1884; Crawford, 17; Alan Duben and Cem Behar, Istanbul Households: Marriage, Family and Fertility 1880-1940, Cambridge, 1991, 210.

(30) Duben and Behar, 4, 149, 180-1, 183.

(31) Berkcs, Secularism, 291,3 20.

(32) Issawi, 275.

(33) Donald Quataert, Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire 1881-1908, New York, 1983, 95-6, 98.

(34) Louise Nalbandian, The Armenian Revolutionary Movement, Berkeley, 1963, 117, 130; Christopher J. Walker, Armenia: the Survival

of a Nation, 1991 edn., 145-6.

(35) Ertugrul Zekai Okte (ed.), Ottoman Archives. Yildiz Collection. The Armenian Question, 3 vols., Istanbul, 1989, II, 129, Kamil to General Secretariat 15 July 1879; 157, Sureyya Pasha to Grand Vizier 11 August 1890; 195.

(36) Walker, 132; Raymond H. Kevorkian and Paul B. Paboudjian, Les Arméniens dans l'Empire Ottoman a la veille du génocide, 1992, 11-12.

(37) Hratch Dasnabedian, History of the Armenian Revolutionary Federation Dashnaktsutiun 1890-1924, Milan, 1990, 76; Walker, 15 3-6; Nalbandian, 123-5.

(38) Edouard Driault and Michel L'Héritier, Histoire diplomatique de la Grèce de a nosjours, 5 vols., 192 5-6, IV, 344, telegram of 12 February 1897. K. Hassiotis, The Greeks and the Armenian Massacres', Neo-bellenika, IV, 1981, 81, 85, despatch of 20 September 1895.

(39) Correspondance respecting the Disturbances at Constantinople in August 1986 presented to both Houses of Parliament by command of Her Majesty, 1897, 11, Herbert to Lord Salisbury 27 August 1896; 32, letter of Max Muller 31 August 1896; Rambert, 18-19, diary entry for 30 August 1896.

(40) Tahsin Pasha, 44; Walker, 165-8; Correspondance respecting the Disturbances..., 18-20, Herbert to Salisbury 31 August 1896; 22, Calice to Herbert 29 August; J. A. S. Grenville, Lord Salisbury and Foreign Policy: the Close of the Nineteenth Century, 1970. 75.

(41) Correspondance respecting the Disturbances ...,15, report by F. A. Barker 26 August 1896; 17, Herbert to Lord Salisbury, Cambon, I, 394, letter of 10 October 1895.

(42) Nubar Gulbenkian, Pantaraxia, 1966, 10; Stephen Longrigg, Oil in the Middle East, 3rd edn,, 1968, 31.

(43) Tuglaci, Dadian, 427, 243, 292.

(44) Ibid., 140-1, mémoir of 1900; Kevorkian, 15; Boutros Ghali, 109-12; Sarkis Artamian, The Armenian Community, New York, 1955, 121-2.

(45) Kevorkian, 17, 19; Dasnabedian, 77.

(46) Haus-, Hof- und Staatsarchiv, Vienna PA XTV/18, Mémoire sur le mouement albanais by Faik Bey Konitza, January 1899: I am grateful for this reference to Orhan Kologlu; Stefanaq Pollo and Arben Pulo,

Histoire de l'Albanie, Roanne, 1972, 137, 147, 1 54, 156; Stavro Skendi, The Albanian National Awakening 1878-1012, Princeton, 1967, 169, 317; Stuart E. Mann, Albanian Literature, 1955, 38-9, 41-3; J. Swire, Albania: the Rise of a Kingdom, 1929, 64.

(47) Stephen Constant, Foxy Ferdinand, 1979, 180-1; Prince Nicholas of Greece, My Fifty Years, 1930, 205.

(48) Michel Noe, Pages d 'Orient, 1895, 174-5; A. J. Pannayotopulos, The Great Idea and the Vision of Eastern Federation', Balkan Studies, XXI, 2, 1980, 340; cf. Gerasimos Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society, New York, 1977, 128-30.

(49) Cambon, I, 428, Paul to Madame Cambon 20 August 1 897; Blancard, II, 469.

(50) Bertrand Bareilles, Constantinople, 1918,368; Allen Upward, The East End of Europe, 1908, 96-7; Mavroyennis, II, 20, diary entry for 25 October/7 November 1907.

(51) Keith M. Wilson, 'Constantinople or Cairo?', in id. (ed.), Imperialism and Nationalism in the Middle East, 1983, 33, 35; Alan Bodger, 'Russia and the End of the Ottoman Empire', Marian Kent (ed.), The Great Powers and the End of the Ottoman Empire, 1984, 78; Alan Palmer, The Decline and Fall of the Ottoman Empire, 1993 edn., 182; J. A. S. Grenville, 50-1, 81.

(52) Feryal Irez and Vahide Gezgor, The Sale Kosk', in National Palaces, II, 1 14-1 5; Osmanoglu, 77-8.

(53) Sturdza, 590-6; Edouard Fazy, Les Turcs d'aujourd'hui, 1898, 160; Donald C. Blaisdell, European Financial Control in the Ottoman Empire, New York, 1929, 133, 1 38, 141; Prince von Bulow, Memoirs, I, 193 1, 245.

(54) Halide Edib, Memoirs, 1926, 36n.

(55) Woods, II, 271-2; Waugh, 97; Findlay, Bureaucratic Reform, 23 1-2, 245; Gordon, 229.

(56) Exortogju, 299, 301, 310, Owen, 192-4.

(57) Rambert, 35, 67, 69, 103, entries for 31 October 1896, 7, 9 October 1899, 23 December 1900; Quataert, Social Disintegration, 118.

(58) Herzl, 350, 161, entries for 21 May 1901, 22 June 1896; cf. Rambert, 197, entry for 20 December 1902: 'au palais on est tout à coup fort pessimiste sur les affaires de Macedoine.'

(59) R. Porter, 257-8; R. J. Olson, 'Cities and Culture', in Theo Barker and Anthony Sutcliffe (eds.), Megalopolis: the Giant City in History, 1993, 167; Andrew Lees, Cities Perceived: Urban Society in European and American Thought 1820-1940, Manchester, 1985,

(60) Rambert, 35, entry for 24 October 1896; Mardin, Religion and Social Change, 82; Anka, revue d'art et de littérature de Turquie, 1989, 48-50; Lewis, Emergence, 206.

(61) Stitt, 57, 88, 105; cf. Louise Hirszowicz, The Sultan and the Khedive 1892-1908', Middle East Studies, VIII, 1972, 296, for a similar reaction from the Khedive Abbas Hilmi.

(62) Blunt, Gordon, 307-8, diary entry for 20 October 1884; Lori, Les Désenchantées 1906 edn., 165; Duben and Behar, 40; PRO FO 800, f. 306v. observations of Arminius Vambcry, 1894.

(63) Ernest Edmondson Ramsaur jun., The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908, Princeton, 1957, 16, 46 and passim, Gilles Veinstein (ed.), Salonique 1850 - 1918; la ville des juifs et le réveil des Balkans, 1992, 108.

الفصل الرابع عشر

تركيا الفتاة

(1) Stitt, 97; Edib. Memoirs, 258.

(2) Hercule Diamantopoulo, Le Réveil de la Turquie, Alexandria, 1908, 59-60; memoirs of Fausto Zonaro, consulted by kind permission of Signora Mafalda Zonaro Mencguzzcr.

(3) Diamontopulo, 171; C. R. Buxton, Turkey in Revolution, 1909, 119, 127; F. R. Bridge, The Young Turk Revolution: an Austro-Hungarian Assessment', paper delivered at The Young Turk Revolution of 1908', conference held at Manchester University, 23-25 March 1988.

(4) Mary A. Poynter, When Turkey was Turkey, 1921, 56, diary entry for 1 December 1908; E. F. Knight, The Awakening of Turkey, 1909, 300.

(5) Poynter, 58, entry for 3 December 1908; Diamantopoulo, 85, 121; Knight, 303; Feroz Ahmad, 'Unionist Relations with the Greek, Armenian and Jewish Communities of the Empire 1908-1914', in Braude and Lewis (eds.), I, 409.

(6) Buxton, 199-200; Aubrey Herbert, Ben Kendim, 1918, 264; Francis McCullagh, The Fall of Abdul Hamid, 1909, 14; Mavroyennis, II, 34, diary entry for 4/17 December 1908.

(7) Mavroyennis, II, 34, diary entry for 18/31 December 1908; Ali Cevaat Bey, Fezleke, Ankara, 1960, 18, 23; Glen Svenson, The Military Rising in Istanbul 1909', Journal of Contemporary History, V, 1970, 174.

(8) Duhani, Vieilles Gens, 144.

(9) Feroz Ahmad, The Young Turks: the Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908-1914, Oxford, 1969, 25; David Farhi, 'The Seriat as a Political Slogan or the Incident of 31 March', Middle East Studies, 1971, 7; Svenson, 181; Ahmed Emin, The Development of Modern Turkey as Measured by its Press, New York, 1914, 95.

(10) Emin, Development, 97.

(11) Ali Cevaat, 51-2; Farhi, 1-41.

(12) Emin, Development, 95.

(13) Sir W. M. Ramsay, The Revolution in Constantinople and Turkey, 1909,91; Woods, II, 240; McCullagh, 208.

(14) Abbott, Turkey in Transition, 255; MacCullagh, 244, 249; Osmanoglu, 142-3.

(15) McCullagh, 283.

(16) W. M. Ramsay, 123-5; Catalogue des perles, pierreris, bijoux et objets d'art precieux, le tout ayant appartenu a S.M. le Sultan Abdul Hamid II, dont la vente aura lieu à Paris, November 1911, items 241, 278 and 279.

(17) Fesch, 160; A Mavroyennis, II, 41, diary entry for 27/10 May 1909; Gulersoy, Dolmababce, 109.

(18) Zafer Toprak, 'Nationalism and Economics in the Young Turk Era 1908-1918', paper delivered at The Young Turk Revolution of 1908', conference held at Manchester University, 23-25 March 1988; Issawi, 276.

(19) Guide téléphonique, Constantinople, 1914, 51, no; Moniteur Oriental, 4 July 1914; Ferriman, 123; Ramsay and McCullagh, xxvii-xxviii.

(20) Pierre Loti et Samuel Viaud, Suprêmes Visions d'Orient, 1921, 22-3, diary entry for 16 August 1910; Hilary Sumner-Boyd and John Freely, Strolling through Istanbul, Istanbul, 1973, 144; A. Goodrich-Freer, Things Seen in Constantinople, 1926.

(21) Le Corbusier, Le Voyage d' Orient, 1966, 69; Documents on British Foreign Policy, V, 255, annual report for Turkey for the year 1908; George S. Harris, The Origins of Communism in Turkey, Stanford, 1967, 20; Z. A. B. Zeman and W. B. Scharlau, The Mercant of Revolution, 1965, 127-8.

(22) Mete Tuncay and Erik J. Zurchcr, Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire, 1876-1923' 1994, 69, 84-6.

(23) Rambert, 279, diary entry for 29 January 1904; Crawford, 17; Women tn Anatolia, exhib. cat, 201; McCullagh, 7; W. M. Ramsay, 148.

(24) Tinayre, 337; Hon. Mrs William Grey, Journal of a visit to Egypt, Constantinople, the Crimea, Greece etc. in the suite of the Prince and Princess of Wales, 3rd edn., 1870, 166, diary entry for 9 April 1869.

(25) Jacob M. Landau, Tekinalp: Turkish Patriot 1888-1081, Istanbul, 1984, 117, 122; Zafer Toprak, 'The Family, Feminism and the State', in Edhcm Eldem, vie politique, 447.

(26) Tuncay and Zurcher, 2 5; M. Sukru Hanioglu, Kendi Mektuplarinda Enver Pasa, 1989, 18 8, letter of 23 September.

(27) Edib, Memoirs, 317-18; Mitler, 186; Robert Olson, The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion, 1880-1925, Austin, 1989, Gerard Chaliand (cd.), A People without a Country: the Kurds and Kurdistan, 1993 edn., 35, 27, 29.

(28) Hassan Saab, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958, 226; Sabine Prator, The Arab Factor in Young Turk Politics: Aspects from the Istanbul Press', paper delivered at 'The Young Turk Revolution of 1908', conference held at Manchester University, 23-25 March 1988; Abdullah, 70.

(29) George Antonius, The Arab Awakening, Beirut, 1969, 108, 111, 119; Saab, 234, 238-9.

(30) Saab, 236; Zeine M. Zeine, Arab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1958, 83; Haidar, 30.

(31) Haidar, 69, 54; Stitt, 156. For discussion of devolution and separate parliaments in Constantinople in 1913 see Pickthall, 118.

(32) C. Ernest Dawn, From Ottomanism to Arabism: Essays on the Origin of Arab Nationalism, Urbana, 1973, 6, 12; Abdullah, 45.

(33) Kushncr, 35,43.77-

(34) Kushner, 6 3,6 5,71; Sir Edwin Pears, Forty Years in Constantinople, 1917, 271.

(35) Odette Keun, Mesdemoiselles Daisne de Constantinople, c. 1920, 53n.; Emile Edwards, Mon Maître chéri, 1915,38.

(36) Interview with Orhan Koprulu, 30 March 1992; George T. Park, 'The Life and Writings of M. Fuad Koprulu', unpublished Ph.D. thesis, Johns Hopkins University, 1975, 3-5 and n., 7,9,14.

(37) Lewis, Emergence, 343; Park, 20, 28n., 30; Mitler, 187.

(38) Lewis, Emergence, 231; Emin, Development, 109-10; Park, 127, 138n., 140-3, 147.

(39) George A. Schreiner, From Berlin to Baghdad, New York, 1918, 327, diary entry for 7 August 1915.

(40) Landau, Tekinalp, 116; Mitter, 187.

(41) Berkes, Secularism, 373-4; John Reed, War in Eastern Europe, 1994 edn., 133; McCullagh, 157.

(42) Loti and Viaud, 71, diary entry for 23 August 1910.

(43) Ahmad, Young Turks, 108; Bilal N. Simsir, Dis Basinda Ataturk ve Turk Devrimi, cilt I, Ankara, 1981, 165, 169; Abbas Hilmi Papers, Durham University, 46/248, 67/57, reports of an agent, possibly Damad Ferid, to the Khedive Abbas Hilmi, 10 October 1911, 3 September 1912.

(44) William C. Askew, Europe and Italy's Acquisition of Libya 1911-1012, Durham, North Carolina, 1942, 206-7, 210-11; Alan Bodger, 'Russia and the Fall of the Ottoman Empire', in Kent, (cd.), 83-4.

(45) Tuncay and Zurchcr, 47; Lady Grogan, Life ofJ. D. Bourchier, 1921, 136, 139.

(46) Constant, 254-61; Andrew Rossos, Russia and the Balkans: Inter-Balkan Rivalries and Russian Foreign Policy, Toronto, 1981, 87-90.

(47) Lauzanne, 120; Poynter, 90, 95, 101, 115, diary entry for 9, 18 November, 12 December 1912, 26 September 1913; H. Myles, La Fin dc Stamboul, 2nd edn., 1921, 1, 16.

(48) Moniteur Oriental, 5 November 1912; Lauzanne, 119, 144, 155, 180; Keun, 43n., 49, 52; Gaston Deschamps, A Constantinople, 1913, 178-9.

(49) Constant, 259; Poynter, 91, diary entry for 12 November 1912; Lauzanne, 233; Moniteur Oriental, 16 November 1912.

(50) Poynter, 91-2, diary entry for 17 November 1912; Lausanne, 227, 230; Harold Nicolson, Sweet Waters, 1928 edn., 128; Paul G. Halpern, The Mediterranean Naval Situation 1908-1914, Cambridge, Mass., 1971, 104.

(51) Moniteur Oriental, 29 November, 2 December; Ellis Ashmead-Bartlett, With the Turks in Thrace, 1913, 283.

(52) Hanioglu 223, 225, letters of 12, 14 January 1913, cf. 54, letter of 7 May 1911.

(53) Hanioglu, 230, letter of Enver, 28 January 1913; Joseph Heller, British Policy towards the Ottoman Empire 1908-1914, 1983, 78.

(54) Poynter, 106, diary entry for 29 March 1913; William I. Shurrock, French Imperialismi in the Middle East, Madison, 1976, 168, Mallet to Grey 17 December 1913; Abbas Hilmi Papers, Durham University, 194/62, 66, 72: letters of 4, 11, 18 February 1913 to the Khedive Abbas Hilmi speak of 'la futilité de 1'existence de Tempire'; Ahmad, 29.

(55) PRO FO 371/9174, f. 68, Memorandum on the Armstrong Vickers' tenure of Turkish Dockyard, by Engineer Captain E. C. Hefford, 1923.

(56) D. C. B. Lieven, Russia and the Origins of the First World War, 1983, 46, 69; Fritz Fischer, War of Illusions: German Polities from 1911 to 1914, 1975, 334; Hans Kannengiesser Pasha, The Campaign in Gallipoli, 1927,47.

(57) Sir Andrew Ryan, The Last of the Dragomans, 1951, 88-9; Miniteur Oriental, 3,10, 16 July, 28 August 1914.

(58) Ahmad, 138-9.

(59) Kent, 15; Heller, 98, 134; William Eleroy Curtis, Turkestan, the Heart of Asia, 1911,142; Erik J. Zurcher, Turkey: a Modern History, 1993,117; Dan van der Dat, The Ship that changed the World: the Escape of the 'Goeben' to the Dardanelles in 1914,1986 edn., 157.

(60) Waugh, 150-1; Ryan, 84, 103; A. L. Macfie, The Straits Question 1909-1934, Thessaloniki, 1993, 53; Heller, 141, Mallet to Grey 6 September 1914; Moniteur Oriental, 10, n September.

(61) Paul G. Halpern, The Naval War in the Mediterranean 1914-1918, 1987, 48; Ulrich Trumpener, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, 1968, 33,36, 40; Heller, 144-5.

(62) Ryan, 101; Heller, 150, 156.

(63) Halpern, Naval War, 77; Van der Dat, 246, 267; Trumpener, 51, 56, 59; Ryan, 105; Heller, 152.

(64) Pears, 354; Cdt. Larcher, La Guerre Turque dans la Guerre Mondiale, 1926, 39n.; Schreiner, 168, diary entry for 7 April 1915; Osmanoglu, 189, 196.

(65) Emile Edwards, Journal d'un habitant de Constantinople 1914-1915, 1915, 74, 78, 107; Ahmed Emin, Turkey in the World War, New Haven, 1930, 176.

(66) Stephane Yerasimos (ed.), Istanbul 1914-1923: capitate d'un monde illusoire ou l'agonie des vieux empires, 1992, 17, 171; J. Reed, 131-2; Zeman and Scharlau, 133-4, 136.

(67) Martin Gilbert, Winston Churchill, 8 vols., 1968-90, III, 189, 411; id., Churchill: a Life, 1991, 295, 300; Norman Rose, Churchill: an Unruly life, 1995 edn., 114; Alan Moorehead, Gallipoli, 1956, 125-6.

(68) Gilbert, Churchill: a Life, 303-4; Kanncngiesser Pasha, 64, 259, 270; Moorehead, 56, 91, 217, 363.

(69) Schreiner, 38, diary- entry for 23 February 1915; Walker, 210; Zurcher, Turkey, 121.

(70) Heath W. Lowry, The Story behind Ambassador Morgenthau's Story, Istanbul, 1990, 49; Schreiner, 327, diary entry for 7 August 1915; Los Angeles Examiner, 1 August 1926, quoted in Vahakn N. Dadrian, 'The Documentation of the World War I Armenian Massacres in the Proceedings of the Turkish Military Tribunal', IJMES, XXIII, 1991, 561, 568.

(71) Randall Baker, King Husain and the Kingdom of Hejaz 1979, 115-18, proclamation of 25 Shaaban 1334; Stitt, 163.

(72) Emin, Turkey in the World War, 173, 176, 236; Berkes, Secularism, 417-18; Ernst Jaeckh, The Rising Crescent, New York, 1944, 132.

(73) Van der Dat, 263. Reed, 115; Jaeckh, 137; Schreiner, 63, 277, 6 July 1915.

(74) Halpern, The Naval War, 559, 560, 568; id. (ed.), The Royal Navy in the Mediterranean 1915 - 1918, 1987, 580; Gwynne Dyer, 'The Turkish Armistice of 1918: 2', Middle Eastern Studies, VIII, 5, October 1972, 323-4.

(75) Dyer, 324, 330, 333, 337; Halpern,Naval War, 568.

الفصل الخامس عشر

موت عاصمة

(1) PRO WO 161/85, Brigadier-General Sir James E. Edmonds, 'The Occupation of Constantinople 1918-1923›, 1944, ff. 10-13 (henceforward referred to as Edmonds); FO 371/6485, f. 33, Note by R. W. Skelton, March 1921.

(2) Jean Bernachot, Les Armées alliées en Orient apres I'Armistice de 1918, 4 vols., 1972-8, II, 12,17-18, despatch of 22 February 1919.

(3) Erik Lance Knudsen, Great Britain, Constantinople and the Turkish Peace Treaty, New York, 1987, 22; J. G. Bennett, Witness' 1962, 30.

(4) General Sir Charles Harington, Tim Haringon Looks Batk, 1940, 137; Neville Henderson, Water under the bridges, 1945, 105; Fox-Pitt Papers, consulted by fend permission of Sarah Fox-Pitt, W. A. F. L. Fox-Pitt to his father 11 October 1912, 22 May 1923.

(5) Edmonds, f. 13; India office Library Curzon Papers MSS EUR F 112/113: Curzon, 'The Future of Constantinople', 4 January 1919. I am grateful to David Gilmour for this reference.

(6) Curzon, 'The Future of Constantinople', 4 January 1919; Knudsen, 29, 53; PRO 371/ 5190, f. 44, for population estimates. In 1914 the population, including suburbs, was estimated at 490,000 Turks, 225,000 Greeks, 15 5,000 Armenians and 150,000 'other'. Curzon may have obtained his figures from the 1911 Encyclopedia Britannica, art. 'Constantinople', by a Greek.

(7) Erik Goldstein, 'Holy Wisdom and British Foreign Policy, 1918-1922: the St Sophia Redemption Agitation', Byzantine and Modern Greek Studies, XV, 1991, 47; Kent, 70; Myles, 165, article of 9 April 1919.

(8) Macfie, 100-1; Mihir Bose, The Aga Khans, 1984, 180, Curzon to Montagu.

(9) A. E. Montgomery, 'Lloyd George and the Greek Question 1918-22', in A. J. P. Taylor (ed.), Lloyd George: Twelve Essays, 1971, 264, quoting memorandum of 29 December 1920; Alexis Alexandris, The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918-1974, Athens, 1983, 53; G. Theotokas, Leonis, enfant grec de Constantinople, 1985, 134.

(10) PRO FO 371/5190, ff. 31-35, telegram from Patriarchate to Lloyd George, 18 February 1920; ibid., f. 134, committees of 154 associations and organizations to Lloyd George, 7 March 1920.

(11) Patriarche Oecumenique, Memoire, Paris, 1919, 8-9.

(12) Halide Edib, The Turkish Ordeal, 1928, 5; Nesin, II, 57; Harold Armstrong, Turkey in Travail, 1925, 97.

(13) Edib, Turkish Ordeal, 149; Nur Bilge Criss, 'Istanbul during the Allied Occupation 1918-1923', unpublished Ph.D. thesis, George Washington University, 1990, 13.

(14) PRO FO 371/5190, f. 76, acting Patriarch to Lloyd George 15 March 1920, and f. 101, mémoire of 14 February 1920; ibid., f. III, petition of 16/9 January 1920.

(15) Galante, Histoire des juifs, II, 82; Criss, 35,71.

(16) Nigel Nicolson, Alex, 1973, 73; Churchill College, Cambridge, De Robeck Papers 6/1, De Robeck to Curzon 23 August 1920; A. Mavroyennis, II, 86, diary entry for 17/30 June 1919.

(17) Knudsen, 115; Ryan, 127; Paul Dumont, Mustafa Kemal, Brussels, 1983, 27.

(18) Erik J. Zurcher, The Unionist Factor, the Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish National Movement 1907-1926, Leiden, 1984, 81; Criss, 132, 139, 146.

(19) Norman Itzkowitz and Vamik D. Volkan, The Immortal Ataturk: a Psychobiograpby, Chicago, 1984, 114,116.

(20) Yerasimos, Istanbul, 115; Alexandre Jevakhoff, Kemal Ataturk: les chemins de l'Occident, 1989, 7 5; Criss, 147.

(21) Zurcher, Unionist Factor, 82; Itzkowitz and Volkan, 124-5.

(22) Anon., Fusilier Bluff: the Experiences of an Unprofessional Soldier in the Near East 1918-1919, 1934, 236; Edib, Turkish Ordeal, 23, 27-9, 32-33n.

(23) Jean Bernachot, les Armées alliés en orient après l'Armistice de 1918, 4 vols., 1972-8, IV, 118, report of 1 August 1919.

(24) Armstrong, 105; PRO 371/4241 memorandum by Ryan, 12 December 1919; 371/4162, summary of intelligence, 9 January 1920.

(25) Gai Minault, The Khilafat Movement, New York, 1982, 75-6, 83.

(26) Knudsen, 143; Macfie, 101, 105, memorandum of British General Staff 6 January 1920; cf. Albert Christiaan Niemeijer, The Khilafat Movement in India 1919-1924, The Hague, 1972,145.

(27) Bennett, 32, 34; Knudsen, 169, 171-2; Churchill College, De Robeck Papers 6/1, anon, note 16 March, 1920; Criss, 92, 97, 102, 164; PRO FO 371/5162, f. 90, note of 18 March 1920.

(28) David Walder, The Chanak Affair, 1969, 106; Edmonds, f. 25; Ryan, 128; Stitt, 202.

(29) Falih Rifki Atay, The Ataturk I Knew, Istanbul, 1982, 138; Lord Kinross, Ataturk: the Rebirth of a Nation, Nicosia, 1981 edn., 225.

(30) Major-General Sir Edmund Ironside, High Road to Command, 1972, 97; Knudsen, 195, 197; Ryan, 145.

(31) Criss, 119, 205; Alexandria, 74; Macfie, 13 8.

(32) Criss, 167, 170; Documents on British Foreign Policy 1919-1938, First Series (hereafter DBFP), VII, 89, 91, Rumbold to Curzon 23 March 1921.

(33) Martin Gilbert, Sir Horace Rumbold, 1973, 230-1; Criss, 54, 189; Jevakhoff, 184.

(34) Demetra Vaka, The Unveiled Ladies of Stamboul, Boston, 1923, 105; Maurice Pernot, La Question turque, 1923, 9, 39, 43, 49.

(35) DBFP, XVII, 23, 49, Rumbold to Curzon 20 January, 7 February 1921.

(36) Edib, Turkish Ordeal, 71-3, 84, 89; Kinross, 214, 219; Jevakhoff, 185.

(37) PRO FO 371/5170, report by Admiral Calthorpe 17 June 1919, memorandum by Calthorpe 31 July 1919.

(38) PRO FO 371/5178, report of 12 August 1920; ibid. 5172, report of 13 October 1920; Whittall Papers, Abdulmecit to Canon Whitehouse, 9 September 1920.

(39) PRO FO 371 /517 2/4131, report of 2 5 October 1920; Burke's Royal Families of the World, 2 vols., 1980, II, 244; PRO FO 371/6469, Rumbold to Curzon 29 April, 5 May 1921; Yerasimos, Istanbul, 129; Jevakhoff, 257-8.

(40) James L. Barton, Story of Near East Relief, New York, 1930, 69, 15 8, 213.

(41) Edib, Turkish Ordeal, 7, 9; Muftyzade K. Zia Bey,1922, 26.

(42) L'Express, I December 1918; Armstrong, 97; Muftyzade, 152, 155; Pernot, 34.

(43) Norman Stone and Michael Glenny, The Other Russia, 1991 edn., 55; General P. N. Wrangel, Memoirs, 1929, 326n.; Vera Dumesnil, Le Bosphore tant aimé, Brussels, 1947, 30, 37. General Harington wrote, 'No man in life has impressed me more than General Wrangel': Harington, 222.

(44) Paul Morand, Ouvert la nuit, 1987 edn., 75; Stone and Glenny, 152-3; Dumesnil, 157; Alexis Wrangel, General Wrangel, Russia's White Crusader, 1990, 219, 223-6.

(45) Sergei Tornow, 'Unpublished Memoirs', 207, quoted by kind permission of Baroness Elena Tornow; interview with Prince Alexander Volkonsky, Paris, 3 December 1992; John Dos Passos, Orient Express, New York, 1926,12; Jak Deleon, A Taste of Old Istanbul, Istanbul, 1989, 44.

(46) Stone and Glenny, 231; G. I. Gurdjieff, Meeting' with Remarkable 1963, 282.

(47) Fox-Pitt Papers, W. A. F. L. Fox-Pitt to his mother 15 March 1923: 'Bobs [an English female acquaintance] fairly showed up the duchesses [at the Muscovite restaurant]'; Deleon, 47; Morand, 70; Zafer Toprak, 'Harasolar', Istanbul, 76, 78-80; Churchill College, De Robeck Papers 6/18, Rumbold to De Robeck 1 December 1921.

(48) Irfan Orga, Portrait of a Turkish Family, 1988 edn., 187; Anon., Fusilier Bluff, 243; Eliot Granville Mears, Modern Turkey, 1924,145; Myles, 175, article for 27 April 1919, 199, article for December 1920; Murtyzade, 77,181.

(49) Dos Passos, 11, 21-30; Armstrong, 188.

(50) Muftyzadc, 170; Yakup Kadri, Sodome et Gomorrhe, 1928, 16-17, 128,132, 135.

(51) Macfie, 149; Pernot, 8; Louis Francis, La Neige de Galata, 1936, 93-4; Alexandris, 104; Stitt, 247.

(52) Edmonds, ff. 27-8; Knudsen, 292; Walder, 250-2.

(53) Walder, 259, 260, 270-1, 275; Harington, 252, despatch of 20 October 1928 (sic); 277, speech of 30 October 1922; David Gilmour, Curzon, 1994, 545-6; PRO FO 371/7893, f. 63, Rumbold to Curzon 23 September 1922.

(54) Walder, 295, 299, 327; Harington, 211.

(55) Nesin, I, 104; PRO FO 371/7907, f. 113, Henderson to Curzon 24 October 1922; 371/9176, f. 84 and 84V.

(56) Michael M. Finefrock, 'From Sultan to Republic: Mustafa Kemal Ataturk and the Structure of Turkish Politics 1922-24', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1976, 65, 78; Kinross, 348.

(57) PRO FO 371/7907, ff. 199, 212, 226, Rumbold to Curzon 4,5 November 1922; 7914, f. 144, Rumbold to Curzon 14 November 1922.

(58) Harington, 254, report of 20 October 1923; Fox Pitt Papers, Fox-Pitt to his father 7 November and his brother Tommy 10 November 1922.

(59) Letters in FO 371/7917 describe the situation in November-December 1922. On 28 November Henderson wrote to Curzon of 'dual control here, Turkish civilian and allied military'.

(60) Kinross, 346; PRO FO 371/7917, f. 60, Rumbold to Curzon 21 November 1922; Gilbert, Rumbold, 279, Lady Rumbold to her mother 6 November 1922; Simsir, I, 79, 109; Le Journal, 15,18 November 1922.

(61) PRO FO 571/7917, f. 98, Henderson to Curzon 28 November 1922; Alexandris, 104, 132; DBFP, XVIII, 42 In., memorandum of Ryan 26 December 1922.

(62) PRO FO 371/7907, f. 226, Rumbold to Curzon 5 November 1922; Gilbert, Rumbold, 278-9, Lady Rumbold to her mother 6 November 1922; PRO FO 371/7912/12647, Rumbold to Curzon 7 November 1922.

(63) Harington, 130-1; PRO FO 371/7962, f. 150, Henderson to Curzon 17 November, 371/7916/13192, secret eastern summary 24 November, interview with Prince Sarni, the Sultan's great-nephew, London, 21 April 1995.

(64) Niyazi Berkes (cd.), Turkish Nationalism and Western Civilisation: Selected Essays of Zia Gokalp, 1959, 227; Finefrock, 73,87; PRO FO 371/7917, f. 40, Eastern summary 1 December 1922; 7916, f. 7, Eastern summary 24 November 1922. According to 7917, f. 41, Eastern summary 1 December, public opinion was unfavourable to the abolition of the sultanate but 'public opinion has never counted for much since the institution of so-called parliamentary government in Turkey.'

(65) PRO FO 371/7963, f. 142, Henderson to Curzon 28 November 1922; Simsir, I, 151,164; Muslim Standard, 30 November 1922.

(66) Finefrock, 106; Orga, 218; Haidar, 258; Stitt, 267.

(67) Erik J. Zurcher, Political Opposition in the Early Turkish Republic: the Progressive Republican Party, Leiden, 1991, 24; PRO FO 371/9135/2660, Rumbold to Curzon 1 March 1923.

(68) Michael Howard and John Sparrow, The Coldstream Guards 1920-1946, 1952, 3; Criss, 113; Walder, 349-52; Olga Verkorsky Dunlop, Register of the Baron Petr Nikolaevich vrangel Collection in the Hoover Institution Archives, Stanford, 1991, 72, 103-5; PRO 371/9174, f. 129, 141, Henderson to Curzon 10, 15 October 1923.

(69) William M. Johnston, The Austrian Mind, 1972, 73.

(70) Kent, 193; Lewis, Emergence, 255; Finefrock, 230, 249, 262, 273.

(71) Itzkowitz and Volkan, 270-3; Atay, 217; Zurcher, Unionist Factor, 137; Lewis, Emergence, 257; Jevakhoff, 37 5 n.

(72) Bernachot, II, 17, 145, despatches of 1 March, 27 April 1919; PRO FO 371/4162, summary of intelligence, 9 January 1920.

(73) Lewis, Emergence, 258.

(74) Simsir, I, 460; Lf Temps, 6 March 1924; Finefrock, 288, 292, 293; Gulersoy, Dolmabahce, 138, 141.

(75) PRO FO 371/10217, ff. 30, 155, R. C. Lindsay to Macdonald 5, 24 March 1924.

(76) Istanbul Ansiklopedisi, art. 'Abdulmecid'; Salih Keramet Nigar, Halife Ikinci Abdulmecid, Istanbul, 1964, 7-9.

خاتمة

(1) Sir Hugh Knatchbull Hugesson, Diplomat in Peace and War, 1949, 138; Kinross, 438.

(2) Lewis, Emergence, 405; Robert Byron, Letters Home, 1991, 65, letter of 29 May 1926; Nesin, I, 68, 124; Harold Armstrong, Turkey and Syria Reborn, 1930, 224-5.

(3) Harris, 124-6; Harry A. Franck, The Fringe of the Moslem World, 1928, 412; Kinross, 402.

(4) Franck, 344; Itzkowitz and Volkan, 254; Kinross, 415; Halide Edib, Turkey Faces West, New Haven, 1930, 221, 226.

(5) Istanbul Ansiklopedisi, art. 'Ataturk ve Istanbul'; Kinross, 443.

(6) Albert E. Kalderon, Abraham Galante, New York, 1983, 50; Park, 38, 61.

(7) Simsir, I, 683-5; Lf Journal, 14 March 1924.

(8) Interview with Basri Danishmend, 2 November 1991.

(9) Osmanoglu, 236, 240, 245.

(10) Landau, 103; Sacheverell Sitwell, Far from My Home: stories long and short, 1931,88, interview with Nigar Alcmdar, I July 1994; interview with Selim Dirvana, 9 October 1992.

(11) Kamal Madhar Ahmad, Kurdistan during the First World War, 1994, 92; Olson, Kurdish Nationalism, 53, 63, 64, 75; Chris Kutschera, Le Mouvement National Kurde, 1979, 31-3.

(12) PRO FO 371/12255, f. 63-4, Sir Henry Dobbs to Leo Amery 8 December 1926; f. 86, Sir G. Clerk to Austen Chamberlain 4 January 1927.

(13) Kutschera, 42; Chaliand, 40.

(14) André Raymond, Le Caire, 1993, 317; William L. Cleveland, The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in tin Life and Thought of Sati al-Husri, Cleveland, 1971, 30,44; interview with Khaldun al-Husri, 28 November 1994.

(15) Stitt, 290-1; Haidar, 238.

(16) Gerald de Gaury, Traces of Travel, 1983, 145 -6.

(17) Interview with Sherifa Sfyne, Alexandria, 4 January 1993.

(18) Alexandris, 162; Theotokas, 168; Thomas Doulis, Disaster and Fiction: Modern Greek Fiction and the Asia Minor Disaster of 1922, Berkeley, 1977, 92, 98,108, 217.

(19) PRO FO 371/9174, ff. 15 3-4, Lieutenant Patterson to director of military operations and intelligence n November 1923; Alexandris, 185; Angèle Lorely, 'Esquisses', Istanbul Library; Liddell, 100, 159, 238.

(20) Yerasimos, Istanbul, 202-3; Nicholas Bethell, The Palestine Triangle, 1979, 114-19.

(21) Alexandris, 217; interview with Baruh Pinto, 9 November 1993; Kalderon, 59.

(22) Istanbul Ansiklopedisi, art. 'Alti Yedi Eylul Olaylari'; Alexandris, 257, 262; John Pearson, The Life of Ian Fleming, 1966, 271.

(23) Feroz Ahmad, The Turkish Experiment in Democracy 1950-1975, 1977, 78-9, 89; Alexandras, 265, 271.

(24) Interview with Achilles Melas, I October 1992; Sturdza, 260, 82.

(25) Semih Vaner (ed.), Istanbul, 1991, 132; Tuglaci, Balian, 290, 427; interview with Istanbul Armenian, 14 July 1992.

(26) nterviews with E. F. de Testa, Paris 24, 25 February, 6 May 1994.

(27) Clayer and Popovic (eds.), 67.

(28) Mary C. Wilson, KingAbdullah, Britain and the Making of Jordan, Cambridge, 1987, 220.

(29) Interviews with Jose Naoum, Paris, 20 April, 20 May 1992.

(30) PRO FO 371/16013-16016, Ryan to Simon 21 June 1932.1 am grateful for this reference to Alan de Lacy Rush.

(31) H. St J. Philby, Arabian Jubilee, 257, 250-1; Gerald de Gaury, Faisal, King of Saudi Arabia, 1966, 22: I am grateful for these references to Alan Rush. David Holden and Richard Johns, The House of Saud, 1981, 203.

(32) Godfrey Goodwin, Sinan and City Planning, Rome, 1989, 83.

(33) Paul Wittek, 'Les Archives de Turquie,' Byzantion, 1938, 693.

(34) 'Stamboulimies,' Les Carents de l'Exotisme, XI, Janvier-Juillet 1993, 79, Abdulmecid to Loti 20 May 1921; Ernest Mamboury, Guide touristique, 363.

(35) Turkish Daily News, 26 September 1994.

ببليوغرافيا

المصادر الأولية

Archives du Ministere des Affaires Etrangeres, Paris: Correspondance Politique, Turquie, 68, 176: ambassadors' reports, 1724, 1787.

British Library, London, Add. MSS 38979, 38985, 38987, 39018, 39023-4, 39103: Layard Papers, letters of Ahmed Vefyk to Layard; 56301, Pisani to Strangford 1821.

Churchill College, Cambridge, De Robeck Papers, MSS 6/1, 6/18: correspondence of Admiral de Robeck.

Imperial War Museum, London, Fox-Pitt Papers (consulted by kind permission of Sarah Fox-Pitt): letters of W. A. F. L. Fox-Pitt to his parents.

National Library of Scotland, Edinburgh, Department of Manuscripts, Liston Papers, MSS 5 572, 5628, 5630: despatches of Liston and Pisani 1794-5, 1815-20; 5709, journal of Lady Liston 1812 _ 13.

Public Record Office, Kew, Middlesex, FO 78/225, 3081: diplomatic despatches 1833, 1880; FO 371/4162, 4241, 5162, 5170, 5172, 5178, 5190, 6469, 7893, 7907, 79912, 7916, 7962, 7917, 7962, 7963, 9174, 12255: papers of the British High Commission in Constantinople, 1918-23; WO 161/85: Sir James E. Edmonds, The Occupation of Constantinople 1918 - 1923'.

School of Oriental and African Studies Library, London, Paget Papers 50 X4: letters of Alexander Mavrocordato 1699. State Archives, Stockholm, Turcica 22, 24, 100: letters from Comte de Bonneval 1734 - 45.

المصادر الثانوية

ما لم يُذكر خلاف ذلك، فإن كل الأعمال الإنجليزية منشـورة في لندن، وكل الأعمال الفرنسـية منشورة في باريس، وكل الأعمال التركية منشورة في اسطنبول.

Abbott, G. F., Turkey in Transition, 1909.

--------Under the Turk in Constantinople, 1920.

Abdullah of Jordan, King, Memoirs, 1950.

Abou el-Hajj, Rifa'at Ali, The 1703 Rebellion and the Structure of Ottoman Politics, Istanbul, 1984.

------- Formation of the Modem State: the Ottoman Empire, Sixteenth to Eighteenth Centuries, Albany, 1991.

Abu-Lughod, Janet, Cairo: woo Years of the City Victorious, Princeton, 1971. Abu-Manneh, Butrus, 'Sultan Abdul Hamid II and the Sharifs of Mecca 1880-1900', Asian andAfrican Studies, 1972, 1—21.

Adivar, Adnan, La Science checks Turcs Ottomans, 1938.

Adjemoglou, Nicolaos, The Ayazmata of the City, Athens, 1990 (in Greek). Adnan, Abdulhak, La Science chez les Turcs Ottomans, 1939.

Afetinan, Prof. Dr, Aperçu general sur I'histoire economique de L'Empire Turc-Ottoman, 2nd edn., Ankara, 1976.

Ahmad, Feroz, The Young Turks: the Committee of Union and Progress in Turkish Politics 1908—1914, Oxford, 1969.

------- The Turkish Experiment in Democracy 195O—1975, 1977.

Alderson, A. D., The Structure of the Ottoman Dynasty, 1956.

Alexandris, Alexis, The Greek Minority of Istanbul and Greek-Turkish Relations 1918—1974, Athens, 1983.

Allom, Thomas and the Revd Robert Walsh, Constantinople and the Scenery of the Seven Churches of Asia Minor, 2 vols., 1838. Altuna, Abdulkadir, Osmanli Seyhulislamlari, Ankara, 1972. And, Metin, Karagovz 3rd edn., Istanbul, n.d.

------- A Pictorial History of Turkish Dancing, Ankara, 1976.

------- Turkish Miniature Painting, rev. edn., Istanbul, 1982.

------- Istanbul in the Sixteenth Century, Istanbul, 1994.

Andersen, Hans Christian, A Poet's Bazaar, New York, 1988.

Anderson, Dorothy, The Balkan Volunteers, 1968.

Anderson, M. S., The Eastern Question, 1982.

------- The Rise of Modem Diplomacy, 199 5.

Andrews, Walter G., Poetry's Voice, Society's Song: Ottoman Lyric Poetry, Seattle, 1985.

Anon., Fusilier Bluff: the Experience of an Unprofessional Soldier in the Near East 1918—1919, 1934.

Anon., Letters Historical and Critical from a Gentleman in Constantinople to his Friend in London, 1730.

Antonius, George, The Arab Awakening, Beirut, 1969 edn.

------- Argenti, Philip, The Massacres of Chios, 1932.

------- Armstrong, Harold, Turkey in Travail, 1925.

------- Turkey and Syria Reborn, 1930.

Arnakis, G. Georgiades, The Greek Church of Constantinople and the Ottoman Empire, Journal of Modem History, 1952, 235—50.

Arpee, Leon, A History of Armenian Christianity, New York, 1946. Artamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

------- Artan, Tulay, 'Architecture as a Theatre of Life: Profile of the Eighteenth-century Bosphorus', unpublished Ph.D. thesis, Massachussets Institute of Technology, 1989.

Artinian, Vartan, The Armenian Constitutional System in the Ottoman Empire 1839-1863, Istanbul, 1990.

Arzik, Imet, Anthologie de la poésie turque, 1968.

Ashmead-Bardett, Ellis, With the Turks in Thrace, 1913.

Atamian, Sarkis, The Armenian Community, New York, 1955.

Atasoy, Nurhan and Julian Raby, Iznik: the Pottery of Ottoman Turkey, 1989.

Atay, Falih Rifki, The Ataturk I Knew, Istanbul, 1982.

Atil, Esin (ed.), Süleymanname: the Illustrated History of Suleyman the Magnificent, Washington, 1986.

------- The Age of Sultan Suleyman the Magnificent, New York, 1987.

------- Turkish Art, New York, 1980.

Auldjo, John, Journal of a Visit to Constantinople and Some of the Greek Islands in the Spring and Summer of 1833, 1835.

Avrenche, Henry, La Mori de Stamboul, 1930.

Babinger, Franz, Mehmed the Conqueror and His Time, Princeton, 1992 edn.

Bailey, Frank E., British Policy and the Turkish Reform Movement, Harvard, 1932.

Baker, Patricia, 'The Fez in Turkey: a Symbol of Modernisation?', Costume, 1986, 72-85.

Baltimore, Lord, A Tour to the East in the Years 1763 and 1764, 1767.

Barbaro, Nicolo, Diary of the Siege of Constantinople 1453, tr. J. R. Jones, New York, 1969.

Bardakgi, Murat, Osmanlida Seks, 1993. Bareilles, Bertrand, Constantinople, 1918.

Barker, Arthur, 'The Cult of the Tulip in Turkey', Journal of the Royal Horticultural Society, LVI, 1931, 234—44.

Barker, Theo and Anthony Sutcliffe (eds.), Megalopolis: the Giant City in History, 1993.

Barnett, R. D., The Sephardi Heritage, 2 vols., 1971—89.

Baronian, Hagop, The Perils of Politeness, New York, 1983.

Barsoumian, Hagop Leon, 'The Armenian Amira Class of Constantinople', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1980.

Basmadjian, K. J., Essai sur l'histoire de la littérature ottomane, Constantinople, 1910.

Batu, Hamit et Jean-Louis Bacque-Gramont, L'Empire Ottoman: la Republique de Turquie et la France, Istanbul, 1986.

Batur, Enis (ed.), Encomium to Istanbul, Istanbul, 1991.

Baudin, P., Les Israelites de Constantinople, Istanbul, 1872, 1989 edn.

Belin, M. A., Histoire de la Latinite de Constantinople, 2nd edn., 1894.

Benbassa, Esther, Un Grand Rabbin sépharade en politique 1892—1923, 1991.

Benjamin, S. G. W., The Turks and the Greeks, New York, 1867.

Bennett,J. G., Witness, 1962.

Bent, J. Theodore (ed.), Early Voyages and Travels in the Levant, 1893.

Berk, Nurullah, Istanbul chez lespeintres turcs et Strangers, Istanbul, 1977.

Berkes, Niyazi, The Development of Secularism in Turkey, Montreal, 1964.

------- (ed.) Turkish Nationalism and Western Civilisation: Selected Essays of Zia Gokalp, 1959.

Bernachot, Jean, Les Armées alliées en Orient après l'Armistice de 1918, 4 vols., 1972—8.

Bernard, Yvelise, L'Orient du XVIe siècle à trovers les récits de voyageurs français, 1988.

Bertelé, Tommaso, Il Palaze degli ambasciatori di Venezla a Constantinopoli e le sue antiche memorie.

Bologna, 1932—X. Beydilli, Kemal, 'Ignatius Mouradgea d'Ohsson', Istanbul Universitesi Edebiyat Fakultesi Tarih Dergisi, XXXIV, 1984, 248-314.

Bibesco, Marthe, La Nympbe Europe, 1960.

Bierman, Irene et al. (eds.), The Ottoman City and its Parts, New Rochelle, 1991 edn.

Birge, John Kingsley, The Bektashi Order of Dervishes, 1965.

Blaisdell, Donald C, European Financial Control in the Ottoman Empire, New York, 1929.

Blancard, Theodore, Les Mauroyeni: histoire d'Orient, 2 vols., 1909.

Blanqui.J. A., Voyage en Bulgariependant Tannic 1841, 1843.

Blowitz, Henri de, Une Course a Constantinople, 1884.

Blunt, Wilfrid Scawen, Gordon at Khartoum, 1911.

------- My Diaries, 2 vols., 1919—20.

Boghossian, Sarkis, Iconographie armenienne, 1987.

Bonnac, Marquis de, Memoire historique sur L'Ambassade de France a Constantinople, 1894.

Bonneville de Marsangy, Louis, Le Chevalier de Vergennes: son ambassade a Constantinople, 2 vols., 1894.

Boppe, Catherine et Andre, Ees Peintres du Bosphore au XVIIIe siecle, 1989.

Boschma, Cornells and Jacques Perot, Antoine-Ignace Melling (iy6j—t8ji), artiste voyageur, 1991.

Bosscha Erdbrink, C, At the Threshold of Felicity: Ottoman-Dutch Relations during the Embassy of Cornells Calkoen at the Sublime Porte 1/26—1/44, Ankara, 197 5.

Bouchard, Jacques, 'Nicolas Mavrocordatos et l'epoque des tulipes', Eranisthes, XVII, Athens, 1981, 120-6.

------- 'Les Lettres fictives de Nicolas Mavrocordato a la maniere de Phalaris: une apologie de l'absolutisme', Revue des Etudes du Sud-Est Europeen, XIII, 197 2,197—207.

------- (ed.), Les Loisirs de Philothée, Athens—Montreal, 1989.

Boulden, James E. P., An American among the Orientals, Philadelphia, 1855.

Boutros-Ghali, Anna Naguib and Archag Alboyadjian, Les Dadian, Cairo, 1965.

Brassey, Mrs, Sunshine and Storm in the East or Cruises to Cyprus and Constantinople, 1880.

Braude, Benjamin and Bernard Lewis (eds.), Christians and fews in the Ottoman Empire,

2 vols., 1982.

Brown, Horatio F., Studies in the History of Venice, 2 vols., 1907.

Brown, Sarah Graham, Images of Women: the Portrayal of Women in Photography of the Middle East 1860-19)0, 1988.

Brummett, Palmyra, Ottoman Seapower and Levantine Diplomacy in the Age of Discovery, Albany, 1994.

Brun, Charles, 'Les Grecs de Constantinople', Revue Modeme, LII, 10 June 1869, 422-39.

Busbecq, Ogier Ghislain de, Turkish Letters, Oxford, 1927.

Buxton, C. R., Turkey in Revolution, 1909.

Cabuk, Vahid, Koprululer, 1988.

Calosso, Colonel, Memoires d'un vieux soldat, Turin—Nice, 1857.

Camariano, Nestor, Alexandre Mavrocordato le Grand Drogman: son activite diplomatique, Thessaloniki, 1970.

Camariano-Cioran, Ariadna, Les Academies princierts de Bucarest et de jassy et leurs professeurs, Thessaloniki, 1974. Cambon, Paul, Correspondence, 3 vols., 1940—6.

Cantacasin, Theodore Spandouyn, Petit Traicte de Torigine des turcqz ed. Charles Schefer, 1896.

Cantacuzene, Jean Michel, MilleAns dans les Balkans, 1992.

Carayon, Pere Auguste, Relations inédites de la Compagnie de Jésus à Constantinople et dans le Levant, 1864.

Carlier de Pinon, M., Voyage en Orient, 1920.

Carnoy, Henry et Jean Nicolaides, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894.

Catalogue de la Bibliotheque de feu Ahmed Vefyk Pacha, Constantinople, 1893.

Catalogue desperles, pierreries, bijoux et objets d'art precieux, le tout ayant appartenu a S.M. le Sultan Abdul Hamid II, dont la vente aura lieu a Paris, November 1911.

Caussin de Perceval, A. P. (tr.), Precis historique de la destruction du corps desfanissaires par le Sultan Mahmoud en 1826, 1833.

Celik, Zeyneb, The Remaking of Istanbul, Seattle and London, 1989.

Cevaat Bey, Ali, Fezleke, Ankara, 1960.

Cezar, Mustafa, XIX Yuzyil Beyoglusu, Istanbul, 1991.

Chalcondyle, L'Histoire de la decadence de L'Empire Grec et de Tetablissement de celuy des Turcs, 2 vols., 1662.

Chaliand, Gerard (ed.), A People without a Country: the Kurds and Kurdistan, 199 3 edn. Champonnois, Suzanne, Le Mythe de Constantinople et Topinion publique en Russie au XIXe siecle, Istanbul, 1989.

Charlemont, Lord, Travels in Greece and Turkey 1749, ed. W. B. Stanford and E.J. Finopulos, 1984.

Charriere, M. de, Negotiations de la France dans le Levant, 4 vols., 1848—60.

Chassiotis, G, L'Instruction publique chez les Grecs depuis la prise de Constantinople par les Turcs, 1881.

Chenier, Madame, Lettres sur les dansesgrecques, 1879 edn.

Chesneau d'Aramon, Jean, Le Voyage de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeurpour le Roy au Levant, ed.

Charles Schefer, 1887.

Choiseul-Gouffier, Comte de, Voyagepittoresque de la Grice, 2 vols., 1782—1809.

Cizgen, Engin, Photography in the Ottoman Empire 18)9-1919, Istanbul, 1987.

Clark, E. C, 'The Ottoman Industrial Revolution', International fournal of Middle East Studies, V, 1974, 65—76.

Clayer, Nathalie and Alexandre Popovic (eds.), Presse turque et presse de Turquie, Istanbul—Paris, 1992.

Cleveland, William I., The Making of an Arab Nationalist: Ottomanism and Arabism in the Life and Thought of Sati al-Husri, Cleveland, 1971.

Clogg, Richard (ed.), Balkan Society in the Age of Greek Independence, 1981.

------- The Struggle for Greek Independence, 1973.

------- The Movement for Greek Independence, 1976.

Cockerell, C. R., Travels in Southern Europe and the Levant 1810-1817, 1903.

Constant, Stephen, Foxy Ferdinand, 1979.

Constantinios Constantiniade ou Description de Constantinople ancienne et moderne compare par unphilologue et archeologue, Constantinople, 1846.

Cook, M. A. (ed.), A History of the Ottoman Empire to 1730, Cambridge, 1976.
Correspondence respecting the Disturbances at Constantinople in August 1896 presented to both Houses of Parliament by command of Her Majesty, 1897.

Coufopoulos, Demetrius, A Guide to Constantinople, 1910.

Cox, Samuel S., The Isles of the Princes; or, the Pleasures of Prinkipo, 1887.

------- Diversions of a Diplomat in Turkey, New York, 1887.

Crawford, F. Marion, Constantinople, 1895.

Criss, Nur Bilge, 'Istanbul during the Allied Occupation', unpublished Ph.D. thesis,

George Washington University, 1990. Cunningham, Allan, Anglo-Ottoman Encounters in the Age of Revolution, 1993.

------- Eastern Questions in the Nineteenth Century, 1993.

Curtis, William Eleroy, Turkestan, the Heart of Asia, 1911.

Curtiss, John Shelton, Russia's Crimean War, Durham, North Carolina, 1979.

Dadian, Prince Mek-B., 'La Societé armenienne contemporaine', Revue des Deux Mondes, 15 June 1867, 903-28.

Dadrian, Vahakn N., 'The Documentation of the World War I Armenian Massacres in the Proceedings of the Turkish Military Tribunal', International Journal of Middle East Studies, XXIII, 1991, 549—76.

Dallaway, James, Constantinople Ancient and Modern, 1798.

Dalleggio d'Alessio, E., 'Liste des Podestats de la colonie genoise de Pera', Revue des Etudes Byzantines, XXVII, 1969, 151-7.

Dankoff, Robert (ed.), The Intimate Life of an Ottoman Statesman: Melek Ahmed Pasha, as Portrayed in Evliya Celebi's Book of Travels, Albany, 1991.

Dasnabedian, Hratch, History of the Armenian Revolutionary Federation Dashnaktsutian 1890—1924, Milan, 1990.

Davis, Revd, E. J., Osmanli Proverbs and Quaint Sayings, 1898.

Davis, Fanny, The Ottoman Lady: a Social History from 1718 to 1918, New York, 1986.

Davis, James C. (ed. and tr.), The Pursuit of Power Venetian Ambassadors' Reports from Spain, Turkey, France in the Age of Philip II, 1970.

Davison, Roderick H., Reform in the Ottoman Empire 1856-1918, Princeton, 1963.

Dawn, C. Ernest, From Ottomanism toArabism: Essays on the Origins of Arab Nationalism, Urbana, 1973.

De Amicis, Edmondo, Constantinople, 1894 edn. Dedem de Gelder, Baron de, Memoires, 1900.

De Gaury, Gerald, Rulers of Mecca, 1951.

------- Three Kings in Baghdad, 1961.

------- Traces of Travel, 1983.

Deherain, H., La Vie de Pierre Ruffin, 2 vols., 1929-30.

Deleon.Jak, A Taste of Old Istanbul, Istanbul, 1989.

------- Ancient Districts on the Golden Horn, Istanbul, 1992.

Deringil, Selim, 'The Invention of Tradition as Public Image in the Late Ottoman Empire, 1808 to 1980', Comparative Studies in Society and History, XXXV, 1, January 1993.

------- 'Legitimacy Structures in the Ottoman State: the Reign of Abdulhamid II 1876-1909', International fournal of Middle East Studies, XXIII, 1991, 345-59.

Deschamps, Gaston, ,4 Constantinople, 1913.

Destrilhes, M., Confidences sur la Turquie, 1855.

Devereux, Robert, The First Ottoman Constitutional Period, Baltimore, 1963.

------- 'Suleyman Pasha's "the Feeling of the Revolution, Middle Eastern Studies, XV, I. 1979. 3—35.

Devrim, Shirin, Turkish Tapestry: the Shakirs of Istanbul, 1994.

Diamandouros, Nikoros P. (ed.), Hellenism and the First Greek War of Liberation (1821—1830), Thessaloniki, 1976.

Diamantopoulo, Hercule, Le Reveilde la Turquie, Alexandria, 1908.

Dimaras, C. Th., Histoire de la litterature neo-hellenique, Athens, 1965.

Djevad Bey, A., État militaire ottoman depuis la fondation de I'Empire jusqu'd nos jours, Constantinople—Paris, 1882.

Dodds, Anna Bowman, In the Palaces of the Sultan, 1904.

Dos Passos, John, Orient Express, New York, 1927.

Douglas, Revd J. A., The Redemption of Saint Sophia, 1919.

Doulis, Thomas, Disaster and Fiction: Modern, Greek Fiction and the Asia Minor Disaster of 1922, Berkeley, 1977.

Driault, Edouard, La Politique orientale de Napoleon, 1904.

------- L'Egypte et l'Europe: la Crise de 1839—1841, 2 vols., Cairo, 1930-31.

------- and Michel L'Heritier, Histoire diplomatique de la Grece de 1821 à nos Jours, 5 vols., 1925-6.

Duben, Alan and Cem Behar, Istanbul Households: Marriage, Family and Fertility 1880—1940, Cambridge, 1991.

Dudell, Tim, Tales from the Orient and Pera: Sketches of Constantinople, Constantinople, n.d.

Dufferin and Ava, Dowager Marchioness of, My Russian and Turkish Journals, 1917.

Du Fresne Canaye, Philippe, Le Voyage du Levant, 1986 edn.

Duhani, Said N., Vieilles Gens, vieilles demeures, Istanbul, 1947.

------- Quand Beyoğlu s'appelait Pera, Istanbul, 1956.

Dumesnil, Vera, Le Bosphore tant aime, Brussels, 1947.

Du Mont, M., Voyages, 4 vols., La Haye, 1699.

Dumont, Paul, Mustafa Kemal, Brussels, 1983.

Duparc, Pierre, Recueil des instructions donnees aux ambassadeurs et ministres de France, 1969.

Durand, Alfred,Jeune Turquie, Vieille France, 1909.

Dutu, Alexandru and Paul Cernovodeanu (eds.), Dtmitrie Cantemir, Historian ofSouth-East European and Oriental Civilisations, Bucharest, 1973.

Dwight, Henry O, Turkish IJfe in War Time, 1881.

------- Constantinople and its Problems, 1901.

Dyer, Gwynne, The Turkish Armistice of 1918: 2', Middle Eastern Studies, VIII, 3, October 1972, 313—48. Edib, Halide, Memoirs, 1926.

------- The Turkish Ordeal, 1928.

------- Turkey Faces West, New Haven, 1908.

Edwards, Emile, Mon Maitre chéri, 1915.

------- Journal d'un habitant de Constantinople 1914—191), 1915.

Edwards, George Wharton, Constantinople-Stamboul, Philadelphia, 1950.

Eldem, Edhem (ed.), Recherches sur la ville ottomane: le cas du quartier de Calata, Istanbul, 1991.

------- La Vie politique, économique et socio-culturelle a l'epoque jeune-turque, Istanbul, 1991.

Eldem, Seddad Hakki, Reminiscences of Istanbul, Istanbul, 1979.

------- Reminiscences of the Bosphorus, Istanbul, 1979.

Eliot, Sir Charles, Turkey in Europe, 1900.

Elliot, Sir Henry G., Some Revolutions and other Diplomatic Experiences, 1927.

Elliott, J. H., Richelieu and Olivares, 1992 edn.

El-Tangrouti, Relation d'une ambassade marocaine en Turquie, ed. Henry de Castries, 1929.

Emin, Ahmed, The Development of Modern Turkey as Measured by its Press, New York, 1914.

------- Turkey in the World War, New Haven, 1930.

Encyclopedia of Islam, 2nd edn., Leiden, 1956—.L'Époque phanariote, Thessaloniki, 1974 (conference proceedings).

Epstein, Mark Alan, The Ottoman Jewish Communities and their Role in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Freiburg, 1980.

Esenbel, Selcuk, 'A fin de siècle Japanese Romantic in Istanbul: the Life of Yamada Torajiso and his Toruko Gakan or a Pictorial Look at Turkey', unpublished article, Istanbul, 1994. Essayan, Zabel, LesJardins de Silihdar, 1994.

Etmekjian, James, The French Influence on the Western Armenian Renaissance 184)—1917, New York, 1964.

Exertoglou, H., 'The Greek Bankers in Constantinople 1856—1881', unpublished Ph.D. thesis, London, 1985. Exhibition catalogues:

Les Peintures 'turques' de Jean-Baptiste Vanmour 1671—1737, Ankara, 1975.

L'Orient desprovencaux dans l'histoire, Marseilles, 1982.

Vers L'Orient, Bibliotheque Nationale, 1983.

At the Sublime Porte, Hazlitt, Gooden and Fox, London, 1988.

The Turkish Legacy, Bodleian Library, 1988.

Topkapi en Turkomanie, Museum voor Volkenkunde, Rotterdam, 1989.

Dessins de Motard, Musee du Louvre, 1992.

C. G. Lowenhielm, Artist and Diplomat in Istanbul 1824-7, Uppsala, 1993.

Women in Anatolia: Nine Thousand Years of the Anatolian Woman, Topkapi Saray Museum, 1993.

Louis-Francois Cassas 1716-1827, Musee des Beaux-Arts, Tours, 1994.

Evliya Celebi, Narrative of Travels in Europe, Asia and Africa in the Seventeenth Century, 2 vols., 1 834—50. Ezgin, Fouad, YildizSaray Tarihcesi, Istanbul, 1962.

Farmayan, Hafez and Elton L. Daniel (eds.), A Shi' ite Pilgrimage to Mecca 1885 - 1886, 1990.

Farooqi, Naimur Rahman, Mughal-Ottoman Relations, Delhi, 1989.

Faroqhi, Suraiya, Towns and Townsmen of Ottoman Anatolia, Cambridge, 1984.

------- Pilgrims and Sultans: the Hajj under the Sultans, 1994.

Farrere, Claude, L'Homme qui assassina, 1928.

Fazy, Edouard, Les Turcs d'aujourd'hui, 1898. Ferriman, Z. Duckett, Turkey and the Turks, 1911.

Ferriol, Marquis de, Correspondance, Antwerp, 1870.

------- (ed.), Recueil de cent estampes repre'sentant differentes nations du Levant, 1914.

Fesch, Paul, Constantinople aux dernier jours d'Abdul Hamid, 1907.

Findlay, Carter V., Bureaucratic Reform in the Ottoman Empire: the Sublime Porte 1789—1922, Princeton, 1980.

------- Ottoman Civil Officialdom, Princeton, 1992.

Finefrock, Michael M., 'From Sultan to Republic: Mustafa Kemal Ataturk and

the Structure of Turkish Politics 1922—24, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1976.

Fischer, Fritz, War of Illusions: German Policies from 1911 to 1914, 1975.

Fisher, C. G. and A. W. Fisher, Topkapi Sarayi in the Mid-Seventeenth Century: Bobovi's Description', Archivum Ottomanicum, X, 1985, 5—81.

Fleischer, Cornell H., Bureaucrat and Intellectual in the Ottoman Empire: the Historian Mustafa Ali, Princeton, 1986. Fletcher, Richard, Moorish Spain, 1992.

Francis, Louis, Le Neige de Galata, 1936. Franck, Harry A., The Fringe of the Moslem World, 1928.

Franco, M., Essai sur I'histoire des Israelites de ('Empire Ottoman, 1897. Frangos, G, 'The Philike Etairia', unpublished Ph.D. thesis, Columbia, 1971.

Frazee, Charles A., Catholics and Sultans, 1983.

Freely, John, Stamboul Sketches, Istanbul, 1974.

Freni, Vera and Carla Varnier, Raimondo d'Aronco: I'opera completa, Padova, 1983.

Fuller, John, Narrative of a Tour through some Parts of the Turkish Empire, 1829.

Galante, Abraham (all works published in Istanbul):

------- Don Joseph Nasi Due de Naxos, 191 3.

------- Esther Kyra d'après de nouveaux documents, 1926.

------- Hommes et chosesjuifs portugais en Orient, 1927.

------- Documents officiels turcs concernant les fuifs de Turquie, 19 31.

------- Turcs et Juifs, 1932.

------- Abdul Hamid II et le Sionisme, 1933.

------- Nott Veaux Documents sur Sabbetai Sevi, 1935.

------- Medecins juifs au service de Turquie, 1935.

------- Don Salomon aben Yacche, Due de Metelen, 1936.

------- Les Synagogues d'Istanbul, 1937.

------- Histoire des Juifs d'Istanbul, 2 vols., 1941—2.

------- Appendice a l'histoire des Juifs d'Istanbul, 1941.

------- Recueil de nouveaux documents concernant l'histoire des Juifs de Turquie, 1949.

------- Nouveau Recueil de nouveaux documents inedits concernant l'histoire des fuifs de Turquie, 1952.

------- Encore un Nouveau Recueil de documents concernant les Juifs de Turquie: études scientifiques, 1953.

------- Les Juifs d'Istanbul sous le Sultan Mehmed le Conquerant, 1953.

Galland, Antoine, Journal, 2 vols., 1881.

Gallenga, A., Two Years of the Eastern Question, 2 vols., 1877.

Garnett, Lucy M.J., The Dervishes of Turkey, 1990 edn.

------- The Women of Turkey and their Folk-lore, 2 vols., 1890.

Gautier, Theophile, Constantinople, Istanbul, 1990 edn.

Gawrych, George W., 'Tolerant Dimensions of Cultural Pluralism: the Ottoman Empire and the Albanian Community 1800—1912', International Journal of Middle East Studies, XV1983, 519—36.

Gerasimos, Augustinos, Consciousness and History: Nationalist Critics of Greek Society, New York, 1977.

Germaner, Semra and Zaynep Inankur, Orientalism and Turkey, Istanbul, 1989.

Gibb, E. J. W., A History of Ottoman Poetry, 6 vols., 1900—9.

Gilbert, Martin, Sir Horace Rumbold, 1973.

------- Churchill: a Life, 1991.

Gilles, Pierre, The Antiquities of Constantinople, New York, 1988.

Gilmour, David, Curzon, 1994.

Gocek, Fatma Muge, East Encounters West France and the Ottoman Empire in the Eighteenth Century, New York, 1987. Goffman, Daniel, Izmirand the Levantine World 1660—1690, 1990.

Gonul, Sevgi, The Sadberk Hanim Museum, Istanbul, 1988.

Goodblatt, Morris, S., Jewish Life in Turkey in the Sixteenth Century, New York, 1952.

Goodrich-Freer, A., Things Seen in Constantinople, 1926.

Goodwin, Godfrey, A History of Ottoman Architecture, 1992 edn.

------- Sinan and City Planning, Rome, 1989.

------- The Janissaries, 1994.

Gordon, Mrs Will, A Woman in the Balkans, 1916. Graves, Philip, Briton and Turk, 1941.

Greenwood, Anthony, 'Istanbul's Meat Provisioning: a Study of the Celepjan

System', unpublished Ph.D. thesis; Chicago, 1981.

Grelot, M., Relation nouvelle d'un voyage de Constantinople, 1681. Grenville, Henry, Observations sur Ntat actuel de l Empire Ottoman (1766), Ann Arbor, 1965.

Grenville, J. A. S., Lord Salisbury and Foreign Policy: the Close of the Nineteenth Century, 1970.

Groc, Gérard and I. Caglar, La Presse française de Turquie de 1795; à nosJours, Istanbul, 1985.

Guilleragues, Comte de, Correspondance, 2 vols., Geneva, 1976.

Gulbenkian, Nubar, Pantaraxia, 1965.

Gulersoy, Celik (all works published in Istanbul):

------- Hidiver ve Cubuklu Kasri, 1985.

------- Dolmabahce Palace and its Environs, 1990.

------- The Story of the Grand Bazaar, 1990.

------- Taksim: the Story of a Square, 1991.

------- The Caique, 1991.

------- The Ceragan Palaces, 1992.

Gurkan, Dr K. I. et al.. Lectures Delivered on the fiith Anniversary of the Con-

quest of Istanbul, Istanbul, 1964.

Gursan-Salzmann, Ayse, Anyos Muxhos y Buenos: Turkey's Sephardim 1492—1992, Philadelphia, 1992.

Gursu, Nevber, The Art of Turkish Weaving, Istanbul, 1988. Guys, M., Voyage littéraire de la Grice, 3rd edn., 2 vols., 1783.

Habesci, Elias, The Present State of the Ottoman Empire, 1784.

Haidar, Musbah, Arabesque, 1944.

Halid, Halil, Diary of a Turk, 1903.

Halman, Talat S., Suleyman the Magnificent, Poet, Istanbul, 1989.

Halpern, Paul G., The Mediterranean Naval Situation 1908-1914, Cambridge, Mass., 1971.

------- The Naval War in the Mediterranean 1914—1918, 1987.

------- (ed.), The Royal Navy in the Mediterranean 1915;—1918, 1987.

Hamlin, Cyrus, Among the Turks, 1878.

------- My Life and Times, 1897.

Hammer.J. de, Histoire de L'Empire Ottoman, 16 vols., 1835—40.

------- Erinnerungen, Vienna, 1940.

Hanioğlu, M. Şükrü, Kendi Mektuplarinda Enver Pasha, 1989.

Harington, General Sir Charles, Tim Harington Looks Back, 1940. Harris, George S., The Origins of Communism in Turkey, Stanford, 1967.

Hasluck, F. W., Christianity and Islam under the Sultans, 2 vols., 1925.

Hassiotis, J. K., 'The Greeks and the Armenian Massacres', Neo-hellenika, IV, 1981, 69—101.

Hauterive, Comte d', Memoire sur Petal ancien et actuel de la Moldavie . . . en 1787, Bucharest, 1902.

Heller, Joseph, British Policy towards the Ottoman Empire 1908—1914, 1983.

Hellier, Chris and Franco Venturi, Splendours of the Bosphorus: Houses and Palaces of Istanbul, 1993.

Henderson, Nevile, Water under the Bridges, 1945.

Herbert, Aubrey, Ben Kendim, 1918. Herlihy, Patricia, Odessa: a History 1794— . 1914, 1986.

Herzl, Theodore, Diaries, 1958.

Hobhouse, John Cam, A Journey through Albania and other Provinces of Turkey during the

years 1809 and 1860, 181 3.

Hope, Thomas, Anastasius or Memoirs of a Creek, 2 vols., 18 36 edn. Hornby, Edmund, An Autobiography, 1929.

Hornby, Lady, Constantinople during the Crimean War, 1 863.

Humurzaki, Baron Eudoxiu de (ed.), Documenteprivitoare la Istoria romanilor, ol. XVI, Bucarest, 1912.

Hunter, William, Travels through France, Turkey and Hungary to Vienna in 1792, 3rd edn., 2 vols., 1803.

Huscher, Herbert, 'Alexander Mavrocordato, friend of the Shelleys', Bulletin of the Keats—Shelley Memorial Association,1965, 29—37.

Ignatyev, Count, 'Memoirs', Slavonic Review, X.June 19 31, 386—407, 627—640; 1932, 341-5 3. 556-71.

Ihsanoglu, Ekmeleddin, Istanbul- a glimpse into the Past, Istanbul, 1987. Imber, Colin, The Ottoman Empire ijoo—1481, Istanbul, 1990.

Inalcik, Halil, The Ottoman Empire: the Classical Age 1300—1600, 1973.

------- The Ottoman Empire: Conquest, Organisation and Economy, 1978.

------- Studies in Ottoman Social and Economic History, 1985.

------- The Middle East and the Balkans under the Ottoman Empire, Bloomington, 1993.

------- and Cemal Kafadar, Suleyman the Second and His Time, Istanbul, 1993.

and Donald Quataert, An Economic and Social History of the Ottoman Empire, 1 994.

Iorga, Nicolas, Byzance apris Byzance, 1992 edn.

------- Histoire des Romains et de la Romanite orientate, 9 vols., Bucharest, 1937—44.

Ipsirli, Mehmet, 'Mustafa Selaniki's History of the Ottomans', unpublished Ph.D. thesis, Edinburgh, 1976. Ismail, F., 'The Diplomatic Relations of the Ottoman Empire and the Great European Powers from 1800 to 1821', unpublished D.Phil. thesis, London, 1975.

Issawi, Charles, An Economic History of Turkey 1800—1914, Chicago, 1980.

Istanbul á la Jonction des cultures balkaniques, mediterraneennes, slaves et orientales aux XVT—XIXe siecles, Bucarest, 1977.

Istanbul Ansiklopedisi, 10 vols., Istanbul, 1993—5.

Istanbul Selections, Istanbul, 1993 (magazine).

Itzkowitz, Norman and Max Mote, Mubadele: an Ottoman-Russian Exchange of Ambassadors, Chicago, 1970.

------- and Vamik D. Volkan, The Immortal Ataturk a Psychobiography, Chicago, 1984.

Jaeckh, Ernst, The Rising Crescent, New York, 1944.

Jamgocyan, Onnik, 'Les Finances de l'Empire Ottoman et les financiers de Constantinople', thèse d'état, Universite de Paris, I, 1988.

------- 'L'Apprivoisonnement de Constantinople, la Revolution francaise et le declin du negoce francais', Arab Historical Review for Ottoman Studies, VII, October 1993, 127-42.

Jelavich, Barbara, The Ottoman Empire, the Great Powers and the Straits Question 18/0-/887, Bloomington, 1973.

------- History of the Balkans: Eighteenth and Nineteenth Centuries, 1983.

Jevakhoff, Alexandre, Kemal Ataturh Us chemins de I'Occident, 1989.

Johnson, Clarence R., Constantinople Today: the Pathfinder Survey, New York, 1922.

Johnstone, Pauline, Turkish Embroidery, 1985.

Jones, J. R. Melville, The Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts, Amsterdam, 1972. Juhacz, Esther (ed.), Sephardifews in the Ottoman

Empire, Jerusalem, 1989.

Kadri, Yakup, Sodome et Gomorrhe, 1928.

Kafadar, Cemal, Yeniçeri—Esnaf Relations: Solidarity and Conflict', unpublished Ph.D. thesis, McGill University, 1981.

------- Self and Others: the Diary of a Dervish in Seventeenth-century Istanbul and First Person Narrative in Ottoman Literature', Studia Islamica, LXIX, 1989, 121—50. Kalderon, Albert E., Abraham Galante, New York, 1983.

Kaldy-Nagy, G., 'The Holy War in the First Centuries of the Ottoman Empire', Harvard Ukrainian Studies, IV, 1980.

Kampman, A. A., The Swedish Palace in Constantinople, 1971.

Kannengiesser Pasha, Hans, The Campaign in Gallipoli, 1927.

Karahan, Abdulkadir, Les Poetes classiques a l'epoque de Soliman le Magnifique, Ankara, 1991.

Karmi, Ilan, Jewish Sites of Istanbul: a Guide Book, Istanbul, 1992.

Karpat, Kemal H., The Ottoman State and its Place in World History, Leiden, 1974.

Ottoman Population, Wisconsin, 1985.

Kastoryano, Lidya, Quand I'Innocence avait un sens, Istanbul, 1993. Katib Celebi, The Balance of Truth, ed. G. L. Lewis, 1957.

Kayra, Cahit, Maps of Istanbul, Istanbul, 1990.

Kazamias, Andrew, Education and the Quest for Modernity in Turkey, 1966.

Kazgan, Haydar, Galata Bankerleri, Istanbul, 1991.

Keddie, Nikki R., Sayyidfamal ad-din 'al-Afghani', Los Angeles, 1972.

------- and Lois Beck (eds.), Women in the Muslim World, 1978.

Kelly, Laurence, Istanbul: a Traveller's Companion, 1987.

Kemal Bey, Ismail, Memoirs, 1920.

Kent, Marian (ed.), The Great Powers and the End of the Ottoman Empire, 1984.

Keun, Odette, Mesdemoiselles Daisne de Constantinople, c. 1920.

Kevorkian, Raymond H. and Paul B. Paboudjian, Les Armeniens dans l'Empire Ottoman a la veille du genocide, 1992.

Khitrovo, Mme B. de, Itineraires russes en Orient, Geneva, 1889.

Kinross, Lord, Ataturh the Rebirth of a Nation, Nicosia, 1981 edn.

Kitromilides, Paschalis M., The Enlightenment as Social Criticism: Miosipis Moisiodax and Greek Culture in the Eighteenth Century, Princeton, 1992.

Kitsikis, Dimitris, LEmpire Ottoman, 1985.

Knatchbull-Hugesson, Sir Hugh, Diplomat in Peace and War, 1949.

Knight, E. F., The Awakening of Turkey, 1909.

Knos, Borje, L'Histoire de la litterature neo-grecque, Uppsala, 1962.

Knudsen, Erik Lance, Great Britain, Constantinople and the Turkish Peace Treaty, New York, 1987.

Koprulu, M. Fuad, The Origins of the Ottoman Empire, ed. Gary Leiser, Albany, 1992.

Kortepeter, Carl Max, The Ottoman Turks: from Nomad Kingdom to World Empire, stanbul, 1991.

Kritovoulos, History of Mehmed the Conqueror, Princeton, 1954.

Kuneralp, Sinan (ed.), Studies in Ottoman Diplomatic History, 5 vols., Istanbul, 1987—90.

Kunt, Metin, 'The Koprulu Years 1656—1661', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1971.

Kuran, Aptullah, Sinan the Grand Old Man of Ottoman Architecture, Istanbul, 1987.

Kurat, Akdes Nimet (ed.), The Despatches of Sir Robert Sutton, Ambassador in Constantinople 1710— 1714, 1953.

Kushner, David, The Rise of Turkish Nationalism, 1977.

Kutschera, Chris, Le Mouvement National Kurde, 1979. Labourdette, J. F., Vergennes, 1990.

La Motraye, A. de, Voyages . . . en Europe, Asie et Afrique, 2 vols., La Haye, 1727.

Landau, Jacob M., Ataturk and the Modernisation of Turkey, Boulder and Leiden, 1984.

------- Tekinalp: Turkish Patriot 1883—1961, Istanbul, 1984.

Lane-Poole, Stanley (ed.), The People of Turkey: Twenty Years Residence among Bulgarians, Greeks, Albanians, Turks and Armenians by a Consul's Daughter and his Wife, 2 vols., 1878.

------- The Life of Sir Stratford Canning, Viscount Stratford de Redcliffe, 2 vols., 1888.

Lang, David Marshall, The Armenians: a People in Exile, 1988 edn.

Lauzanne, Stephane, Au chevet de la Turquie, 191 3. Layard, Sir Austen, Autobiography and Letters, 2 vols., 1903.

Lechevalier, J. B., Voyage de la Propontide et du Pont Euxin, 2 vols., 1800.

Lees, Andrew, Cities Perceived: Urban Society in European and American Thought 1820—1940, Manchester, 1985.

Le fort, Jacques, Documents grecs dans les archives de Topkapi Sarayi: contribution a I'histoire de Cem Sultan, Ankara, 1981.

Legrand, Emile, Recueildepoemes historiques engrec vulgaire, 1877. Leila Hanoum, Le Harem imperial et les sultanes au XIXe siécle, Brussels, 1991.

Lesure, Michel, Lepante: la crise de l'Empire Ottoman, 1972.

Levy, Avigdor, 'The Military Policy of Sultan Mahmud II 1808—1859', unpublished Ph.D. thesis, Harvard, 1968.

------- The Ottoman Ulama and the Military Reforms of Sultan Mahmud II', Asian and African Studies, VII, 1971, 13—39.

------- The Officer Corps in Sultan Mahmud IPs New Ottoman Army 1826—1839'.

------- International Journal of Middle East Studies, II, 1971, 21—39.

------- The Sepbardim in the Ottoman Empire, Princeton, 1992.

Lewis, Bernard, The Emergence of Modern Turkey, i960.

------- Istanbul and the Civilisation of the Ottoman Empire, Norman, Oklahoma, 1963.

------- Islam in History, 1973.

------- The Muslim Discovery of Europe, 1982.

------- The fews of Islam, 1984.

------- The Political Language of Islam, Chicago, 1988.

------- Race and Slavery in the Middle East: a Historical Enquiry, New York, 1990.

Liddell, Robert, Byzantium and Istanbul, 1956.

Lieven, D. C. B., Russia and the Origins of the First World War, 1983.

Lifchez, Raymond F. (ed.), The Dervish Lodge: Architecture, Art and Sufism in Ottoman Turkey, Berkeley, 1992.

Ligne, Marechal Prince de, Memoires, 5 vols., 1828.

Liskar, Elizabeth (ed.), Europa und die Kunst der Islam, Wien, 1985,

------- Loti, Pierre, Aziyade: Stamboul 1876-1877, 1892 edn.

------- et Samuel Viaud, Supremes Visions d'Orient, 1921.

Lowry, Heath W., The Story behind Ambassador Morgenthau's Story, Istanbul, 1990.

Lybyer, Albert H., The Government of the Ottoman Empire in the Time of Suleiman the Magnificent, Cambridge, Mass., 1913.

Macarius, Patriarch of Antioch, Travels, 1936.

MacDermott, Mercia,History of Bulgaria 1393-1885, 1962.

MacFarlane, Charles, Constantinople in 1828, 2 vols., 2nd edn. 1829.

------- Turkey and its Destiny, 2 vols., 1850.

Macfie, A. L., The Straits Question 1908-1936, Thessaloniki, 1993.

Mackenzie, Molly, Turkish Athens, Reading, 1992.

Magoulias, Harry J. (ed.), The Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks, Detroit, 1975.

Mamboury, Ernest, The Tourist's Istanbul, Istanbul, 1953.

Mamoni, Kyriaki, 'Les Associations pour la propagation de l'instruction grecque a Constantinople (1861-1922)', Balkan Studies, 1975, XVI, i, 103-12.

Mango, Cyril, Studies on Constantinople, Aldershot, 1993.

Mann, Stuart E., Albanian Literature, 1955.

Mansel, Philip, Sultans in Splendour, the Last Years of the Ottoman World, 1988.

Mantran, Robert (ed.), Histoire de I'Empire Ottoman, 1989.

------- Istanbul dans la seconde moitie du XVIIe siécle, 1962.

------- La Vie quotidienne a Istanbul au siecle de Soliman le Magnifique, 1990 edn.

------- Mardin, Serif, 'Super Westernisation in Urban Life in the Last Quarter of the Nineteenth Century', in Peter Benedict et al. (eds.), Turkey: Geographical and Social Perspectives, Leiden, 1974, 43—45.

------- The Genesis of Young Ottoman Though, Princeton, 1962.

------- Religion and Social Change in Modem Turkey: the Case of Bediuzaman Said Nursi, Albany, New York, 1989.

Marinescu, Florin, Etude genealogique sur la famille Morouvj, Athens, 1987.

------- with Georgeta Penelea-Filitti and Anna Tabaki (eds.), Documents greco-roumains: le Fonds Morvuvj d'Athenes, Athens-Bucharest, 1991.

Marsigli, Comte de, L'État militaire de /Empire Ottoman, ses progres et sa decadence, La Haye—Amsterdam, 1732.

Masson, Paul, Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIe siecle, 1896.

------- Histoire du commerce francais dans le Levant au XVIIIe siecle, 1911.

Mavrocordatos, G. A., De la Reforme et de la finance des Romains en Orient, Athens, 1856. Mavroyennis, Alexandre, Contribution a I'histoire du Proche-Orient, 2 vols., Istanbul, 1950.

Mavroyennis Pacha, Chiens errants de Constantinople, et chiens et chats de bonne maison, 1900.

McCarthy, J. W. and Constantin Caratheodory, Relation officielle de la maladie et de la mort du Sultan Mahmoud II, 1841. McCullagh, Francis, The Fall of Abdul Hamid, 1909.

Mears, Eliot Granville, Modern Turkey, 1924. Medlin, William K., Moscow and East Rome, Geneva, 1952.

Meienberger, Peter, Johann Rudolf Schmid zum Schwarzerhorn als Kaiserlicher Resident in Konstantinopel in den jahren 1629—164), Bern, 1973.

Melas, Achilles and Kostas Stamatopulos, Constantinopolis, Athens, 1990 (in Greek).

Melek Hanoum, Thirty Years in the Harem, 1872.

Melling, Antoine-Ignace, Voyage pittoresque de Constantinople et des rives du Bosphore, 1819.

Menemencioglu, Nermin, The Penguin Book of Turkish Verse, 1978.

Meredith-Owens, G. M., Turkish Miniatures, 1969. Merriman, R. B., Suleyman the Magnificent, Harvard, 1944.

Meryon, Dr, Travels of Lady Hester Stanhope, 3 vols., 1846.

Mihailovic, Konstantin, Memoirs of a fanissary, Ann Arbor, 197 5.

Miller, A. F., Mustafa Pacha Bairaktar, Bucharest, 1975.

Miller, Barnette, Beyond the Sublime Porte, New Haven, 193 1.

------- The Palace School of Mohammed the Conqueror, Cambridge, Mass., 1941.

Miller, William, Travel and Politics in the Near East, 1897.

Millman, Richard, Britain and the Eastern Question 1871-1878, Oxford, 1979.

Minault, Gai, The KhilafatMovement, New York, 1982.

Mismer, Charles, Souvenirs du monde mussulman, 1892.

Mider, Louis, Ottoman Turkish Writers, Washington, 1988.

Moltke, Marechal de, Lettres. . . sur l'Orient, 1877 edn.

Monconys, M., Journal des Voyages, 4 vols., Lyons, 1666.

Moorehead, Alan, Gallipoli, 1956.

Morand, Paul, Ouvert la nuit, 1987 edn.

Morier, James, A Journey through Persia, Armenia, Asia Minor, to Constantinople, in the Years 1808 and 1809, 1812.

Moseley, Philip E., Russian Diplomacy and the Opening of the Eastern Question 1838-1839, Harvard, 1934.

Mouradgea d'Ohsson, Ignatius, Tableau general de I'Empire Ottoman, 3 vols., 1787—1820. Mouy, Charles de, Lettres du Bosphore, 1879.

Muftyzade, K. Zia Bey, Speaking of the Turks, New York, 1922.

Muller, Mrs Max, Letters from Constantinople, 1897.

Myles, Henri, La Fin de Stamboul, 2nd edn., 1921.

Nadir, Aysegul (ed.), Imperial Ottoman Fermans, 1986.

Naff, Thomas and Roger Owen, Studies in Eighteenth-century Islamic History, Carbonsville, 1977.

Naima, Mustafa, Annals of the Turkish Empire, I, 1842.

Nalbandian, Louise, The Armenian Revolutionary Movement, Berkeley, 1963.

Nami Bey, Ali, Verite, justice, bonte, Istanbul, 1918.

National Palaces, Istanbul, 1987, 1992.

Navarian, A., Les Sultans poetes (1451—1808), 1936.

Necipoglu, Gulru, Architecture, Ceremonial and Power, the Topkapi Palace in the Fifteenth and Sixteenth Centuries, Cambridge, Mass., 1991.

Nesin, Aziz, Istanbul Boy, 3 vols., Austin, Texas, 1977—90.

Neuville, Pierre de, Gilbert Beaupre et ai, Images d'Empire, Istanbul, 1994.

Nicholas of Greece, Prince, My Fifty Years, 1929.

Nicol, Donald M., The Immortal Emperor, the Fife and Legend of Constantine Palaiologos, Last Emperor of the Romans, Cambridge, 1992.

------- The Last Centuries of Byzantium 1261—1453, 1993 edn.

Nicolaides, Jean, Folklore de Constantinople, 2 vols., 1894.

------- Contes licencieux de Constantinople et de l'Asie Mineure, 1906.

Nicolay, Nicolas de, Dans l'Empire de Soliman le Magnifique, 1989. Nicolson, Harold, Sweet Waters, 1928 edn. Nicolson, Nigel, Alex, 1973.

Nigar, Salih Keramet, Halife Ikinci Abdulmecid, 1964.

Nisbet, Mary of Dirleton, Countess of Elgin, Letters, 1926.

Noe, Michel, Pages d'Orient, 189 5.

North, Hon. Roger, Lives of the Norths, 3 vols., 1826.

Nubar Pacha, Memoires, ed. Mirrit Boutros-Ghali, Beirut, 1983.

Obolensky, Dimitri, The Byzantine Commonwealth, 1974 edn.

Ochsenwald, William, Religion, Society and the State in Arabia, Ohio, 1984.

Okday, Sefik, Der letzte Grossvezyr und seine Preussische Sohne, Gottingen—Zurich, 1991.

Okte, Ertughrul Zekai (ed.), Ottoman Archives. Yildiz Collection. The Armenian Question, 3 vols., Istanbul, 1989. Olson, Robert W., The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718—174), Bloomington, 1975.

------- The Emergence of Kurdish Nationalism and the Sheikh Said Rebellion, 1880—192), Austin, 1989.

Orbey, Raouf d', Les Amours dangereuses, Constantinople, 1874. Orga, Irfan, Portrait of a Turkish Family, 1988 edn.

Osborne, Hon. and Revd Sydney Godolphin, Scutari and its Hospitals, 1855.

Osmanoglu, Ayse, Avec Mon Pert le Sultan Abdulhamid de son palais a son prison, 1991.

Ostle, Robin (ed.), Modern Literature in the Near and Middle East 1850—1970, 1991.

Owen, Roger, The Middle East in the World Economy 1800—1914, 1981.

Ozdamar, Ali, Beyoglu in the Thirties through the Lens of Selahattin Giz, Istanbul, 1992.

Oztuna, Yilmaz, Devletler ve Hanedanlar, II, Turkiye (1074—1990), Ankara, 1990.

Palerne, Jean, Peregrinations, Lyons, 1606.

Paliouras, A. (ed.), The Oecumenical Patriarchate, Athens, 1989.

Palmer, Alan, The Decline and Fall of the Ottoman Empire, 1993 edn.

Pannayotopoulos, A. J., The Great Idea and the Vision of Eastern Federation,

Balkan Studies, XXI, 2, 1980, 331—65.

Panzac, Daniel, La Peste dans Empire Ottoman (1700—1850), Leuwen, 1985.

------- 'International and Domestic Maritime Trade in the Ottoman Empire during the Eighteenth Century', International journal of Middle Eastern Studies, May 1992, 189—206.

------- Les tulles dans l'Empire Ottoman: activite et societe, 1991.

Papadakis, A., 'Gennadius II and Mehmed the Conqueror', Byzantion, XLII, 1972, 88-106.

Papadopoulos, S. A. (ed.), The Greek Merchant Marine, Athens, 1972. Papadopoulos, Theodore H., Studies and Documents relating to the History of the Greek Church and People under Turkish Domination, Brussels, 1952.

Pardoe, Julia, The City of the Sultans and Domestic Manners of the Turks in 1836, 2 vols., 1837.

Park, George T., 'The Life and Writings of M. Fuad Koprulu', unpublished Ph.D. thesis, Johns Hopkins University, 1975. Pears, Sir Edwin, Forty Years in Constantinople, 1917.

Pedani, Maria Pia, In nome del Gran Signore: inviati ottomani a Venecia dalla caduta di Constantinopoli alia guerra di Candia, Venice, 1994.

Peirce, Leslie, The Imperial Harem: Gender and Power in the Ottoman Empire 1520—1657, unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1988.

------- The Imperial Harem: Women and Sovereignty in the Ottoman Empire, Oxford, 1993.

Penzer, N. M., The Harem, 1966 edn. Pernot, Maurice, La Question turque, 1925.

Pertusier, J. C, Promenadespittoresques dans Constantinople et surle Bosphore, 3 vols., 1815.

------- La Valachie, la Moldavie et de I 'influence politique des Grecs du Fanal, 1822.

Petrovich, Michael Boro, The Emergence of Russian Panslavism 1896—1870, New York, 1956.

Philippides, Andre, Hommes et idees du Sud-Est Europeen a l'aube de rage moderne, 1980.

Pickthall, Marmaduke, With the Turk in Wartime, 1914.

Pingaud, Leonce, Choiseul-Goujfier. la France en Orient sous Louis XVT, 1887.

Piton de Tournefort, M., A Voyage into the Levant Perform'd by Command of the Late French King, 2 vols., 1718.

Pococke, Richard, A Description of the East and some other Countries, 2 vols., 1745.

Ponafidine, Pierre, Life in the Muslim East, 1911.

Porter, David Constantinople and its environs in a series of letters, 2z vols., New York, 1835.

Porter, Sir James, Turkey, its History and People, 2 vols., 1854.

Porter, Roy, London: a Social History, 1994. Poynter, Mary A., When Turkey was Turkey, 1921.

Puaux, Rene, De Sofia a Tchataldja, 191 3.

------- Quataert, Donald, Social Disintegration and Popular Resistance in the Ottoman Empire 1881-1908, New York, 1983.

------- Ottoman Manufacturing in the Age of the Industrial Revolution, Cambridge, 1993.

------- Quella-Villeger, Alain, Istanbul le regard de Pierre Loti, 1992.

Raby, Julian, 'El Gran Turco: Mehmed the Conqueror as a Patron of the Arts of Christendom', unpublished D.Phil, thesis, Oxford, 1980.

Ragsdale, Hugh (ed.), Imperial Russian Foreign Policy, 1993.

Rambert, Louis, Notes et impressions de Turquie, 1926.

Ramsaur, jr., Ernest Edmondson, The Young Turks: Prelude to the Revolution of 1908, Princeton, 1957.

Ramsay, Allan and Francis McCullagh, Tales from Turkey, 1914.

Ramsay, Sir W. M., The Revolution in Constantinople and Turkey, 1909.

Rankin. , Lt-Col. Reginald, The Inner History of the Balkan War, 1914.

Raymomd, Andre, Le Cain, 1993.

Reed, Howard, The Destruction of the Janissaries by Mahmud II in June 1826', unpublished Ph.D. thesis, Princeton, 1951.

Reed, JT ohn, War in Eastern Europe, 1994 edn.

Repp, R. C, The Mufti of Istanbul- a Study in the Development of the Ottoman Learned Hier—archy, 1986.

Revue d'Histoire Diplomatique, 1991, issue on consuls and dragomans. Rich, I—Jorman, Why the Crimean War? A Cautionary Tale, 1985. Richards, G. R. B., Florentine Merchants in the Age of the Medici, Harvard, 1932.

Riondesl, H., Le Bienheureux Gomidas de Constantinople, pretre armenien et martyr, 1929.

Roche Max, Education, assistance et culture francaises dans IEmpire Ottoman, Istanbul, I985).

Rodinz, Michiel and Hans Theunissen (eds.), The Tulip, a Symbol of Two Nations, Utrucht—Istanbul, 1993.

Rodriggue, Aron (ed.), Ottoman and Turkish Jewry: Community and Leadership, Blozmington, 1992. Roe, zir Thomas, Negotiations in his Embassy to the Ottoman Porte from theyear 1621 to 1628,

Roget—s, J. M. (ed.), The Topkapi Saray Museum: Costumes, Embroideries and Other Textiles, 198. 6.

------- The Topkapi Saray Museum: the Treasury, 1987.

------- The Topkapi Saray Museum. Architecture: the Harem and Other Buildings, 1988.

------- and R. M. Ward, Suleyman the Magnificent, 1988.

Roider, Jr., Karl A., Austria's Eastern Question, Princeton, 1982.

Rolamb, Nils, 'A Relation of a Journey to Constantinople', in A. C. Churchill (ed.), A Collection of Voyages and Travels, 5 vols., 1732, V, 669-716. Rose, Norman, Churchill: an Unruly Life, 1995 edn.

Rosenthal, Steven T., The Politics of Dependency: Urban Reform in Istanbul, Westport, 1950.

Rossos, Andrew, Russia and the Balkans: Inter-Balkan Rivalries and Russian Foreign Policy, Tczronto, 1981.

Rothz, Cecil, The House of Nasi- the Duke of Naxos, Philadelphia, 5708/1948.

------- Dona Gracia Nasi, Paris, 1990.

Rottiers, Colonel, Itine raire de tiflis à Constantinople, Brussels, 1829.

------- Runtzriman, Steven, The Great Church in Captivity, 1968.

------- The Fall of Constantinople 14;}, 1988 edn.

Russell, W. H., The British Expedition to the Crimea, rev. edn. 1858.

------- A Diary in the East during the Tour of the Prince and Princess of Wales, 1869.

Rayan, Sir Andrew, The Last of the Dragomans, 1951.

Ry cant, Paul, The Present State of the Ottoman Empire, 1675.

------- The History of the Turks beginning with the year 1679, 3 vols., 1687.

Saab , Hassan, The Arab Federalists of the Ottoman Empire, Amsterdam, 1958.

Sa'd—ud-din, Khoja, The Capture of Constantinople, tr. E. J. W. Gibb, Glasgow, 1879.

Safavdi, Yasin Hamadi, Islamic Calligraphy, 1987 edn.

Saint Clair, William, Lord Elgin and the Marbles, 198 3 edn.

Saint-Priest, Comte de, Memoires sur l'ambassade de France en Turquie et sur le commerce des Francais dans le Levant, 1877.

Sanderson, John, Travels in the Levant 1584—1602, 1931.

Sarkisian, A. O., History of the Armenian Question to 1881, Urbana, 1938.

Scalieri, Cleanthe, Appel a la justice des Grandes Puissances, Athens, 1881.

Schefer, Charles (ed.),Le Voyage de Monsieur Chesneau d'Aramon, ambassadeurpour le Roy au Levant, 1887.

Schimmel, Annemarie, Calligraphy and Islamic Culture, New York, 1984.

Schmidt, Jan, Through the Legation Window 1871—1026, Istanbul, 1992.

------- 'Sunbulzade Vehbi's Sevk-Engiz, an Ottoman Pornographic Poem', Turcica, XXV, 1993, 9-37-Scholem, Gershom, Sabbatai Sevi: the Mystical Messiah, 1971

Schreiner, George A., From Berlin to Baghdad, New York, 1918.

Schwoebel, Robert, The Shadow of the Crescent, the Renaissance Image of the Turk 1453—1517), New York, 1967.

Senior, Nassau W., A Journal kept in Turkey and Greece, 1859.

Sepiha, Haim Vidal, L'Agonie des Judeo-Espagnols, 2nd edn., 1979

Sestini, Domenico, Lettres. . . pendant le cours de ses voyages en Italie, en Sicilie et en Turquie, 1789.

Seton-Watson, R. W'., A History of the Roumanians, 1934.

------- Britain in Europe 1780-1014, Cambridge, 1937.

Setton, Kenneth M., Venice, Austria and the Turks in the Seventeenth Century, Philadephia, 1991.

Shaw, Stanford, J., Between Old and New: the Ottoman Empire under Sultan Selim III 1780-1807, Harvard, 1971.

------- A History of the Ottoman Empire and Modern Turkey, 2 vols., 1976—8.

------- The Jews of the Ottoman Empire and the Turkish Republic, 1991.

Shay, Mary Lucille, The Ottoman Empire from 1720 to 1744 as revealed in Despatches of Venetian Baili, Urbana, 1944.

Sherrard, Philip, Constantinople: Iconography of a Sacred City, 1965.

Shmuelevitz, Aryeh, The Jews of the Ottoman Empire in the late Fifteenth and the Sixteenth Centuries, Leiden, 1984.

Shukla, Ram Lakhan, Britain, India and the Turkish Empire 1853—1882, New Delhi, 1973.

Shurrock, William I., French Imperialism in the Middle East, Madison, 1976.

Simsir, Bilal N, Dis Basinda Ataturk ve Turk Devrimi, cilt I, Ankara, 1981.

Sitwell, Sacheverell, Far from my Home: Stories Long and Short, 1931.

Skendi, Stavro, The Albanian National Awakening 1878—1912, Princeton, 1967.

Skilliter, Susan, Life in Istanbul 1/88: Scenes from a Traveller's Picture Book, Oxford, 1977.

------- William Harbome and the Trade with Turkey 1/78—1/82, Oxford, 1977.

Slade, Adolphus, Turkey, Greece and Malta, 2 vols., 1837.

------- Turkey and the Crimean War, 1867.

Smith, Albert, A Month at Constantinople, 1850.

Snouck Hurgronje, C, Mekka in the latter part of the Nineteenth Century, Leiden—London, 1931.

Sonyel, Salahi R., Minorities and the Destruction of the Ottoman Empire, Ankara, 1993.

Soutzo, Prince Nicolas, Memoires, Vienna, 1896.

Sperco, Willy, Istanbul indiscret, Istanbul, n.d.

------- L 'Orient qui s'éteint, 1936.

------- Mustafa Kemal Ataturk, 1958.

Sphrantzes, George, The Fall of the Byzantine Empire: a Chronicle, ed. and tr. Marios Philippides, Amherst, 1980.

Stchoukine, Ivan, La Peinture turque d'apres les manuscrits illustres, 2 vols., 1966—76.

Stitt, George, A Prince of Arabia: the Emir Shereef Ali Haidar, 1948.

Stoianovic, Troian, The Conquering Balkan Orthodox Merchant', Journal of Economic History, i960, 234—313.

Stone, Norman and Michael Glenny, The Other Russia, 1991 edn.

Stourdza, A. C, L'Europe orientate et le role historique des Maurocordato 1660-1830, 1913.

Strachan, Michael, Sir Thomas Roe, 1989.

Studia Turcologica Memoriae Alexis Bombacii Dicata, Naples, 1982.

Sturdza, Michel, Grandes Families de Grece, d'Albanie et de Constantinople, 1983.

Sugar, Peter F., Southeastern Europe under Ottoman Rule 1)14-1804, Seattle, 1977.

Sumner, B. H., Russia and the Balkans 1870-1880, 1937.

Sumner-Boyd, Hilary and John Freely, Strolling through Istanbul, 2nd edn., Istanbul,

Svenson, Glen, The Military Rising in Istanbul, Journal of Contemporary History, V, 1970, 17.

Synvet, A., Les Grecs de I'Empire Ottoman: etude statistique et ethnique, Constantinople, 1878.

Tahsin Pasha, Yildiz Hatiralari, 1990 edn.

Tavernier, J. B., Nouvelle Relation de Finterieur du Serail du Grand Seigneur, 1675.

Temple, Bt., Major-General Sir Grenville, Travels in Greece and Turkey, 2 vols., 1836. Tenenti, Alberto, Piracy and the Decline of Venice 1967.

Thalasso, A. et F. Zonaro, Deri Se'adet ou Stamboul, porte du bonheur, 1908.

Theotokas, G., Leonis, enfantgrec de Constantinople, 1985.

Thevenot, M. de, Travels into the Levant, 3 parts, 1687.

Thomas, Lewis V., A Study of Naima, New York, 1972.

Thouvenel, L., Trois Annies de la Question d'Orient 18/6-18/9, 1897.

Thuasne, L., Gentile Bellini et Sultan Mohammed II, 1888.

Tietze, Andreas (ed.), Mustafa Ali's Counsel for Sultans of 1581, 2 vols., Vienna, 1979-82.

Tinayre, Marcelle, Notes d'une voyageuse en Turquie, 1909.

Titley, Norah and Frances Wood, Oriental Gardens, 1991.

Toderini, Abbe, De la Litterature des Turcs, 3 vols., 1789.

Toledano, Ehud R., The Ottoman Slave Trade and its Suppression 1840-1890, Princeton, 1982.

Tongas, Gerard, Les Relations de la France avec I'Empire Ottoman durant la premiere moitie du XVIIe siécle, Toulouse, 1942.

Toros, Taha, Turco-Polish Relations in History, Istanbul, 1983.

------- The First Lady Artists of Turkey, Istanbul, 1988.

Tott, Baron de, Memoirs concerning the State of the Turkish Empire and the Crimea, 4 parts, 1786.

Trubetskoy, Professor Prince Eugene Nicolayevich, Saint Sophia, Russia's Hope and Calling, 1916.

Trumpener, Ulrich, Germany and the Ottoman Empire 1914-1918, 1968.

Tsourkas, Cléobule, Les Débuts de l'enseignement phihsophique et de la libre pensée dans les Balkans: la vie et l'æuvre de Théophile Corydalée (1570-1646), hessaloniki, 1967. Tuglaci, Pars (all works published in Istanbul):

------- Women of Istanbul in Ottoman Times, 1984.

------- The Ottoman Palace Women, 1985.

------- Turkish Bands of Past and Present, 1986.

------- The Role of the Balian Family in Ottoman Architecture, 1990.

------- Armenian Churches of Istanbul, 1991.

------- The Role of the Dadian Family in Ottoman Social, Economic and Political Life, 1993.

Tuncay, Mete and Erik J. Zurcher, Socialism and Nationalism in the Ottoman Empire 1876-192), 1994.

Turner, C. J. G. The Career of George-Gennadius Scholarius', Byzantion, XXXIX, 1969, 420-55.

Turner, William, fournal of a Tour in the Levant, 3 vols., 1820.

Tursun Beg, History of Mehmed the Conqueror, ed. Halil Inalcik and Rhoads Murphy, Minneapolis and Chicago, 1978.

Ubicini, M. A., Letters on Turkey, 2 vols., 1856.

Ulker, Muammer, The Art of Turkish Calligraphy from the Beginning up to the Present, Ankara, 1987.

Ulucay, M. Cagatay, Sultanlarina Açk Mektuplari, 1950.

------- Harem II, Ankara, 1971.

------- Padishahlarin Kadinlari ve Kizlari, 1992.

Un Jeune Russe [H. C. R. von Struve], Voyage en Crimee, suivi de la relation de Fambas-sade envoyee de Petersbourg a Constantinople en 1/9), 1802.

Unsal, Artun and Beyhan, Istanbul la magnifique: propos de table et recettes, 1991.

Upward, Allen, The East End of Europe, 1908.

Vacalopoulos, Apostolos E., Origins of the Greek Nation: the Byzantine Period 1204-1461, New Brunswick, 1970.

------- The Greek Nation 1953—1669, New Brunswick, 1976.

Vaka, Demetra, The Unveiled Ladies of Stamboul, Boston, 1923.

Valensi, Lucette, Venise et la Sublime Porte, 1987.

Vandal, Albert, Les Voyages du Marquis de Nointel, 1900.

------- Une Ambassade francaise en Orient sous Louis XV: la mission du Marquis de Villeneuve 1728—1741, 1887.

Van der Dat, Dan, The Ship that Changed the World: the Escape of the 'Goeben' to the Dardanelles in 1914, 1986 edn.

Vaner, Semih (ed.), Istanbul, 1991.

Varol, Marie-Christine, Balat, faubourg juif d'Istanbul, Istanbul, 1989.

Vassif Efendi, Precis historique de la guerre des Turcs centre les Russes, ed. P. A. Caussin de Perceval, 1822.

Vaughan, Dorothy M., Europe and the Turk: a Pattern of Alliances 1350—1700, Liverpool, 1951.

Veinstein, Gilles (ed.), Salonique 1850-1918: l «ville des Juifs» et le re'veil des Balkans, 1992.

------- Soliman le Magnifique et son temps, 1992.

Vryonis, Speros, The Byzantine Legacy and Ottoman Forms', Dumbarton Oaks Papers, XXIII-XXTV, 1969-70, 253-318. Walder, David, The Chanak Affair, 1969.

Walker, Christopher J., Armenia: the Survival of a Nation, 1991 edn.

Walsh, Robent, A Residence at Constantinople, 2 vols., 1856.

Wanda, Souvenir anecdotiques sur la Turquie 1820—1870, 1884.

Washburn, George, Fifty Years in Constantinople, Boston and New York, 1909.

Waterfield, Gordon, Layard of Nineveh, 1963.

Watkins, Thciomas, Tour through Swisserland. to Constantinople, 2 vols., 1792.

Waugh, Sir Telford, Turkey Yesterday, Today and Tomorrow, 1930.

White, Charles, Three Years in Constantinople, 3 vols., 1845.

Wilkinson, "William, An Account of the Principalities of Wallachia and Moldavia, 1820.

Wilson, Epiphanius, Turkish Literature, 1901.

Wilson, Mary C, King Abdullah, Britain and the Making of Jordan, Cambridge, 1987.

Wittek, Patal, "Notes sur la tughra ottomane', Byzantion, XVIII, 1948, 311—34.

Wittman, Wlliam, Travels in Turkey, Asia Minor, Syria and across the Desert to Egypt in the years 1799z 1800 and 1S01, 1803.

Wolff, Sir Henry Drummond, Rambling Recollections, 2 vols., 1908. Wood, AlFled C, The English Embassy in Constantinople', English Historical Review, XL, 1925, 533.

------- A History of the Levant Company, 1935.

Woods, Sir Henry F., Spun- Yam from the Strands of a Sailor's Life, 2 vols., 1924.

Wortley Montagu, Lady Mary, The Turkish Embassy Letters, ed. Malcolm Jack, 1994.

Wrangel, a Alexis, General Wrangel, Russia's White Crusader, 1990.

Wrangel, General P. N., Memoirs, 1929.

Wratislaw, Baron Wenceslas, Adventures, ed. A. H. Wratislaw, 1862.

Wright, H. C. Seppings, Two Years under the Crescent, 1985 edn.

Yerasimos, Stéphane, La Fondation de Constantinople et de Sainte-Sophie dans les traditions turques, 1 990.

------- (ed.), Istanbul (1914—1923): capitale d'un monde illusoire ou l'agonie des vieux empires, 1992.

Yiannias, John, The Byzantine Tradition after the Fall of Constantinople, 1991.

Ypsilanti, Prince Nicholas, Memoires, n.d.

Zarcone, Thiearry, Mystiques, philosophes et franc-maçons en Islam, 1993.

Zeine, M., zArab-Turkish Relations and the Emergence of Arab Nationalism, Beirut, 1958.

Zeman, Z. A. B. and W. B. Scharlau, The Merchant of Revolution, 1965.

Zurcher, Erik J., The Unionist Factor: the Role of the Committee of Union and Progress in the Turkish Vational Movement 1905—1926, Leiden, 1984.

------- Political Opposition in the Early Turkish Republic: the Progressive Republican Party, Leiden, T99i.

------- Turkey: a Modern History, 1993.

المؤلف في سطور

فيليب مانسيل

- مؤرخ البلاطات والعائلات الحاكمة.
- مـن أهم أعماله «بلاط فرنسا 1789 - 1830»، وتاريخ «باريس بين الإمبراطوريات 1814 - 1852»، وحياة الأمير دي لاين (أمير أوروبا).
- يقـدم آخر أعماله «المشرق - ازدهار مدن البحر الأبيض المتوسـط وانهيارها» تاريخا لثلاث مدن عثمانية: سميرنا والإسكندرية وبيروت.
- زميل «الجمعية التاريخية الملكيـة» ومعهد البحوث التاريخية، ومحرر مجلة «مؤرخ البلاط»، يكتب في مجالات وصحف كثيرة مثل «فايننشـال تايمز» Financial Times و«إنترناشـونال هيرالد تريبيـون» International Herald Tribune و«ملحق تايمز الأدبي» Times Literary Supplement و«سبكتاتور» Spectator.

المترجم في سطور

الدكتور مصطفى محمد قاسم

- مترجم مصري.
- حاصل على جائزة خادم الحرمين الشريفين العالمية للترجمة في دورتها السابعة 2014 في فرع العلوم الإنسـانية من اللغات الأخرى إلى العربية عن كتابه «مأسـاة سياسـة القوى العظمى».
- من أهم أعماله المترجمة: «مقدمة إلى ريادة الأعمال» (مركز الترجمة في وزارة التعليم العالي السـعودية، تحت النشر)، «الدين والدم: إبادة شعب الأندلس» (هيئة أبوظبي للسـياحة والتراث - مشروع كلمـة، 2013)، «الحياة اليومية في مصر القديمة» (المركز القومي للترجمة - مصر، 2013)، «مأسـاة سياسـة القوى العظمـى» (مركز الترجمة بجامعة الملك سـعود، 2012)، «مولد الوفرة - كيف تشـكل رخاء العالم الحديث؟»

(مركــز الترجمة بجامعة الملك سـعود، 2012)، «التقنية والثقافة في العصور القديمة» (هيئـة أبوظبي للثقافـة والتراث - مشروع كلمة، 2011)، «الاقتصاد السـياسي لمصر: دور علاقـات القـوة في التنمية» (المركز القومي للترجمة، مـصر، 2010)، «الفرض في التربية الليبرالية الجديدة» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الأطفال واللعب» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «العلاقات الحضارية المسـيحية الإسلامية بين احتمالات التعاون والـصراع» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «صعود الصين» (المركز القومي للترجمة، مصر، 2010)، «الإعاقة العقلية: الماضي والحاضر والمستقبل» (دار الفكـر للنـشر والتوزيـع، الأردن، 2010)، «مقدمة إلى التطـور اللغوي»، (دار الفكر للنشر والتوزيع، الأردن، 2010)، «التاريخ الاجتماعي للوسـائط من غتنبرغ إلى الإنترنت» (سلسـلة عالم المعرفـة، العدد 315، مايو 2005، المجلـس الوطني للثقافة والفنون والآداب، دولة الكويت).

سلسلة عالم المعرفة

«عالم المعرفة» سلسلة كتب ثقافية تصدر في مطلع كل شهر ميلادي عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب - دولة الكويت - وقد صدر العدد الأول منها في شهر يناير العام 1978.

تهدف هذه السلسلة إلى تزويد القارئ بمادة جيدة من الثقافة تغطي جميع فروع المعرفة، وكذلك ربطه بأحدث التيارات الفكرية والثقافية المعاصرة. ومن الموضوعات التي تعالجها تأليفا وترجمة:

1 - الدراسات الإنسانية: تاريخ - فلسفة - أدب الرحلات - الدراسات الحضارية - تاريخ الأفكار.

2 - العلوم الاجتماعية: اجتماع - اقتصاد - سياسة - علم نفس - جغرافيا - تخطيط - دراسات استراتيجية - مستقبليات.

3 - الدراسات الأدبية واللغوية: الأدب العربي - الآداب العالمية - علم اللغة.

4 - الدراسات الفنية: علم الجمال وفلسفة الفن - المسرح - الموسيقى - الفنون التشكيلية والفنون الشعبية.

5 - الدراسات العلمية: تاريخ العلم وفلسفته، تبسيط العلوم الطبيعية (فيزياء، كيمياء، علم الحياة، فلك) - الرياضيات التطبيقية (مع الاهتمام بالجوانب الإنسانية لهذه العلوم)، والدراسات التكنولوجية.

أما بالنسبة إلى نشر الأعمال الإبداعية - المترجمة أو المؤلفة - من شعر وقصة ومسرحية، وكذلك الأعمال المتعلقة بشخصية واحدة بعينها فهذا أمر غير وارد في الوقت الحالي.

وتحرص سلسلة «عالم المعرفة» على أن تكون الأعمال المترجمة حديثة النشر.

وترحب السلسلة باقتراحات التأليف والترجمة المقدمة من المتخصصين، على ألا يزيد حجمها على 350 صفحة من القطع المتوسط، وأن تكون مصحوبة بنبذة وافية عن الكتاب وموضوعاته وأهميته ومدى جدته. وفي حالة الترجمة ترسل نسخة

مصورة من الكتاب بلغته الأصلية، كما ترفق مذكرة بالفكرة العامة للكتاب، وكذلك يجب أن تدوّن أرقام صفحات الكتاب الأصلي المقابلة للنص المترجم على جانب الصفحة المترجمة، والسلسلة لا يمكنها النظر في أي ترجمة ما لم تكن مستوفية لهذا الشرط. والمجلس غير ملزم بإعادة المخطوطات والكتب الأجنبية في حالة الاعتذار عن عدم نشرها. وفي جميع الحالات ينبغي إرفاق سيرة ذاتية لمقترح الكتاب تتضمن البيانات الرئيسية عن نشاطه العلمي السابق.

وفي حال الموافقة والتعاقد على الموضوع ـ المؤلف أو المترجم ـ تصرف مكافأة للمؤلف مقدارها ألف وخمسمائة دينار كويتي، وللمترجم مكافأة بمعدل عشرين فلسا عن الكلمة الواحدة في النص الأجنبي، أو ألف ومائتي دينار أيهما أكثر (وبحد أقصى مقداره ألف وستمائة دينار كويتي)، بالإضافة إلى مائة وخمسين دينارا كويتيا مقابل تقديم المخطوطة ـ المؤلفة والمترجمة ـ من نسختين مطبوعتين.

وكلاء التوزيع

الدولة	وكيل التوزيع الحالي	العنوان	تليفون	فاكس
الكويت	المجموعة الإعلامية العالمية	الشويخ - الحرة - قسيمة 34 - الكويت - الشويخ - ص.ب 64185 - الرمز البريدي 70452	24826820/1/2 24613872 /3	24826823
الإمارات	شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع	Emirates Printing, Publishing & Distribution Company Dubi Media City/ Dubai UAE P.O Box: 60499	+971 242629273	+971 42660337
السعودية	الشركة السعودية للتوزيع	المملكة العربية السعودية - الرياض - حي المؤتمرات - طريق مكة المكرمة - ص.ب 62116، الرمز البريدي 11585	+966 (01) 2128000	+966 (01) 2121766
سورية	المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات	سورية - دمشق - البرامكة	+963 112127797	+963 112128664
مصر	مؤسسة دار أخبار اليوم	جمهورية مصر العربية - القاهرة - 6 شارع الصحافة - ص.ب 372	+202 25782700-25782632	+202 25782632
المغرب	الشركة العربية الأفريقية للتوزيع والنشر	المغرب - الرباط - ص.ب 13683 - زنقه سجلماسه - بلفدير - ص.ب 13008	+212 522249200	+ 212 522249214
تونس	الشركة التونسية للصحافة	تونس - ص.ب 719 - 3 نهج المغرب - تونس 1000	+216 71322499	+216 71323004
لبنان	مؤسسة نعنوع الصحفية للتوزيع	لبنان - بيروت - خندق الغميق - شارع سعد - بناية فواز	+961 1666314/5 01 653259	+ 961 1653260
اليمن	القائد للنشر والتوزيع	الجمهورية اليمنية - صنعاء	+967 2/3201901	+ 967 1240883
الأردن	وكالة التوزيع الأردنية	عمان - تلال العلي - بجانب مؤسسة الضمان الاجتماعي	+962 65300170 - 65358855	+ 962 65337733
البحرين	مؤسسة الأيام للنشر	-----	+973 17 617733	-----
سلطنة عُمان	مؤسسة العطاء للتوزيع	ص.ب 473 - مسقط - الرمز البريدي 130 - العذيبة - سلطنة عُمان	+968 24492936	+24493200968
قطر	دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع	قطر - الدوحة - ص.ب 3488	+974 4557809/10/11	+ 974 44557819
فلسطين	شركة رام الله للنشر والتوزيع	رام الله - عين مصباح - ص.ب 1314	+970 22980800	+ 970 22964133
السودان	دار الريان للثقافة والنشر والتوزيع	السودان - الخرطوم - الرياض - ش المشتل - العقار رقم 52 - مربع 11	+2491 83242702	+ 2491 83242703
الجزائر	شركة بوقادوم للنقل وتوزيع الصحافة	Cite des preres FARAD.lot N09. Constantine. Algeria	+213 (0) 31909590	+ 213 (0) 31909328
العراق	شركة الظلال للنشر والتوزيع	-----	+964 700776512 +964 780662019	-----
نيويورك	Media Marketing	Long Island City, NY 11101 - 3258	+ 1718 4725488	+1718 4725493
لندن	Universal Press	Universal Press & Marketing Limitd	+ 44 2087499828 + 44208 7423344	+44208 7493904
ليبيا	شركة الناشر الليبي	-----	+218 217297779	-----

هذا الكتاب...

ما بين «الفاتح» محمد الذي دخل القسطنطينية في العام 1543 مظفرا على حصان أبيض، و«المنفي» عبدالمجيد الذي خرج منها في العام 1924 مطرودا في قطار الشرق السريع، يحكي هذا الكتاب قصة عشق سلالة حاكمة لمدينة حوَّلتهم من أمراء إمارة مجهولة إلى أباطرة لواحدة من أقوى إمبراطوريات العالم الحديث المبكر والحديث، وأطولها عمرا وأكثرها حضورا على مشهد الأحداث العالمية. يغطي الكتاب القرون الخمسة للعاصمة العثمانية القسطنطينية، بالغوص تحت السطح الإمبراطوري الكوزموبوليتاني للمدينة التي كانت في الوقت عينه عاصمة إمبريالية ومدينة مقدسة ومركزا تجاريا وجنة للمتعة. يبرز المؤلف الطابع الكوزموبوليتاني الفريد - في زمانه - للمدينة، الذي جعل منها - في آن معا - ملتقى وساحة حرب لكل السائرين على أرضها، وذلك بالدرجة الأولى لكونها منذ نشأتها «المدينة التي يشتهيها العالم». يرسم مؤرخ البلاطات فيليب مانسيل صورة حية لمدينة عالمية، وسلالتها الحاكمة، وعائلاتها الكبرى على اختلاف أديانها وقومياتها، والسفارات والكوناكات والياليات التي خدر ساكنوها بسحر أمواج البسفور وأذان الصلاة. يبرز مانسيل مراوحة السلالة الحاكمة بين الرقة والوحشية، وتنازع المدينة بين رائحة الدم وعبق الزنبق، في كتاب يعد من أفضل ما كُتب حول القسطنطينية وسلالتها الحاكمة. وفي «تاريخ إنساني» ممتع يتتبع مانسيل المدينة وأهلها المتنوعين منذ فتحها واتخاذها عاصمة، حتى تبديد تنوعها ونقل العاصمة منها، ويزيد على ذلك تتبع المشتتين من العاصمة «التي ماتت» إلى أماكن شتاتهم في تأريخ ساحر لمدينة كوزموبوليتانية وأهلها من أوج القوة إلى غربة الشتات.

ISBN 978 - 99906 - 0 - 459 - 7
رقم الإيداع (2015/465)